

التراث والعلوم الإسلامية لكل الشعب

التفسير الديني للتاريخ

الجزء الأول

• • التاريخ هو طريق الإنسانية إلى الله .

• • تفسير التاريخ الإنسانى .

محمود الشرقاوى

بسم الله الرحمن الرحيم

« اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ . خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ . اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ . الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ . عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَالَمْ يَعْلَمْ »

صدق الله العظيم

مقدمة

التاريخ ذاكرة الماضى ، فمعرفته كمعرفة المستقبل ، تتطلب إيحاء ، وشفافية روحية ، خاصة إذا كان هذا الماضى سجيناً تحت أنقاض التراب والحجارة ، وإذا كانت ملامحه لا تستنطق إلا فى أثر أصم ، أو حرف مجهول ...

وعندما تجرى الكلام عن التاريخ لا نحسب بالأيام ولكن بعدد الأجيال ، عندما نحسب بالأجيال نقترب من كل شىء ، ستة آلاف سنة لا تزيد عن ثلثمائة جيل . وستة آلاف سنة تعنى ما قبل التاريخ : الأمور تتغير قليلا فى عشرين سنة . ولكن إذا ضربنا العشرين فى ثلثمائة عدنا إلى ما قبل التاريخ ، لقد كان التقدم هائلا . وسيظل الإنسان يتقدم ، نحن ما زلنا بعد فى شباب الإنسانية الباكر[1] .

إن حياة الإنسان حياة تطورية حركية تنمو نحو التقدم والرقى ، والفرق بين الإنسان البدائى والإنسان المتحضر إنما يكمن فى سلوكه ، فى أسلوبه فى الحياة ، فى منهجه فى التفكير أى أن هذا الفرق إنما يتمثل فى تطور عقليته .

فى الإنسان غرائز كما فى الحيوان غرائز ، وقد تكون غرائز بعض الحيوان كالنمل والنحل مثلا أرقى منها فى الإنسان ، ولكن الغرائز فى الإنسان ما هى إلا وتر واحد فى آلة موسيقية ضخمة معقدة أو كما يقول ا . كريسى موريسون : « الغريزة ليست إلا كنغمة واحدة من الناى ، نغمة جميلة ولكنها محدودة ، بينما العقل البشرى يحتوى كل الأنغام التى لكل الآلات الموسيقية فى أوركسترا ، والإنسان يمكنه أن يوفق بين تلك الأنغام جميعها ، وأن يقدم للعالم قطعاً موسيقية متحدة النغم (سمفونيات) تدنو من الإعجاز ، وإلى أن خلق الإنسان ، لم تخرج العناية الإلهية كائناً حياً من بين الصخور الفطرية ، وله عقل مرن كعقل الإنسان »[2] .

وكان وجود الأديان ضرورياً للحيلولة دون تردى البشرية فى هوة الانحلال والمضى بالمجتمع الإنسانى نحو حياة أفضل .

---

(١) ميشيل روزيه : حياة جروليو كورى ، ترجمة فؤاد حداد ص ٧٠ .

(٢) A. Cressy Morrison : Man Daes — Nat Stand Alone, P - 60

وقد انتشرت المسيحية لأنها تحمل مشاعل التطور ، وتسير تحت لواء التحرك إلى أمام ويرجع « ول ديورانت » ظهور المسيحية إلى شيوع الظلم والفقر ، وأن الأغلبية من الطبقة المحرومة المغلوبة على أمرها كانت مستعدة لتقبل دين يقف إلى جانب الضعيف(١) .

أما الإسلام فقد كان دين البساطة وفى الوقت نفسه دين التوحيد ، وفوق ذلك كله فهو للناس كافة أى أنه دين مفتوح للجميع ومن أجل الجميع ، لأنه يستهدف إنهاض الإنسان وازدهار الحياة ...

والخلق الدينى أقوى العوامل الفعالة فى حياة الأمم وتطورها ، وأشد الروابط التى تجمع ما بين أفراد الشعوب المختلفة العناصر والمواطن : فالحوادث الدينية أعظم حوادث التاريخ وأجل أعمال الأمم ما جاء فى عصر تدينها وما من مؤثر ذى سلطان على النفوس كالدين لأن فيه السعادة المثلى التى تصبو إليها النفوس البشرية وتسكن طبيعة الإنسان الميالة إلى البقاء الواجفة من الفناء المفادية بالعرض فى طلب الجوهر : فهو خير عامل تتوحد به مشاعر الأمة ومنافعها وأفكارها . وسيظل الدين حياً لا يفنى : قال الفيلسوف الفرنسى « أرنست رينان » فى كتابه « تاريخ الأديان » :

« من الممكن أن يضمحل ويتلاشى كل شىء نحبه وكل شىء نعده من ملاذ الحياة ونعيمها ، ومن الممكن أن تبطل حرية استعمال القوة العقلية والعلم والصناعة ، ولكن يستحيل أن ينمحى التدين أو يتلاشى ، بل سيبقى أبد الآبدين حجة ناطقة على بطلان المذهب المادى الذى يود أن يحصر الفكر الإنسانى فى المضائق الدنيئة للحياة الطينية » .

إن الأخلاق الدينية تضعف وتقوى وتموت وتحيا وحسب تطورها هذا تتطور حال الأمة التى قامت عليها وتكونت بها : والأمم التى يسود فيها الخلق الدينى أمنع الأمم وأشدها بأساً وقوة وتحملا للمشاق وصبراً على المكاره وتضحية بالنفس والنفيس . ولم يذكر التاريخ أمة تسامى فيها الخلق الدينى غلبت على مبدئها اللهم إلا إذا كان الغالب أسمى منها اعتقاداً وأمتن إيماناً .

والأمم التى يسود فيها الخلق الدينى تسير فى منهجها الاجتماعى إما إلى أسمى منازل الرقى أو إلى أدنى درجات الانحطاط المدنى وفقاً لمرمى تعاليمها الدينية ولكنها تحتفظ بكيانها وحياتها .

وفى تاريخ العرب فى الجاهلية وفى صدر الإسلام وبعده أجلى مثال لتطور الخلق الدينى :

فى الأمم وتطورها بحسبه . فالعرب فى الجاهلية لم يكونوا أقل منهم فى صدر الإسلام أخلاقاً . فقد كانوا على جانب عظيم من الكرم والإباء والشجاعة والفروسية والنجدة والوفاء بيد أنهم لم يكونوا أمة ذات كيان اجتماعى إنما كانوا قبائل وشعوبا لا حضارة لهم تذكر ولا مدنية تخلد ولا يعبأ بهم الجار ، ولا يرعى لهم جوارا وذلك لفقد رابطة تجمعهم وخلق عام يوحدهم . فلما جاء الإسلام بدعوته وألف ما بين قلوبهم بحكمته وصار لهم خلقاً تلاشت فيه نفوسهم وانقادت لسلطانه مشاعرهم ، تدفقوا ولا السيل فى طغيانه من أقصى صحارى البداوة إلى أسمى أنحاء العالم المتمدن فجرفوا عروش الأكاسرة ، ونكسوا تيجان القياصرة ، ورووا غليل الأرض عدلا وكرماً فأنبتت من الحضارة أكملها ومن المدنية

(١) ول ديورانت : مباهج الفلسفة ، ترجمة الدكتور أحمد الأهوانى ، ج ٢ ، ص ٢٣٧ .

أحملها ، ثم لما تغيرت الحال ، وتمردت النفوس على سلطان الإيمان ، واستولت المشاعر على الدين فأصبح خليقة لا خلقاً ونسبة لا نسبا ، وعلماً لا عملا ، تغيرت الأرض غير الأرض ، وتبدل العرب غير العرب فباتوا لا سحايا جاهلية تجمعهم ولا أخلاق إسلامية تنهض بهم فحق القول عليهم : « وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون » .

إن العرب لولا الإسلام لما كانوا أمة تعرف ، وإن العربية لولا القرآن لما استطاعت أن تنتشر فى سائر الممالك الإسلامية المختلفة اللغات ، ولولا كتاب تركه الإسلام حرزاً واقياً على صدورهم لاندمجوا بغيرهم من الأمم الحاكمة من عهد بعيد ، ولباتت العربية طلسمات لا تحل رموزها مصير الأمم الغابرة واللغات المتينة .

أما العوامل التى قذفت بالعرب إلى أقصى درجات الضعف فمتعددة أهمها ضعف الخلق الدينى القويم فى نفوسهم[1] .

وإذا أراد العرب استعادة مجدهم ، فعليهم التمسك بدينهم الحق .

يزعم بعض الناس[2] أن الثقافة الأوربية وحدها تصلح لأن تكون لفكرنا مصدر نوره ، ومثل هؤلاء الناس فى زعمهم مثل من يزعم أن انبثاق الفجر متعلق بنجم ما يكون شمساً فى فلك انبثاق الفجر فى فلك آخر : إن النجم يستطيع أن ينفعنا بشعاع ولكنه لا يبعث النهار ، يستطيع أن يهدينا فى رحلة استكشاف ، ولكنه لا يكشف لأعيننا عن آفاق الحقيقة وعلى ذلك فإن لغة أجنبية مع بدائعها الموثقة بتاريخ أقطارها إنما تحول دون ارتقاء الثقافة وتهدم الحكم الشخصى ، وتفتك باستقلال التعبير ، إذا هى نقلت إلى أرض أجنبية لها تاريخها ورقيها .

وليس غرضى أن أنبذ العلم الحديث الذى يأتينا من ناحية الغرب ، بل علينا أن نقتبسه شاكرين ، مخافة أن نركض وراءه فى المستقبل فنقصر دون سيره ، وإنما الذى أثور عليه هو ذلك النظام المفتعل الذى يدفع الثقافة الأجنبية إلى غزو فكرنا القومى ، فيمنعه ابتداع وجهة جديدة بتنسيق للحقائق مستحدث فعلينا أن نعزز جميع عناصر ثقافتنا الخاصة ، وأما الثقافة الغربية فلا نقاومها بل نتلقاها ونشربها ونسوى منها غذاء نافعاً بدل أن يكون وزراً ثقيلا .

ويرى طاغور أن حضارة الغرب تنهض على أساس متناقض على أساس الخصومة بين الإنسان والطبيعة . فالغربى يشعر دوماً بضرورة التسلط على الطبيعة واستثمارها فى أقصى الحدود . لذا لا يدرك منها إلا وجهها المادى ، وهو إلى ذلك يحس بعزلة الحياة ويغيب الوجه الروحانى من الحضارة فيهددها بالزوال .

---

(١) الدكتور أسعد الحكيم : المبادىء أو الأخلاق العامة فى تكوين وتطور الأمم — محاضرات المجمع العلمى العربى بدمشق — الجزء الثالث .

(٢) الدكتور جميل جبر : طاغور ، ص ٣٦ .

أما الإنسان الأمثل ، فهو من جمع بين الثقافتين والحضارتين معاً واختار منها أصفى الخلاصة ، فكان له من الشرق سموه الروحى ومن الغرب اختباره العلمى . وهل الثقافات بعد على تباينها إلا مظاهر شتى لحقيقة واحدة ؟ ويؤكد طاغور أن المثل الأعلى للإنسانية واحد ومشترك ، إنه الحقيقة المطلقة التى لا تحد ولا تستوعب وإن هذا المثل سيظل واحداً وإن اختلفت الطرق إليه . وما الديانات المختلفة إلا طرق متنوعة ، متحدة الغاية ، كلها إليه .

وقال العلامة « كاميل فلامريون » : « لا يجوز لنا أن نخجل من الاعتراف بما وقعنا فيه من الانحطاط لأننا رضينا به وأصبحت عقولنا المتشبعة بالأثرة لا هم لها إلا أغراضها الذاتية ؟

أليس حظنا اليوم من الحياة قد استحال لجمع الثروة بلا مبالاة بوجوه جمعها ، والحصول على المجد بطريق الاغتيال لا الكسب .

وإن من التناقض البين المؤلم أن نرى أن الرقى الباهر الذى حصل فى العلوم مما لا مثيل له فى التاريخ ، وأن هذه الفتوحات المتتالية التى تمت للإنسان فى الطبيعة بينما رفعت عقولنا إلى المدركات العالية — هبطت بانسانيتنا إلى أخس الدركات !

ومن المحزن أن نحس بأنه بينما نشعر بنماء قوتنا يوماً بعد يوم : تنطفىء حرارة قلوبنا ، وتتصدع زهرة حياتنا القلبية بتأثير غلبة المطامع المادية » .

إن الإيمان بالله هو الزاد الروحى الذى يتزود به الإنسان فى رحلة الحياة ، يقول أ . كريسى موريسون [1] : « إن كون الإنسان فى كل مكان ومنذ بدء الخليقة حتى الآن ، قد شعر بحافز يحفزه إلى أن يستنجد بمن هو أسمى منه وأقوى وأعظم يدل على أن الدين فطرى فيه ، ويجب أن يقر العلم بذلك . وسواء أحاط الإنسان صورة محفورة بشعوره بأن هناك قوة خارجية للخير أو الشر أم لم يفعل فإن ذلك ليس هو الأمر الهام ، بل الحقيقة الواقعة هى اعترافه بوجود الله .

إلى أن يقول : « ما هو هذا الكائن الحى ؟ هل هو عبارة عن ذرات وجزيئات ؟ أجل وماذا أيضاً ؟ . شىء غير ملموس ، أعلى كثيراً من المادة لدرجة أنه يسيطر على كل شىء ، ومختلف جداً عن كل ما هو مادى مما صنع منه العالم ، لدرجة أنه لا يمكن رؤيته ولا وزنه ولا قياسه ، وهو فيما نعلم ليست له قوانين تحكمه ، إن روح الإنسان هى سيدة مصيره ، ولكنها تشعر بصلتها . بالمصدر الأعلى لوجودها .

وقد أوجدت للإنسان قانوناً للأخلاق لا يملكه أى حيوان آخر ولا يحتاج إليه ، فإذا سمى أحد ذلك الكيان بأنه فضلة لتكوينات المادة ، لا لشىء سوى أنه لا يعرف كنهه بأنبوبة الاختبار ، فهو إنما يزعم زعماً لا يقوم عليه برهان أنه شىء موجود ، يظهر نفسه بأعماله وبتضحياته وبسيطرته على المادة ، وعلى الأخص بقدرته على رفع الإنسان المادى من ضعف البشر وخطئهم إلى الانسجام مع إرادة الله .

---

(١) أ . كريس موريسون : العلم يدعو للإيمان ، ترجمة محمود صالح الفلكى ، ص ٢٠٠ — ٢٠٢ .

« هذه هى خلاصة القصد الربانى ، ومنها تفسير للاشتياق الكامن فى نفس الإنسان للاتصال بأشياء أعلى من نفسه ، وفيها كشف عن أساس حافزه الدينى ، هذا هو الدين » :

إن تاريخ العالم ليس إلا تاريخ الأديان التى هى الترجمة الصحيحة للإيمان بعد أن يعبر عنه بالحركات والأقوال .

ولا سبيل إلى دراسة الحضارات الأولى ، وما كان عليه الإنسان من علم وفن إلا من خلال ما ترك من أطلال منشآته الدينية ومؤسساته التعبدية سواء أكانت مادية أو معنوية . أى على شكل هياكل ومعابد وقبور أو على شكل تعاليم وعادات وطقوس وكتابات .

يقول المؤرخ البريطانى أرنولد توينبى .

إن التاريخ هو طريق الإنسانية إلى الله . فتواريخ الأمم والحضارات والعقائد والأخلاق لا معنى له إن لم يكن معناه هداية النفس الإنسانية إلى حرية الضمير برعاية الإله .

فكل أمة ، وكل حضارة ، وكل عقيدة ، إنما تأتى لترفع فى الطريق مصباحاً صغيراً أو كبيراً ينير الطريق وينير ساحة الكون كله للعلم بحقائق الوجود .

أو للعلم بحقيقة الحقائق وهى مصدر الحق والتدبير فى الوجود .

ويقرر الأستاذ توينبى أن الإنسان قد يصطنع الأعمال والحرف ويخلق العلوم والمعارف ، ولكنه لا يخلق عقيدته الدينية بل تأتيه العقيدة مفروضة على سريرته وشعوره . قابلة للبحث فى بعض جوانبها غير قابلة لشيء سوى التسليم فى جوانبها الكبرى ، ولهذا تسخره العقيدة ولا يسخرها كما يشاء ويهوى ، وإن خيل إليه أن يعمل فى تسخيرها بهواه .

وضرب المثل لذلك بعقيدة الإسلام : أراد الفرس الذين دخلوا الإسلام أن يستخدموها فى إحياء القومية الفارسية فاستخدمتهم هى فى توطيدها ودراسة معارفها . وجاء المغول إلى بلادها من أقصى الشرق ليقيموا « سلطنتهم » على أركانها فأصبحوا حراساً لتلك الأركان ، ولا يتأتى تسخير عقيدة ما إلا إذا غلبتها عقيدة أقوى منها وأحق بالعمل فى تاريخ الإنسانية ، فليس أقوى من الإيمان على تسيير الإنسان والارتقاء به فى معارج الحضارة فى طريقه إلى الله .

وعند المؤرخ توينبى أن هذه المهمة الأبدية مهمة « تعاون » بين الحضارات والعقائد ، يؤدى كل منها بعض الواجب لتحقيق الواجب كله فى النهاية ، ولكن هذا الواجب الكبير يكبر مع الزمن كلما كبر الإنسان ، فلا يزال الإنسان فى سعى متواصل ، ولا يزال متطلعاً إلى الكمال :

ونحن إذا سرنا[1] عبر التاريخ مذ خلق الله آدم لوجدنا أن الحضارات الشامخات قد كونتها نفحات روحية ، رفعت الإنسان فوق مطالب الجسد وضرورات الغرائز وما تهفو إليه النفوس فأعادت إليه كرامته وسموه ، ودفعته فى مدارج الرقى .

---

(١) عبد الحميد جودة السحار : محمد رسول الله ، ج ٤ ، ص ٣٣٤ .

خلق الله آدم ليكون خليفة فى الأرض ، وكان يعيش مع الله وبالله وفى الله ، وراح يعلم أبناءه ما يعلم ، ويبنى أول مجتمع بشرى على أسس سليمة ، ويلقن ذريته أن كل عمل يوزن فى ذاته كما يوزن من حيث صلته بخالق الكون والناس . لأن كل إنسان سيسأل عما يفعل يوم القيامة .

وتعلم بنو آدم أن الملك لله ، وأن المال مال الله ، وأن الله جعل الناس مستخلفين فى ماله ، وغرست فى وجدانهم قيم خلقية أسمى من الواقع الأرضى المستمر فى الجريان .

واستمر التطور التاريخى ، وطال على الناس العهد فبعدت الشقة بينهم وبين السماء فقست قلوبهم ، فجعلوا لله أنداداً ، فبعث الله الرسل والأنبياء يدعون الناس إلى عبادة الله وحده .

وقد بعث الله إدريس فى مصر قبل عهد الأسرات . يدعو الناس إلى عبادة الله وحده ، ويقول لهم إنهم مبعوثون ليوم عظيم ، فآمن المصريون بالله واليوم الآخر وشيدوا حضارتهم على قيم روحية هذبت ضمائرهم وجعلتهم يعملون للدين والدنيا ، فقد أقاموا الأهرام وأضخم ما عرف التاريخ من مقابر استعداداً ليوم البعث .

وكان إدريس أول من علم المصريين الخط بالقلم ، كما علمهم الزراعة . والتصرف فى ماء النيل ولبس المخيط بعد أن كانوا يغطون أجسامهم بالريش .

وصارت مصرالفرعونية — كما قال المؤرخ ول ديورانت فى «قصة الحضارة» تعيش بالدين وللدين : « لقد كان الدين فى مصر فوق كل شىء ومن أسفل كل شىء ، فنحن نراه فى كل مرحلة من مراحله وفى كل شكل من أشكاله ، من الطوطم (عبادة الأحجار التى لا شكل لها) إلى علم اللاهوت . ونرى أثره فى الفن وفى الأدب وفى كل شىء . » وبنى إدريس الكعبة — على قول الصابئة — لتكون منارة للتوحيد ، ونزل الله على عبده الكتاب وعرف عند الصابئين «بكنز» وسار الناس على هدى كتاب الله يقطعون فى سبيل رقى البشرية أشواطاً .

ولما طال على الناس الأمد وقست قلوبهم نسجوا حول إدريس الأساطير وجعلوه أزريس قاضى الموتى من يضع الموازين القسط ليوم القيامة .

قد يقول قائل : إن كان إدريس هو أزريس وإن كان الصابئون يعتقدون أن إدريس هو أول من بنى الكعبة ، فهل جاء فى التاريخ أو فى الأساطير أن أزريس ذهب إلى بلاد العرب ؟ وإن كان قد ذهب إليها فهل قدس المصريون هذا المكان ؟ ذكر المؤرخ ديودور الصقلى أن الإله أزريس أحد آلهة مصر ذهب إلى مدينة تدعى « نس » Niss وهى من مدن العربية السعيدة ، وأنه ذهب إلى الحبشة فأقام هناك سدوداً لخزن المياه وتنظيم السقى والارتواء ثم ذهب إلى بلاد العرب ومنها إلى الهند . وذكر الزعم القائل بوجود تمثال لأزريس فى بلاد العرب :

وجاء فى كتاب « مصر والحياة المصرية فى العصور القديمة » للأستاذين أدولف أرمان وهرمان رانكه : وقد كان المقصود من « الأرض المقدسة » فى الأصل الشرق فقط حيث كان يظهر الإله وهو « رع » — كل يوم ، وكان هذا التعبير يدل أيضاً فى الحياة اليومية على الصحراء الجبلية بين النيل والبحر الأحمر وشبه جزيرة سيناء ، وكذلك على وجه التحقيق الجزء الشمالى والمتوسط من بلاد العرب ،

ومن كل هذا قوى الاعتقاد عندى أن إدريس ممّن ولد فى منف وعلم المصريين الكتابة والزراعة . وأول من بنى الكعبة هو أزريس ، إمام شهداء السلف كما قال المؤرخ الإغريقى هيرودوت ، وممّن أصبح « دينوسيس » عند الإغريق . وهو عند العبرانيين خنوخ وعرب أخنوخ ؛ وسماه الله عز وجل فى كتابه العربى المبين إدريس .

وطال على الناس الأمد فقست قلوبهم فأشركوا بالله ثم عبدوا ما ينحتون ، عبدوا فى العراق ودا وسواعاً ويغوث ويعوق ونسراً ، فأرسل الله إليهم نوحاً يدعوهم إلى عبادة الله الواحد ، ولكنهم جعلوا أصابعهم فى آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكباراً ، فأغرقهم الله ، فقد أرادوا بظلمهم أن يغرقوا سير موكب الحضارة إلى التقدم والرقى .

وقامت فى بابل حضارة ترتكز على الدين وسواعد المؤمنين ، فازدهرت بابل وبنت أكثر من لبنة فى صرح الحضارة الإنسانية . وطال على الناس العهد وفسد الدين القيم وبقى منه القشور ؛

ونسجت الأساطير حول ذلك ، ثم اتخذ كل طامع فى الملك لنفسه إلها راح يدعو إليه ويفضله على سائر الآلهة ويدعى أنه رب الأرباب .

وسمع الناس لأول مرة فى بابل عن مجمع الآلهة وعن الحروب التى تدور بين الأرباب فى السماء ، ونسوا يوم القيامة فقالوا : إن الإنسان إذا مات يذهب إلى الأرض التى لا رجعة منها ؛

وعرفت عبادة الكواكب والنجوم ، وماكانت الكواكب تعبد لذاتها ، بل كانت ترمز إلى الآلهة والأسرة المقدسة ؛

وبعث الله إبراهيم « رسولا » إلى قومه لينتشل البشرية من التردى فى الشرك وليخرج الناس من الظلمات إلى النور .

وراح إبراهيم يدعو الناس إلى الله فى العراق وفى سورية وفى مصر ، ثم أقام القواعد من البيت وإسماعيل فى مكة ليكون منارة للتوحيد فى الأرض .

ولحق إبراهيم بالرفيق الأعلى وقد نفخ فى البشرية نفخة روحية دفعتها دفعاً فى طريق تطورها التاريخى .

تكون حول بئر زمزم — بفضل إبراهيم وهاجر وإسماعيل — مجتمع جديد حمل لواء الإسلام ، مجتمع لم يكن له تقاليد ولا أساطير ، لذلك ظل أكثر من ألف عام ليس له إله إلا الله رب العالمين . .

وقام بنو إسرائيل يدعون الناس إلى الإسلام ، فما كان الغرور قد تملكهم بعد واعتقدوا أنهم وحدهم الناس فوطئوا بدينهم من حولهم ثم جاءوا إلى مصر لما من الله على يوسف الصديق وجعله رئيس وزرائها ؛

---

(١) كان حمورابى الملك البابلى هو الذى رفع مردوخ فوق الآلهة جميعاً وجعله رب الأرباب وكان يرمز لمردوخ بالكواكب . ويقول الأستاذ عبد الحميد جودة السحار ، أن إبراهيم قام بدعوته فى ذلك العصر اعتماداً على ما جاء فى القرآن الكريم من تسلسل العبادة أيام إبراهيم ، فقد كان الكوكب فوق الآلهة جميعاً ، فالقمر فالشمس . ويقدر العلماء المشتغلون بدراسة الكتاب المقدس أن تاريخ إبراهيم يقع حوالى عام ١٧٥٠ ق . م . وهو تاريخ قريب من عهد حمورابى (محمد رسول الله ، ج ٢ ، ص ٢٨٧) .

وأثرت دعوة يوسف وإخوته الروحية فى سكان دلتا النيل ، وتسربت إلى طيبة معقل المصريين الأحرار الذين لم يخضعوا لحكم الهكسوس ، فتركت أثرها فى دين الفراعين فوحدوا آلهتهم فى إله واحد هو آمون .

وجاء موسى يدعو الناس إلى الإسلام ويخرج بنى إسرائيل من الذل المهين . وخرج موسى ببنى إسرائيل من مصر وذهب لميقات ربه عند جبل الطور . فلما عاد إلى قومه وجدهم قد عادوا لعبادة العجل فغضب وثار واستغفر ربه ، ولكن الله حكم عليهم بالتيه فى سيناء أربعين سنة .

وذهب موسى وبقيت توراة الله فى الأرض لتكون للمؤمنين هادياً ونبراساً . لكن . . . على الرغم من وجود التوراة فقد عبد بنو إسرائيل آلهة الوثنيين ، عبدوا بعلا والآلهة الأخرى فكان الله يبعث إليهم أنبياءه ليعودوا إلى الإيمان . وقامت فى العراق دولة آشور ، دولة مؤمنة بإلهها آشور ، وكان ملوكها يحاربون أعداء آشور ويكومون جماجم أعدائهم أهراماً ويحرقون الدور ويسلخون جلود أعدائهم وهم أحياء إرضاء لإلههم آشور ، وقد سلطهم الله على بنى إسرائيل لكفرهم بعد أن جاءهم كتاب منير . وعلى بنى إسماعيل الذين تركوا البيت المحرم وتفسحوا فى الأرض وعبدوا اللات والعزى .

وانتهى دور آشور من التاريخ فما كانت لهم رسالة إلا تأديب من عادوا إلى الظلمات بعد أن أخرجهم الله إلى النور .

وقامت فى بابل دولة بابل الجديدة : بفضل النفحة الروحية التى سرت بين ضلوع عباد مردوخ فقضت على دولة آشور . كما قضت على الدولة التى زعمت أنها شعب الله المختار . فغزا نبوخذ نصر أورشليم وأعمل القتل فى اليهود ، ثم حمل الرجال والنساء والأطفال إلى بابل . وفى أرض المنفى راح أحبار اليهود يعيدون كتابة التوراة بأيديهم من جديد .

وانتهى دور اليهود فى التاريخ الروحى بعد أن أصاب العقم أحبار اليهود وإن بقى دورهم السياسى الخبيث . وأضاء نور الروح إيران فقد قام زردشت يدعو الناس إلى عبادة الله وحده . وفرض على الناس خمس صلوات وبشر بالنبى العربى الذى سيبعثه الله فى جزيرة العرب . وقال لهم[1] : « تمسكوا بما جئتكم به إلى أن يجيئكم صاحب الجمل الأحمر (قبل بادية العرب) .

وأخذت الشعلة الروحية التى أوقدها زردشت تخبو فى صدور الفرس ، وظهر الفساد ، وبدا أن فارس بدأت تنتحر من الداخل وأن الله سيذهب هؤلاء الأقوام ليأتى بأقوام آخرين يحملون الشعلة الروحية إلى حين ، ويدفعون ركب الحضارة خطوات على الطريق . « وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميراً » .

وقام فى اليونان فلاسفة يدعون إلى عبادة الله وحده . وإلى مكارم الأخلاق وإقامة المدن الفاضلة ، وكان الإسكندر أول مؤمن من ذوى السلطان فى جمهورية أفلاطون فقام يغزو العالم ليحقق حلم الحكومة العالمية .

---

(١) محمد عبد الغفار الهاشمى : محمد رسول الله ، فى بشارات الأنبياء ، ص ٩ .

اجتاز الإسكندر مضيق الدردنيل دون أن يلقى مقاومة ، وحاول الجيش الفارسى أن يصد الإسكندر عند نهر غرانيقوس ولكن تلك المحاولة انتهت بانكسار الجيش الذى نخر فيه سوس الفساد . واتجه الإسكندر جنوباً وشرقاً يخضع بعض البلدان وعاد والتقى جيش الإسكندر وجيش دارا الثالث عند أسوس ، وانتصر الجيش الذى كانت قلوب قواده عامرة بالإيمان ، انتصر الإسكندر على دارا انتصاراً عزيزاً كريماً .

وانتشرت فتوح الإسكندر شرقاً وغرباً وشمالا وجنوباً ، ولاح أن الدولة العالمية التى كان يحلم بها أصبحت قريبة المنال ، بيد أن الإسكندر مات وهو فى طريق عودته من الهند إلى بابل ومات بموته حلم الفلاسفة فى إقامة جمهورية المدينة الفاضلة .

وقامت فى روما دولة الرومان وقد ارتكزت فى نشأتها على دعامة الدين ، وانتشرت فى الأرض تقضى على اليونان والیهود والنبط والمصريين والفرس . وعلى مر الأيام ساد الظلم فى الأرض واستعبد الإنسان أخاه الإنسان ونشر الرومان الفسق فى البلاد التى خضعت لهم ، وغرقت الحضارة فى ظلمات المادة .

ومن خلال هذ الليل الأسفع الرهيب أشرق نور السيد المسيح .

كانت المادية طاغية فكانت رسالة السيد المسيح روحية خالصة ليحدث التعادل بين المادة والروح . وراح السيد المسيح يدعو الناس إلى عبادة الله وحده وإلى التوبة .

اعتنق الرومان الدين الذى دعاهم إليه بولص ، وكان مزيجاً من الدين والفلسفة وانقسم أتباع ذلك الدين إلى طوائف وشيع وانقلبت الوحدانية الرائعة التى جاء بها المسيح — كما قال ديو رانت فى قصة الحضارة — لدى عامة الشعب شركا . وطال على الناس الأمد فقست قلوبهم وعبدوا ما كان يعبد آباؤهم قبل أن يهتدوا إلى الدين القويم .

وكانت مكة فى ذلك الوقت منارة التوحيد ، ظلت على دين إبراهيم الخليل ولكن المكيين جلبوا أصنام الشعوب التى كانوا يتاجرون معها ووضعوها فى جوف الكعبة وقالوا إنها بنات الله وأنهن يشفعن إليه ، وبذلك سادت الجاهلية فى الأرض وبعث الله محمداً صلى الله عليه وسلم يدعو الناس كافة إلى الإسلام ، وأنزل عليه قرآنه ليكون نوراً للناس إلى يوم الدين .

وانتصر الإسلام بفضل النفحة الروحية التى عمرت بها قلوب المؤمنين على الرومان والفرس .

واستمر ركب التاريخ فى سيره ، تقوم الدول بانتفاضات روحية وتموت الدول بالإغراق فى المادية والترف والفسق والفجور . تلك سنة الله فى خلقه ولن تجد لسنة الله تبديلا .

يقول الإمام ابن حزم : إن الله عز وجل « رتب الطبيعة على أنها لا تستحيل أبداً ، ولا يمكن تبدلها عند كل ذى عقل ، كطبيعة الإنسان بأن يكون ممكناً له التصرف فى العلوم والصناعات إن لم تعترضه آفة ، وطبيعة الحمير والبغال بأنه غير ممكن منها ذلك ، وكطبيعة البر أن لا ينبت شعيراً ولا جوزاً ، وهكذا كل ما فى العالم والقوم مقرون بالصفات وهى الطبيعة نفسها . . . وهكذا كل شىء له صفة ذاتية فهذه هى الطبيعة[1] .

---

(١) الفصل فى الملل والأهواء والنحل : ج ٥ ، ص ١٦ .

فأحداث التاريخ لا تتناقض مع سنن الكون وطبائع الأشياء .

قامت الدولة الإسلامية الأولى ، على أساس تعاليم ومبادئ الدين : فبهرت العالم بإنجازاتها فى عالم الروح والمادة على حد سواء ، فالمؤمن جسمه من تراب ، وفطرته من نور ، عبد متخلق بأخلاق مولاه ، قلبه غنى عن العالمين .

يقول الفيلسوف جوستاف جرونيباوم (١) فى كتابه : « حضارة الإسلام » :

« والحق أن سنوات حكم النبى — صلى الله عليه وسلم — العشر فى المدينة مضافاً إليها فى الراجح الثلاثون سنة التى أعقبت وفاته كانت قوام العصر الذى صارت فيه الجماعة الإنسانية أقرب ما يرجى من الكمال ، ومن ثم فان سوابق تلك الفترة فى النظم والقانون والمالية فضلا عن الدين ، هى التى أثمرت مصطلحات وأفكار وفرائض ذلك النظام الكامل . . . نظام الله » .

وهذا المجتمع الإسلامى المثالى ، يقوم على الأفراد التى ينتظمها هذا الكيان ، الذى يسمى جماعة ، أو أمة . فالفرد ، هو الوحدة التى تشكل منها قيام هذه الأمة ، واللبنة التى قام على مواصفاتها هذا البناء الشامخ العظيم .

يقول الدكتور محمد إقبال على لسان القائد الإسلامى الكبير طارق بن زياد فاتح الأندلس وهو يدعو لأصحابه العرب بالنصر ويناجى ربه : « إن هؤلاء الغزاة المجاهدين عبيدك الغامضون الذين لا يعرفهم غيرك وقد أصبحوا اليوم يطمحون إلى فتح العالم وإخضاعه . إذا ركلوا بأرجلهم الصحراء انشقت ، وإذا ركلوا برجلهم البحر انفلق ، انكمشت الجبال وتقبضت . إنهم عرفوك وأحبوك فى هدوء فى العالم واستغنوا عن الدنيا : لا يطلبون إلا الشهادة فى سبيلك ولا يهدفون بجهادهم إلى الفتح والغنائم ، لقد أفردت رعاة الإبل بنعمتك وميزتهم بين أقرانهم فى الخير والنظر وأذن السحر ، لم يزل العالم تهزه لوعة القلب والتوجع للإنسانية المظلومة ، وفى قلوب هؤلاء الجريحة وفى أكبادهم المتقدة وجد العالم مآربه (٢) .

ويقول : ما ظنك بقوة ساعدى المؤمن وهو بنظرته يقلب الأوضاع وبدعوته يرد القضاء .

والمطلع على التاريخ يصدق ما قاله محمد إقبال فقد هزأ المسلمون المؤمنون فى عصرهم الأول من الجبال والبحار وشقوا طريقهم غير محتفلين بما يعترضهم من أشواك وعقبات ، وقصص سعد بن أبى وقاص وخالد ابن الوليد والمثنى بن حارثة الشيبانى وعقبة بن عامر ومحمد بن قاسم الثقفى وموسى بن نصير وطارق بن زياد شاهد على صدق إقبال .

كان الإنسان المسلم — كما وصفه إقبال — يمتاز بين أهل الشك والظن بإيمانه ويقينه ، وبين أهل الجبن والخوف بشجاعته وقوته الروحية ، وبين عبادة الرجال والأموال والأصنام والملوك بتوحيده الخالص ، وبين عبادالأوطان والألوان والشعوب بإنسانيته ، وبين عباد الشهوات والأهواء والمنافع بتحرجه من الشهوات وتمرده على موازين المجتمع الزائف وعن الأشياء الحقيرة . وبين أهل الأثرة والأنانية بزهده

(١) جوستاف جرونيباوم : حضارة الإسلام ، ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد ، ص ١٨٤ .
(٢) طه عبد الباقى سرور : إقبال شاعر الحرية والكفاح ، ص ٢٢ .

وإيثاره وكبر نفسه ، ويعيش برسالته ولرسالته ، ذلك المسلم الحق الذى مهما اختلفت الأوضاع وتطورت الحياة لا يزال الحقيقة الثابتة التى لا تتغير ولا تتحول . وأما ماعداه فزبد يذهب جفاء ، ذلك المسلم هو كالشجرة الطيبة التى أصلها ثابت وفرعها فى السماء . أما ماعداه فشجره أجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار .

حقق الإنسان المسلم نهضة علمية سامقة . تقول زيجريد هونكه : « إن هذه الطفرة العلمية الجبارة التى نهض بها أبناء الصحراء ومن العدم من أعجب النهضات العلمية الحقيقية فى تاريخ العقل البشرى ، فسيادة أبناء الصحراء التى فرضوها على الشعوب ذات الثقافات القديمة وحيدة فى نوعها ، وإن الإنسان ليقف حائراً أمام هذه المعجزة العقلية الجبارة ، هذه المعجزة العربية التى لا نظير لها والتى يحار الإنسان فى تعليلها وتكييفها .

إذ كيف كان من المستطاع أن شعباً لم يسبق له أن يلعب دوراً سياسياً أو ثقافياً من قبل يظهر بغتة إلى الوجود ويسمع العالم صوته ويملى عليه إرادته ويفرض عليه تعاليمه ، وفى زمن قصير أصبح نداً لليونان . إن هذه المنزلة التى بلغها العرب أبناء الصحراء لم تبلغها شعوب أخرى كانت أحسن حالا وأرفع مكانة (١) » .

وعهدت الدول الغربية إلى شن الحملات ضد الإسلام بهدف القضاء عليه ، وركن المسلمون إلى الدعة والترف ، وبهرتهم الحضارة الأوربية المادية ، فأصابهم الوهن والضعف وواجه الإسلام التحديات التى وجهت إليه من خارج العالم الإسلامى ابتداء من الحروب الصليبية ، حتى زرع إسرائيل فى قلب الوطن العربى . ورغم هذه الضربات الهائلة وقف الإسلام — وحده — يواجه هذه التحديات ، وعلى المسلمين أن يتمسكوا بدينهم الحق ، ويتخذوا من القرآن مرشداً وهادياً لهم فى بحر الحياة الزاخرة ، فالقرآن يهدى للتى هى أقوم .

لقد انقسم العالم إلى معسكرين كبيرين ، أحدهما يستهدف تحرير الإنسان من العوز ، والظلم الاجتماعى ، والظلم الاجتماعى ليس مظهراً مادياً فحسب ، كما يطيب لدعاة هذا المعسكر المادى أن يدعو . إذ أن تحرير الإنسان من عوزه المادى دون عوزه الروحى ، يبقى عبداً سواء بسواء ، وفرة الرغيف النظيف ووفرة الحرف الواعى يؤمنان الحرية ، من حيث هى حق طبيعى ! فالقبول بالعمل على التخلص من الظلم الاجتماعى ، بشكله المادى ، هو إقرار بعبودية المادة ، وليس ثورة عليها ، إن إنسان اليوم يحتاج غنى روحيا بالمعرفة ، التى ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالواقع الطبيعى الذى لا يقر للحياة أن تكون إلا مادة وروحاً . يجب أن يكون الإنسان حراً مادياً وروحياً ليتمكن من الرجاء والتفوق .

أما المعسكر الآخر فهو المعسكر الغربى الرأسمالى ، وحضارته مادية صرفه وهى سبب شقاء الإنسان . يقول الفيلسوف الألمانى « ألبرت شفيتزر » فى كتاب « فلسفة الحضارة » : « . . . الخاصية المروعة فى حضارتنا هى أن تقدمها المادى أكبر بكثير جداً من تقدمها الروحى ، لقد اختل توازنها . فالاكتشافات التى جعلت قوى الطبيعة تحت تصرفنا على نحو لم يسبق له مثيل قد أحدثت ثورة فى العلاقات بين الأفراد بعضهم وبعض ، وبين الجماعات ، وكذلك بين الدول ، فأثرت معارفنا وازدادت قوتنا إلى حد لم يكن

(١) زيجريد هونكه : شمس الله على الغرب ، ترجمة الدكتور فؤاد حسنين على ، ص ٢٣٨ .

فى وسع أحد أن يتخيله . وبهذا أصبحت أحوال الناس المعيشية أفضل من عدة نواح ، لكن حماستنا للتقدم فى المعرفة وأسباب القوة التى بلغناها جعلنا نتصور الحضارة تصوراً ناقصاً معيباً . فإننا نغالى فى تقدير إنجازاتها المادية ولا نقدر أهمية العنصر الروحى فى الحياة حق قدره .

ولكن الحقائق بدأت تدعونا إلى التفكير . : إنها تقول بلسان حاد ، إن الحضارة التى لا تنمو فيها النواحى المادية ، دون أن يواكب ذلك نمو متكافئ فى ميدان الروح ، هى أشبه ما يكون بسفينة اختلت قيادتها ، ومضت بسرعة متزايدة نحو الكارثة التى ستقضى عليها . ذلك أن الطابع الجوهرى للحضارة لا يتحدد بانجازاتها المادية ، بل باحتفاظ الأفراد بالمثل العليا لكمال الإنسان وتحسين الأحوال الاجتماعية والسياسية للشعوب وللإنسانية فى مجموعها ، وأن تكون عادات التفكير خاضعة لهذه المثل بطريقة حسية ثابتة فحينما بعمل الأفراد على هذا النحو كقوى روحية تؤثر على ذواتها وفى المجتمع . يمكن حل المشاكل التى تثيرها وقائع الحياة ، والوصول إلى تقدم عام خليق بالتقدير من كل ناحية . وليس العنصر الحاسم فى تقويم الحضارة ما أنجزته من أعمال مادية ، بل يتوقف مصيرها على كون « الفكر » يسيطر على الأحداث أو لا يسيطر . . . والثورة فى أسباب الحياة بين الأفراد والجماعات والشعوب وهى تساير موكب التقدم فى الإنجازات المادية ، تقتضى من عادة التفكير عند الجماعة المتحضرة مطالب أسمى إذا كان عليها أن تبين عن تقدم حقيقى فى اتجاه الحضارة الرفيعة ، كما أن زيادة سرعة السفينة تفترض المتانة فى آلات القيادة والتوجيه .

وأبرز الأخطار التى تجرها الإنجازات المادية على الحضارة ، هو أن الناس يصبحون غير أحرار ، نظراً إلى الثورة الحادثة فى ظروف الحياة . فأنماط الناس الذين كانوا من قبل يزرعون أرضهم بأنفسهم يصيرون مجرد أجراء فى المصانع ، والعمال اليدويون والتجار المستقلون يصيرون مجرد مستخدمين ، وبهذا يفقدون الحرية الأولية التى يتمتع بها الإنسان الذى يسكن فى منزله ويتصل مباشرة بالأرض أمه . وفضلا عن هذا يفقدون الشعور الواسع المستمر بالمسئولية الذى يوجد عند أولئك الذين يعيشون فى عملهم المستقل . . .

والمنظمات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية تزيد سيطرتها علينا بقدر ما يزداد الإحكام فى تنظيمها . والدولة بتنظيمها المتزايد القاسى تملك زمامنا امتلاكا يزيد على الأيام صرامة وشمولا . وهكذا نجد أن « الوجود الفردى » قد تضاءلت قيمته فى كل اتجاه ، وازدادت الصعوبة فى أن يكون المرء ذا شخصية ! ذلك أن تقدم الحضارة (الخارجية) يجر وراءه هذه النتيجة : هى أن الأفراد على الرغم مما يحصلون عليه من مزايا يضارون من نواح كثيرة مادياً وروحياً فى طاقتهم على الحضارة . فالإنجازات المادية لا تصبح حضارة إلا بمقدار ما تستطيع عقلية الشعوب المتمدينة أن توجهها وجهة كمال الفرد والجماعة .

والمسألة الكبرى عندنا إذن : هى ما إذا كان علينا أن نتخلى نهائياً عن النظرية الكونية التى تحمل فى داخلها المثل الأعلى لإكمال أفراد الإنسانية والإنسانية بعامة — تحمله بكل قوته ، وكذلك للنشاط الأخلاقى . فاذا نجحنا فى إعادة تقرير نظرة كونية . فيها يؤكد العالم والحياة على نحو مقنع ، فاننا

سنستطيع الهيمنة على انحلال الحضارة المتواصل وبلوغ حضارة حية حقة من جديد ، وإلاقدر علينا أن نشهد إخفاق كل محاولة لوقف الانحلال !

ولن نسلك السبيل القويم إلا إذا أصبح من الحقائق المسلم بها عامة أن تجديد الحضارة لا يمكن أن يتم إلا بتجديد نظرتنا إلى الحياة ، وإلا إذا قام سعى جديد لإيجاد نظرة كونية ، والرجل العصرى لا يزال خالياً من الشعور الصحيح بالمعنى الكامل لهذه الحقيقة ، وهى أنه يعيش على فلسفة غير مرضية أولا يعيش على أية فلسفة !

ولا بد أولا أن نشعره بما فى هذه الحال من خطورة وعدم طبيعية ... كما أن الأشخاص الذين تبدو عليهم اضطرابات فى جهازهم العصبى لا بد أن نخبرهم بوضوح أن حيويتهم مهددة ، وإن كانوا لا يشعرون بأى ألم .

وبالمثل ينبغى علينا أن نهز الناس فى هذا العصر ، وندفعهم إلى التفكير الأولى فى حقيقة الإنسان ومكانته فى هذا العالم وماذا يريد أن يفعل بحياته ... لأنهم حين ينطبعون بضرورة إعطاء معنى لوجودهم وقيمه فيشعرون بالتعطش إلى إيجاد نظرة كونية ، هنالك وهنالك فقط تتوافر الأسباب الأولية لقيام أحوال روحية نستطيع فيها من جديد إنشاء حضارة .

إن كل تقدم فى الكشف والاختراع يتطور فى النهاية إلى نتيجة قاضية إذا لم نضبطه بتقدم مماثل فى روحيتنا ، فبالقوة التى نسيطر بها على قوى الطبيعة نهيمن بوصفنا كائنات بشرية على كائنات بشرية أخرى هيمنة ظالمة مشئومة ! فان فرداً واحداً أو شركة بامتلاكه لمائه آلة ، يسيطر على جميع الذين يديرون هذه الآلات ؟ ولعل اختراعاً جديداً أن يمكن رجلا واحداً بحركة واحدة أن يقتل الآلاف من إخوانه بنى الإنسان !وليس ثم نضال يمكن فيه تجنب تدمير بعضنا لبعض بقوى اقتصادية أو فيزيائية ، أو فى أحسن الفروض ستكون النتيجة أن يستبدل الظالم والمظلوم دور الواحد بدور الآخر ، الأمر الوحيد الذى يمكن أن يساعدنا هو أن نتخلى عن السيطرة التى لأحدنا على الآخر ، وهذا فعل من أفعال الروحية .

لقد أسكرنا التقدم فى الكشف والاختراع الذى غمر هذا العصر ، فنسينا أن نهتم بتقدم الإنسان فى غير المادة ، أنزلقنا دون تفكير ولا وعى إلى نوع من التشاؤم ... هو الإيمان بكل أنواع التقدم ، دون الإيمان بالتقدم الروحى للفرد وللإنسانية .

والحقائق تدعونا إلى التفكير ... كما أن حركات السفينة الموشكة على الانقلاب تدفع البحارة إلى الصعود إلى ظهرها وتوثيق الأوقال والأشرعة بالحبال .

لقد أصبح الإيمان بالتقدم الروحى للفرد وللإنسانية أمراً مستحيلا علينا ، لكن شجاعة الناس يجب أن تحملنا على التمسك بهذا الإيمان ... إذا كان يراد لسفينتنا فى اللحظة الأخيرة أن تنتصب من جديد وتواجه الريح[1] .

---

(١) ألبرت شفيتزر : فلسفة الحضارة ، ترجمة الدكتور عبد الرحمن بدوى ، ص ١١٠ - ١١٤ .

لقد حدث فصل الدين عن الدولة في الغرب ، فقد كان « من[1] أعظم أخطاء رجال الدين في أوربا ، ومن أكبر جناياتهم على أنفسهم وعلى الدين الذى كانوا يمثلونه ، أنهم دسوا فى كتبهم الدينية المقدسة ، معلومات بشرية ، ومسلمات عصرية ، عن التاريخ والجغرافية والعلوم الطبيعية ، ربما كانت أقصى ما وصلوا إليه من العلم فى ذلك العصر ، وكانت حقائق راهنة لا يشك فيها رجال ذلك العصر ، ولكنها ليست أقصى ما وصل إليه العلم الإنسانى . وإذا كان ذلك فى عصر من العصور غاية ما وصل إليه علم البشر فانه لا يؤمن عليه التحول والتعارض ، فان العلم الإنسانى متدرج مترق ، فمن بنى عليه دينه فقد بنى قصراً على كثيب مهيل من الرمل . ولعلهم فعلوا ذلك بنية حسنة ولكنه كان أكبر جناية على أنفسهم وعلى الدين فان ذلك كان سبباً للكفاح المشئوم بين الدين والعقل والعلم ، الذى انهزم فيه الدين ، ذلك الدين المختلط بعلم البشر ، الذى فيه الحق والباطل ، والخالص والزائف هزيمة منكرة ، وسقط رجال الدين سقوطاً لم ينهضوا بعده ، وشر من ذلك كله وأشأم أن أوربا أصبحت لا دينية ، ولم يكتف رجال الدين بما أدخلوه فى كتبهم المقدسة ، بل قد دسوا كل ما تناقلته الألسن واشتهر بين الناس وذكره بعض شراح التوراة والإنجيل ومفسريها من معلومات جغرافية وتاريخية وطبيعية وصبغوها صبغة دينية وعدوها من تعاليم الدين وأصوله التى يجب الاعتقاد بها ونبذ كل ما يعارضها ، وألفوا فى ذلك كتباً وتآليف ، وسموا هذه الجغرافية ، التى ما أنزل الله بها من سلطان الجغرافية المسيحية وعضوا عليها بالنواجذ وكفروا كل ما لم يدن بها وكان فى عصر تفجر فيه بركان العقلية فى أوربا وحطم علماء الطبيعة والعلوم سلاسل التقليد الدينى فزيفوا هذه النظريات الجغرافية التى اشتملت عليها هذه الكتب ، وانتقدوها فى صراحة ، واعتذروا عن عدم اعتقادها والإيمان بها بالغيب ، وأعلنوا اكتشافاتهم العلمية واختباراتهم ، فقامت قيامة الكنيسة ، وقام رجالها المتصرفون بزمام الأمور فى أوروبا — وكفروهم واستحلوا دماءهم وأموالهم فى سبيل الدين المسيحى ، أنشئوا محاكم التفتيش التى تعاقب — كما يقول البابا — أولئك الملحدين والزنادقة الذين هم منتشرون فى المدن وفى البيوت وفى الأسراب والغابات والمغارات والحقول ، فجدت واجتهدت وسهرت على عملها ، واجتهدت ألاّ تدع فى العالم النصرانى عرقاً نابضاً ضد الكنيسة ، وانبث عيونها فى طول البلاد وعرضها ، وأحصت على الناس الأنفاس ، وناقشت عليهم الخواطر حتى يقول عالم نصرانى : « لا يمكن لرجل أن يكون مسيحياً ويموت حتف أنفه » ، يقصد أن يموت موتة طبيعية .

ويقدر أن من عاقبت هذه المحاكم يبلغ عددهم ثلثمائة ألف ، أحرق منهم اثنان وثلاثون ألفا أحياء . كان منهم العالم الطبيعى المعروف « برونو » نقمت منه الكنيسة آراء من أشدها قوله بتعدد العوالم ، وحكمت عليه بالقتل ، واقترحت بألاّ تراق قطرة من دمه ، وكان ذلك يعنى أن يحرق حياً ، وكذلك كان .

وهكذا عوقب العالم الطبيعى الشهير « جاليليو » بالقتل لأنه كان يعتقد بدوران الأرض حول الشمس .

---

(1) أبو الحسن الندوى : ما ذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ، ص ١٣٧ — ١٤٠ .

هنالك ثار المجددون المتنورون وعيل صبرهم وأصبحوا حرباً لرجال الدين وممثلي الكنيسة والمحافظين على القديم ، ومقتوا كل ما يتصل بهم ويعزى إليهم من عقيدة وثقافة وعلم وأخلاق وآداب ، وعادوا الدين المسيحى أولا ، والدين المطلق ثانياً ، واستحالت الحرب بين زعماء العلم والعقلية ، وزعماء الدين المسيحى ، وبلفظ أصح الديانة البولسية — حرباً بين الدين والعلم مطلقاً ، وقرر الثائرون أن العلم والدين ضرتان لا تتصالحان ، وأن العقل والنظام الدينى ضدان لا يجتمعان ، فمن استقبل أحدهما استدبر الآخر ، ومن آمن بالأول كفر بالثانى ، وإذا ذكروا الدين ذكروا تلك الدماء الزكية التى أريقت فى سبيل العلم والتحقيق ، وتلك النفوس البريئة التى ذهبت ضحية لقسوة القساوسة ودسائسهم ، وتمثل لأعينهم وجوه كالحة عابسة ، وجباه مقطبة ، وعيون ترمى بالشرر ، وصدور ضيقة حرجة ، وعقول سخيفة بليدة ، فاشمأزت قلوبهم وآلوا على أنفسهم كراهة هؤلاء وكل ما يمثلونه وتواصوا به وجعلوه كلمة باقية فى أعقابهم .

ولم يكن عند هؤلاء الثائرين من الصبر والمثابرة على الدراسة والتفكير ، ومن الوداعة والهدوء ، ومن العقل والاجتهاد ما يميزون به بين الدين ورجاله المحتكرين لزعامته ويفرقون بين ما يرجع إلى الدين من عهدة ومسئولية ، وما يرجع إلى رجال الكنيسة من جمود وجهل واستبداد وسوء تمثيل ، فلا ينبذوا الدين نبذ النواة . ولكن الحفيظة وشنآن رجال الدين والاستعجال لم يسمح بالنظر فى أمر الدين والتريث فى شأنه كغالب الثوار فى أكثر الأعصار والأمصار ... انصرف اتجاه الغرب إلى المادية بكل معانيها وبكل ما تتضمنه هذه الكلمة من عقيدة ووجهة نظر ونفسية وعقلية وأخلاق واجتماع وعلم وأدب وسياسة وحكم ، وكان ذلك تدريجياً ، وكان أولا ببطء وعلى مهل ، ولكن بقوة وعزيمة » .

ويقول جون ستيوارت مل : « وبينما يمثل الواجب نحو الدولة مكاناً واسعاً فى أخلاق أفضل الأمم الوثنية ويطغى أحياناً حتى على الحرية الفردية ، فاننا لا نجد فى الأخلاق المسيحية الخالصة أى التفات إلى ذلك الركن الكبير الذى هو الواجب ، أو أى اعتراف به . إن القاعدة التى تقول : « إن الحاكم الذى يعين شخصاً فى وظيفة بينما يوجد بين رعيته من هو أكفأ منه ، إنما هو آثم نحو الله والدولة » ، هى قاعدة نجدها فى القرآن لا فى العهد الجديد . وإن ما فى الأخلاق الحديثة من اعتراف قليل بالواجب نحو الجمهور ، إنما هو آت من مصادر أغريقية ورومانية لا من مصادر مسيحية . وأما أخلاق الحياة الخاصة ، فكل ما فيها من فكرة الشهامة والنبل ، وسمو التفكير ، والكرامة الشخصية ، وحتى الحس بالشرف ، إنما هو مشتق من ذلك الجانب الإنسانى من تربيتنا لا من الجانب الدينى ، وما كان له أن ينبثق من معيار فى الأخلاق لا يقيم وزناً إلا للطاعة »[1] .

إن هذه الملابسات هى التى أحدثت الفصام بين الدين والحياة ، الذى تعانى أوربا ، وتعانى معها البشرية كلها اليوم ، آثاره السيئة ، وتتجرع كأسه المريرة .

---

(١) جون ستيوارت مل : بحث فى الحرية ، ترجمة دار اليقظة العربية ، ص ١٢٥ — ١٢٦ .

يقول المؤرخ البريطاني أرنولد توينبي[1] : التاريخ الإنساني مؤلف من سلسلة من المواقف تعين الإنسان على أن يختار بين المضي في سبيل الله ، أو الانحراف عن هذا السبيل . وقد لاحظ أن حرية الإنسان تبلغ أقصاها حين يتم التعاون بينه وبين الله ، وتهوى إلى الحضيض حين ينأى الإنسان عن تعاليم الله وهديه .

والذي يتأمل التاريخ يتجلى له صدق هذا القول ، فقد تلاشت الامبراطورية الرومانية ، وزالت معها حضارتها حين تجاهلت تعاليم الله ، وحين نصب الأباطرة أنفسهم آلهة يستعبدون الناس . وأعقبتها عصور اتسمت بالاتجاه الشديد نحو الله حتى أن النظام السياسي كان يستمد قوته من تعاليم الدين .

كان « البابا » الأعزل من السلاح يستطيع أن يقهر الامبراطور الذي يسيطر على الجيوش ... ويقود الفرسان ، ثم هوى هذا النظام حين خرج رجال الدين عن روحه . ولجأوا إلى القوة المادية واستخدموها في سبيل الإخضاع ، وقد تمثل ذلك في الصراع الذي نشب بين البابا جرجورى السابع والإمبراطور فردريك الثاني .

في مستهل القرن السابع عشر ثار الغرب ثورة عارمة مستنيرة تستهدف تصحيح الأوضاع التي أدت إلى انهيار الإمبراطورية الرومانية وإلى إنهيار النظام الديني جميعا . ثورة تستهدف وضع النظامين السياسي والديني كل في مكانه ، وعادت الحضارة مرة أخرى للازدهار ، وترعرعت الحرية ونمت حين تعاون الغرب في سبيل الله ... وظلت كذلك حتى بداية الحرب العالمية الثانية حين انقسم الغرب بعضه على بعض وقاتل بعضه بعضاً ، فاضمحلت قوته ، ونزل من مرتبة الصدارة التي كان يحتلها إلى ما قبل قيام الحرب العالمية الأولى ، وأصبح يواجه قوة لا يقوى على مغالبتها قسرا ، وإنما غدا سبيل مغالبتها الوحيد هو الإقناع ، ولكنه عاجز عن هذا الإقناع لأن أفعاله لا تؤيد أقواله ! !

إن كل الحضارات التي نهضت بالإنسانية ، نشأت عن الدين . وما كانت النكسة إلا انحرافاً عن هذا الدين . ومن حكمة الله تعالى أن الإنسانية حين تصل نكستها إلى السفح يأذن الله لدينه أن ينبعث من جديد ليؤدي دوره في هداية الناس إلى الحق وإلى الصراط المستقيم .

يقول أرنولد توينبي : « وإني لأشعر بانحسار الأديان » الكبرى التاريخية ، وظهور عبادة « القوة البشرية » الجماعية القديمة في العالم الحديث ، وقد ظهرت ثانية بشكليها التقليديين : في شكل عبادة الدولة « الدولة المحلية » ، وفي شكل عبادة « الدولة العالمية » . وتتمثل عبادة الدولة المحلية بشكل واضح في « القومية » ، بينما تتمثل عبادة المجتمع العالمي إلى حد ما في « الشيوعية » وفي الأمل الذي يداعب العالم لتحقيق نوع من الوحدة العالمية والحكومة العالمية . وإني لأفترض أن هذه الصور لعبادة القوة البشرية الجماعية تشمل ٩٠ ٪ من الشعور الديني أو ٩٠ ٪ من سكان العالم في الوقت الحاضر .

والواقع أن هذا الانتقال نحو عبادة القوة البشرية الجماعية هو ولا شك السبب الرئيسي للمتاعب والاضطرابات التي تقوم بين البشر .

---

(١) مجلة المجلات العالمية ، أغسطس سنة ١٩٥٨ عن مجلة كوليرز الأمريكية .

إن الأديان الكبرى جميعاً مهملة ، وآخذة فى الانحسار . وربما توقف مستقبل الجنس البشرى على عودتها ثانية إلى سيطرتها السابقة على البشرية ، أو عجزها عن تحقيق ذلك[1] .

إن الحضارة الغربية قد مثلت دورها ونثرت كنانتها وقد شاخت وهرمت وأينعت كالفاكهة وحان قطافها ، وإن العالم القديم الذى حوله مقامرو الغرب إلى حانة الفساد والمقامرة منهار قريباً والإنسانية تتمخض عن عالم جديد . وهذا العالم الجديد لا يحسن تصحيحه إلا الإنسان المسلم .

ويهيب الدكتور محمد إقبال بهذا الإنسان المسلم النائم وينشده بالله أن يقوم ويمسح النوم من عينه فقد ظهر الفساد فى البر والبحر وعاث الأوربيون فى الأرض وأفسدوا فيها بعد إصلاحها وخربوا العالم وملأوه ظلماً وظلمات وشروراً وويلات ، وليست هذه الأرض إلا بيتاً من بيوت الله جعلها مسجداً وطهورا وأذن فيها أن ترفع ويذكر فيها اسمه .

وقد آن لباني البيت الحرام وحامل رسالة الإسلام أن يقوم ويصلح ما أفسده الأوربيون ويعيد هذا البيت إلى قواعد إبراهيم ومحمد صلى الله عليه وسلم ويبنى العالم من جديد .

* * *

وهذا الكتاب دراسة علمية منهجية ، للتفسير الدينى للتاريخ .

وقد يثور تساؤل عن جدوى هذه الدراسة فى الوقت الحاضر ، فى هذا الوقت الذى يحتدم فيه الصراع الرهيب بين الأمم والشعوب ؛ وتبدو السحب القاتمة فى سماء العالم تنذر بالعواصف ، ويسيطر على الجميع القلق والخوف من المصير : أليس من الأفضل ، فى مثل هذه الظروف أن تطرح الإنسانية الماضى وراء ظهرها ، وتبحث عن الطريق الذى يوصلها إلى شاطىء الأمان ؟

إن القلق والخوف من المجهول يتطلب أن تبذل الإنسانية كل ما فى طاقتها من جهد خلاق مخلص لكى تكفل لنفسها الأمن والطمأنينة والسلام القائم على العدل : ولكن هذه المشكلات الإنسانية لا تعالج علاجاً ناجحاً إلا عن طريق النفاذ إلى العمق لدراسة أسبابها دراسة دقيقة ، والكشف عن طبيعة هذه الأسباب والعلل وتحديد مداها ومدى أثرها .

فالإنسان سواء أكان فرداً أو جماعة ، هو — إلى حد بعيد — نتاج الماضى ، وكل مشكلة من المشكلات التى تعترض الإنسانية لها جذورها الضاربة فى أعماق التاريخ : ومن هنا نرى أن العلاج السليم للقضايا الكبرى التى تواجهها الإنسانية اليوم يجب أن تستند على معرفة تاريخية شاملة المدى بعيدة الغور : معرفة تثير الأسئلة الجوهرية عن واقع المدنية الحديثة ، وكيف تكون هذا الواقع ، ما هى المفاهيم الأساسية التى تقوم عليها هذه المدنية ؟ ما هو نظرها إلى ما وراء الطبيعة والإنسان ؟ ما هى القيم والمثل التى تؤمن بها وتسعى إلى تحقيقها ؟ وكيف تكونت هذه المفاهيم والمثل والقيم ؟ وما هى الجذور التى نبتت منها وتفرعت عنها ، وما هو الغذاء الذى استمدت مقومات حياتها منه ؟ وما هى عناصر القوة فى هذه

(١) محاضرات أرنولد توينبى فى مصر (١٩٦٤) — كتب ثقافية ، ص ٤٦ — ٤٧ .

المدنية ، وما هى عناصر الضعف التى تبث فيها الفساد وتدفعها إلى الانحلال والفناء ؟ .

ما هى طبيعة التراث الذى يتمتع به الإنسان المشارك فى المدنية الحديثة ، وكيف يختلف هذا الإنسان عن غيره من الناس الذين لم يتلقوا هذا التراث ولم يفيدوا منه ؟

هذه الأسئلة وغيرها مما يكمن وراءها أو ينتج عنها ، تدل على أن الإنسان المعاصر لا يمكنه أن يشيح بوجهه عن الماضى ، وأن تحقيق الأمن والطمأنينة لفلك الإنسانية المتأرجح — الذى يجب أن يتوجه إليه ويشارك فيه كل إنسان وكل شعب — لا يكون مجدياً إلا إذا استند إلى فهم صحيح وعميق للأصول والأسباب الموروثة وحكم صادق عليها ، وإلى إدراك جيد لكيفية الإفادة مما تنطوى عليه من قوة وغنى والتغلب على ما يشوبها من ضعف وفساد . وهكذا ، لا بد لنا ، كأفراد وكأمة أن نجابه التاريخ ، إذا أردنا أن نحيا حياة كريمة . وثمة ناحية أخرى نصطدم فيها بالتاريخ ، ذلك أن من مظاهر الاضطراب الإنسانى المعاصر هذه المذاهب المتنافرة ، والعقائد المتناحرة التى تقسم الأفراد والأمم وتوجههم وجهات متباعدة(١) .

ونحن إذا أنعمنا النظر فى هذه المذاهب والعقائد وجدنا أن كلا منها يتضمن تفسيراً معيناً للتاريخ وللعوامل التى سيرته ، وفهماً خاصاً لأسلوب مجابهته فى عملية بناء الحاضر وإعداد المستقبل .

وإذا أردنا أن نحدد موقفنا من هذه العقائد ، لنقبل أو نرفض النتائج النظرية والعملية التى تصدر عنها — لا غنى لنا أن نتبين فى ما نتبين منها — موقفها من الماضى ، والتراث ، والتطور ، والتقدم ، وأمثالها من المفاهيم التاريخية .

* * *

ومنذ بزغت النهضة العربية فى فجر القرن التاسع عشر ، تنبه العرب لتاريخهم ، وراحوا يستلهمون منه العبرة والعظة ويستوحون منه الغذاء الروحى لإقامة مجتمع أفضل . لذلك فمن الخير أن تكون دراسة هذا التاريخ وتفسيره على أسس علمية ، يهديها للعقل ويوضحها فهم صادق لعلاقة ماضينا بحاضرنا ومستقبلنا ، وتمييز دقيق لعناصر التراث الإسلامى المختلفة بين تلك التى يجب أن يحرص عليها العرب ويبنون على أساسها ، وتلك التى ينبغى طرحها جانباً والتمسك بما هو أفضل وأبقى .

وإنى أرجو أن أكون قد وفقت إلى ما قصدت إليه ، والله سبحانه وتعالى ولى التوفيق .

محمود الشرقاوى

---

(١) الدكتور قسطنطين زريق : نحن والتاريخ ، ص ١٦ .

الفصل الأول

تفسير التاريخ

« التاريخ فن يوقفنا على أحوال الماضين من الأمم فى أخلاقهم ، والأنبياء فى سيرهم ، والملوك فى دولهم وسياستهم حتى تتم فائدة الاقتداء بهم فى ذلك لمن يرومه فى أحوال الدين والدنيا »

عبد الرحمن بن خلدون

التاريخ هو جماع أحوال البشر ما يقع منهم وما يقع عليهم ، ولعلنا نقول مع ربة التاريخ فى الأساطير اليونانية : « إنى لا يند عنى شأن من شئون الإنسان[1] » ويعرف السخاوى فى كتابه : « الإعلان بالتوبيخ لمن ذم أهل التاريخ » التاريخ فيقول « إن التاريخ فن يبحث فيه عن وقائع الزمان وحيثية التعيين والتوقيت بل عما كان فى العالم ، وأما موضوعه فالإنسان والزمان . ومسائله : أحوالهما المفصلة للجزئيات تحت دائرة الأحوال العارضة الموجودة للإنسان وفى الزمان » .

ويقول : إن التاريخ جم الفوائد كثير النفع لذوى الهمم العالية والقرائح الصافية ، لما جبل عليه طباعهم من الارتياع عند سماعهم هذه الأخبار إلى التشبه والاقتداء بأربابها ليصير لهم نصيب من حسن الثناء ، وطيب الذكر الذى حرص عليه خلاصة البشر وأخبر الله تعالى عن إمام الحنفاء » .

ويعرف عبد الرحمن بن خلدون التاريخ بأنه : « فن يوقفنا على أحوال الماضين من الأمم فى إخلاقهم والأنبياء فى سيرهم ، والملوك فى دولهم وسياستهم حتى تتم فائدة الاقتداء بهم فى ذلك لمن يرومه فى أحوال الدين والدنيا » .

ويقول المؤرخ عز الدين بن الأثير صاحب كتاب « الكامل فى التاريخ » عن فائدة التاريخ وتعلمه :

« إن الإنسان لا يخفى أنه يحب البقاء ويؤثر أن يكون فى زمرة الأحياء فياليت شعرى أى فرق بين ما رآه أمس أو سمعه وبين ما قرأه فى الكتب المتضمنة أخبار الماضين وحوادث المتقدمين ؛ فإذا طالعه فكأنه عاصرهم ، وإذا علمها فكأنه حاضرهم . ومنها أن الملوك ومن إليهم الأمر والنهى إذا وقفوا على ما فيها من سيرة أهل الجور والعدوان ورأوها مدونة فى الكتب يتناقلها الناس فيروونها خلف عن سلف ونظروا إلى ما قد أعقبت من سوء الذكر وقبيح الأحدوثة وخراب البلاد وهلاك العباد وذهاب الأموال وفساد الأحوال استقبحوها وأعرضوا عنها » .

ويرى الدكتور جورج ماكولى ترفليان أن الغاية من التاريخ « أن يعطينا سلسلة من الصور الصحيحة المنتزعة مما لا يحصى من ألوان الحياة الإنسانية العجيبة المختلفة على سطح الأرض قبل العهد الذى نعيش فيه ، وأعظم غاياته أن يبصرنا بأشكال المجتمع الإنسانى التى يخطها الحصر والظروف والأفكار التى انتابت الناس الذين عاشوا على ظهرها — وهذه الظروف والأفكار يباين بعضها بعضاً ، وتختلف عما يسود عصرنا الحاضر . وأهم ما ينصرف إليه هو أن يرينا كيف ولماذا كانت صنوف المعيشة وأحوالها دائبة التغير ، تصعد سلم الرقى بخطى وئيدة أو تنهار انهياراً عنيفاً وتحل محلها غيرها[2] » .

---

(١) هرنشو : علم التاريخ ، ترجمة عبد الحميد العبادى ، ص ٩ .

(٢) تاريخ العالم : المجلد الأول ، ص ٦ — ترجمة إبراهيم زكى خورشيد .

والأصل فى التاريخ هو إدراك الإنسان لحقيقة وجوده الاجتماعى حين بدأ يكون أسرة يحرص عليها ويعيش فى كنفها ويورث أبناءه تجاربه من القصص التى يرويها لهم مما مضى من أحداث حياته ، ولعله كان يشير فى هذا القصص إلى ما ورثه أبوه من تجاربه أيضاً ؛ وهذا دور التاريخ الأزلى الذى يقوم به إلى الوقت الحاضر حين يسوق إلينا الحكمة والموعظة فى خلال التجربة الماضية حتى تتم لنا فائدة الاقتداء بهم : ولكن الناس لا يريدون الوقائع مجردة كما هى ، بل لابد أن يضيفوا عليها تعليلات وتحليلات وفلسفة .

وكان تقدم الديمقراطية وذيوع الاشتراكية ، وبدء القلق الاقتصادى وحركات شعبية أخرى ظهرت فى منتصف القرن التاسع عشر ، مما أفضى إلى قيام تصور جديد للتاريخ[1] » . فماذا كان التصور القديم ؟

فى اليونان ، يرى هسيود (القرن الثامن ق .م) فى كتاب « الأعمال والأيام » أن للبشرية خمسة أعصر[2]. وأول هذه العصور وهو « العصر الذهبى » قد حكمه كرونوس . وفيه سكن الناس مع الآلهة ، مستمتعين بصحة جيدة لا يشقون بعناء وألم . وفى الثانى وهو العصر الفضى » الذى حكم فيه زيوس ، أصبح الناس وقحاء بينهم ، وأهملوا الآلهة . والعصر الثالث وهو « العصر البرونزى » كان عهد توحش وهمجية . ولكن من هذا نشأ العصر الرابع وهو« العصر البطولى » . الحافل بالشجعان وعظماءالرجال . ثم تبعه الخامس وهو « العصر الحديدى » وهو الذى ظن هسيود نفسه أنه يعيش فيه ، وهو عصر فردية تتسم بالأنانية . « فالآن يوجد فى هذه الأيام الأخيرة « الجنس الحديدى » وهم لن يستريحوا بالنهار أبداً من كل عناء ومن كل حزن ، ولن يفلتوا بالليل من قبضة المفسد ، وإنها لقاسية تلك الهموم التى ستنزلها بهم الآلهة . : وسيستقر الحق فى قوة اليد . . وأن جميع أبناء الإنساء المحزون سيقابلون بالشحناء من يساعدهم — شحناء غليظة الصوت » ومع أن هسيود لم يذكر صراحة رأياً قائماً على عملية الدور ، فانه ربما يكون جاء به ضمناً بقول « ليتنى لم أعش فى هذا العصر الخامس من الناس ، وإنى مت « قبله » أو ولدت » بعده » .

وفى إشارته إلى الشر ، روى هسيود الرطازات « الخرافات » القديمة الدائرة حول بروميثيوس وباندورا . ومضمونها أن وزر الشر فى التاريخ يستقر فى خاتمة المطاف على معارضة الإله وعصيانه .

وشدد هسيود التأكيد على أهمية العمل : فالفقر راجع إلى قلة ما يبذل من جهد فى العمل ، والثراء والشرف الرفيع لا يمكن أن ينالا إلا به . ويخفف العناء المتواصل من وقع المصائب : ويجنى الناس عواقب ما عملوا أو ما قدموا من كسل ، وإن أبطأت تلك العواقب فى مجيئها : « فمن يصنع شراً بأخيه يصنع الشر بنفسه » : ويمضى التاريخ فى سبيله متمشياً مع مبدأ العدالة : «والعدل يعلو على الوقاحة فى النهاية ، والأحمق نفسه يعرف ذلك عن طريق ما يمر به من خبرة » :

وأخيراً ينزل « زيوس »عقابه وانتقامه على ما اقترفه الرجل الشرير من أعمال جائرة : وهذا التأكيد على العدالة واضح بارز ، ومما يميز الإنسان عن العجماوات الدنيا تنبهه إلى ما فيه من قدرة على العمل .

---

(١) هرنشو : علم التاريخ ، ص ٩٢ .

(٢) ألبان . ج . ويدجرى : التاريخ وكيف يفسرونه ، ترجمة عبد العزيز جاويد ، ص ٥٤ .

والعدالة نقطة اهتمام اجتماعية أساسية فى التاريخ ، وهى الهية بالفطرة ، وذلك لأنها « ابنة زيوس » . كان « هيرودوت » ويلقب بأبى التاريخ ، شب فى مدينة « هاليكار نسوس » فى الجنوب الغربى من آسيا الصغرى « ٤٨٤ — ٤٢٥ ق . م » وجاب أقطار الشرق باحثاً فى ماضيه متقصياً أحواله ، مدوناً لما وعى من تاريخه فى أسلوب قصصى أخاذ ، وكان ذا بصيرة بطبائع الشعوب ونظرة ينفذ بها إلى جوهر الحقيقة شغوفاً بالرواية والسعى وراء التفاصيل والاستطراد القصصى فاستهواه النزاع بين الأغريق والفرس وكان قريب عهد به ، فشهد نتائجه والآثار التى ترتبت عليه ورأى فيه صراعاً بين مدينتين مختلفتين إن لم تكونا متناقضتين فأرخ له . وكانت الصورة التى أبرزها لهذا الصراع هى الصورة الخالدة فى مدونة التاريخ لصراع النقائض والأضداء منذ الأزل حتى العصر الحديث .

أما عن وحدة الأسلوب فى خطة تاريخه فقد رسمها بدقة وروعة (١) .

يقول هيرودوت : إن الناس بوصفهم إناسا لهم فى كل مكان مبادئ للسلوك متماثلة لا يتخطونها ، هى « قوانين يتمسك بها جميع الناس شركة بينهم » وفى هذه الفكرة إرهاص بفكرة « القانون الطبيعى » التى اعتنقها الرواقيون الرومان .

ويقول : إن بندار لم يجاوز الصواب عندما قال : « إن القانون سيد الجميع » ، وقد رأى أنه يجدر به أن يسجل على أهل زمانه كثرة اللجوء إلى الوحى ومهابطه . مع إشارات مضمونها أن التاريخ البشرى واقع تحت تأثير الآلهة . وليس هناك بد من أن يأخذ مبدأ العدل مجراه فى التاريخ ، ولكن ليس من الضرورى أن يتم ذلك بالنسبة لفرد فى حد ذاته . إذ أن أحفاده ربما جنوا عواقب سلوكه ، شرا كان أم خيراً ، والأفراد يشتركون فى المسئوليات ، وفيما يلم بالهيئة الإجتماعية فى أثناء استمرارها من أفراح وأتراح .

وعلق هيرودوت على قصر حياة الإنسان ، ولكن دون أية إشارة إلى العزاء المنبعث عن الإيمان بحياة صالحة فى المستقبل . وقد صرح بأنه وإن جاز أن يكون الرجال سعداء على وجه الجملة ، فليس بينهم من أحد لم يتمن عدة مرات لو أن الموت أدركه (٢) .

وكان تاسيت (٥٥ — ١١٧ م) أخلاقياً أكثر منه مؤرخاً علميا ، وقد اتخذ من التاريخ سوطاً صبه على المجان المنحلين الذين كانوا يتقلدون مناصب الدولة الكبرى فى الفترة الوسيطة من حياته (٣) .

خلص الأغريق التاريخ من سطوة الخرافات ، وبدأت لمحات ذكية من التفكير التاريخى تسفر عن اتجاهات واضحة ، فكشفوا مثلا عن طبيعة الصراع الأزلى بين المجتمعات البشرية ، كما رآه هيرودوت فى الصراع بين الأغريق والفرس وأرسوا قواعد نظرية « البطل فى التاريخ » وقالوا بدورة التاريخ » وعرفوا ما للتاريخ من أثر فى تربية الساسة والحكام ، وما يسوقه من عظة وعبرة ، إلا أنهم أغفلوا حساب

---

(١) أ . ج . إيفانز : هيرودوت ، ترجمة أمين سلامة ، ص ٨ .
(٢) التاريخ وكيف يفسرونه ، ص ٥٧ .
(٣) علم التاريخ : ص ٢٤ .

الزمان فى تدوين الأحداث فاعتقدوا فى فكرة الاستمرار وما تؤكد فى التسلسل المنطقى للتاريخ يرى شيشرون الرومانى (١٠٠ — ٤٣ ق . م) أن العالم والكائنات البشرية ترجع إلى «عقل» يتولى باعتباره «العناية» رعاية الناس فى التاريخ : فالدين بوصفه صورة اتصال الناس بالإله ناحية دائمة للتاريخ .

إن للطفولة اهتمامات وأعمالا معينة ، فهل نحن الشباب إليها ، وللفترة الباكرة من الشباب محبباتها التى تسعى إليها : فهل تحتاج إليها مرحلة الحياة الناضجة التى يسمونها بالنصف والاكتهال ؟ ثم إن مرحلة النضج أيضاً لها من مجالات المساعى المحببة مالا ينشد فى السن العالية . وأخيراً تجىء الاهتمامات المناسبة للسن العالية : وبناء على هذا ، كما تتساقط مسرات ومساعى الفترات الباكرة من الحياة ، فكذلك تفعل مثيلاتها للسن العالمية ، ومتى حدث ذلك يكون الإنسان استوفى كامل قسطه من الحياة . وآن له أن يذهب ، ولابد من التماس الأهمية والدلالة فى تاريخ الفرد فى أثناء مضى التاريخ قدماً « وتمر الساعات والشهور والأعوام تباعاً ، والماضى لا يرجع أدراجه البتة ، وما سيكون لا سبيل لنا إلى علم به . ومهما يكن ذرع الزمن الذى نعطاه لكى نحياه ، يجب علينا من ثم أن نقنع به » « وذلك أنه حتى لو كان النصيب المقسوم لنا من العيش قصيراً ، فإنه من الطول بحيث يجعلنا نعيش عيشة شريفة طيبة . ومع ذلك فإن شيشرون عاد بعد ذلك فأخذ يحس بأنه لابد أن يكون هناك شىء معد للناس بعد هذه الحياه . فقال : إن ميلادنا وخلقنا لا يرجع إلى الصدفة العمياء أو الحادثة العفوية ، ولكن من المؤكد أن هناك قوة ترقب البشرية ، لا قوة تنتج وتصون جنساً بشرياً ، يعود بعد استنفاد عبء الأحزان الكامل الذى يثقل كاهله ، فيقع فى الشر الأبدى وهو الموت : فاستعده مرفأً أمينا وملجأً كريماً قد أعد لنا كى نلوذ به[1] ويقول « ماركس أووريلوس « ١٢٠ — ١٨٠ م » إن الكون كمجموع ، متضمن فى عملية «دور » . وطبق هذه الفكرة على التاريخ : أن خط سير الطبيعة : ظل واحداً لا يتغير منذ الأزل بأجمعه وكل شىء يظهر فى دائرة . إن هذا العالم نفسه يعيش بالتغيرات المستمرة التى لا تلم بالعناصر فحسب ، بل تلك الأشياء التى تتكون من تلك العناصر فى دورة مستديمة من تعاقب التولد والتحلل . ويحدث التكرار دائماً فى ثنايا تغيرات التاريخ ، والتاريخ هو هو لا يتغير على الدوام من حيث طبيعة محتوياته . فمن شهد العصر الحاضر فقد رأى كل شىء كان أو سيكون إلى آخر الأبد كله ، وذلك أن الأشياء مضت على الدوام فى سبيلها وستمضى دائماً ، على طريقتها المنسقة المتماثلة . وعلى الجملة ، لو أنك قلبت الفكر فيما يجرى حولك ، وجدت أن جميع أحداث العصر الحالى ، هى نفسها التى تمتلىء بها تواريخ كل عصر ، فلا جديد هناك . .

إن طول الحياة مسألة غير ذات وزن فى الحقيقة ، وذلك لأننا سواء أشهدنا ذلك المشهد مدة مائة سنة أو مائة ألف سنة ، فإن نهاية كل شىء واحدة بلا تغير . وبمثل هذا الاعتقاد لم يكن يتهيأ لفكرة الحياة بعد الموت إلا أقل القبول . إذ لم يكن من المستطاع استخدامها لفرش فرشة من الأمل فى وجه شرور الحياة الراهنة ، وذلك لأن الحياة المستقبلة لن تكون إذن سوى تكرار لخبرات هذه الحياة .

---

(١) التاريخ وكيف يفسرونه : ص ٦٦ .

ولم ينكر ماركوس أوريليوس «إنكاراً مطلقاً احتمال استمرار الوجود الشخصي بعد الموت. فالإنسان جسم وروح . فإذا حان الموت ، تحول الإطار البدني إلى عناصره الأصلية ، وذلك على حين أن الجزء الروحي إما أن يخمد أو يتحول إلى حالة ما أخرى للوجود . ويبدو أن الفكرة المسيطرة عليه هي أن : « الكائنات الروحية جميعاً تذوب سريعاً فى روح الكون ، كما أن ذكرى الأشياء جميعاً تدفن بنفس السرعة فى خضم الزمن » .

ولا يجوز التماس دلالة التاريخ فى حالة أرضية مستقبلة يمكن اعتبار الحياة الحالية بالنسبة إليها وسيلة وأداة ، ولا باعتبارها إعداداً لحياة أعلى بعد الموت . فإن لكل فرد مدته الزمنية . « إذ الكائن الأعلى يقسم لكل مخلوق نصيباً مناسباً من الزمن » . وبذا تكون « الآن » من مدته الخاصة ، هي التي ينبغي أن نبحث فيها عن معنى التاريخ بالنسبة إليه وإلى كل فرد . . وقد ركز ماركوس أوريليوس التفاته على « الآن » أي اللحظة الراهنة . وإذن فإن تلك المزايا جميعاً « أي حالة الكمال والسعادة التي تريد بلوغها مخترقاً دورة طويلة من الزمن والنصب ، فأنت مستطيع الحصول عليها الآن إن لم تكن عدو نفسك : وهو شيء سيتم لك ، إن أنت ، وقد أصبحت لا تفكر بتاتاً فى الزمن الماضي ، وتركت المستقبل « للعناية » : — استخدمت الوقت الحالي وفق ما تمليه التقوى والعدالة . فتخضع لما تمليه التقوى بالخضوع برضا وحبور لما قسم لك ، إذ أن ذلك سيقودك إلى خيرك فى النهاية ، كما أنه مقدر عليك ذلك النصيب ، وستخضع لما تمليه العدالة ، إذ مع الحرية وبلا مراوغة ستنطق بالصدق ، وتتصرف فى جميع المناسبات حسب قانون العقل وطبق أهمية الشيء » . والخير الذي فى التاريخ كما نعيشه لا يمت إلى المذهب الذي بأدنى سبب . إذ تمكن للعقل — بل ينبغي له — أن يكون غير آبه بلذة ولا ألم : والأساس الجوهري للسعادة هو احترام الذات . « فتدثر بفضائلك وكن مستقلا . وذلك أن العقل المتحلي بالتعقلية الذي يعمل على الدوام بهداية العدل والنزاهة قمين ببلوغ السعادة وسيسعد بالهدوء الدائم » .

ومع أن هذه النزعة الفردية تعد شيئاً جوهرياً لدى ماركوس أوريليوس ، فإنه اعترف اعترافاً تاماً بطبيعة الإنسان وواجباته الاجتماعية . فكل مكلف بالقيام بنشاط «خاص لأدائه» — بما فى ذلك ما ينطوي عليه مركزه فى المجتمع من نشاط .

« وكل ما أنا تواق إليه ، هو رجائي أني أنا نفسي لا أقوم بأي شيء يناقض طبيعة الإنسان ، ولا أن أتصرف بأية طريقة ولا فى أية مناسبة تصرفاً لا يتواءم وواجبي ومركزي » ، « ولما كنا مواطنين زملاء فى دولة واحدة ، فإن أول واجبات الإنسان وأهمها جميعاً تهذيب المجتمع » على أنه هو بالتخصيص كان له مكانه كروماني ، ولكن نزعته كانت عالمية فهو يقول : « بالنسبة لي أنا أنطونينوس ، فان مدينتي هي روما ، ولكن موطني باعتباري إنساناً هو العالم كله » .

والعقل فى حد ذاته شيء « لا سبيل إلى قهره » ، « ولا سبيل إلى إجباره على غير رغبته » والعقل « سيادة مطلقة » فى فلكه . « والقدرة على العيش مستقرة فى عقلك بأقصى غاية السعادة » .

وقد سلم ماركوس أوريليوس بآراء ثلاثة محتملة حول الأسباب النهائية (القصوى) لأحداث التاريخ :

(١) إن كل شيء وليد الصدفة المحضة .

(ب) إن كل شيء تحدده « ضرورة محتومة » .

(ج) إن كل شيء باستثناء ما يعود إلى حرية الإنسان — يرتكن إلى « عناية » شفوقة رحيمة محسنة :

فتبنى الرأى الأخير . فكل ما خرج عن متناول يدك وهمتك ينبغى تقبله مع الاتزان والهدوء : ويرفض الاعتقاد « بالعناية » كل فكرة لذية عن التاريخ . وذلك أن المرء المقتنع بفكرة لذية سيضطر إلى الإكثار من بث شكواه حول تصرفات العناية » . قولا منه بأنها إنما توزع أفضالها على المسيء الشرير والمتحلى بالفضيلة دون إعتبار لما عليه كل منهما من استحقاق ، حيث كثيراً ما تتوافر المسرات للشرير المسيء فضلا عن وسائل إحرازها ، على حين أن المتجمل بالفضيلة ترهقه الآلام وغيرها من الظروف الأثمة » : ومع هذا ، فإن ما يتضمنه الاعتقاد فى « العناية » ، أن « جميع الأشياء إنما تعالج بأقصى قسطاس وعدم تحيز » :

أما عن وجهة نظر ماركوس أوريليوس حول الشر فى التاريخ ، فإن موقفه يغشاه شيء من الغموض ، ومع أنه أعلن أن : « العالم بأكمله نظام يؤلف بينه الانسجام » ، فإنه غالباً ما أشار إلى الأذى الشرير . أما عن مصاعب الحياة وآلامها : « فإن شيئاً منها لا يقع على أم رأس الإنسان إلا ماله القدرة على تحمله[١] :

وفى منتصف القرن الثامن عشر ظهرت مدرسة من المؤرخين ذوى النظرة الشاملة والأغراض السامية : بدأ المؤرخون يكتبون تواريخ عامة لا تسيطر عليها فكرة واحدة كتمجيد بطل أو حاكم ؛ وكان الرعيل الأول من أئمة هذه الحركة هم جيبون وهيوم فى انجلترا ، وشلوسر ومولرفى المانيا ، وسار فى أثرهم حشد من الأتباع معظمهم من الألمان : وقد نحا هؤلاء المؤرخون المنحى الفلسفى ، وقالوا إن الحقائق المجردة للوجود الإنسانى تنطوى على أهمية لا تعدلها إلا أهمية العبر التى يلقنونها للناس لرفعة البشرية .

ولا مناص فى هذه النظرة الحديثة من أن تربط كل واقعة بحشد من الوقائع الأخرى حتى يمكن إدراك دلالتها الحقيقية ، فالحوادث بمقتضى هذا الرأى لا معنى لها إلا إذا عرفنا شيئاً عن الدوافع الإنسانية التى أدت إلى وقوعها . وواجب المؤرخ هو تحرى الأسباب ومحاولة بناء فلسفة حقيقية للحياة من عبر التاريخ .

وليس من شك فى أن هذا الواجب لا يختلف ، عن الواجب الذى كان الكتاب القدماء مثل « بوليبوس » اليونانى قد أحلوه من عنايتهم محلا رفيعاً : ولكن ثمة توكيداً لهذه الناحية فى الموضوع فى عصرنا الحاضر ، وهو توكيد لا نصادفه بصفة عامة فى العصر القديم ، أو أن فلسفة التاريخ فى عصرنا أكثر وعياً : وقد تداول الناس عبارة « فلسفة التاريخ » من قرن مضى : وعمد بعض الكتاب

---

(١) التاريخ وكيف يفسرونه : ص ٧٠ — ٧٢ .

الذين لم يكونوا أصلا من المؤرخين إلى التحدث عن هذا الموضوع ، بل وأصبحنا أخيراً تتابع سير الزمن ، فنتكلم عن «علم التاريخ» .

ويتبوأ التاريخ اليوم مكانة سامقة بوصفه علما بحق ، ولفظ «علم» اصطلاح مرن غاية المرونة ، على أن ثمة من ينكر أننا نستطيع إطلاقه صحيحاً فى الوقت الحاضر على الأقل ، على مجموعة معارفنا عن الوقائع التاريخية ، وما يهمنا الآن هو أن الباحث التاريخى الحديث تسيطر عليه النزعة العلمية التى تتحرى الدقة والبعد عن الهوى ؛ ولما كان البعد عن الهوى والغرض يعتمدان اعتماداً كبيراً على صحة النظرة ، فإننا نخلص من ذلك إلى نتيجة غريبة بعض الغرابة ، وهى أن البحوث الدقيقة التى يقوم بها المتخصص تؤدى بطريقة غير مباشرة إلى النظرة الشاملة التى يتسم بها كاتب التواريخ العامة .

وقد عبر الأستاذ فريمان أحسن تعبير عن هذه الفكرة بقوله :

«إن موقفى يتلخص فى أننا فى جميع دراستنا للتاريخ واللغة» ودراسة اللغة فرع من أهم فروع دراسة التاريخ ، علاوة على سائر ما لها من فوائد أخرى يجب أن ننبذ كل ما يفرق بين «القديم» و«الحديث» وبين «الميت» و«الحى» . ولا مناص لنا من أن نستمسك فى جرأة بتلك الحقيقة الكبرى ، وهى وحدة التاريخ ؛ أما وأن الإنسان هو الإنسان فى جميع العصور ، فإن تاريخ الإنسان هو هو فى جميع العصور ، وما من لغة أو عصر من عصور التاريخ بمستطاع فهمها أو فهمه حق الفهم ، وما من لغة أو عصر من عصور التاريخ يمكن أن نعطيها أو نعطيه حقها وحقه من الأهمية أو حقها وحقه من الفائدة ، إذا نظرنا إليها أو إليه نظرتنا إلى كل فى ذاته دون أن نرجع إلى أثر هذه اللغة فى اللغات الأخرى ، وأثر هذا العصر فى العصور الأخرى من عصور التاريخ التى تشترك معه فى تكوين ذلك الكل الإنسانى العظيم ، أو قل ذلك الإنسان الآرى والأوربى على الأقل[1]» .

وقد أسفر انتصار المسيحية[2] عن مبدأ لاهوتى خالص فى التاريخ ، فقد تحول إلى أيدى القساوسة والرهبان وبقى فيهم زهاء ألف سنة من الزمان ؛ وكان من وراء ذلك أن غدا التاريخ خاضعاً للاهوت مسخراً له ، وقد أصبح عملا تعليمياً ، وفقد كل صفة علمية كان يتصف بها وأصبح لا يكترث بحال لما هو حق أو محتمل الوقوع ، وغدا مشحوناً بأخبار الخوارق والكرامات غير معنى إلا بما له صلة بالدين .

وجملة القول إن تحول التاريخ إلى رجال الدين كان معناه محو التاريخ الصحيح فى الوجود محواً تاماً دام ألف سنة ؛ وقد أغفل التاريخ كما يقول «بيورى» السببية والعلاقة بين السبب والمسبب ورد كل شىء إلى إرادة الله ، أما البشر فليسوا سوى دمى تتحرك بلا إرادة فى ذلك الصراع الرهيب بين الله والشيطان أو بين الخير والشر .

---

(١) هنرى سميث وليامز : التاريخ والمؤرخون ، ترجمة إبراهيم زكى خورشيد (دائرة معارف الشعب) .
(٢) هرنشو : علم التاريخ ، ص ٢٥ .

يرى المؤرخ الفرنسى جوستاف لوبون فى كتابه « فلسفة التاريخ » أن الحوادث التى يتألف منها التاريخ تنشأ عن عوامل مختلفة ، ومن هذه العوامل ما هو ثابت كالأرض ، ومنها ما هو عارض كالغزوات . ويغدو التاريخ أمراً مستحيلا إذا ما أوجبت دراسة تعاقب العلل البعيدة التى تعين كل حادثة ، ولذلك يجب أن يسلم بدراسة العلل المباشرة ، ثم يبحث موجز العوامل العامة التى كانت ذات أثر فى تكوينها زمناً طويلا .

ويقول : من أهم اكتشافات العلم الحديث إقامة مبدأ التقلب مقام مبدأ الثبات ، وأبدى تقلب العالم الدائم هذا من سنن وجوده الأساسية .

ولم تكن التحولات فى التاريخ بالغة ذلك العمق ، ولكنه إذا ما نفذ فى منطقة الأسباب المظلمة ظهر أن أسباب الحوادث الحقيقية تختلف كثيراً عن التفاسير الوهمية التى غدت عقائد قروناً طويلة .

وقد اختلف المؤرخون على العامل الرئيسى الذى يتحكم فى سير التاريخ ويمكن اتخاذه أساساً لتفسير أحداثه .

يرى بعض الكتاب كفرويد أن الجنس هو العامل الرئيسى الذى يتحكم فى سير التاريخ ، ولكن هذا التفسير يهبط بالإنسان ، ويحوله إلى مجرد حيوان تحركه غرائزه ، وشهواته الجسدية فقط . لقد كان هم « فرويد » تلويث الدين والأخلاق فقال : « إن التسامى نوع من الشذوذ »(١) وأن الأخلاق تتسم بطابع القسوة حتى فى درجتها الطبيعية العادية ، وأن الأساطير المسيحية تصور فى حقيقتها رغبة الابن « المسيح » فى قتل والده « الرب الإله » وإن كان قد كبت هذه الرغبة فقتل نفسه بدلا من أبيه ، ولكن أصبح إلها مكان أبيه ؟

وإن الحضارة تتعارض مع النمو الحر للطاقة الجنسية . وأن الدين والأخلاق والحضارة تنشأ من الكبت الجنسى ، والكبت الجنسى خطر على الكيان النفسى والعصبى لأنه يصيب النفس بالعقد والاضطرابات .

كان فرويد فى خدمة الصهيونية . وقد جاء فى كتاب : « بروتوكولات حكماء صهيون » : « يجب أن نعمل لتنهار الأخلاق فى كل مكان فتسهل سيطرتنا ، إن فرويد منا ، وسيظل يعرض العلاقات الجنسية فى ضوء الشمس لكى لا يبقى فى نظر الشباب شىء مقدس ، ويصبح همه الأكبر هو إرواء غرائزه الجنسية ، وعندئذ تنهار أخلاقه » .

يرى المفكر البريطانى توماس لايل أن التاريخ الإنسانى ما هو إلا تاريخ أفراد عظماء صبغوا الوجود السياسى بإرادتهم ، أى أن حركة التاريخ ليست حركة شعوب أو طبقات إنما هى حركة بطولات فردية .

---

(١) Three Contributions of The Sexual Theory.

يقول كارلايل (١) إن الأبطال قد يبدون فى بعض الأحيان أقل جودة وقد لاتكون شجاعتهم هى المحرك لهم ، ولكنهم ممتازون فى بعض النواحى فهم لهم الأتباع والمعجبون ويطاعون إلى درجة العبادة .

وبالرغم من أن كارلايل كان مقتنعاً بأهمية الدور العلمى والمميزات التى جاءت عقب التقدم فى العلوم مثل الطب ، إلا أنه لم يكن مقتنعاً بأهمية ذلك التقدم من الناحية الاجتماعية .

هذا النوع من القيادة يمتاز بأن الشخص يعمل بدافع من أعماق نفسه فهو حذر ، والحذر ينبع من أعماق نفسه . وبذلك فهو يتجنب الوقوع فى الخطأ . ولا يعتمد البطل هنا على المنطق أو العلوم أو الرياضيات التى تكشف قوى الطبيعة . ولكن الدافع الذى يحرك هذا البطل هو شعور داخلى يحث يدفعه إلى العمل والنجاح . والبطل هنا يعمل بالحكمة القائلة : « اعمل أو أنك لن تفعل أبداً » وبذلك يعمل مستخدماً قوة الاحساس والخبرة التى تنبعث من أعماق النفس

وكان ظهور البطولات فى أعمال الفروسية والدين والفن والحكم هو طابع القرن الثالث عشر . وكان كارلايل يبحث فى الفروسية التى تربط بين تلك البطولات وتربط أعمال أو أفعال العظمة واللياقة والرشاقة مع المشاعر الداخلية والتى تسير تلك البطولات . التى كان لا يمكن ظهورها فى العصور التى تلت والتى تميزت بالصناعة . وهذا ما لا يمكن ظهوره الآن حيث أن المجال قد ضاق ضد الفروسية ومسببات نجاحها .

وقدم كارلايل مثلا على ذلك(٢) ... هو فريدريك الأكبر الذى قاد مجموعة قليلة من الرجال واستطاع أن يسيطر على مشاعر هؤلاء الرجال فأصبح بطلا من أبطال الفروسية . .

---

(١) أوجين جنسنجر : الزعامة ، ترجمة سلوى حافظ ، وروحية ناجى ، ص ٣١ .

(٢) يقول إدواردكار فى كتابه « ما هو التاريخ » : « أصبحت نظرية الرجل العظيم فى التاريخ فى السنين الأخيرة مثل — مذهب الملكة بس Bess » الطيبة — لا تساير الزمن . ويقول : إن الرجل العظيم فرد ، وكونه فرداً بارزاً هو كذلك ظاهرة اجتماعية ذات أهمية بارزة ، وكما لاحظ « جيبون » إنها لحقيقة واضحة إنه يجب أن تكون الأزمنة ملائمة للشخصيات غير العادية ، وأنه ربما انتهت عبقريات مثل « كرومويل » أو (« زيتس » لو ظهرت فى الوقت الحالى ، فى زوايا الخمول وغموض الشأن .

وشخص ماركس فى كتابه « بروميير الثامن عشر للويس بونابرت » الظاهرة المضادة بقوله : « لقد خلقت الحرب الطبقية فى فرنسا ظروفاً وصلات يسرت لعدد كبير من الأفراد العاديين السير بخيلاء فى أثواب الأبطال » .

ويرى الدكتور ليفيس Leauis « إن أهمية العظماء تتوقف على مدى ما ينشئون من وعى إنسانى » فالرجل العظيم يمثل شيئاً على الدوام ، فهو إما أنه يمثل القوى القائمة ، أو القوى التى يساعد على خلقها عن طريق تحدى السلطة القائمة . ولكن ربما يمكن منح أعلى درجات الخلق لأولئك العظماء من الرجال ، الذين ساعدوا مثل « كرومويل » أو « لينين » على تشكيل القوى التى ساقتهم إلى العظمة ، والذين هم أكثر استحقاقاً لها من أمثال نابليون وبسمارك ، الذين صعدوا إلى العظمة على ظهور قوى قائمة فعلا ، ويجب كذلك ألا ننسى أولئك العظماء من الرجال الذين كانوا متقدمين على عصرهم ، فلم تدرك عظمتهم لذلك سوى الأجيال اللاحقة .

وما يبدولى ذا قيمة رئيسية هو أن أرى فى الرجل العظيم فرداً بارزاً ، وأنه فى نفس الوقت من انتاج التاريخ ، ويقوم بدور فعال فيه ، وأنه ممثل لقوى اجتماعية تشكل العالم ، وأفكار الناس ، وفى نفس الوقت خالقها » .

(ما هو التاريخ : ترجمة أحمد حمدى محمود ، ص ٧٠ — ٧٢)

يقول كارلايل : ابحث عن الرجل الذى يمتلك القدرة فى أى بلد وارفعه إلى أعلى مكان واعطه الولاء ... وبذلك ستحصل على حكومة متكاملة بوجود ذلك الرجل فى هذا البلد . ولا يمكن أن يخدم البلد برلمان أو غيره مثل ما يخدمه ذلك الرجل .

ويشير كارلايل إلى أوليفر كورمويل كمثل لذلك الرجل الذى ظهر بظهور الطائفة البيوريتافية فى القرن السابع عشر ، ولكن أصدق من هذا المثل فى رأى كارلايل هو نابليون البطل الذى يبدو وكأنه أمير .

البطل الحقيقى هو الذى يحمل قلباً كبيراً وقوته تكمن فى إخلاصه وشجاعته وانتصارات البطل ليست انتصارات القوة ، ولكنها انتصارات الولاء . وقد ضاع نابليون حين أصبحت انتصاراته انتصارات قوة بحتة ، والذين خلعوه لم يكونوا سوى رجال عاديين .

وبذلك فبالنسبة للبطل الحقيقى : الحق هو القوة وليست القوة هى الحق ، لأن الحق يحمل كثيراً فى ذاته .

نقد « جون ستيوارت مل » نظرية كارلايل الخاصة بالبطل ، لأنه كان يؤمن أن تاريخ الإغريق يتعلق بأخلاق الرجال الذين يحكمون . وكان يقول : إن وجود رجل شرير أو خير فى أية مدينة فى مرحلة معينة كان كفيلا بتغيير مصير العالم كله .

ولما كان « مل » يؤمن بأن تجارب رجال قليلين فى العالم قد تدفع العالم إلى التقدم إذا طبقت فقد قال : إن هؤلاء الرجال القليلين هم الذين يعطون طعم الحياة . وإن العالم بدونهم يصبح بركة ماء راكدة ، لأنهم لا يقدمون العظمة التى لم تكن موجودة وهم قبلهم فحسب ، ولكنهم يعرفون أيضاً كيف يحافظون عليها .

وقد قال « مل » : إن الذين يأتون بعد العباقرة يجدون صعوبة فى تفهم ما كان هؤلاء العباقرة يفعلون من أجلهم .

وأول شىء يجب أن تقدمه القيادة هو الوعى . وقد رأى « مل » أن الرأى العام يقود العالم ، وكان « مل » يؤمن أن إدخال عمل نبيل أو حكيم لا يأتى إلا من الأفراد ، وعادة من فرد واحد معين ، والمجد الذى يحصل عليه الرجل المتوسط هو قدرته على تتبع ذلك العمل النبيل . وكان « مل » لا يؤمن بالرجل القوى الذى يحكم العالم تبعاً لأغراضه لأن قوة الضغط على الآخرين تفسد ذلك الرجل القوى نفسه .

والطريق السليم للديمقراطية ، هو أن يكون الفرد مسئولا عن إعطاء السلطة لرجال متفوقين يعرفون كيف يستعملونها . ولوجود السعادة والسلام يجب أن توجد طرق سليمة لاختيار الرجال الذين يساهمون فى توزيع تلك السعادة .

وفى هذا النظام الديمقراطى أفضل طريقة لإيجاد الرجال العظماء هى طريقة القيادة السلمية .

والقائد المثالى عند « مل » هو الذى يخلق مناطقاً للنفوذ مستقلة تبعاً لعدد الرجال الأذكياء الموجودين فعلا .

لقد كان « مل » يخاطب العقل لأنه كان يبحث عن مستوى التفكير العالى الذى يلهم الآخرين بمستويات أعلى وأرفع . • فى رأى « مل » أن رسالة البطل هى إيقاظ مقدرة الإنسان على تحديد المصلحة العامة عن طريق المناقشات .

ويقدم الكاتب الألمانى « ماكس فيبر » إطاراً متكاملا لمفهوم البطولة فيما عبر عنه بالقيادة : « الكاريزماتية » بمعنى أن التاريخ ما هو إلا صراع بين المجتمع السياسى وبين الطبقات المختارة ، وأن القائد الكاريزماتيكى هو القائد البطل الذى يقود المجتمع فى اللحظات المصيرية ليعود به إلى توازنه الطبيعى أى أن القائد الكاريزماتيكى هو أداة المجتمع لتخليصه من عيوب معينة .

ويرى المؤرخ البريطانى « أرنولد توينبى » أن الزعامة المبدعة (متمثلة فى أقلية رائدة أو فرد عبقرى » تفقد على طول المدى فتنتها للجماهير ، وذلك بسبب تآكل طاقتها الإبداعية بفعل إخفاقها فى علاج المشكلات التى تجابه المجتمع الذى تقوده ، ولكن تلك الزعامة تصر على التشبث بدورها القيادى المميز الذى لم تعد تصلح له بعد فقدانها طاقتها الإبداعية . وهنا تتحول الأقلية المبدعة إلى أقلية مسيطرة تستعين بالقوة العارمة للحفاظ على مركزها المرموق فى المجتمع الذى تقوده ، عوضاً عن ولائه لها بدافع من افتتانه بها تحت تأثير عبقريتها .

ويبدى توينبى عوامل اخفاق الأقلية الرائدة للمجتمع — أى مجتمع — فى الاستجابة لتحديات العصر بوساطة سرد أمثلة من التاريخ تبين أن الجماعة التى تستجيب بنجاح إلى تحد واحد ، نادراً ما تستجيب بنجاح إلى التحدى التالى . فان أولئك الذين يقيض لهم التوفيق ذات مرة ، يميلون فى الفرصة التالية إلى التواكل ، ومن مظاهر هذا التواكل البغيض ، تقديس الشعب زعامته أو تغالى الزعامة بالإيمان بقدرتها ، وعبادة الدولة لنظامها مما يصدها عن تطويره وفقاً لمقتضيات العصر ، فلقد انبثق عن المغالاة فى تكريم التنظيم السياسى قوة حاكمة قوامها : إما ملك مؤله أو ظهور نوع من الطائفة أو الطبقة أو المهنة التى يتوقف مصير الدولة على مهارتها وإقدامها .

ويطالعنا فى هذا المجال المثال التقليدى عن تجسيد المجتمع المصرى السيادة السياسية فى عصر الدولة القديمة فى إنسان بشرى ، وقاد تشبث المجتمع بفكرته إلى إعراضه عن رسالة سامية نادى بها إخناتون ، الذى تطلع إلى تجديد شباب مجتمعه روحانياً ، وبالأحرى فاذا كان المجتمع المصرى قد استجاب بنجاح فائق لتحدى البيئة ، إلا أنه أخفق فى الاستجابة لنداء رسالة أسمى وأعظم صفاء — أى رسالة إخناتون — وقاد هذا الفشل إلى انهيار الحضارة المصرية مبكراً .

ويرى بعض الكتاب أن البيئة هى العامل الأول فى تفسير التاريخ ، وتبسط رسالة عنوانها : تأثيرات الجو والماء والموقع » الآراء اليونانية فى هذا الموضوع . وترجع الرسالة إلى القرن الخامس قبل الميلاد ، وقد حفظت ضمن مجموعة أعمال مدرسة « هيبو قراط » الطبية ، وفيها نقرأ مثلا :

« يمكن(١) تقسيم الأشكال البشرية إلى النوع الجبلي الغزير المياه ، والنوع ذي التربة الضعيفة عديمة المياه ، ونوع المراعي ذات المستنقعات ، ونوع السهول المستصلحة جيدة الصرف . وتميل أبدان سكان البلد الجبلي والغزير المياه والموجود على ارتفاع كبير – حيث يكون مجال التقلبات الموسمية واسعاً – إلى ضخامة البنية التي تتفق مع ما يلزمهم من شجاعة وقدرة على الاحتمال . أما سكان الأراضي المنخفضة الحارة الرطبة التي تقطعها المروج المائية والتي هي أكثر تعرضا في العادة للرياح الحارة منها إلى الباردة والذين يشربون ماء فاتراً ، فانهم – على العكس – ليسوا أقوياء البنية كما أنهم ليسوا نحافا ، لكنهم ضخام مترهلون ذوو شعور سوداء ولون الوجه أقرب للسواد منه إلى البياض ، وهم أميل إلى الغضب منهم إلى البرودة ، وليست الشجاعة والاحتمال من صفات طبائعهم الأصيلة لكي يتأتى بها فيهم بفضل تطبيق النظم الفعالة . أما سكان البلد غير المستوى وذى الرياح الجارفة والمياه الغزيرة والموجود على ارتفاع كبير ، فانهم أقوياء البنية ويمقتون النزعة الفردية ، وفي طبائعهم نوع من الجبن وسهولة الانقياد ، وسنجد في غالبية الأحوال أن الجسم والخلق البشريين يتغيران وفقاً لطبيعة البلد » .

على أن قوام التفسيرات الأثيرة لدى الهيلينيين عن نظرية البيئة ، كانت مستمدة من الاختلاف بين تأثير الحياة في وادى النيل الأدنى على طبيعة المصريين وخلقهم ونظمهم ، وبين أثر الحياة في السهل الأوراسى على طبيعة الأسفوذائيين(٢) .

ونفحص النظرية الهيلينية على أساس مثاليها الأثيرين :

الأول : السهب الأوراسى « أى الأوربى الأسيوى »

الثانى : وادى النيل .

ولابد أننا سنجد مناطق أخرى على سطح الأرض متشابهة – من الناحيتين الجغرافية والمناخية – مع كل من هاتين المنطقتين ، فان أسفرت جميعها عن تشابه السكان في طبائعهم ونظمهم ، مع الأسفوذائيين في حالة ، ومع المصريين في الأخرى ، ثبتت نظرية البيئة ، وإلا نقضت .

ونتكلم أولا عن السهب الأوراسى الذى لم يعلم اليونانيون عنه سوى ركنه الجنوبى الغربى ؛ ونضع إلى جانبه السهب الأفراسى (الأفريقى الأسيوى) الممتد في بلاد العرب عبر شمال إفريقية .

فهل يعنى التشابه بين أنحاء السهبين تشابهاً مماثلا بين المجتمعات البشرية التى انتشرت في كلتا هاتين المنطقتين ؟

الردّ بالإيجاب .

فإن كلا السهبين قد أنتجاً النوع البدوى من المجتمع ، وأظهرت هذه البداوة في السهبين نفس أوجه الشبه وأوجه الاختلاف .

---

(١) فؤاد محمد شبل : منهاج توينبى التاريخى ، ص ٣٠ – ٣٢ . وكتاب الجغرافيا توجه التاريخ ، تأليف جوردون إيست أستاذ الجغرافيا التاريخية بجامعة لندن ، وترجمة الدكتور جمال الدين الدناصورى .

(٢) نسبة إلى الأقليم الواقع شمال البحر الأسود وبحر قزوين وبحر أورال – جزء من الاتحاد السوفيتى حالياً .

اختلاف فى نوع الحيوانات المستأنسة مثلا التى كان يجب أن نتوقع وجودها نظراً لأوجه الشبه — وأوجه الاختلاف — القائمة بين المنطقتين . لكن تتهاوى العلاقة بإجراء مزيد من الاختبارات ، إذ نجد أن الأجزاء الأخرى من العالم التى تعرض فيها البيئة اللازمة للمجتمعات البدوية ، مراعى أمريكا الشمالية مثل منطقة اللانوس فى فنزويلا والبمباس فى الأرجنتين ومراعى أستراليا — لم تنجب نوعاً خاصاً بها من المجتمعات البدوية .

هذا ، وليست الإمكانيات الكامنة فى تلك المناطق موضع سؤال ، ذلك لأن مشروعات المجتمع الغربى قد أدركتها فى عصرنا الحديث وغدت تستثمرها بفضل الرواد من أصحاب الماشية من الغربيين — مثل رعاة البقر فى أمريكا الشمالية والجوشو (رعاة البقر فى أمريكا اللاتينية) ورعاة الماشية فى أستراليا — الذين استحوذوا على هذه الأحراش التى لا مالك لها ، ونجحوا فى الاحتفاظ بها إبان بضعة أجيال ، مناضلين تقدم المحراث والمصنع . ولقد سلبت روعة مغامراتهم مخيلة البشرية . ولو كانت لدى السهب الأمريكية والأسترالية القوة التى تمكنها من إحالة رواد مجتمع ليست له تقاليد بدوية وعاش على الزراعة و الصناعة منذ نشأته أول مرة ، إلى بدو ولو لفترة جيل واحد ، لو كانت لديها هذه القوة لكانت طاقاتها الكامنة كبيرة جداً ، وفضلا عن ذلك ، فان الشعوب التى وجدها الرواد الغربيون الأوائل تشغل هذه المراعى ، لم تدفعها بيئتها إلى الحياة البدوية ، إذ لم نجد تلك الشعوب فى هذه المناطق التى تصلح للحياة البدوية أى وجه لاستعمالها أفضل من تخصيصها للصيد .

فاذا طبقنا بعد ذلك نظرية البيئة فى المناطق المشابهة لوادى النيل الأدنى لأسفرت التجربة عن نفس النتيجة . فان وادى النيل منطقة فريدة نوعاً ما فى السهب الأفراسى ، إن صح هذا القول . فعلى الرغم من أن مناخ مصر هو نفس المناخ الجاف السائد فى المنطقة الشاسعة التى تحيط بها ، فقد منحت موهبة استثنائية قوامها مدد منتظم من المياه والطمى يزودها به النهر العظيم الذى ينبع من وراء حدود السهب من منطقة غزيرة الأمطار . ولقد استخدم منشئو الحضارة المصرية هذه الموهبة لتهيئة مجتمع يختلف اختلافاً ظاهراً عن الحياة البدوية التى تحيط بهم من الجانبين .

فهل تعتبر البيئة الخاصة التى أتاحها النيل لمصر ميزة إيجابية إليها يعزى بدء الحضارة المصرية ؟

للتدليل على صحة هذا الرأى ، علينا أن نبرهن على أنه فى كل منطقة منعزلة أخرى ، تهيأ فيها بيئة من الطراز النيلى ، انبعثت حضارة مماثلة ، لهذا السبب دون غيره .

تصمد النظرية للاختبار فى منطقة مجاورة تتوافر فيها الشروط المطلوبة ، تلك هى المنطقة الدنيا من وادى الدجلة والفرات . فهنا نجد ظروفاً طبيعية مماثلة ومجتمعا مماثلا هو المجتمع السومرى . لكن تنهار النظرية فى واد أصغر وإن كان مشابها هو وادى الأردن الذى لم يكن يوماً ما مركزاً لأية حضارة . ولعلها تنهار كذلك فى وادى السند . إن كنا على صواب فى افتراضنا أن الثقافة السندية قد جلبها المستوطنون السومريون إلى هناك جاهزة كما هى .

ولكن أكثر النقاد تشدداً لا يستطيع أن ينكر أن أحوال البيئة التي تتيحها مصر والعراق ، يتيحها كذلك واديا نهر « ريوجراندى » وكلورادوا » فى الولايات المتحدة . . ولقد أنجز هذان النهران الأمريكيان — بفضل المستوطنين الأوربيين الحديثين وباستخدام موارد جلبوها معهم من الجانب الآخر من المحيط الأطلسى — نفس المعجزات التى فيضها النيل والفرات للمهندسين المصريين والسومريين ، بيد أن نهر كلورادوا » أو « ريوجراندى » ، لم يسر بهذا السحر إلى شعوب لم تكن من مريديه ، وإن كانت قد تعلمته فى مكان آخر .

ومتى ثبت ذلك ، لا يمكن اعتبار البيئة العامل الإيجابى الذى جلب الحضارات النهرية إلى الوجود ونتأكد من هذه النتيجة إذا ألقينا نظرة على بعض البيئات الأخرى التى أنتجت حضارات فى منطقة ولم توح بها فى أخرى .

فلقد برزت الحضارة الأنديانية إلى الوجود على هضبة مرتفعة ، ويختلف ما حققته اختلافاً كبيراً عن الهمجية الوحشية التى تأويها غابات الأمازون الواقعة تحتها . فهل كانت الهضبة سبب تقدم الحضارة الأنديانية على جيرانها المتوحشين ؟

أحرى بنا قبل أن نتقبل هذه الفكرة أن نلقى نظرة على نفس خطوط العرض الاستوائية فى أفريقية حيث تلتف مرتفعات افريقية الشرقية بولايات غابات حوض الكونغو . وسنجد أن الهضبة فى افريقية لم يقيض لها إنتاج أى مجتمع متحضر ، مثلها مثل الغابات المدارية فى وادى النهر الكبير .
والبيئة لا تمثل العامل الإيجابى الذى انتشل الجنس البشرى فى غضون ستة آلاف السنة الماضية من حالة الركود فى مستوى مجتمع بدائى ودفعه لسلوك طريق محفوف بالمخاطر سعياً وراء الحضارة .

ويرى بعض الكتاب أن الجنس أى توافر صفات مميزة وموروثة فى جماعات معينة من البشر هى التى تعين مجرى التاريخ وتحدد مركز الجنس من حيث الحضارة والتقدم بين الأجناس الأخرى .

كان الكونت الفرنسى « دى جو بينو » أول من وضع — فى أوائل القرن التاسع عشر — الإنسان النوردى (السلالة البيضاء والشعر الأصفر والعيون الشهباء والرأس الطويل) على منصة الشرف . فقدأدعى أن الحضارتين الهلينية والرومانية من نتاج الجنس النوردى .

واقتضى دعاة العنصرية فكرته فزعموا أن ذلك العنصر النوردى قد انتج القبعرية الدينية لزرادشت وبوذا وعبقرية اليونان الفنية وعبقرية روما السياسية ، وبالجملة ، يرجع إلى هذا الجنس فضل ما حققته البشرية من حضارة وتقدم .

ويتعصب لهذه الفكرة سكان جنوب افريقية البيض ومعظم البيض فى الولايات المتحدة وغيرها .

ويقرر المؤرخ البريطانى توينبى أن المذهب الذى يروج له طائفة من اليهود البريطانيين ليس إلا نظرية من نفس الطراز ولكن مع استخدام مصطلحات مختلفة ، وتسعى لتعزيز تاريخ وهمى بآراء دينية غريبة معقدة .

وبينما يصير دعاة الحضارة الغربية على اعتبار البشرة البيضاء دليلا على التفوق الروحى جاعلين الأوربيين أعلى من الأجناس الأخرى مقاماً ، وتظهر هذه الدراسة المغرضة عند فولتير وجيبون الذى يقول أن القوانين الطبيعية والسلوك الأخلاقى اللذان يلتزم بها الرجل الأوربى لا نظير لهما فى العالم ، ويرى « مايو » أن طاقة الإنسان الأوربى طاقة فوق البشر ، ويستخدم اليابانيون علامة بدنية مختلفة ، فمن قبيل المصادفة أن أجسام اليابانيين تخلو من الشعر بشكل ملحوظ ، بينما يجاورهم فى جزيرتهم الشمالية « هوكايدو » جماعة بدائية من طراز مختلف تماماً ، طراز بدنى لا يفترق كثيراً عن الأوربى وتسمى هذه الجماعة عند اليابانيين « الأينو الشعريين » قدموا الجزائر اليانية من جبال القوقاز عبر سيبيريا وكوريا وسكنوها قبل المغول الذين وفدوا إليها فى وقت متأخر والذين سادوا الجزائر اليابانية ، فكان من الطبيعى والحالة كذلك أن يقرن اليابانيون الأمرد بالتفوق الروحى ، وإنه وإن كانت دعواهم لا أساس لها — مثل الحجة الأوربية عن تفوق البشرة البيضاء — لكنها من الناحية السطحية أكثر منها قبولا لدى العقل ، ذلك لأن الرجل الأمرد بسبب خلوه من الشعر — أبعد منزلة نوعاً ما عن ابن عمه القرد .

وإذا قسم علماء أصول السلالات البشرية الرجال البيض حسب صفاتهم البدنية : الرءوس المستطيلة ، والرءوس المستديرة ، البشرة البيضاء ، والبشرة القاتمة ، وما إلى ذلك من الأنواع ، خرجوا من ذلك بثلاثة أجناس بيضاء أسموها :

النوردى — والألبى — وجنس البحر المتوسط .

ومهما تكن قيمة هذا التقسيم . فسنسرد عدد الحضارات التى أسهم فيها كل جنس من هذه الأجناس مساهمة فعالة .

ساهم النورديون فى أربع وربما فى خمس : الهندية ، الهلينية ، الغربية ، المسيحية الأرثوذكسية الروسية وربما الحيثية .

وأسهم الألبيون فى سبع وربما فى تسع : السومرية ، الحيثية ، الهلينية ، الغربية ، المسيحية الأرثوذكسية الأصلية والفرع الروسى فيها ، والإيرانية وربما المصرية والنبووية .

وأسهم سكان البحر المتوسط فى عشر حضارات : المصرية ، السومرية ، النيووية ، السريانية ، الهلينية ، الغربية ، المسيحية الأرثوذكسية (الأصلية) ، الإيرانية ، العربية ، البابلية .

أما بالنسبة لتقسيمات الجنس البشرى الأخرى :

أسهم الجنس الأسمر ، ونعنى به الشعوب المدارفيدية فى الهند والملاويين فى أندونيسيا فى اثنتين : السندية والهندوكية .

وأسهم الجنس الأصفر فى ثلاث : الصينية ، وفى حضارتى الشرق الأقصى كلتيها وهما الحضارة الأصلية فى الصين والفرع اليابانى منها .

وأسهم الجنس الأحمر فى أمريكا فى الحضارات الأمريكية الأربع .

أما العناصر السوداء فانها لم تسهم — حتى الآن — مساهمة فعلية إيجابية فى أية حضارة .

ويبدو للوهلة الأولى كما لو أن للعناصر البيضاء القدح المعلى ، لكن يجب ألا يعزب عن البال أن كثيراً من الشعوب البيضاء برىء من تقديم أية مساهمة فى أية حضارة ، مثلها فى ذلك مثل السوداء سواء بسواء .

ويبتدى للباحث أن نصف حضارتنا قائم على مساهمات أكثر من جنس واحد ، فان لكل من الحضارتين الغربية والهلينية — مثلا — ثلاثة مساهمين ، ولو قسمت الأجناس : الأصفر ، الأسمر ، الأحمر إلى عناصر فرعية مثل أقسام الجنس الأبيض (النوردى ، الألبى ، الأبيض المتوسط) . لحصلنا على عدد من المساهمين فى جميع حضارتنا ، أمّا عن مساهية هذه التقسيمات الفرعية . وهل كانت فى أى وقت من الأوقات قد مثلت — من الناحيتين التاريخية والاجتماعية — شعوباً قائمة بذاتها ، فان هذا شىء آخر والواقع أن الموضوع برمته غامض أشد الغموض .

ويتضح من ذلك كله أن النظرية القائمة على تفوق جنس على الأجناس الأخرى ، وأن جنسا أعلى هو الذى كان سبب انتقال الإنسان إلى الحضارة ، وصانع هذا الانتقال — هى نظرية غير صحيحة ، ومرفوضة رفضاً تاماً .

ويفسر فيكو(١) التاريخ على أساس التعاقب الدورى للحضارات . وتقوم هذه النظرية على ما يلى :

١ — تبدو عصور التاريخ(٢) كما لو كانت ذات خصائص عامة ، فمع أن لكل عصر طابعه النوعى الذى يتضح فى التفصيلات فانه بين العصور المختلفة خصائص مشتركة ، فترة هوميروس على سبيل المثال فى التاريخ اليونانى تشابه العصور الوسطى حيث الملاحم وعصر البطولة ، وحيث الحكم ذو طابع أرستقراطى كما يغلب على الأدب طابع الشعر الغنائى وعلى الأخلاق طابع الولاء يمكن إذن دراسة العصر الوسيط مع مقارنة سماته العامة على اليونان القديمة .

٢ — كل فترة تاريخية تتبع أخرى على نفس الخط ، ففترات البطولة تعقبها فترة يسود فيها الفكر على التخيل والنثر على الشعر والصناعة على الزراعة . وأخلاق السلم على أخلاق الحرب ، وهذه يتبعها تدهور إلى بربرية ذات طابع جديد مختلف عن بربرية عصر البطولة ، بربرية فكر لا خيال ولكنه فكر منهك عقيم ذبل فيه الطابع الإبداعى .

---

(١) ولد جيوفانى باتستافيكو فى نابلى سنة ١٦٦٨ . وكان والده صاحب مكتبة فأفاد منها كما أفاد من كلية اليسوعيين . ودرس اللغات القديمة واللاهوت والقانون ، عمل فى فاتولا أستاذا لأبناء أخت أحد الأساقفة ثم عاد إلى بلدته عام ١٦٩٥ ، عين أستاذاً للخطابة فى نابلى وقد توفى سنة ١٧٤٤ .

من أهم مؤلفاته : العلم الجديد ، فى الطبيعة المشتركة للأمم .

(٢) الدكتور أحمد محمود صبحى : فى فلسفة التاريخ ، ص ١٥٩ — ١٦٤ .

وكتاب التاريخ وكيف يفسرونه من كنفوشيوس إلى توينبى ، تأليف آلبان ج . ويدجرى ، وترجمة عبد العزيز توفيق جاويد ، ص ١٣٧ — ١٤٢ .

٣ — الحركة الدائرية بين هذه الأدوار لا تعنى أن مسار التاريخ كعجلة تدور حول ذاتها ولكنها حركة حلزونية لأن التاريخ لا يعيد نفسه على نفس النمط ، ولكنه يأتى بصورة جديدة فى شكل مخالف لما مضى ، ومن ثم فان بربرية العصور الوسطى تخالف بربرية اليونان القديمة اختلاف المسيحية عن الوثنية . والتاريخ فى تجدد دائم والتعاقب الدورى فيه لا يسمح بالتنبؤ .

يقسم فيكو التاريخ إلى أقسام ثلاثة :

١ — عصر الآلهة الذى اعتقدت فيه الأمم أنهم يعيشون فى ظل حكومة إلهية ، وكان كل شىء فيه تصدر عنه أوامر بطريق الوحى والفأل ، وهما أقدم شىء فى التاريخ الدنيوى .

٢ — عصر الأبطال ، الذى كانوا يحكمون فيه بكل مكان فى حكومات أرستقراطية بناء على ضرب من التفوق والامتياز فى طبيعتهم ، كانوا يعتقدون أنه يميزهم على العامة .

٣ — عصر الإنسان ، وهو الذى عرف فيه الناس أنهم جميعاً متساوون فى الطبيعة البشرية ، وبناء على هذا تأسست الجمهوريات الشعبية بعد الملكيات ، وكلاهما شكل من أشكال الحكومة البشرية » .

وقد مرت الشعوب كلها ، أو تمر فى هذه المراحل ، ثم انزلقوا أو سينزلقون إلى حال من البربرية وعندئذ تتكرر العملية بأكملها . ويرجع هذا السريان ومعاودة السريان ، هذه الصفة الدورانية للتاريخ — إلى الطبيعة الفطرية التى ركب عليها البشر .

وقد استقى فيكو هذا التقسيم من تاريخ مصر القديم ، ففى الدور الأول تكلم المصريون اللغة الهيروغليفية ثم اللغة الرمزية ، ثم سادت اللغة العامية للشعب وكان المصريون القدماء على علم بهذا التقسيم لتاريخهم وقد استقاه فيكو وحاول تطبيقه على جميع الأمم فى كل العصور . غير أن فيكو وان اقتبس صورة التاريخ من إحدى الحضارات الأممية (أى من غير اليهود) فانه يستقى مادة التاريخ من الكتاب المقدس الذى يدور التاريخ فيه حول تاريخ العبرانيين ، ومن ثم فانه ينتقد الحضارات القديمة كالمصرية والبابلية والصينية ولا يعدها أقدم الحضارات بل يعد ذلك خرافة ، ثم يبخس من شأن هذه الحضارات فمعتقداتهم مليئة بالضلالات ودياناتهم سحر وخرافات ، وهو لا ينتقدها فى الجانب الدينى فحسب بل يقلل من شأن الجوانب الأخرى التى عرف فيها تفوق هذه الحضارات ، فليس النحت الذى عرف به المصريون إلا بدائياً ولا عبرة بعظمة الأهرام التى يمكن أن تنتج عن مرحلة بربرية .

إن أقدم الأمم لدى فيكو العبرانيون ، وإن ذكرت كتب التاريخ غير ذلك ، فلأنهم « كانوا يعيشون فى عزلة تامة ومن ثم بقوا مجهولين ، كانوا لا يسكنون السواحل ولا يختلطون بالأمم الأخرى ، بل يذهب فيكو إلى أن من حاول نقل أخبار العبرانيين إلى الأمميين[1] لحقته اللعنة الإلهية، مثل تيودكت

(١) يطلق اليهود على غيرهم من البشر ، لفظ « أممى » لأنهم يعتقدون أنهم هم الناس ، وغيرهم « أمم » كلاب البشرية خلقت لخدمتهم ؟؟

الذى حرم نعمة البصر ، ويعتقد أن العناية الإلهية قد شاءت أن تحول دون تدنس دين الله الحق باختلاط شعبه المختار مع الأجانب ! وقد قدم فيكو فى المجلد الأول من كتابه « العلم الجديد » لوحة تاريخية لأهم وقائع التاريخ منذ خلق العالم مستنداً إلى التوراة ، فأبناء نوح بعد الطوفان لم يسيروا على نمط واحد فبينما حافظ أبناء سام على لغتهم وعاداتهم تشتت أبناء حام ويافث فى الأرض وعاشوا عيشة أقرب إلى الحياة الحيوانية ففقدوا مزاياهم البشرية ، وأصبحوا ضخام الأجسام ، ومن ثم انقسم البشر إلى عبران من سلالة سام وإلى عمالقة من نسل يافث وحام » .

شعر العمالقة بالخوف من بعض الظواهر الجوية كالبرق والرعد والصواعق ، واعتبروها غضباً من الإله فتحايلوا على إرضائه بالكهنة ، وحينما استقرت الأسر بسبب حرفة الزراعة وملكية الأرض أخذ العمالقة يفقدون ضخامة أجسامهم ، ولكن بعضهم بقى على تشرده وقد أصبح هؤلاء فى حالة أسرهم خدماً وموالى للمزارعين من أصحاب الأراضى وبذلك نشأ نظام الرق ، وقد شكل الآباء أو الرؤساء من أصحاب الأراضى طبقة النبلاء كما شكل الخدم والعبيد طبقة الرقيق ، فتكون بذلك المجتمع الأرستقراطى ولكن لما قويت شوكة رقيق الأرض بدأ هؤلاء يحصلون على بعض المزايا فتكون النظام الديمقراطى ولكن ذلك أدى إلى الفوضى فكان أن ظهر رجل شديد البأس قبض على زمام الأمور وأعلن نفسه حاكماً مطلقاً فتأسس بذلك حكم الفرد .

ويطبق فيكو آراءه على تاريخ اليونان والرومان ثم العصور الوسطى ، فيرى أن دور الأبطال لم يستمر طويلا لدى اليونان لأن ظهور الفلسفة عجل بالانتقال من الدور الإلهى إلى الدور البشرى دون أن يبقوا مدة طويلة فى الدور البطولى ، على عكس ما حدث لدى الرومان ، إذ طال الدور البطولى وعندما وصلوا إلى الدور البشرى كانوا قد ابتعدوا كثيراً عن الدور الإلهى .

ثم عاد الناس فى العصور الوسطى إلى بربرية شبيهة بالبربرية الأولى فاجتازوا دوراً إلهياً جديداً وهو الدور الذى تولى فيه الملوك المناصب الدينية ثم اجتازوا دوراً بطولياً عندما نشأت الفروسية وقامت الحروب الصليبية ، أما الدور الثالث فقد بدأ فى العصر الذى عاش فيه فيكو .

ويتصف التاريخ خلال هذه الأدوار بسجيتين رئيسيتين :

١ ــ أن الإنسانية لا تتقدم خلال أدوار التاريخ فى خط مستقيم كما أن التعاقب الدورى لا يعنى أنها ترتد إلى نفس البداية بل إن مسارها فى خط لولبى كما لو كانت تدور حول جبل لتصل إلى قمته ، كل دورة تعلو سابقتها ومن ثم فان ما يبدو أنه تكرار ليس إلا موقعاً أكثر ارتفاعاً تستطيع منه الإنسانية أن ترى آفاقاً أكثر إتساعاً ، فكلما ارتفعنا أكثر وأكثر فى صعودنا الدائرى ازدادت نظرتنا عرضاً وفكرنا شمولا .

٢ ــ إن العناية الإلهية هى التى أرادت أن يكون مسار التاريخ على نحو ما هو عليه : وقد استخدم[١] فيكو مصطلح « العناية » على وجهين : عناية « عامة » وعناية « خاصة » فالعناية « العامة » تعمل فى

(١) التاريخ وكيف يفسرونه : ص ١٣٩ .

التاريخ مستقرة متأصلة فى جميع عمليات الطبيعة ومسيطرة على جميع الشعوب . والتاريخ — فى رأية — لا يخلقه الناس وحدهم . وذلك لأن « العناية » تقتاد أحياناً نحو غايات أخرى غير تلك التى رمى إليها الرجال .

يقول فيكو : « إن الناس قاموا هم أنفسم بصنع عالم الأمم الذى نحن بين ظهرانيه ... ولكن هذا العالم قد صدر دون ريب عن «قوة عاقلة» أو « عقل » كثيراً ما تختلف ، كما أنها تكون فى بعض الأحيان مناقضة تماماً ومتسامية على الدوام ، على الغايات الخاصة التى قدرها الناس لأنفسهم ، وهى غايات ضيقة ، إذ اتخذت وسيلة لخدمة غايات أوسع فان العناية استخدمتهاعلى الدوام لحفظ الجنس البشرى على الأرض » وتسيطر « العناية » على الناس بوساطة ما لهم من غايات خاصة ، وتفعل ذلك بطريقة « متسامية » عليهم ، وهو أمر يتجلى فى حقائق التاريخ التى تفند كلا من اعتقاد الأبيقوريين فى الصدفة ، واتباع الرواقيين فى القضاء والقدر . ومع أن التاريخ يرجع بدرجة جزئية إلى حرية الناس فى الاختيار ، فان تلك الحرية لا تمارس إلا داخل الحدود التى تسمح بها « العناية » .

فان كان التاريخ شيئاً آخر يختلف عن غايات الناس الخاصة ، ويسمو عليها — فما هو ذلك الشىء الآخر ؟ لا شك أن المرء منا يرجو أن يصل فى الإجابة عن هذا السؤال إلى الفكرة الأساسية لتفسير فيكو للتاريخ . ولكن الإشارة الوحيدة إلى إجابة فى كتابه ، إنما هى عبارة من الواضح أنها أفلاطونية الطابع ، تكررت فى مناسبات عديدة ، دون أن يقوم المؤلف بتفسيرها ، ونصها كالتالى : « تاريخ أبدى مثالى ... تحرك مجراه فى الزمان ... تواريخ جميع الأمم » .

وكل ما أشار إليه فيكو من التاريخ الأبدى « المثالى إنما هو الخصائص الجوهرية للتاريخ العام للأمم ، كما يكتشف بطريقة التجربة فى أثناء طريق مسيرهم على الزمان » . وتحدث فيكو عن « العناية الخاصة » فقال إن المجال الوحيد الذى يستطيع فيه الإنسان التحدث عن « العناية الخاصة » هو التاريخ المقدس . ورغم ذلك ، فان فيكو لم يوجه أى التفات خاص بين العلاقة بين « العناية العامة » و « العناية الخاصة » فكلاهما تعبر عن الذكاء ، فالذكاء فى أولاهما مداره قوانين الطبيعة وعمليات التاريخ الطبيعية المرتبة أجود ترتيب ، والذكاء فى ثانيتهما سلط على ما يقود الناس إلى أعلى طراز للحياة .

وبينما نراه يصرح بأنه حتى أشد الناس توحشاً وضراوة وفظاعة ، لديه بعض فكرة عن « الله » وأن الأديان وحدها هى التى أوتيت القدرة على دفع الشعوب إلى القيام بأعمال تتصف بالفضائل » — إذاً هو يقول : « إن ديانتنا المسيحية صادقة ... أما كل ما عداها فزائف » والتاريخ المقدس يرجع إلى « النعمة الإلهية » ، وهى ناحية من « العناية الخاصة » أو صورة مطابقة لها .

إن فيكو لم يبحث العلاقة بين « العناية العامة » و « العناية الخاصة » ، فانه باعترافه بها يدل ضمناً على معارضة قاطعة لأى رأى يقصر نسبة نشاط الله فى التاريخ على عمليات « الطبيعة » المرتبة ، « فالعناية لا تنشغل فحسب بما يتكون منه العالم الفيزيائى الذى يجعل التاريخ ممكناً ، ولكنها تهتم أيضاً بصفة التاريخ نفسه بوصفه منطوياً على مثل أعلى للحياة يتخذه الناس . وقد تدخلت العناية الإلهية فى المجال السياسى ، إذ تناقش العوام مع الخواص فى التقوى والتدين وتحمس الشعب للدين مما أدى به إلى الاشتراك فى السلطة

المدنية والحكومات الشعبية ، ولكن لما كانت الحكومات الديمقراطية تستند إلى الانتخابات فان العناية الإلهية قد حالت دون سيطرة الصدفة عليها فكان حق التصويت مقيداً بمقدار من الثروة ، وأن يعتبر النشطين والمنتصرين والكرماء أليق بالحكم من الخاملين والمسرفين والمعوزين . فالأغنياء الفضلاء أليق بالحكم من الفقراء الفاسدين ، ولكن المواطنين جعلوا الثروة وسيلة لتدعيم السلطة لهم فكانت ثورات وحروب أهلية أدت إلى فوضى عامة . حينئذ تتدخل العناية الإلهية باحدى وسائل العلاج الثلاثة الآتية :—

١ — أن يظهر بين أفراد الشعب بطل مثل أوغسطس مؤسس الملكية ويضع حداً للفوضى .

٢ — إذا تعذر هذا العلاج من الداخل أتت به العناية الإلهية من الخارج فى صورة شعب أفضل يستولى بقوة السلاح .

٣ — إذا لم يحدث أحد هذين الأمرين واستمرت الفوضى طبقت العناية الإلهية دواءها الأخير : الفناء .

ظاهر أن الأفكار الرئيسية فى هذه المسلمات مستقاة من العهد القديم . الأمر الذى جعل آراء بعيدة عن الروح العلمية ، على عكس ابن خلدون الذى عرض لقصة من الكتاب الكريم أضفى عليها تفسيراً علمياً لتتسق مع سياق رائه ، من ذلك مثلا عقاب بنى إسرائيل بالتيه فى صحراء سيناء أربعين عاماً بعد أن رفضوا دعوة موسى لهم إلى فتح الأرض المقدسة ، فذهب ابن خلدون إلى أن الجيل الذى كان مع موسى من بنى إسرائيل قد اعتاد حياة الدعة والترف فى مدن مصر . كما خضع للذل والقهر من فرعون . ومدته أربعون سنة هى المدة اللازمة لفناء هذا الجيل ونشأة جيل جديد فى قفار سيناء لا يعرف إلا حياة الشظف والخشونة فتقوى فيهم العصبية التى تمكنهم من المطالبة والتغلب .

وخلاصة القول إن الأفكار الرئيسية فى فلسفة فيكو تعوزها الروح العلمية كما أن تقييمه للحضارات القديمة يشوبه التعصب الدينى ، وليس ذلك مما ينتقص من نظريته فحسب بل إنه إذا تعرضت قصص العهد القديم للنقد التاريخى كما حدث فى عصر التنوير ، فانه يلزم عن هذا إنهيار الأفكار الرئيسية فى فلسفته ، إن الالتزام بقصص العهد القديم فى فلسفة التاريخ يفرض على المؤرخ أو المفكر قيداً يشده نحو اللاهوت بقدر ما يبعده عن العلم . وإن أية نظرية فى فلسفة التاريخ لن تتصف بالعلمية حتى تتحرر تماماً من تقييم العهد القديم للحضارات القديمة العريقة من جهة وحضارة العبرانيين من جهة أخرى »[1] .

* * *

(١) الدكتور أحمد محمد صبحى : فى فلسفة التاريخ ، ص ١٥٩ — ١٦٤ .

مراجع هذا البحث

١ – الكتب : حسب ورودها فى البحث :

* ميشيل روزيه : حياة جوليو كورى ، ترجمة فؤاد حداد .
* Cresay Morrison : Man Does not stand alone .
* ول ديورانت : مباهج الفلسفة ترجمة الدكتور أحمد فؤاد الأهوانى .
* ول ديورانت : قصة الحضارة .
* جميل جبر : طاغور .
* أ . كريس موريسون : العلم يدعو للإيمان ترجمة محمود صالح الفلكى .
* عبد الحميد جوده السحار : محمد رسول الله والذين معه .
* أوولف أرمان وهرمان وانكه : مصر والحياة المصرية فى العصور القديمة ، ترجمة د . عبد المنعم أبو بكر ، ومحرم كمال .
* محمد عبد الغفار الهاشمى : محمد رسول الله فى بشارات الأنبياء .
* ابن حزم : الفصل فى الملل والأهواء والنحل .
* جوستاف جرونيباوم : حضارة الإسلام ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد .
* طه عبد الباقى سرور : إقبال شاعر الحرية والكفاح .
* زيجريد هونكه : شمس الله على الغرب ، ترجمة الدكتور فؤاد حسنين على .
* ألبرت شفيتزر : فلسفة الحضارة ، ترجمة الدكتور عبد الرحمن بدوى .
* أبو الحسن البدوى : ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين .
* جون سيتودرت شلمل : بحث فى الحرية ترجمة دار اليقظة العربية – بيروت .
* محاضرات أرنولد توينبى فى مصر (١٩٦١) كتب ثقافية .
* الدكتور قسطنطين زريق ، نحن والتاريخ .
* هرنشو : علم التاريخ ترجمة عبد الحميد العباوى .
* ألبان ج . ويد جرى : التاريخ وكيف يفسرونه ، ترجمة عبد العزيز جاويد .
* أ . ج . إيفانز : هيرودوت ، ترجمة أمين سلامة .
* Froud : Three contributions of the sexual theory.
* أوجين جننجز : فن الزعامة ، ترجمة سلوى حافظ ووجيه ناجى .
* إدوارد كار : ما هو التاريخ ؟ ترجمة أحمد حمدى محمود .
* كارلايل : الأبطال ، ترجمة محمد السباعى .
* فؤاد محمد شبل : منهاج توينبى التاريخى .

المشكلة اليهودية العالمية

دور مصر فى تكوين الحضارة

- الدكتور أحمد محمود صبحى : فى فلسفة التاريخ .
- الدكتور عبد الرحمن بدوى : شنبجلر .
- أبو بكر محمد بن زكريا الرازى : الطب الروحانى .
- ابن خلدون : المقدمة .
- محمد صدقى الجباخنجى : الفن والقومية العربية .
- محمد إقبال : تجديد التفكير الدينى فى الإسلام ترجمة عباس محمود .
- الكسيس كاريل : الإنسان ذلك المجهول ، ترجمة شفيق اسعد فريد .
- عمر فروخ : تاريخ الفكر العربى .

فلسفة ابن خلدون

- الدكتور على عبد الواحد وافى : عبد الرحمن بن خلدون .
- ساطع المصرى : دراسات عن مقدمة ابن خلدون .
- Jsibree : Hegel's Philosoply of History .
- و . هـ . وولش : مدخل لفلسفة التاريخ ، ترجمة أحمد حمدى محمود .
- إيسيا برلين : كارل ماركس ، ترجمة عبد الكريم أحمد .
- Benedetto Croce : what is living and what is Dead of the Philosophy of Hegel .
- ج . هـ . كول : تاريخ الفكر الإشتراكى (الرواد الأول) ، ترجمة عبد الكريم أحمد .
- عباس محمود العقاد : الشيوعية والإنسانية .

الفلسفة القرآنية

الله

أثر العرب فى الحضارة الأوربية

- زاهر عزب الزغبى : الإسلام ضرورة عالمية .
- هارولد لاسكى : الشيوعية .
- Fundamentals and Marxism — Leninism .
- عبد الحميد صديقى : تفسير التاريخ ، ترجمة كاظم الجوادى .
- كرين برنتن : أفكار ورجال ، ترجمة محمود محمود .
- حبيب سعيد : أعلام الفكر الأوربى .

اديان العـــالم

- محمود الشرقاوى : مواقف حاسمة فى تاريخ محمد بن عبد الله .

الدين والدولة العصرية

الأنبياء فى القرآن الكريم

العدالة الاجتماعية عند العرب

* Alexander Gray : The Development of Economic Doctrine .
* جوستاف لوبون : سر تطور الأمم ، ترجمة أحمد فتحى زغلول .
* فوستيل دى كولنج : المدنية العتيقة ، ترجمة عباس بيومى وعبد الحميد الدواخلى .
* الدكتور أحمد عبد القادر الجمال : مقدمة فى أصول النظم الاجتماعية .
* جوستاف لوبون : الحضارة المصرية ، ترجمة م . صادق رستم .
* جيمس هنرى برستيد : فجر الضمير ، ترجمة الدكتور سليم حسن .
* روجيه باستيد : مبادىء علم الإجتماع الدينى ، ترجمة الدكتور محمود قاسم .
* الدكتور عبد المنعم أبو بكر : أخناتون .
* ج . برستيد : تاريخ مصر منذ أقدم العصور ، ترجمة الدكتور حسن كمال .
* سبينو موسكاتى : الحضارات السامية القديمة ، ترجمة الدكتور السيد يعقوب بكر .
* ل . ويلابورت : بلاد ما بين النهرين ، ترجمة محرم كمال .
* على أدهم : هداة الإنسانية فى الشرق .
* أحمد الشنتناوى : الحكماء الثلاثة .
* الدكتور مصطفى الخشاب : تاريخ الفلسفة والنظريات السياسية .
* محمود شلتوت : الإسلام عقيدة شريعة .

منهج القرآن فى بناء المجتمع

الفتـــــاوى

* توماس أرنولد : الدعوة إلى الإسلام ، ترجمة الدكتور حسن إبراهيم .
* زكريا هاشم زكريا : المستشرقون والإسلام .
* الدكتور إسماعيل راجى الفاروق : أصول الصهيونية فى الدين اليهودى .
* الدكتور عبد الوهاب المسيرى : نهاية التاريخ ، مقدمة لدراسة بنية الفكر الصهيونى .
* H. G., Wells : A short History of the world, teaching of Jesus .
* رابطة الكتاب المسيحيين بالشرق الأدنى : المسيح ومشكلات العصر .
* محمد أبو زهرة : محاضرات فى النصرانية .
* هارولد لاسكى : العقل والإيمان والمدنية .
* ر . ج . كولنجوود : فكر التاريخ ترجمة محمد بكير خليل .
* فرانز روزنتال : علم التاريخ عند المسلمين ، ترجمة الدكتور صالح أحمد العلى .
* الدكتور محمد البهى : الدين والحضارة والإنسانية .
* محمد خلف الله : الثقافة الإسلامية والحياة المعاصرة .

- محمد عزة دروزه : الدستور القرآنى .
- محمد عبده : تفسير جزء عم .
- طاهر الطناحى : رسالة التوحيد .
- عبد المنعم محمد خلاف : المدنية الإسلامية وأبعادها .
- الدكتور عيسى عبده إبراهيم : الإسلام والاشتراكية .
- الدكتور راشد البراوى : التفسير القرآنى للتاريخ .
- محمد مصطفى المراغى : حديث رمضان .
- محمد محمد المدنى : المجتمع الإسلامى كما تنظمه سورة النساء .
- الدكتور محمد شوقى الفنجرى : المدخل إلى الاقتصاد الإسلامى .
- الدكتور محمد فهمى لهيطة : علم الاقتصاد .
- الدكتور محمد جمال الدين الفندى : الكون بين العلم والدين .
- مولاى محمد على : الإسلام والنظام العالمى ، ترجمة أحمد جوده السحار .
- أنور الجندى : الإسلام وحركة التاريخ .
- مالك بن نبى : ميلاد مجتمع ، ترجمة عبد الصبور شاهين .

٢ – دوائر معارف ودوريات :

- دائرة معارف الشعب .
- موسوعة الهلال الاشتراكية .
- وزارة التعليم العالى : تاريخ العالم .
- وزارة الثقافة والإرشاد القومى : تاريخ الحضارة المصرية .
- مجلة المجمع العلمى العربى – دمشق .
- القرآن الكريم .
- الكتاب المقدس .
- كتب التفسير : تفسير ابن كثير .
  تفسير المنار .
- كتب الحديث : صحيح البخارى .
  صحيح مسلم .



التفسير الديني للتاريخ

الجزء الثاني

.. النظرية الايحائية للتاريخ

.. فلسفة هيجل .. للتاريخ

محمود الشرقاوى

بسم الله الرحمن الرحيم

« اقرَأْ بِاسمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ . خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ . اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ . الَّذِى عَلَّمَ بِالْقَلَمِ . عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ » .

صدق الله العظيم

الفصل الثانى

النظرية الاحيائية للتاريخ

« لكل شىء دعامة » ، « ودعامة المؤمن عقله »
فبقدر عقله تكون عبادته »

« حديث شريف »

يعتقد بعض الكتاب[1] أن للحضارات أطواراً من العمر تمر بها تشبه أطوار العمر التى يمر بها الإنسان ، فهناك طور الطفولة والفتوة والشباب والكهولة والفناء — على هذا النحو — مع اختلاف يسير — سار تاريخ

«١» يرى المفكر والفيلسوف الألمانى أزولد شبنجلر (١٨٨٠ — ١٩٣٦) — أن تاريخ الحضارة كتاريخ أى كائن حى — إنساناً أو حيوناً أو نباتاً — فكما أن للكائن الحى دورة حياة كذلك للحضارة الظاهرة الأولية للتاريخ العالمى كله ما كان منه وما سيكون دورة حياة .

إن تاريخ العالم يشمل ثمانى حضارات على الأقل هى : المصرية (٣٤٠٠ — ١٢٠٥ ق . م) — الهندية (١٥٠٠ — ١١٠٠ ق .م) الصينية (١٣٠٠ — ٢٠٠ ق . م) الكلاسيكية (اليونانية اروماتية ١١٠٠ — ٤٠٠ ق .م) الإسلامية (٧٠٠ — ١٢٥٠ م) الغربية (٩٠٠ — ٢٤٠٠ م) كما يحدد شبنجلر عمرها) .

وكل حضارة منها قد اتخذت دورة نمو ثم شباب ونضج ثم شيخوخة ، أعقبها فناء . ومنهج شبنجلر فى دراسة التاريخ هو :

١ — إن الحضارة هى وحدة الدراسة التاريخية أو الظاهرة الأولية للتاريخ العالمى كله ما كان منه وما سيكون ، لأن الحضارة ظاهرة روحية لجماعة من الناس لها تصور واحد عن العالم وتتبلور وحدة تصورهم فى مظاهر حضارية من فن ودين وفلسفة وسياسة وعلم ، وتشكل هذه الوحدة شخصية حضارية لها خصائصها الذاتية ومن ثم لا تتماثل حضارتان .

٢ — وإذا كانت لكل حضارة شخصيتها وخصائصها الذاتية فهذا يتضمن أنها مغلقة وليست روحاً مطلقة فهذه لا تعبر عن مساره ، وإنما يعبر عن مساره التعاقب الدورى للحضارات ، إذ يتوالى على كل حضارة ما يتوالى على أى كائن عضوى حى من ولادة ونمو وشيخوخة وفناء .

ولكل حضارة فلسفتها وخصائصها كما أن لها حياتها المحدودة التى لا بد أن تنتهى ، وكما أن الفرد يفنى ولكن النوع يبقى كذلك من المحتم على كل حضارة أن تموت ولا بقاء إلا للإنسانية الممثلة لمجموع الحضارات ، وليس التاريخ العام إلا ترجمة حياة هذه الحضارات . وإذا كانت مفاهيم الميلاد والفتوة والشيخوخة والوفاة تسرى على كل موجود عضوى كذلك هى بالنسبة لكل حضارة وبذلك يتكون تاريخ العالم من وضع الحضارات العالمية منها إلى جانب الأخرى مستقلة بعضها عن بعض بوصف كل منها ظاهرة مقفلة على ذاتها تجسم روح الحضارة وتعبر عنها .

٣ — وبالرغم من الخصائص الذاتية لكل حضارة فان المظاهر التى تكشف عنها الحضارة الواحدة تناظر تلك التى تكشف عنها سائر الحضارات وليس التناظر أو التوازى الزمنى أو التعاصر الفلسفى مجرد شبه سطحى فكثير من المؤرخين يعدون أوجه الشبه بين الاسكندر ونابليون ولكن فى ذلك تجاهلا لإختلاف الشخصيات العظيمة المتناظرة إذ أن كلا يمثل فى مجرى حياته مسار حياة الحضارة التى يمثلها . وإنما تعد حادثتان تاريخيتان متعاصرتين إذا كان كل فى حضارته الخاصة يقوم بنفس الدور ويؤدى نفس الوظيفة لمناظره فى الحضارة الأخرى ، ويميز شبنجلر بين التماثل القائم على مجرد التشابه السطحى وبين التوافق الذى يدل على التساوى النسبى فى الهيئة والتركيب والوظيفة ، فى الحيوانات الفقرية ، من الإنسان إلى الأسماك ، كل جزء من أجزاء الجمجمة فى أحد أنواعها مناظر لما فى الأنواع الأخرى — الرئة والخياشيم مثلا — ولما كان التاريخ يخضع للتفسير البيولوجى ، فان التوافق أدق وأعمق من التشابه ، ومن ثم فان فيثاغورس وديكارت متناظران ، والاسكندرية وبغداد متعاصرتان بالنسبة للحضارة اليونانية والحضارة الإسلامية إذ أن دورهما فى كل من الحضارتين متوافق متناظر بل ومتعاصر فى طور كل منهما ، ويمكن =

حياة بابل وآشور ومصر واليونان وشبه جزيرة العرب ، وفى التاريخ أمثلة عدة تدل على أن موجات متماثلة لا نهاية لها من الحضارات الإنسانية قد قامت فى الأزمنة الطويلة وارتقت رقياً عظيما وانتعشت فى ظروف زاهرة على الحياة ، ثم انكمشت وتلاشت ، وصار سطح الزمن مرة أخرى فى صحراء نائمة .

ويستنتج من ذلك أن جميع الحضارات قد بلغت ذروتها يوماً ما ، ثم تهاوت فى ظلام العدم ، ولذا فالحديث عن أمر إحيائها إنما هو مثل الحديث عن إعادة أيام شباب شخص ما ، وهو أمر لا يمكن حدوثه إلا فى الأحلام .

إن تحليل هذه النظرية تحليلا علمياً دقيقاً يوضح أن الذين يضعون مثل هذه النظريات لا يعنون بالحضارة غير المظهر الخارجى لمستوى الرقى الذى استطاعت أن تبلغه أمة من الأمم ، فهم لا ينفذون إلى

- تطبيق منهج التناظر الزمنى أو التعاصر على كل الظواهر الفنية والمدنية والعلمية والسياسية والاقتصادية فى جميع الحضارات فى أدوار نشأتها وازدهارها وتدهورها وفنائها طالما أن التركيب الباطنى متوافق فى كل الحضارات ، فلقد اختارت كل حضارة طابعاً معيناً فى الفن تعبر به عن روحها وشخصيتها ، إنه فى حضارة مادية تتصور اللامحدود محدوداً واللا متناهى متناهياً وتجسيم الروح تجسيما مادياً . عبر اليونان عن آلهتهم بصورة مجردة محدودة فى النحت الذى يمثل التجسيم والتحديد . أما الحضارة الإسلامية فقد استبعدت النحت والتصوير لأنهما لا يلائمان روحها المجردة ، وإنما عبر المسلم عن عقيدته بالزخرفة لأنها خطوط فيها جانب التجريد والمفارقة للجسمية والمادة ، أما الحضارة الأوربية فيعد الفن التعبيرى معبراً عن خصائصها ، فالموسيقى لغة عالمية تعبر عن عالمية المسيحية ، والموسيقى تعبير عن اللامتناهى لأن إله المسيحية لامتناه والموسيقى لغة الروح لأن إله المسيحية روح لا جسم . .

وهكذا اختارت الحضارة اليونانية الفن التشكيلى أو النحت بينما عبر الفن الزخرفى أو الأرابيسك عن روح الحضارة الإسلامية كما أصبح الفن التعبيرى ممثلا فى الموسيقى قمة الفنون فى الحضارة الأوربية ، وهكذا أيضاً جميع مظاهر الحضارة الأخرى متعاصرة بين جميع الحضارات فى نشأتها وتطورها وفنائها بحيث لا توجد ظاهرة واحدة ذات قيمة عميقة فى حضارة ما دون أن يوجد ما يناظرها تماماً فى غيرها من الحضارات . فالبوذية الهندية والرواقية الرومانية متعاصرتان ، كذلك كان انتقال الحضارة اليونانية إلى دور المدنية فى عصر فيليب المقدونى وابنه الاسكندر ، وكان هذا الدور فى الحضارة الغربية فى عصر الثورة الفرنسية ونابليون .

ولكن ما قيمة هذه المقارنة بين الحضارات ؟ وما أهمية التعرف على المظاهر المتعاصرة فيما بينها .

١ — سيكون فى استطاعتنا أن نستعيد تركيب عصور مرت ولم نعد نعلم عنها شيئاً ، إن إعادة تركيب الماضى على هذا النحو يكشف عما عجزت الآثار والوثائق الكشف عنه .

٢ — يمكن بمنهج التعاصر التعرف على إيقاع التاريخ ومساره ومغزاه ومن ثم يمكن أن نتجاوز حدود الحاضر للتنبؤ بالمستقبل تنبؤاً علمياً دقيقاً والتعرف عما ستكون عليه الأدوار القادمة للحضارة الأوربية بعد أن أمكن تتبع سياق تطورها ومسارها .

٣ — لا تبدو الأحداث التاريخية بذلك مفاجئة لنا فليست الحرب العالمية الأولى حادثاً استثنائياً ولدته نزعات السيطرة والسيادة لدى بعض الأمم أو الأفراد ، ولا تفسر فى ضوء العوامل الاقتصادية وحدها إنما تمثل بذلك نقطة تحول فى الحضارة الأوربية تناظر الانتقال من العصر الهلينى إلى العصر الرومانى .

(د . عبد الرحمن بدوى — شبنجلر ، د . أحمد محمود صبحى : فى فلسفة التاريخ) .

الجوهر بل يركزون انتباههم على المظهر الخارجي ولا يدركون أن هذا الذى يبدو أمام أعينهم قد حدث نتيجة لدافع داخلى ينبض فى صدور البشر ، فالصواريخ المنطلقة ، والأقمار الصاعدة ، والتليفزيون ليست فى حد ذاتها حضارة ولكنها علامات على تقدم الإنسان فى عالم العلم ، فهى لا تدل إلا على أن الإنسان يسعى للسيطرة على الطبيعة فمكان الحضارة الحق هو عقل الإنسان — الذى هو مصدر كل ما يقوم به الإنسان من عمل — لا العالم المادى .

وقد أحل القرآن المجيد العقل منزلا سامياً وجعله نوراً يهدى به الناس ، وطالبهم باستعماله والتحاكم إليه وسماه نوراً فى قوله جل شأنه :

« الله نور السموات والأرض ، مثل نوره كمشكاة »[1] .

وقال صلى الله عليه وسلم :

— « لكل شئ دعامة ، ودعامة المؤمن عقله ، فبقدر عقله تكون عبادته » .

وقال عليه الصلاة والسلام :

— « إن الرجل ليدرك بحسن خلقه درجة الصائم القائم ، ولا يتم لرجل حسن خلقه حتى يتم عقله » .

وفى كتاب « الطب الروحانى » لأبى بكر محمد بن زكريا الرازى ، يتجلى مفهوم العقل ومقامه عند علماء العرب ، فى الفصل الأول : فى فضل العقل ومدحه :

قال العلامة الرازى :

« إن البارى عز اسمه إنما أعطانا العقل وحبانا به لننال ونبلغ به من المنافع العاجلة والآجلة غاية ما فى جوهر مثلنا نيله وبلوغه . وإنه أعظم نعم الله عندنا وأنفع الأشياء لنا وأجداها علينا . . . .

فبالعقل فضلنا على الحيوان غير الناطق حتى ملكناها وسسناها وذللناها وصرفناها فى الوجوه العائدة منافعها علينا وعليها . وبالعقل أدركنا جميع ما يرفعنا ، ويحسن ويطيب به عيشنا ، ونصل به إلى بغيتنا ومرادنا فانا بالعقل أدركنا صناعة السفن واستعمالها حتى وصلنا بها إلى ما قطع وحال البحر دوننا ودونه . وبه نلنا صناعة الطب الذى فيه الكثير من مصالح أجسادنا وسائر الصناعات العائدة علينا النافعة لنا .

وبه أدركنا الأمور الغامضة البعيدة منا المستورة عنا ، وبه عرفنا شكل الأرض الفلك ، وعظم الشمس

---

(١) سورة النور : ٣٥ .

والقمر ، وسائر الكواكب وأبعادها وحركاتها : وبه وصلنا إلى معرفة البارى عز وجل الذى هو أعظم ما استدركنا وأنفع ما أصبنا . »

وبالجملة فانه الشئ الذى لولاه كانت حياتنا حالة البهائم والأطفال والمجانين ، والذى به نتصور أفعالنا العقلية قبل ظهورها للحس فنراها كأن قد أحسسناها ، ثم نتمثل بأفعالنا الحسية صورها فتظهر مطابقة لما تمثلناه وتخيلنا منها .

وإذا كان هذا مقداره ومحله وخطره وجلالته ، فحقيق علينا أن لا نحطه عن رتبته ولا ننزله عن درجته ، ولا نجعله وهو الحاكم محكوماً عليه، ولا وهو الزمام مذموماً ، ولا وهو المتبوع تابعاً ، بل نرجع فى الأمور إليه ، ونعتبرها به ، ونعتمد فيها عليه ، فنمضيها على امضائه ، ونوقفها على إيقافه . ولا نسلط عليه الهوى الذى هو آفته ومكدره ، والحائد به عن سنته ومحجته ، وقصده واستقامته ، والمانع من أن يصيب به العاقل رشده وما فيه صلاح عواقب أمره ، بل نروضه ونذلله ونحمله ونجبره على الوقوف عند أمره ونهيه ؛ فإذا فعلنا ذلك صفا لنا غاية صفائه ، وأضاء لنا غاية إضاءته ، وبلغ بنا نهاية قصد بلوغنا به ، وكنا سعداء بما وهب الله لنا منه ومن علينا به » .

إن الحضارة — كما عرفها ابن خلدون — أحوال عادية زائدة على الضرورى من أحوال العمران زيادة تتفاوت بتفاوت الرفه — لين العيش — وتفاوت الأمم فى القلة والكثرة تفاوتاً غير منحصر (١) .

وعرفها المؤرخ ول ديورانت بأنها : « نظام اجتماعى يعين الإنسان على الزيادة من إنتاجه الثقافى (٢) » .

ونحن إذا درسنا بنيان المجتمع الحديث دراسة علمية ، لوجدنا أنه أقيم على أساس «مادى تجريبى لا دينى دنيوى » وأن حضارته مبنية على هذه القيمة الجديدة التى أصبحت بمثابة مبدأ وشيد كيانه كله حولها .

ولكل حضارة روحاً خاصة بها تظهر فى الوجوه العديدة للمدنية ، وهذه الروح يمكن أن تضعف ولكنها لا يمكن أن تموت . والمدنيات تولد وبعد وقت طويل أو قصير تندثر ، ولكن روح الحضارة تتسربل بثوب مدنية أخرى ثم تمد رواقها على العالم كله .

يقول المؤرخ ول ديورانت :

« إن الحضارة تبدأ حيث ينتهى الاضطراب والقلق ، لأنه إذا ما أمن الإنسان من الخوف تحررت فى نفسه دوافع التطلع ، وعوامل الإبداع والإنشاء ، وحينئذ لا تنفك الحوافز الطبيعية تستنهضه للمضى فى طريقه إلى فهم الحياة وازدهارها » .

---

(١) مقدمة ابن خلدون ، فصل إن الحضارة فى الأمصار من قبل الدول .

(٢) مقدمة قصة الحضارة ج ١ ، ص ٣ .

ونبدأ فى تحليل دورة الحضارة ، بدراسة الفنون الجميلة ، ونظام الحقيقة والأخلاق والقانون ،

إن الفن هو لسان الحياة ، والدليل المعبر عنها ، فأينما وجد الإنسان على سطح الأرض وجد الفن معه ، وللفنون صنوف ، ولها مظاهر متنوعة ، وقد بدأت أول الأمر لتسد حاجة الإنسان فى حياته المعيشية ، ثم تطورت لتؤدى دورها فى تربية الذوق الرفيع ، وإشاعة البهجة فى النفوس إلى أن أصبحت ضروباً من التعبير الروحى والوجدانى والعقلى ، لتنظيم العلاقة بين الناس بما يكفل الكمال والانسجام بينهم (١) .

والفن نوعان : الدينى — والمادى الحسى .

والفن الدينى فى محتواه ونوعه يقرر الفرضية الرئيسية فى الحضارة الإلهية « وهى أن القيمة الصادقة فى الحقيقة هى الله ، وهى تعتبر الإنسان خليفة الله فى الأرض ، لذا فهى تؤكد على الجانب النبيل فى الإنسان فهو يمثل كل ما هو شريف وجميل . .

أما الفن المادى الحسى فلا يمثل إلا الحواس ، ويستهدف دغدغة غرائز الناس وصرفهم عن التفكير الجدى فى أمور حياتهم إلى نوع من الأحلام المريضة .

وحيثما ذهبت الحضارة المادية تبعتها فنونها الجميلة ، وكل الشعوب التى نمت عندها النظرة المادية للحياة نمت فيها بنفس الشكل ، لذلك كان هذا الفن الشكل السائد من الفن عند إنسان أوائل العصر الحجرى المتوسط لكثير من القبائل البدائية كقبائل بشمان الإفريقية .

أما الفن الدينى الذى يمكن أن نطلق عليه اسم « الفن المعبر عن فكرة » فكان قد غلب فى فترات معينة من الزمن على فن حضارة التبت والحضارة المصرية القديمة .

ونحن إذا أنعمنا النظر فى الديانات البدائية على وجه الإجمال ، لتعذر علينا فى الواقع أن نميز بين ما ينبغى أن ننسب فيها إلى الفن ، وما ينبغى أن ننسب إلى الدين ، ذلك أن هذه الديانات لا تبدى شعائرها للعيان إلا فى صورة رقصات وأغان ونقرات على الطبول ، وأقنعة تغطى الوجوه ، ورسوم وتماثيل تسكنها الآلهة أو أرواحها . وغالباً ما يكون الكاهن أو الساحر هو نفسه الفنان الذى يبتدع هذه الرقصات والأغانى ، ويضع هذه الأقنعة والتماثيل والرسوم . وهناك ما يحمل على الاعتقاد أن كبار الكهنة فى مصر القديمة كانوا هم أيضاً فى الوقت نفسه أساتذة الفن وأساطينه ، إذ من الثابت مثلا أن رئيس كهنة منف فى عهد الدولة القديمة كان يعد رئيسا أعلى لرجال الفن وأغلب الظن أنه كان يمارس بالفعل هذه الصناعة .

---

(١) محمد صدق الجياخنجى : الفن والقومية العربية ، ص ٥ .

وقد كان الإله « بتاح » رب منف يعد بمثابة الفنان بين الآلهة المصرية ، فلا غرو أن كان قد تحتم على رئيس كهنة هذا الإله أن يكون كبير الفنانين فى عصره (١) وقد تأثرت الفنون المختلفة فى البيئات الإسلامية بخصائص مستمدة من التعاليم الإسلامية ، وارتقت الموسيقى الغربية والغناء داخل الكنائس فى أوربا .

إن الفنون الجميلة مهما اختلفت عند الشعوب البدائية والمتمدنة ، فانها كلها تعرض للناس مجموعة من المميزات الداخلية والخارجية المتشابهة حين تكون كلها منتمية إلى نفس النوع . وهذه الحقائق تعنى أن غلبة هذا الشكل أو ذاك فى الفنون الجميلة ليس قضية وجود المهارة الفنية أو فقدانها ، وإنما هو نتيجة النظرة الخاصة التى يتخذها كل شعب من زمن إلى آخر .

وهذا هو الحال أيضاً مع نظام الحقيقة والمعرفة ، فأى نظام للحقيقة والواقع المحسوسين يعنى إنكار أية حقيقة أو قيمة فوق الطاقة الحسية ، أو النظر اليها نظرة عدم مبالاة تامة .

إن الثقافة المادية تعتبر البحث فى طبيعة الله ، وفى كل ظاهرة تسمو على الحس ضرباً من الخرافة أو دراسة عقيمة ، وإذا كان لابد من اتباع للدين فللغايات الدنيوية فقط .

إن نظام الحقيقة هذا يدعو بقوة إلى دراسة العالم المحسوس بخواصه وعلاقاته الفيزيائية والكيمائية والاحيائية وقد ركزت فيه كل مطامح الفكر على دراسة هذه الظواهر المحسوسة فى ماديتها وما يلحظ من علاقاتها ، والمخترعات الصناعية الفنية التى تهدف إلى خدمة حاجاتنا المادية الحسية .

إن المعيار الوحيد فى النظرية المادية بين الصواب والخطأ والفضيلة والرذيلة هو إما المنفعة الحسية أو الملذات الحسية ، فى حين نجد الدين يؤمن بالقيم الخلقية التى تمثل أهدافاً . وهو نظام مبنى على الوحى والإلهام الإلهى ولذلك فهو يعتبر موثوقاً ومطلقاً . ومن ثم فإن الدين ، وهو ينشد الحقيقة بوصفها كلا لا يتجزأ — ولهذا يجب أن يتخذ له مكاناً مركزياً فى أى تركيب من موضوعات التجارب الإنسانية جمعاء — لم يكن ليخشى أى رأى من الآراء الجزئية عن الحقيقة (٢) .

إن الدين هو وحده القادر على إعداد الإنسان العصرى إعداداً خلقياً يؤهله لتحمل التبعة العظمى التى لابد من أن يتمخض عنها تقدم العلم الحديث ، وأن يرد إليه تلك النزعة من الإيمان التى تجعله قادراً على الفوز بشخصيته فى الحياة الدنيا ، والإحتفاظ بها فى دار البقاء . إن السمو إلى مستوى جديد فى فهم الإنسان

---

(١) رمسيس يونان : دائرة معارف الشعب ، مادة نشأة الفن المصرى القديم ، ص ٤٧٢ .

(٢) محمد إقبال : تجديد التفكير الدينى فى الإسلام ، ص ٥٢ .

لأصله ولمستقبله من أين جاء ؟ وإلى أين المصير ؟ هو وحده الذى يكفل له آخر الأمر الفوز على مجتمع يحركه تنافس وحشى ، وعلى حضارة فقدت وحدتها الروحية بما أنطوت عليه من صراع بين القيم الدينية والقيم السياسية . والدين من حيث هو سعى الإنسان سعياً مقصوداً للوصول إلى الغاية النهائية للقيم، فيستطيع بذلك أن يعيد تفسير قوى شخصيته — هو حقيقة لا يمكن إنكارها (١) .

إن الحركات الدورية فى مجال الفن والأدب والعلم والفلسفة والدين برهان كاف على أنه بالرغم من أن تغييرات عدة قد حدثت فى مدنيات العالم ، وأن المدنيات تنشأ وتنهار فإن الحضارة التى هى روح المدنية قد تكررت فى التاريخ مرات كثيرة ، والمدنيات المتعاقبة التى حلت فيها هذه الروح قد انتجت نفس النوع من الفلسفة والدين فى المراحل المختلفة من تاريخ البشرية .

قد يكون هناك بعض التباين بسبب الاختلاف فى البيئات الطبيعية التى تولد فيها كل مدنية ، ولكن التيار الذى يسير المدنية يبقى نفسه ، فالمظهر الذى تتخذه الحضارة المادية مدنى حسى سواء كانت الفترة هى القرن الخامس أم القرن العشرين ، وسواء كانت البلاد بلادالعرب أم انجلترا أم الولايات المتحدة الأمريكية .

إن صرح المدنية الحديثة الباهرة يجعل الإنسان يستنتج أحياناً أن البشرية لم تكن يوماً ما قط قادرة على أن تحقق هذا التقدم الكبير فى مجال الفن والأدب والعلم ، ولكن صفحات التاريخ حافلة بالشواهد على أنه قد ظهرت فى هذا العالم مدنيات كثيرة أكثر روعة فى مظهرها من المدنية الغربية الموجودة اليوم .

ويخبرنا التاريخ أن أول من مثل هذه الحضارة هم قوم عاد وكانوا يسكنون الأحقاف فى شمال حضر موت وغربى عمان بالجزيرة العربية ، وكانوا أمة ذات قوة وبطش ، وأصحاب زرع وضرع ، وزادهم الله بسطة فى الجسم والمال ، وكانوا أصحاب حضارة مادية محضة، انهارت وتبددت ، وأعقب انهيارهم ظهور شعب آخرهم ثمود وكانت مساكنهم بالحجر بين الحجاز والشام إلى جهة وادى القرى ، وآثار مدائنهم باقية إلى اليوم .

وكانت لهم حضارة سامقة ، ولكنها مادية تماماً ، ولم يكن خيالهم يتسع قليلا لأن يفكر فى أن وراء هذه الحياة حياة أخرى ، لذلك فقد كان نشاط هؤلاء القوم وعملهم موجهاً نحو الحصول على وسائل الترف الدنيوى فبادت حضارتهم .

---

(١) المصدر نفسه : ص ٢١٧ .

وكانت حضارة الرومان ، حضارة مادية حسية ، وقد سمح النظام الاقتصادى الجائر الذى كان سائداً فى ذلك العصر بأن تعيش قلة من الشعب فى ترف شديد ، على حساب الجماهير التى تكدح لتوفير أسباب الرفاهية للسادة ، وكانت أية محاولة للقيام بالثورة ضد هذا النظام أو لتحقيق العدل والمساواة تقابل بالقمع ، وقد أنهارت هذه الحضارة كما ينهار بيت العنكبوت .

وتقوم الحضارة الأوربية اليوم على أساس مادى صرف ، قال الرئيس الأمريكى الأسبق روزفلت : « إن الشعوب والأمم البريئة يضحى بها الآن بقسوة إشباعاً لمطامع السلطان والسيادة الخالية من كل معنى من معانى العدالة والرحمة الإنسانية » .

إن الملذات الحسية ووسائل الراحة المادية وحدها هى التى تحكم عقل الإنسان الحديث . هذه هى روح الحضارة التى تشربت بها مدنيات مختلفة ، وأنتجت شبها بينها من حيث التكوين ، فقوم عاد وثمود وشعوب الرومان واليونان والأوربيون والأمريكيون فى هذا العصر قد اتفقوا فى الأمور الجوهرية من الحضارة إن لم نقل فى تفاصيلها . فهم جميعاً ينظرون إلى الحياة من نفس الزاوية ، ألا وهى زاوية المصلحة المادية .

إن كل حضارة تولد من بطن الماضى ، وتنمو فى أحضان الحاضر . فالعالم لم يشهد قط ظهور حضارة ما فجأة ، دون أن يكون لها علاقة بالماضى . إن هذا لا يمكن أن يحدث إلا حين يخلق مع مولد كل حضارة جديدة رجال جديدون لهم صفات جديدة فى العقل والقلب ولهم كذلك غرائز جديدة وهذا شىء لم يحدث فى الماضى ولا يمكن أن يحدث فى المستقبل .

فانسان هذا العصر مخلوق من نفس « مادة » الإنسان الذى كان فى عصور ما قبل التاريخ ، وطبيعته لم يحصل فيها تغير جوهرى .

ولقد أوضح الدكتور محمد اقبال هذه الحقيقة . فى كتابه : « تجديد التفكير الدينى فى الإسلام » فقال : « يجب أن لا ننسى أن الحياه : ليست كلها تغيراً بصورة مجردة وبسيطة ، فإن فيها أيضاً عناصر المحافظة والصيانة . وإن الإنسان وهو يقوم بنشاطه الخلاق ويوجه دائماً طاقاته نحو اكتشاف آفاق جديدة للحياة ، ليشعر بالقلق أمام ما يكتشفه ، وهو فى أثناء تقدمه لا يمالك نفسه من أن يلتفت إلى الماضى ويواجه ما حصل له من اتساع داخلى فى نفسه بشىء من الخوف . إن روح الإنسان الداخلية تكون فى أثناء تقدمها مقيدة بقوى تبدو كأنها تعمل فى الاتجاه المعاكس . وليس هذا سوى طريقة أخرى للقول بأن الحياة تسير وثقل ماضيها على ظهرها وأنه عند النظر فى أى تغير اجتماعى لا يمكن غض النظر عن قيمة قوى المحافظة وعملها ».

إن الأخلاق الإنسانية مبنية على القيم الخارجية للحياة ، وهى القيم التى ظلت دائماً نفسها رغم تقلبات الزمن وهذه نجدها فى نفس طبيعة الإنسان .

ونستنتج من هذا أن كل موجة حضارية تسير سيراً متصلا مع الزمن . ولكن التيار يضعف حين لايأتيه مدد على شكل تيار فكرى جديد ، أما إذا كانت الأفكار الجديدة تتدفق فيه دائما بقوة وغزارة فتزيده شدة فإنه يستطيع أن يدوم زمناً لا نهاية له .

والخطأ الفادح الذى وقع فيه أصحاب المذاهب المادية — مثل الفيلسوف الألمانى شبنلجر — هو أنهم رأوا المجتمع نوعاً من التنظيم وأسسوا على هذه النظرية قوانين ازدهار الحضارات وسقوطها .

إن السبب الجوهرى لهذا الخطأ هو تقدم العلم المادى . فقد كان من أثر التقدم المادى أن أصبح الإنسان يعتقد أنه لا يوجد شىء وراء « المادة » وأن « الوعى » والإرادة كليهما شكلان متطوران للمادة ، فأصبح الإنسان بمقتضى هذه التعريفات المادية مجرد مركب من الكهيريات والبروتونات فى شكل مخلوق حيوانى .

وهذه النظرة عن الحياة الإنسانية تجاهلت تماما جانبها الإنسانى .

يقول الدكتور الكسيس كاريل فى كتابه « الإنسان ذلك المجهول » :

« الإنسان نتيجة الوراثة والبيئة ، وعادات الحياة والتفكير التى يفرضها عليه المجتمع العصرى .. ولقد وصفنا كيف تؤثر هذه العادات فى حسه وشعوره .. وعرفنا أنه لا يستطيع تكييف نفسه بالنسبة للبيئة التى خلقتها « التكنولوجيا » وأن مثل هذه البيئة تؤدى إلى انحلاله ، وإن العلم والميكانيكا ليسا مسئولين عن حالته الراهنة ، وإنما نحن المسئولون لأننا لم نستطع التمييز بين الممنوع والمشروع . لقد نقضنا قوانين الطبيعة ، فارتكبنا بذلك الخطيئة العظمى ، الخطيئة التى يعاقب مرتكبها دائماً . إن مبادىء « الدين العلمى » و« الآداب الصناعية » قد سقطت تحت وطأة غزو الحقيقة « البيولوجية » فالحياة لاتعطى إلا إجابة واحدة حينما تستأذن فى السماح بارتياد « الأراضى المحرمة » إنها تضعف السائل . ولهذا فان الحضارة آخذه فى الانهيار ، لأن علوم الجماد قادتنا إلى بلاد ليست لنا ، فقبلنا هداياها جميعاً بلا تمييز ولا تبصر .

ولقد أصبح الفرد ضيقاً ، متخصصاً ، فاجراً ، غبياً ، غير قادر على التحكم فى نفسه ومؤسساته »(٨) .

« فاذا كان على الحضارة العلمية أن تتخلى عن الطريق الذى سارت فيه منذ عصر النهضة ، وتعود إلى ملاحظة المادة الجامدة ببساطة ، فسوف تقع أحداث عجيبة على الفور .

---

(٨) دكتور الكسيس كاريل : الإنسان ذلك المجهول ، ترجمة شفيق أسعد فريد ، ص ٣٢٢ .

ستفقد المادة سيادتها ؛ ويصبح النشاط العقلي كالنشاط الفسيولوجي ، وسيبدو ألا مفر من دراسة الوظائف الأدبية والجمالية والدينية ، كدراسة الرياضيات والطبيعة والكيمياء .

وسوف تبدو وسائل التعليم الحالية سخيفة ، وتضطر المدارس والجامعات إلى تعديل برامجها .

« وسيسأل علماء الصحة عن السبب الذي يحدوهم إلى الاهتمام فقط بمنع الأمراض العضوية دون الأمراض العقلية ، والاضطرابات العصبية ، كما سيسألون عما يجعلهم لا يبذلون اهتماماً بالصحة الروحية ؟

ولماذا يعزلون المرضى بالأمراض المعدية ، ولا يعزلون أولئك الذين ينشرون الأمراض العقلية والأدبية ؟ .

ولماذا يعتبرون العادات المسؤولة عن الأمراض العضوية — عادات ضارة ، دون التي تؤدى إلى الفساد والإجرام والجنون ؟

ولسوف يدرك الاقتصاديون أن « بني الإنسان » يفكرون ويشعرون ويتألمون ، ومن ثم يجب أن تقدم لهم أشياء أخرى غير العمل والطعام ، والفراغ . وأن لهم احتياجات روحية مثل الاحتياجات الفسيولوجية ، كما سيدركون أيضاً أن أسباب الأزمات الاقتصادية والمالية ، قد تكون أسباباً أدبية وعقلية .

وسوف لانضطر إلى قبول أحوال الحياة البربرية في المدن الكبرى وطغيان المصنع والمكتب وتضحية الكبرياء الأدبية في سبيل المصلحة الاقتصادية ، أو تضحية العقل للمال.

ولما كان من الواضح أن تحرير الإنسان من مذهب « المادية » سوف يقلب أغلب جوانب حياتنا ، فان المجتمع العصري سوف يعارض بكل قوة هذا التقدم في آرائنا (١) .

مهما يكن ، يجب أن نتخذ دواعي الحيطة حتى لا تحدث فشل المادة رد فعل روحي ، إذ لما كانت « التكنولوجيا » وعبادة المادة لم يصيبا نجاحاً ، فقد يستشعر الناس إغراء عظيماً لاختيار الطقوس المضادة ، طقوس العقل . . . . ولن تكون رئاسة « السيكولوجيا » أقل خطراً من رئاسة « الفسيولوجيا » والطبيعة والكيمياء ، فقد أحدث « فرويد » أضراراً أكثر من التي أحدثها علماء الميكانيكا تطرفا ، فان من الكوارث أن نختزل الإنسان إلى جانبه العقلي ، مثل اختزاله إلى آلياته الطبيعية ، والكيماوية . . ولا مفر من دراسة الصفات الطبيعية لمصل الدم

(١) المصدر نفسه : ص ٣٢٩ — ٣٣١ .

وتوازنه الأيونى ، وقابليته احتراق البروتوبلازم . . الخ . كما تدرس الإحلام والشهوة . والتأثيرات السيكولوجية للصلاة وذاكرة الكلمات . . .

بيد أن استبدال الروحى بالمادى لن يصحح الخطأ الذى ارتكبته النهضة . . . فاستبعاد المادة سوف يكون أكثر إضراراً بالإنسان من استبعاد العقل ، وإنما سيوجد الخلاص فقط فى التنحى عن جميع المذاهب (١) .

إن الخطر على مقومات الإنسان وكينونته من الحضارة الصناعية المادية ، لا يدفع إلا بالعودة إلى الدين .

---

(١) المصدر نفسه ، [illegible] .

الفصل الثالث

التفسير الاجتماعى للتاريخ

« وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى الْأَرْضِ خَلِيفَةً ،
قَالُوا : أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ
نسبح بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ . قَالَ إِنِّى أَعْلَمُ مَالَا تَعْلَمُونَ »

(قرآن كريم)

وضع عبد الرحمن بن خلدون[1] قواعد لتفسير التاريخ على أساس اجتماعي ، وقد نفى ابن خلدون أن يكون للخرافات أثر فى تعليل حوادث التاريخ ، كما برهن على أن الحوادث مقيدة بقوانين طبيعية واجتماعية لا تشذ عن بقية ظواهر الكون ، وأنها محكومة فى مختلف مناحيها بقوانين طبيعية تشبه القوانين التى تحكم ما عداها من ظواهر الكون كظواهر الفلك والطبيعة والكيمياء والحيوان والنبات ، ومن

---

(١) ولد عبد الرحمن أبو زيد ولى الدين بن خلدون فى غرة رمضان سنة ٧٣٢ هـ – (٢٧ مايو سنة ١٣٣٢ م) بتونس ، وتوفى سنة ٨٠٨ هـ (١٦ مارس سنة ١٤٠٦ م) وهو من أصل عربى ، حفظ القرآن الكريم ، وتتلمذ على شيوخ عصره ودرس عليهم العلوم الشرعية من تفسير وحديث وفقه على المذهب المالكى (الذى كان ولا يزال ، المذهب السائد فى المغرب) وأصول وتوحيد ، ودرس عليهم العلوم اللسانية من لغة ونحو وصرف وبلاغة وأدب ، ثم درس المنطق والفلسفة والعلوم الطبيعية والرياضية ، وحظى فى جميع دراساته باعجاب أساتذته ونال إجازاتهم . وقد تقلد عدة وظائف عامة ، فى سنة ٦٤٨ هـ (١٣٧٤ م) التحق ابن خلدون بحاشية أبى الحسن المرينى سلطان مراكش . وفى سنة ٧٥٢ هـ (١٣٥١ م) تولى العلامة « ديوان الرسائل » لأبى محمد بن تافراكين المستبد على الدولة يومئذ بتونس . ثم إنه وصف لأبى عفان صاحب فاس ، وكان يجمع العلماء فى بلاطه ، فاستقدمه سنة ٧٥٥ هـ ثم استخدمه فى آخر سنة ٧٥٦ هـ (آخر عام ١٣٥٥ م) وتقلب ابن خلدون فى البلاد فكان عند بنى مرين فى فاس (٧٦٠ هـ = ١٣٥٩ م) وعند بنى عبد الواد ، فى تلمسان (٧٦٣ هـ) ثم عند بنى الأحمر فى غرناطة (٧٦٤ هـ) فأرسله بنو الأحمر فى سفارة إلى بطرة ملك قشتالة (بطرس الرابع القاسى) لإتمام عقد الصلح بينه وبين ملوك المغرب . ثم انتقل هو إلى المغرب ، ولكنه سئم التطواف والمناصب وخاف عواقب السياسة فآثر الاعتزال فى قلعة سلامة ، شرق تلمسان ، فمكث عند بنى العريف أربع سنوات ، وبدأ بتأليف كتابه فى التاريخ . ولكنه احتاج إلى مواد لكتابه لم تكن متيسرة فى قلعة سلامة فذهب إلى تونس (٧٨٠ هـ . ١٣٧٨ م) .وفى سنة ٧٨٤هـ (١٣٧٤م)سار ابن خلدون إلى الحج ، ولكنه لما وصل إلى مصر عرض عليه القضاء على المذهب المالكى فقبله وتأخر ذهابه إلى الحج إلى سنة ٧٨٩ هـ . وعاد من الحج إلى القاهرة وانقطع فيها للتدريس حينا ثم عاد إلى تولى القضاء (٨٠١ هـ = ١٣٩٩ م) .

ولما غزا تيمور لنك سورية ذهب الملك الناصر فرج ابن الملك الظاهر برقوق إلى دمشق ليفاوض تيمور لنك واصطحب معه العلماء وفيهم ابن خلدون . ثم سمع الناصر فرج بمؤامرة عليه فى مصر فاضطر إلى العودة فحمل ابن خلدون تبعة الحال وذهب سراً على رأس وفد لمفاوضة تيمور لنك فى الصلح وألقى بين يديه خطبة نفيسة فأكرمه تيمور لنك وأعاده إلى مصر .

ذكر المؤرخون لابن خلدون كتباً مختلفة فى الحساب والمنطق والتاريخ وسوى ذلك ، يهمنا منها كتابه المشهور فى التاريخ « كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر فى أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر » والجزء الأول من هذا الكتاب معروف بمقدمة ابن خلدون أو المقدمة فحسب .

كان لأسفار ابن خلدون ومغامراته السياسية واتصاله بكثير من الملوك من ملوك النصارى بالأندلس إلى ملك التتار بالشام فضل فى تكوين فلسفته التاريخية .

ثم رأى أنه من الواجب أن تدرس هذه الظواهر دراسة وضعية كما تدرس ظاهرات العلوم الأخرى للوقوف على طبيعتها وما يحكمها من قوانين .

ومن العوامل التى تكسب الأمم كيانها وطبائعها وميزاتها ما يلى :

١ — البيئة :

تختلف الأمم من حيث ألوانها ونشاطها العقلى والجسمى وشجاعتها وكثرتها العددية بحسب العوامل الطبيعية التى تؤثر فيها . ومن هذه العوامل المساكن التى لها على وجه الأرض من سهل وجبل وصحراء . والمناطق التى تعيش فيها الحارة والباردة وجدب أرضها وخصبها .

يقول ابن خلدون : « فلهذا كانت العلوم والصنائع والمبانى والملابس والأقوال والفواكه ، بل والحيوانات ، وجميع ما يتكون فى الأقاليم المتوسطة مخصوصة بالاعتدال ، وسكانها من البشر أعدل أجساماً وألواناً وأديانا ، أما الأقاليم البعيدة عن الاعتدال فأهلها أبعد عن الاعتدال فى جميع أحوالهم » .

فالعوامل الطبيعية من المناخ والإقليم وجدب الأرض وخصبها واعتدال الهواء وحرارة الجو ، كل ذلك له أثر فى أخلاق الأمم وأحوالها النفسية وتقدمها وتأخرها . والأغذية أيضاً لها أثر فعال فى صفات الأمم والسبب أن كثرة الأغذية ، والأخلاط الفاسدة ورطوباتها ، تولد فى الجسم فضلات رديئة ، ينشأ عنها بعد أقطاره فى غير نسبة ، ويتبع ذلك انكسار الألوان وقبح الأشكال ، وتغطى الرطوبة على الأذهان بما يصعد إلى الدماغ من أبخرتها ، فتجىء البلادة .

وأثر الخصب يظهر فى العبادة ، فنجد المتقشفين أحسن ديناً وإقبالا على العبادة . والمخصبون إذا نزلت بهم السنون ، وأخذتهم المجاعات ، يسرع إليهم الهلاك ، لأن أمعاءهم تكتسب رطوبة فوق رطوبتها المزاجية ، فاذا خولف بها العادة أسرع إليها اليبس ، فيهلك صاحبها ، فالهالكون فى المجاعات إنما قتلهم الشبع المعتاد ، لا الجوع اللاحق . وائتلاف الأغذية أو تركها إنما هو بالعادة ، فمن عود نفسه غذاء صار الخروج عنه داء ، وكذا من عود الصبر على الجوع كأهل الرياضات .

٢ — العوامل الاجتماعية :

كما أن العوامل الطبيعية التى تقدمت الإشارة إليها ذات أثر فى حياة الأمم من حيث رقيها وانحطاطها ، كذلك العوامل الإجتماعية تؤثر فى نشأة الأمم ، فحيثما يجتمع الناس فى مكان واحد ، يجدون من الضرورى أنه لابد من أن يتعاونوا على أسباب الحياة ، وفى أثناء اجتماعهم يقلد بعضهم بعضا . ويتدرج الإنسان فى التقليد ،

فهو يقلد بادىء ذى بدء من هو أقوى منه فى الجسم ، من أسرته وأقاربه أو عشيرته أو أهل الحى الذى يعيش فيه ، فغريزة التقليد من أقوى الغرائز فى تنظيم الاجتماع الإنسانى .

يقول ابن خلدون : « والسبب فى ذلك أن النفس أبداً تفتقد الكمال فيمن غلبها وانقادت إليه ، أما لنظرة بالكمال بما وقر عندها من تعظيمه أو لما تغالط به من أن انقيادها ليس لغلب طبيعى إنما هو لكمال الغالب ، فاذا غالطت بذلك واتصل لها حصل اعتقادا فانتحلت جميع مذاهب الغالب وتشبهت به وذلك هو الإقتداء .

ويتوسع ابن خلدون فى تطبيق هذه النظرية على كل من يرى الكمال فى غيره أى أنه لا يرى أن تكون الغلبة دائماً جسمية أو سياسية ، بل يكفى أن تكون معنوية ، ولذلك يقول : « إن الأمم تقلد جيرانها إذا كانوا أعظم منها ، . والأبناء يتشبهون بآبائهم ومعلميهم لاعتقادهم الكمال فيهم » .

٣ — العصبية :

الاجتماع يدعو إلى العصبية [١] ، ولذلك جعلها ابن خلدون أساس قوة الدفاع والتعاون : وإذا كانت العصبية من أسس القوة فهى من دوافع التغلب ، والتغلب أساس الرياسة ، والرياسة فى الغالب تكون لأصحاب العصبية القوية .

والعصبية تنتج جاها وسلطاناً وشرفاً ، ولكن هذه كلها تستمر عموماً أربعة أجيال فقط ، فان نهاية الحسب فى العقب الواحد أربعة آباء ، وذلك أن بانى المجد عالم بما عاناه فى بنائه ومحافظ على الخلال التى هى أسباب كونه وبقائه . وابنه من بعده مباشر لأبيه فقد سمع منه ذلك وأخذه عنه ، إلا أنه مقصر فى ذلك تقصير السامع بالشئ عن المعانى له . ثم إذا جاء الثالث كان حظه التقليد فقصر عن الثانى : ثم إذا جاء الرابع قصر عن طريقهم جملة وأضاع الخلال الحافظة لبناء مجدهم فيتهاون فى الأمر وتذهب عنه حقيقة المجد ويضعف فيثب عليه من هو أقوى عصبية . فاذا ذهبت الرئاسة من عصبية قل أن ترجع إليها . والاجتماع الحضرى يتطور من الإجتماع البدوى ، وفيه تستبحر الحضارة وتنشأ الدولة .

إذا قويت العصبية فى البدو واشتد ساعدها وظفرت بالرئاسة ثم زاد جاهها وسلطانها ومالها ، فانها تطمع بما فوق الرئاسة وتطمح إلى الملك للاستئثار بالحكم والتمتع بما لديها من الجاه والسلطان والمال . غير

---

(١) العصبية : بفتحتين التعصب وهو أن يذب الرجل عن حريم صاحبه ويشمر عن ساق الجد فى نصره : منسوبة إلى العصبة وهم أقارب الرجل من قبل أبيه لأنهم هم الذابون عمن هو منتهاهم ، وهى بهذا المعنى ممدوحة ، وأما العصبية المذمومة فهى تعصب رجال لقبيلة على رجال قبيلة أخرى لغير ديانة .

أن ذلك لا يتاح لها فى البدو ، إذ الرئاسة فى البدو تكون بالتراضى ، ولا ترضى العصائب بأن يستبد بعضها ببعض . ثم إن المال لا يفيد فى البادية لفقدان وجوه الترف فيها . عندئذ يعزم أصحاب الرئاسة على الانتقال إلى الحضر .

والانتقال من البداوة إلى الحضارة إما أن يكون بهجر البادية إلى مكان قد سبقت إليه الحضارة ، وإما أن ينقلب جانب من تلك البادية حضراً يجلب عوائد الترف إليه . ويكون ذلك :

١ — بانقلاب الرئاسة بالعصبية ملكا فتنشأ الدولة :

إذا كان لامرىء سؤدد ، وكان قومه يتبعونه عن رضا وطواعية فذلك هو الرئاسة بالعصبية المألوفة فى البدو . وأما إذا احتاج صاحب العصبية إلى التغلب على من تحت يده وإلى قهرهم حتى يحملهم على طاعته فذلك هو الملك .

والملك لا يحصل إلا بالغلب ، والغلب لا يكون إلا بالعصبية ، ولايكون ذلك عادة إلا مع البداوة ، فطور الدولة من أولها بداوة . وبما أن الملك يدعو إلى الترف فان الحضارة تتبع البداوة ضرورة ، لضرورة تبعية الرفه للملك .

ب — والملك يدعو إلى نزول الأمصار (المدن ، أو إلى إنشائها) طلباً للدعة والسكون وحباً بالترف ونزول الأمصار يدعو إلى الاعتمار من بناء الدور وإنشاء البساتين وإذا حصل الملك (استقر) تبعه الرفه واتساع الأحوال .

والحضارة إنما هى تفنن فى الترف وإحكام الصنائع المستعملة فى وجوهه ومذاهبه من المطابخ والملابس والمبانى .

حـ — وباتساع الملك فى الحضر تنشأ الدولة على الحقيقة وتستقر .

إن الرئيس بالعصبية (فى البدو) يكون فى الحقيقة حكماً فى متازعات قومه وحاملا عنهم أعباءهم ، فهو فى الحقيقة خادم لهم : « والمثل العربى القديم يقول : سيد القوم خادمهم » .

أما فى الحضر فالملك محتاج إلى عصبية جديدة لقهر الرعية على طاعته ، ثم هو محتاج إلى من يعاونه فى الحكم والدفاع عن الملك فتنشأ المرافق المختلفة : القضاء والجباية والجيش والأسطول ، وتلك هى الدولة : إدارة الملك والدفاع عنه .

والدولة نطاق من الأرض لا تتعداه ، كما يقول ابن خلدون ، حصة من الممالك والأوطان لا تزيد

عليها . والسبب فى ذلك أن الملك إنما يكون بالعصبية ، واهل العصبية هم الحامية الذين ينزلون بممالك الدولة وأقطارها وينقسمون عليها . فاذا كان أهل عصبيتها أكثر عدداً كانت هى أقوى وأكثر ممالك وأوطانا وكان ملكها أوسع » .

وكما أن العصبية ضرورية لإقامة الملك ، فهى كذلك ضرورية للدين ، لأن الدعوة الدينية لا يمكن أن تصل إلى غايتها من التأييد والذيوع والانتشار من غير عصبية يستند إليها الرسول أو النبى بالرغم من أنه مؤيد بالمعجزات والأمور الخارقة للعادة التى ليست فى طاقة البشر .

والدعوة الدينية تساعد فى نماء قوة الدولة ، فضلا عن قوتها المؤيدة بالعصبية ، التى أساسها النسب ، لأن الدين بطبيعته يقضى على صفات الأثرة والتنافس والحقد والحسد ويوحد الجهود ، ويوجهها نحو غاية واحدة ، وبذلك تقوى الدولة ، وتزداد قوة على قوتها . ولذا فان فتح المسلمين للشام والعراق وفارس ومصر مع خضوع هذه الأقاليم لدولتين عظيمتين كان أيسر من فتح شمال إفريقية التى يسكنها بربر لهم عصبية متينة ، بل لم يستطع الرومان قبل ذلك إخضاعهم .

والدولة يكون لها عادة نوع من السلطة المعنوية على رعاياها مما يكفل مقاومة الغزاة ، غير أنه لا يعجل بسقوط الدولة شئ كالأسباب الداخلية ، كفقد ثقة المحكومين بالحكام ، وهذا ما فعله الشيعة الإسماعيلية فى مصر قبل دخول الفاطميين ، بينما استطاع المسلمون مقاومة الغزو الاستعمارى المتستر بصليب المسيح بالرغم من تفكك الدول الإسلامية وضعف الخلافة .

والملك فى رأى ابن خلدون أمر طبيعى للبشر ، إذ أن كل اجتماع إنسانى محاجة إلى وازع أو حاكم يقيم العدل ويدفع بعض الناس عن بعض ، ويشجع الناس على زيادة الإنتاج بالحوافز وعدالة التوزيع ، وأن يفرض الضرائب المعقولة . فالدولة يجب أن تقوم على العدل والمحبة المتبادلة بين الحاكم والرعية : « ليلوذوا به ويشربوا محبته ، ويستميتوا دونه فى محاربة أعدائه فيستقيم الأمر من كل جانب » .

ويرى ابن خلدون أن للدولة أعماراً طبيعية كما للأشخاص ، وهو يحدد عمر الدولة تقريباً بمائة وعشرين سنة تمر خلالها بطور النشوء والترسخ ثم الهرم ، يقول : أعمار الدول لا تعدو فى الغالب أعمار ثلاثة أجيال من البشر ، وعمر الجيل أربعون سنة .

وذلك لأن الجيل الأول لم يزالوا على خلق البداوة من شظف العيش ، والبسالة والاشتراك فى المجد ، فلا تزال سورة العصبية محفوظة فيهم فجانبهم مرهوب والناس لهم مغلوبون .

والجيل الثانى : تحول حالهم — بالملك والترفه — من البداوة إلى الحضارة ، ومن الشظف إلى الترف ، ومن الاشتراك فى المجد إلى انفراد الواحد وكسل الباقين ، فتنكسر سورة العصبية ، ولكن يبقى لهم الكثير مما أدركوا من الاعتزاز والمدافعة والحماية ، فلا يسعهم ترك ذلك كلية .

وأما الجيل الثالث : فينسون عهد البداوة والخشونة ، ويفقدون حلاوة العصبية مما هم فيه من القهر ، ويبلغ فيهم الترف غايته ، فيصيرون عيالا على الدولة ، وتسقط العصبية بالجملة ، فيحتاج صاحب الدولة إلى الاستظهار بسواهم .

فهذه ثلاثة أجيال تبلغ فيها الدولة هرمها » .

وقد يجد ابن خلدون لذلك أمثلة كثيرة فى التاريخ . ولكنا نرى أن فى المجتمع من العوامل الأخرى ماقد يعجل بأجل الدولة قبل ذلك ، كما قد يؤجله إلى أبعد من ذلك بكثير .

ويرى ابن خلدون أن الأمة إذا غلبت وصارت فى ملك غيرها أسرع إليها الفناء ، ويبرهن على ذلك فقال :

« والسبب فى ذلك — والله أعلم — ما يحصل فى النفوس من التكاسل ، إذا ملك أمرها عليها ، وصارت بالاستعباد آلة لسواها وعالة عليهم ، فيقصر الأمل ويضعف التناسل ، والاعتمار إنما هو عن جدة الأمل وما يحدث عنها من نشاط فى القوى الحيوانية . فاذا ذهب الأمل بالتكاسل وذهب ما يدعو إليه من الاحوال وكانت العصبية ذاهبة بالغلب الحاصل عليهم ، تناقص عمرانهم ، وتلاشت مكاسبهم ومساعيهم ، وعجزوا عن المدافعة عن أنفسهم ، بما خضد(١) الغلب من شوكتهم ، فأصبحوا مغلبين ، لكل متغلب ، طعمة لكل آكل ، وسواء كانوا حصلوا على غايتهم من الملك أو لم يحصلوا .

.... وفيه — والله أعلم — سر آخر ، وهو أن الإنسان رئيس بطبعه بمقتضى الاستخلاف الذى خلق له«٢» . والرئيس إذا غلب على رياسته وكبح عن غاية عزه تكاسل حتى عن شبع بطنه ورى كبده ، وهذا موجود فى أخلاق الأناسى . ولقد يقال مثله فى الحيوانات المفترسة وأنها لا تسافد «٣» إذا كانت فى ملكة الآدميين فلا يزال هذا القبيل المملوك عليه أمره فى تناقص واضمحلال إلى أن يأخذهم الفناء والبقاء لله وحده » .

والعامل الحاسم فى ضعف الدولة هو الترف ، فاذا كان قد زاد من قوة الدولة فى أولها فانه أشد العوامل أثراً فى ضعفها وانهيارها . ويفسر ابن خلدون ذلك بأسباب اقتصادية وخلقية ونفسية .

أما العامل الاقتصادى فان طبيعة الملك تقتضى الترف حيث النزوع إلى رقة الأحوال فى المطعم والملبس

---

(١) خضد الشجر قطع شوكه .
(٢) يشير بذلك إلى قول الله عز وجل ، بشأن آدم وذريته : « وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة » « سورة البقرة : ٣٠ »
(٣) سفد « السفود » الحديدة التى يشوى بها اللحم .

والفرش والآنية ، وحيث تشيد المباني الفخمة والهياكل العظيمة وحيث إجازة الوفود من أشراف الأمم ووجوه الناس ، وإدرار الأرزاق على الجند ، ويزيد الإنغماس فى الترف والنعيم لا من جانب السلطان وبطانته فحسب بل من جانب الرعية أيضاً إذ الناس على دين ملوكهم ، حتى يصل الأمر إلى أن الجباية لا تفى بخراج الدولة ، فتتدرج الزيادة فى الجباية بمقدار بعد مقدار لتدرج عوائد الدولة فى الترف وكثرة الحاجات والإنفاق فتضرب المكوس على أثمان البياعات فى الأسواق لإدرار الجباية ، بل قد يستحدث صاحب الدولة أنواعاً من الجباية يضربها على البياعات ليفى الدخل بالخراج حتى تثقل المغارم على الرعايا وتكسد الأسواق ، وذلك أن الجباية مقدار معلوم لا تزيد ولا تنقص ، فاذا زادت بما يستحدث من المكوس فان مقدارها بعد الزيادة محدود ، وإلا انقبض كثير من الأيدى عن الإعمار لذهاب الأمل فى النفوس بقلة النفع ، ولا يزال الإعمار فى نقص والترف فى ازدياد حتى ينتقص العمران ويعود وبال ذلك على الدولة .

ومن ناحية أخرى يتجاسر الجند على الدولة ، ويلجأ السلطان إلى مداراتهم ومداواتهم بالعطايا وكثرة الإنفاق ، وإذ لاتفى المكوس بذلك فقد تسول للسلطان نفسه إلى جمع المال من أملاك الرعايا من تجارة أو نقد بشبهة أو بغير شبهة ، وقد يلجأ إلى مشاركة الفلاحين والتجار فى شراء الحيوان والبضائع ، ولا يجرؤ أحد على منافسة السلطان فى الشراء ، فيبيع بضاعته بثمن بخس مما يؤدى إلى كساد الأسواق وقعود الفلاحين والتجار عن تثمير أموالهم فتقل الأرباح ، أو قد يتفرقون فى الآفاق طلباً للرزق أو قد يتوقع بعض الحاشية وقوع المعاطب ، فينزعون إلى الفرار آخذين ما تحت أيديهم من أموال وإن كان الخلاص من ربقة السلطان عسيراً ، وحتى إذا خلصوا إذا قطر آخر امتدت عيون الملك فى ذلك القطر إلى ما فى أيديهم من الأموال . هكذا تذهب رءوس الأموال وتكسد الأسواق وتقل جباية السلطان ، وتفقر الديار وتخرب الأمصار .

أما العامل الخلقى النفسى الذى يجعل الترف أهم معول هدم مؤدٍ إلى أنهيار الدولة فذلك لما يلزم عن الترف من فساد الخلق ، إن عوائد الترف تؤدى إلى العكوف على الشهوات وتثير مذمومات الخلق فتذهب عن أهل الحضر طباع الحشمة ويقذعون فى أقوال الفحشاء فضلا عن أن الترف يذهب خشونة البداوة ويضعف العصبية والبسالة حتى إذا انغمسوا فى النعيم فانهم يصبحون عيالا على الدولة كأنهم من جملة النسوان والولدان المحتاجين إلى المدافعة عنهم ، فالترف مفسد لبأس الفرد ولشكيمة الدولة ، والترف مفسد للخلق بما يحصل فى النفس من ألوان الفساد والسفه والترف مظهر لحياة السكون والدعة ودليل ميل النفس

إلى الدنيا والتكالب على تحصيل متعها حتى يتفشى الخلاف والتحاسد ويفت ذلك فى التعاضد والتعاون ويقضى إلى المنازعة ونهاية الدولة .

إن الظلم والترف وغلبة الأمم معاول تقضى على الدولة ، ويضرب ابن خلدون على ذلك أمثلة مما شاهده وما أطلع عليه فى بطون التاريخ من ظواهر اجتماعية ، فقال : « واعتبر ذلك فى أمة الفرس ، كيف كانت ملأت العالم كثرة ، ولما فنيت حاميهم فى ايام العرب بقى منهم كثير وأكثر من الكثير ، يقال إن سعداً يعنى « سعد بن أبى وقاص » قائد جيش المسلمين فى فتحه بلاد فارس » — أحصى من وراء المدائن (عاصمة الفرس حينئذ — فكانوا مائة ألف وسبعة وثلاثين ألفا ، منهم سبعة وثلاثون ألفا رب بيت ، ولما تحصلوا فى ملكة العرب وقبضة القهر لم يكن بقاؤهم إلا قليلا ، ودثروا كأن لم يكونوا ، ولا تحسن أن ذلك لظلم نزل بهم ، أو عدوان شملهم ، فملكة الإسلام فى العدل ما علمت ، وإنما هى فى طبيعة الإنسان إذا غلب على أمره ، وصار آلة لغيره » .

ويقرر ابن خلدون أن دراسة ظواهر الأجتماع على هذا النحو لم يسبقه أحد فيما يعلم ، وفى هذا يقول : « واعلم أن الكلام فى هذا الغرض مستحدث الصنعة ، غريب النزعة ، غزير الفائدة ، أعثر عليه البحث ، وأدى إليه الغوص ، وليس من علم الخطابة الذى هو أحد العلوم المنطقية ، فان موضوع الخطابة إنما هو الأقوال المقنعة النافعة فى استمالة الجمهور إلى رأى أو صدهم عنه ، ولا هو أيضاً من علم السياسة المدنية إذ السياسة المدنية هى تدبير المنزل أو المدينة بما يجب بمقتضى الإخلاق والحكمة ليحمل الجمهور من منهاج يكون فيه حفظ النوع وبقاؤه . .

ويتابع ابن خلدون حديثه فيقول : وكأنه علم مستنبط النشأة ، ولعمرى لم أقف على الكلام فى منحاه لأحد من الخليقة » .

كتب عنه المؤرخ البريطانى أرنولد توينبى فى كتابه . «دراسة فى التاريخ» : إنه لم يستلهم أحداً من السابقين ولا يدانيه أحد من معاصريه بل لم يثر قبس الإلهام لدى تابعيه مع أنه فى مقدمته للتاريخ العالمى قد تصور وصاغ فلسفة للتاريخ تعد بلا شك أعظم عمل من نوعه »

وقال عنه « دى بور » فى كتابه « تاريخ الفلسفة فى الإسلام » « إنه مفكر إسلامى عبقرى انفرد بما ابتكره من فلسفة الاجتماع وفلسفة التاريخ ، ولا تزال آثار تفكيره موضع إعجاب العلماء ودراستهم » .

ويقول جورج سارتون : وإنى لست أتردد فى أن أطلق على مقدمة ابن خلدون أنها أهم عمل تاريخى كتب فى القرون الوسطى . فيقول ابن خلدون إن المدنية تولد الفساد والانحلال والدمار ثم تنشأ مدنية جديدة وهكذا . . . ولقد اعتبر ابن خلدون من وجهة النظر هذه رائداً للمفكر الألمانى أزوالد شبنجلر .

ووصفه روبرت فلنت فى كتابه « تاريخ فلسفة التاريخ » : « إنه لا العالم الكلاسيكى ولا المسيحى الوسيط قد أنجب مثيلا له فى فلسفة التاريخ . هناك من يتفوقون عليه كمؤرخ حتى بين المؤلفين العرب . أما كباحث نظرى فى التاريخ فليس له مثيل فى أى عصر أو قطر حتى ظهر فيكو بعده بأكثر من ثلاثة قرون . إنه يثير الإعجاب بأصالته وفطنته . بعمقة وشموله . لقد كان فريداً ووحيداً بين معاصريه فى فلسفة التاريخ » .

ومع احترامنا لأصحاب هذه الآراء ، فنحن لا نشاطرهم الرأى فى أن عبد الرحمن بن خلدون هو أول من ابتكر فلسفة التاريخ ، فقد قدم القرآن العظيم ملامح منهج أصيل فى التعامل مع التاريخ البشرى . والانتقال بهذا التعامل من مرحلة العرض والتجميع فحسب ، إلى محاولة استخلاص القوانين التى تحكم الظواهر الإجتماعية — التاريخية ، وهذا يتمثل بالتأكيد المستمر فى القرآن على قصص الأنبياء والأمم السابقة وعلى وجود « سنن » « ونواميس » تخضع لها التاريخ فى سيره وتطوره .

يقول الدكتور محمد إقبال (١) : « التاريخ ، أو بتعبير القرآن ، أيام الله ، هو ثالث مصادر المعرفة الإنسانية بناء على ما جاء فى القرآن » .

من أهم أصول التعاليم التى جاء بها القرآن أن الأمم تحاسب بمجموعها ، وأن العذاب يعجل لها فى الحياة الدنيا بما اكتسبت من سيئات ، ولكى يؤكد القرآن هذا المعنى فانه دائب الإشارة إلى الأمم الخالية داعيا إلى الأعتبار بتجارب البشر فى ماضيهم وحاضرهم .

— « ولقد أرسلنا موسى بآياتنا أن أخرج قومك من الظلمات إلى النور وذكرهم بأيام الله إن فى ذلك لآيات لكل صبار شكور » « سورة إبراهيم : ٥ » .

— « وممن خلقنا أمة يهدون بالحق وبه يعدلون . والذين كذبوا بآياتنا سنستدرجهم من حيث لا يعلمون . وأملى لهم إن كيدى متين » . « سورة الأعراف ١٨١ — ١٨٣ » .

---

(١) تجديد التفكير الدينى فى الإسلام ، ترجمة عباس محمود : ص ١٥٩ .

— قد خلت من قبلكم سنن فسيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين ، هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين . ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين . إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله وتلك الأيام نداولها بين الناس وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء والله لا يحب الظالمين « سورة آل عمران : ١٣٧ — ١٤٠ »

— « ولكل أمة أجل » « سورة الأعراف : ٣٤ »

وهذه الآية الأخيرة مثل من أمثلة الأحكام التاريخية العامة تتجلى فيها التعيين والتحديد ، وهى فى صيغتها البالغة الإيجاز توحى إمكان دراسة حياة الجماعات البشرية دراسة علمية باعتبارها كائنات عضوية .

والحقيقة أنه يبدو أن مقدمة ابن خلدون تدين بالجانب الأكبر من روحها إلى مستوحاه المؤلف من القرآن ، بل هو مدين للقرآن إلى حد كبير حتى فى أحكامه على الاخلاق والطبائع .

يقول : ولا تتأتى كتابة التاريخ كتابة علمية إلا لمن تجمعت لديه خبرة أوسع ونضج أتم فى التفكير العلمى ، وأخيراً تحقق أعظم لبعض الأفكار الأساسية عن طبيعة الحياة والزمان ، وترجع هذه الأفكار فى جملتها إلى أثنتين وكلتاهما أساس لتعاليم القرآن المجيد .

الفكرة الأولى : تقرر وحدة الأصل الإنسانى إذ يقول الكتاب الكريم :

— « وهو الذى أنشأكم من نفس واحدة » « سورة الأنعام : ٩٨ »

على أن إدراك الوجود بوصفه وحدة عضوية عمل بطىء ويتوقف على اشتراك الناس فى موكب الحوادث العالمية . وهذه الفرصة سنحت للإسلام بازدهار إمبراطوريته المترامية الأطراف ازدهاراً سريعاً .

ولا شك فى أن المسيحية دعت إلى المساواة بين الناس قبل الإسلام بوقت طويل ، غير أن روما المسيحية لم تسم إلى فهم معنى الإنسانية بوصفها وحدة عضوية فهما تاما . ولقد صدق « فلنت » إذ يقول :

« لا يمكن أن يسند إلى أى كاتب مسيحى من كتاب الإمبراطورية الرومانية أنه كان يعرف عن وحدة الإنسانية أكثر من فكرة عامة مجردة ، ومن باب أولى لا يمكن أن يسند هذا إلى أى كاتب آخر من كتاب ذلك العهد » .

ومن أيام الرومان يظهر أن هذه الفكرة لم تفد الكثير من العمق والرسوخ فى أوربا . أضف إلى هذا أن نمو القومية الإقليمية والحاحها فيما يسمى بالخصائص القومية قد جنح إلى قتل العنصر الإنسانى الشامل فى الفن والأدب فى ربوع أوربا .

أما الإسلام فكان الأمر فيه على خلاف هذا فهو لم يكن ينظر إلى وحدة الإنسانية على أنها فكرة فلسفية أو حلم من أحلام الشعراء ، بل كان بوصفه حركة اجتماعية يهدف إلى جعل هذه الفكرة عاملا حياً فى الحياة اليومية لكل مسلم ، وبها جعلها تعطى أ كلها فى صمت وخفاء .

والفكرة الرئيسية الثانية ، هى إدراك حقيقة الزمان إدراكا دقيقاً ، وتصور الوجود حركة مستمرة فى الزمان . وهذه الفكرة هى أبرز ما نجده فى نظر ابن خلدون إلى التاريخ .

(*) مراجع الفصل :

١ – مقدمة ابن خلدون .
٢ – عمر فروخ : تاريخ الفكر العربى .
٣ – فلسفة ابن خلدون .
٤ – د. على عبد الواحد وافى : فى عبد الرحمن بن خلدون .
٥ – أحمد محمود صبحى : فى فلسفة التاريخ .
٦ – ساطع الحصرى : دراسات عن مقدمة ابن خلدون .

الفصل الرابع

فلسفة هيجل للتاريخ

« إذا ما قدر لأمة أداء دورها فى التاريخ لتتصدر مسرح الأحداث تلاشت الهوة بين الإمكانيات المعبرة عن الوجود بالقوة وبين الواقع الموضوعى المعبر عن الوجود بالفعل » .

هيجل

يرى هيجل (١) أن كل عصر أو فترة أساسية فى تاريخ الحضارة الاجتماعية يمثل وحدة مستقلة ، وأن ملامحه السياسية والاقتصادية والخلقية والاجتماعية العامة والجمالية والعقلية والدينية كلها جوانب أو نواح للمجموع الحى ومنها جميعاً يتكون كيان متجانس ، وأن فترة أساسية تنمى فكرتها الجوهرية إلى الحد الأقصى ثم تولد أضدادها أو نقائضها ويستمر الصراع دائماً ، فتتحد المبادئ المتناقضة فى وحدة عليا هى «الموحد» ، وهذا الموحد يندفع مرة ثانية إلى الحد الأقصى ويبدأ صراع جديد فيتولد حينئذ مرة أخرى موحد يحوى ماهو فعال من كل من الفرضية ونقيضها . وبهذا الأسلوب تتقدم الفكرة فى النهاية إلى« المطلق » الذى يمكن أن نمعن فيه النظر طويلا دون أن نتبين فيه أى تناقض . ويمكن إيضاح ذلك بعدة أمثلة :

اعتنقت اليونان القديمة مبدأ الديمقراطية المحدودة أى أن بعض الناس وهم كل طبقة المواطنين ، أحرار ، وبهذا اكتشفت أثينا مبدأ الفردية والحرية المقيدتين ، وإذ دفعت الديمقراطية اليونانية مبدأ حرية الفرد إلى حد الأنانية المستغلة فانها حطمت بذلك وحدة كيان الدولة . وكان النضوج فى الحضارة الرومانية أكثر قوة وصلابة بحيث صارت فكرة الدولة أكثر قوة . وكان فى إمكان الدولة أن تخضع الإرادة الفردية للاحتياجات العامة التى تتعلق بأمن الدولة وبتوسيع رقعتها . وسادت المسيحية فى الإمبراطورية الرومانية ونادت بفكرتها عن الإله البشر ، وبالاتحاد الشامل بين الفرد المستقل والروح العامة .

وقد حققت الشعوب الجرمانية هذا المبدأ أول مرة فى النظام السياسى الاجتماعى فكل الناس فيه أحرار كأشخاص ، ولكنهم إذ يكونون أشخاصاً فمعنى ذلك أن يكونوا أعضاء فى الدولة التى هى الوحدة الجامعة التى تحمى وتغذى الأسرة والمجتمع المدنى والكنيسة والحضارة .

فالدولة تجريد غير واقعى بدون أعضائها . والفرد لا يكون إنساناً ما لم يعمل بتعاون كعضو فى الدولة .

---

(١) ولد فردريش جورج ولهلم فى شتوتجارت بألمانيا فى ٢٧ أغسطس سنة ١٧٧٠ . وتعلم فى مدارسها حتى بلغ سن الثامنة عشرة . ثم انتقل سنة ١٧٨٨ إلى معهد توبنجن فدرس الفلسفة والآداب اليونانية واللاتينية وحصل على الدكتوراه سنة ١٧٩٠ .

وفى سنة ١٨٠١ نال إجازة للتدريس فى جامعة « يينا ». وظل هيجل يدرس بها حتى أكتوبر سنة ١٨٠٦ ؛ عندما استولت جيوش نابليون على يينا . ثم استقر بعد ذلك فى « نورمبرج » فكان مدرساً وعميداً بها من سنة ١٨٠٨ حتى ١٨١٦ .

وعين هيجل أستاذاً فى جامعة « هيدلبرج » ، ثم عين سنة ١٨١٨ أستاذاً للفلسفة بجامعة برلين . وظل يقوم بالتدريس بها حتى سنة ١٨٣٠ ، فأصبح عميداً لها .

وفى أواخر سنة ١٨٣١ انتشر وباء الكوليرا فأصيب بها هيجل ، وتوفى فى ١٤ نوفبر ١٨٣١ .

وهذه الجماعية التى ظهرت فى القرن التاسع عشر مجرد رد فعل للفردية : وهى فى رأى هيجل خير وأكثر انطباقاً على الحقائق : إذ أنها تتضمن العناصر المؤثرة من الفردية أيضاً ، وفى كل حالة تظهر من التقاء الاتجاهات المتضادة نتائج مثمرة .

إن جوهر التطور — كما يرى هيجل — هو نتيجة صراع المتناقضات ، لأن كل ظاهرة تحتوى على تناقض داخلى يدفعها إلى الأمام ويؤدى بها فى النهاية إلى أن تتحطم وتصبح شيئاً أخر ، غير أن تحطم ظاهرة ما إنما هى فرصة لانبثاق ظاهرة جديدة تدفع دون شك الظاهرة السابقة ، ولكنها فى الوقت نفسه تحتوى فى ذاتها على كل عناصرها الفعالة والمؤثرة ، وبهذه الطريقة يتحول النظام الفلسفى إلى نظام آخر .

ويرى هيجل أن الصيرورة (١) ليست متروكة للصدفة والأسباب العارضة، بل إن هناك وراءها إرادة مخططة ، وأن هدف هذا الصراع والتوفيق هو تطوير روح العالم أى الروح المحركة لهذا العالم ، التى تتجه دائماً صوب غايتها ، ألا وهى تحقيق الذات : يقول هيجل : « إننا نستنتج مجرد استنتاج من تاريخ العالم أن تطوره كان دائماً صيرورة عقلية — أى الحركة الفكرية المتقدمة نحو الأعلى — وأن هذا التاريخ قد أنشأ الطريق المنطقى الضرورى لروح العالم : تلك الروح التى طبيعتها دائماً واحدة لا تتغير والتى تعرض هذه الطبيعة فى ظواهر وجود العالم (٢) لذلك فإن تفسير التاريخ هو بيان لعواطف البشر وعبقرياتهم وقواهم الفعالة التى تقوم بدورها على مسرح العالم الكبير ، وإن الصيرورة التى تقررها المشيئة السامية المهيمنة والتى تعرضها تلك العواطف والعبقريات والقوى الفعالة ، هذه الصيرورة تكون ما يسمى بصورة عامة مخطة المشيئة العليا (٣) .

قد يبدو لأصحاب النظر السطحى أن الناس أحرار فى أن يعملوا ما يريدون ، وأن أعمالهم تنبعث عن ما يشعرون به من حاجات —وعواطف ، وما يتمتعون به من مزايا ومواهب ولكن، هيجل يرى أن هذا تصور يجانبه الصواب عانى منه البشر الكثير منذ زمن سحيق : فهذه الأعمال جميعاً تتم بأمر « روح العالم » وهذه المجموعة الكبيرة من الرغبات والميول والنشاط تؤلف الأدوات والوسائل التى تستعين بها « روح العالم » لكى تبلغ غايتها وهى التى ترقى بها « أى بالروح » إلى الوعى وهى التى تجعلها حقيقة فى عالم الوجود (٤)

---

(١) الصيرورة كلمة مرادفة للتغير ، وهى صفة أساسية للمادة الجامدة والحية على السواء . كل شئ فى صيرورة دائمة ، فلا شئ ساكن ثابت مستقر . كل سكون وكل ثبات وكل استقرار هى أمور نسبية . أما ما هو جوهرى وما هو مطلق فهو أن كل شئ فى تغير دائم ، فى صيرورة دائمة . (موسوعة الهلال الاشتراكية ، مادة صيرورة)

(٢) I. Si bree : Hegel's philosophy of history, P. 11.

(٣) المصدر نفسه ، ص ١٤ .

(٤) المصدر نفسه ، ص ٢٦ .

ويرى هيجل أن عظماء التاريخ هم عجلات الفكر ، وليس عظماء التاريخ سوى العناصر التي يتحقق بها التقدم ، وهم بمثابة المقاييس أو العلامات التي يقاس بها التقدم وكذلك فإن أهداف كل العظماء تدخل فيها تلك القضايا الكبار من ناحية كونهم قد استمدوا غاياتهم ودعوتهم لامن الأوضاع العادية الهادئة التي يقررها النظام القائم بل من مصدر خفي : إنهم يعتبرون أنفسهم رجالا أحرارا يستمدون باعث حياتهم من أنفسهم ومما يشعرون به شخصياً من أنواع الاهتمام والميول ولكن الحق أنهم دمى في يدى «روح العالم» فهم يجهلون تماماً الفكرة العامة التي يعرضونها عندما يسعون وراء تحقيق أهدافهم تلك : وليست عظمتهم في الحقيقة إلا في أن لديهم البصر النافذ الذي فيه من العمق ما يكفي لأن يدركوا متطلبات الزمن .

وكان مما امتازوا به أنهم عرفوا هذا المبدأ الناشىء ، وهو الخطوة الضرورية التي تعقب مباشرة طريق التقدم التي قدر للعالم أن يخطوها ، وأن جعلوها هدفهم وبذلوا طاقتهم من أجل نجاحها(١) .

والسؤال هو : ما الذي يميز هؤلاء الأبطال عمن سواهم من عامة الناس ؟

الفرق الوحيد الذي يقول به هيجل هو وضوح الرؤية ، ونفاذ البصيرة ، فهم يسمعون نداء « روح العالم » بوضوح أكثر من بقية الناس : والنتيجة المنطقية لهذا أن هؤلاء الأبطال يجب ألا يعيروا سمعاً لنصح الجماهير لأن الجماهير لم توهب صفاء الذهن الذي يلتقط إشارات « الروح » .

يقول هيجل : « لذا فإن الرجال الخالدين في تاريخ العالم أبطال عصر من العصور : يجب أن يعترف لهم بصفاء البصيرة ، وأن أعمالهم وأقوالهم خير أعمال وأقوال ذلك العصر » .

لقد حدد العظماء أهدافاً يرضون بها أنفسهم ، لا الآخرين ، ومهما كانت الخطط الحكيمة والنصائح التي ربما يكونون قد تعلموها من الآخرين فإنها تكون في سيرتهم العملية ملامح أضيق حدوداً وأشد تنافراً لأنهم هم أنفسهم يفهمون الأمور أفضل مما يفهمها الآخرون ، الذين يتعلم بقية الناس منهم ويؤيدون سياستهم أو على الأقل يرضخون لها ، إذ أن تلك الروح التي خطت هذه الخطوة الجديدة في التاريخ هي الروح التي تسكن أعماق كل فرد ، ولكن في حالة من الغفلة وعدم الوعي فيوقظها هؤلاء العظماء الذين نتحدث عنهم ، لذلك فان أصحابهم يتبعون قادة الروح هؤلاء ، لأنهم يشعرون بأن قوة أرواحهم أنفسهم : هذه القوة التي لا تقاوم ، قد تجسدت بهذا الشكل(٢) .

---

(١) المصدر نفسه : ٣٢ .

(٢) المصدر نفسه : ص ٣٢ .

لذلك فهم معصومون من الخطأ وأعمالهم فوق كل أنواع النقد . وكل ما يفعلونه سلوك طيب حميد لأنهم عظماء وقد أرادوا شيئاً عظيماً ونفذوا إرادتهم وفقاً لحاجة العصر . وأن أعمالهم العظيمة هذه لها أهمية كبرى تجعلها أسمى من أن توزن فى ميزان الفضيلة والأخلاق الكريمة .

يقول هيجل : « بل إنه يمكن لمثل هؤلاء الرجال أن ينظروا إلى المصالح العظيمة الأخرى ، وحتى المقدسة منها بدون اكتراث ، وذلك تصرف يعرض أصحابه إلى تأنيب الضمير . ولكن هذا الشكل ذا القوة الكبيرة لابد أن يدوس الكثير من الأزهار البريئة ويسحق الكثير من الأشياء التى تعترض طريقه » .

هؤلاء العظماء وحدهم يعرفون ما هو الشر وما هو الخير ، وأعمالهم تحمل ختم المصير المطلق المتعالى .

يعتقد هيجل أن هذه الفكرة عن الأخلاقية تحل أحد الألغاز الكبرى فى حياة البشر ، وهو أن الطيب التقى ، غالباً ، أو فى أكثر الأحيان ، يعيش حياة نكدة فى هذا العالم ، بينما الخبيث الذى يميل إلى الشر يعيش حياة رغدة . فهو يرى أن الإنسانية إذا أخلصت نفسها لهدف واحد ووجهت جهودها إليه دون النظر إلى ما سواه فحينئذ لا يمكن أن يعتبر ما يسمى تعساً أو منعماً من الأفراد عناصر أساسية فى النظام المنطقى المحكم الذى يسير عليه العالم . وكل ما هو مطلوب إنما هو أن يتحقق هذا الهدف العظيم ، وأن الناس يشعرون بعدم الرضا لمجرد أنهم لا يجدون الحاضر ملائماً لتحقيق الأهداف التى يعتقدون أنها حق وعدل[1] .

ولكن : ما هو الشكل الذى به يمكن تحقيق الهدف العظيم ؟

يجيب هيجل بأنه الدولة ، ولكنها لاتعنى عنده السلطة الملزمة التى تكون قانوناً فوق كل فرد أو جماعة ، وتكون جزءاً من المجتمع . إنها الشكل الذى تتخذه الروح إذ تتجسد تجسداً كاملا « وهذا هو اتحاد الذاتى مع الإرادة العقلية » إنها الكل الأخلاقى ، الذى هو ذلك الشكل من الحقيقة الذى يكون فيه للفرد حرية يتمتع بها ، ولكن على شرط أن يعترف بالأمور المشتركة لهذا « الكل » ويعتقد فيها وتتجه ارادته نحوها . إن الإرادة الذاتية ، والإندفاع الذاتى محركان البشر ويدفعانهم إلى النشاط الذى يحقق « الوجود العملى » . إن الفكرة هى المنبع الداخلى للعمل ، والدولة هى الحياة الخلقية المتصورة التى توجد حقيقة فى عالم الواقع .

---

(١) المصدر نفسه : ص ٤٠ .

لذلك فكل ما لدى الأفراد من أخلاق إنما حصل لديهم بهذه الطريقة فقط : إنها فى الحقيقة فكرة الروح ظاهرة فى المظهر الخارجى للإرادة الإنسانية وحريتها ويعرفها هيجل بأنها « فكرة إلهية »

هذه بصورة موجزة فلسفة التاريخ كما عرضها هيجل .

إن هيجل عندما يصف تاريخ العالم بأنه عملية متعقلة ، فإنه بغير شك يعنى أنه من الممكن إنشاء رواية لها أهميتها « وذلك مقابل التقويم غير المترابط » للوقائع التى تتكون منه ، ولكنه يبدو أنه يعنى شيئاً آخر أكثر من ذلك . أى يمكننا القول ، بأنه لا يعنى ذكر علة ما حدث فقط ، بل يعنى كذلك أسس ودوافع ما حدث كذلك .

فالقول بأننا نفسر الحادثة التاريخية ، عندما نكيف العوامل المختلفة العاملة بها ، ونقدر أهميتها ، لا يرضى هيجل ، بل هو يطلب تفسيراً أكثر من ذلك . وهو لا يقصد بكلمة « أكثر » فى هذا المقام أكثر من نفس النوع السابق ذكره ، فانه لم ينزعج لعدم أكتمال القصة التى رواها المؤرخون ، بل انزعج لسطحيتها ، الضرورية . ولفهم التاريخ بالمعنى الحقيقى ، علينا أن نذهب إلى ما بعد وجهة النظر التجريبية وأن نتبع طريقة أخرى مختلفة تماماً .

وقد تبدو النقطة أكثر وضوحاً ، إذا قلنا إن هيجل يسأل السؤال : «لماذا ؟» فى التاريخ بمعنى يختلف عن الذى يسأله المؤرخون ، أو بمعنى آخر ، إنه يسأل : «لماذا ؟» أولا بمعناها ، أو معانيها التاريخية المباشرة ، ثم بمعنى آخر خاص به ويمكن الربط بين ما فعله ، ورغبته فى النفاذ إلى ما وراء ظاهر الظواهر التاريخية ، أى إلى الواقع الذى لا يخامره شك فى أنه يكمن وراء هذه الظواهر .

ولا نستطيع أن نتوقع إنجاز ذلك بوساطة المؤرخين الذين يعتبر تفكيرهم وفقاً للغو الهيجلى (متحركاً فى مستوى الفهم) ولكنه عمل يقع بكل وضوح فى نطاق الفيلسوف الذى لديه معرفة بالفكرة التى تعمق استنباطاته للوقائع .

ولكن لو كان هذا ما يسعى هيجل لتحقيقه ، فكيف يستطيع أن يعد نفسه لبلوغ نتائج مشخصه ؟ .

إنه يستطيع ذلك بمحاولة استنباط تفاصيل التاريخ من مقولات منطقه فالتاريخ يصبح عملية عقلية

بالمعنى القوى الذى يفسر به هيجل هذه الكلمة ، إذا اقتصر على الديالكتيك[1] التجريدى للفكرة . ولكن كما رأينا لم يتوهم هيجل أبداً إمكان تحقيق مثل هذا الاستنباط ، ولذا اختار الوسيلة البديلة وهى ألا يحاول استنباط تفاصيل التاريخ ، بل يستنبط أساسه أو هيكل خطته من المقدمات الفلسفية الخالصة .

ولكنه عندما اختار هذا الحل البديل ، ألم يعرض نفسه للإتهام بالقبلية التى سعى لرفضها ؟

وهل يستطيع فى الواقع أن يجيب إجابة مقنعة على هذا الاتهام ؟

ألا يبدو واضحاً ، كما أظهر هيجل ، أنه عرف قدراً كبيراً عن الاتجاه الذى يجب أن يتبعه التاريخ قبل أن يعرف أى وقائع تاريخية على الإطلاق ؟ فهو يعرف مثلا أن التاريخ يجب أن يكون التحقق التدريجى للحرية ، ويعرف كذلك ، أن هذه العملية يجب أن تتم نفسها فى أربع مراحل متمايزة ، وإذا تطلب الأمر ،

---

(١) ديالكتيك أو « جدل » : كان فى البداية تعبيراً عن الحوار الذى يقوم بين المتنازعين حول رأى من الآراء ، كما كان بعض الفلاسفة القدامى يستخدمونه للتعبير عن المراحل المتدرجة للمعرفة . إلا أن الديالكتيك قد أصبح تعبيراً عن منطق جديد فى مواجهة منطق أرسطو القديم . فاذا كان منطق أرسطو يقوم أساساً على دراسة أشكال الفكر ، وقواعد استخلاص النتائج من المقدمات ، فان الديالكتيك هو دراسة محتوى الفكر نفسه لا شكله وهو كذلك دراسة القوانين الأساسية للتغير والحركة والتداخل فى الطبيعة والمجتمع على السواء . ويقوم الديالكتيك على الحركة ، ويقول بالتناقض أساساً فى نسيج الأشياء . إن الأشياء فى تحول وتغير دائمين والتناقض هو قانون تحولها وتغيرها .

ونلخص المبادئ العامة للديالكتيك فيما يلى : —

١ — كل شئ متداخل متشابك مؤثر ومتأثر بكل شئ آخر .

٢ — أن كل شئ فى حالة تغير وحركة وصيرورة .

٣ — التغيرات الكيفية هى نتيجة لتغيرات كمية . كما أنها كذلك تؤدى إلى إحداث تغيرات كمية . والتغيرات الكيفية تتم فى شكل طفرة ، إلا أن هذه الطفرة لا تحسب بالزمن ، فقد تتم فى دقائق ، وقد تستغرق السنوات .

٤ — التناقض هو نسيج الأشياء ، فكل شئ يحتوى فى داخله على جانب إيجابى وآخر سلبى هناك فى كل شىء جانب ينمو وآخر يموت . وهذا المبدأ هو جوهر الحرية الديالكتيكية كلها .

٥ — مبدأ نفى نفى الذى يحدد مسار العملية الديالكتيكية ، فهناك الموضوع ثم هناك نقيض هذا الموضوع أو نفيه ، ثم هناك نقيض هذا النقيض ، أو نفى النفى . فالنظام الرأسمالى هو نفى للنظام الإقطاعى ، والنظام الإشتراكى هو نفى للنظام الرأسمالى أى نفى للنفى . والنفى فى هذا المبدأ لا يعنى الألغاء وإنما يعنى التجاوز والتخطى أى الانتقال إلى مستوى أرقى مع الاحتفاظ بكل ماهو متقدم وإيجابى والتطور به « موسوعة الهلال الأشتراكية : مادة : ديالكتيك » .

وقد نقد « كيركجورد » هذا المنهج بقوله : « إن محاولة توحيد شئ والتوفيق بين الأضداد والأفكار المتناقضة يقضى على هذه الأفكار ، ويبددها ويحيلها ألفاظاً جوفاء لا معنى لها بحيث لا تعود تفكر فى شئ ذى قيمة وإذا كان كل شىء صحيحاً إلى حد ما ، أصبح كل شئ غير صحيح إلى حد ما أيضاً وذلك لأن الحقيقة لا تقبل التجزئة أو التدرج .

فانه يقدم براهين فلسفية لهذه القضايا . فاذا كان ذلك لا يقرر اتجاه التاريخ ، بصرف النظر عن التجربة ، فمن الصعب أن نعرف ما هو الذى يقرر هذا الاتجاه .

قد يجيب هيجل إن هذا النقد ردىء التصور ، لأنه يسلم بوجهة نظر « الفهم » ويعجز عن تقدير الطبيعة الخاصة بالعقل الفلسفى ، وهذا العقل ملكة لا يقتصر عملها على البرهنة ، بل لديها قوة حدسية كذلك . ولكن يجب أن نسأل كيف تعمل وأين هى هذه القوة الحدسية التى يفترض أنها تمارس ؟

قد يقال إن الفيلسوف يستطيع اكتشاف النموذج الذى ينبغى أن تتلاءم معه الوقائع التاريخية ، بالضرورة ، وذلك بفحصها فحصاً عقلياً . فاذا كان هذا صحيحاً ، هنا يبرز السؤال التالى :

لماذا لا يستطيع المؤرخون اكتشاف النموذج كذلك ؟ .

فاذا كانت الإجابة على ذلك هى أنهم يفتقرون إلى معرفة المنطق الهيجلى ، فان الرد هو أنه يبدو أن هذا المنطق بناء على ما ظهر كثير الشبه كما يزعم نقاد هذا المنطق(١) .

ويقال إن هيجل ظن أن التاريخ عملية عقلية ، لذلك فان تطور العقل هو تطور الحقيقة ، وهكذا فكل شىء سواء كان خيراً أو شراً ، له ما يبرره لأنه منطقى معقول .

يعلق « بنيديد يتوكروجى » على هذه الناحية من فلسفة هيجل فيقول :

« إن فكرة هيجل عن الحياة كانت فلسفية بحيث أن النزعتين المحافظة والثورية ، كل فى دورها ، تجد فيها ما يبررها . وفى هذه النقطة يتفق أنجاز الاشتراكى و المؤرخ المحافظ ترايتشه لأن كليهما يرى أن تماثل المعقول والحقيقى يمكن أن يدعى إليه بصورة متساوية فى كل الآراء السياسية والأحزاب التى تختلف عن بعضها ، لا من ناحية هذه الصيغة المشتركة ، بل فى تحديد ما هو المعقول والحقيقى وما هو غير المعقول وغير الحقيقى . وفى كل مناسبة يعد ذلك الحزب السياسى العدة لشن حرب على نظام أو طبقة من طبقات المجتمع فانه يدعى أن خصمه مخالف للمعقول أى أنه ليس له وجود ملموس وحقيقى ، ويكون بهذا الادعاء قد وضع نفسه مع الفلسفة فى خط واحد(٢) .

---

(١) و . هـ . وولش : مدخل لفلسفة التاريخ ، ترجمة أحمد حمدى محمود ، ص ١٩٧ – ٢٠٢ .

(٢) Benedetto Crace : what is Living and what is Dead of the Philosopby cf Hegel pp. 66—67.

وثمة سؤال يرد على الفكر : كيف يمكن أن نعتبر نظاماً ما من أنظمة الحكم معقولا أو غير معقول ؟

والجواب على ذلك هو أن العنصر العسكرى وحده يقرر ذلك . وهذا ما حدا بالنقاد إلى أن يطلقوا على هيجل : « فيلسوف مجلس الحكم السرى وحكم طبقة الإداريين للدولة » وفى هذا القول شئ كثير من الحقيقة ففى هذا النظام الذى يمتزج فيه غير المحدود والمحدود فى شىء واحد والخير والشر يؤلفان صيرورة واحدة ، والتاريخ فيه هو عين حقيقة الفكرة والروح ، لا شيئاً خارج إطار تطورها التاريخى ، فى هذا النظام تكون كل حقيقة ، لمجرد كونها حقيقة ، حقيقة للفكرة وتابعة للكل المحسوس الذى لا يتجزأ . لذلك فكل التاريخ عنده يصير تاريخاً مقدساً [1] .

وقد ترتب على نظرية هيجل أن توقف تقدم المذهب [2] الذى يقول : بأن كل الناس إخوة وأن الفوارق القومية والعنصرية والاجتماعية إنما هى فوارق مصطنعة أنتجتها التربية المعيبة ، فهيجل يجعل من هذه الفوارق — التى تتحلى فيما تمتاز به أمة بذاتها أو جنس بذاته عبقريات فريدة — شيئاً يرتكز على الضرورة التاريخية رغم ما يبدو جلياً من أنه لا سند من العقل لهذه الفوارق .

إن الصيرورة الديالكتيكية التى قال بها هيجل علمت الناس عبادة القوة : وقد ساند هو نفسه كل رجل ارتقى كرسى الحكم « حين حاول نابليون بحراب جيشه أن يدخل العلاقات البرجوازية إلى ألمانيا ، كان هيجل ، الذى كان فى ذلك الوقت يضع أسلوبه الديالكتيكى ، يتجاوب مع الثورة الفرنسية ، ورحب بدخول جيش نابليون إلى « ينا » باعتباره التجسيد التاريخى لشكل جديد للروح المطلقة ، ثم سمى نابليون « الروح المطلقة على جواد أشهب » ولكن بعد عشرين سنة من ذلك حين اشتد ساعد الحكم الملكى الإقطاعى فى ألمانيا والذى كان على رأسه فريدريك وليم الثالث ، كان هيجل قد فقد أفكاره الثورية وأصبح فيلسوف الدولة فى مملكة بروسيا [3] » .

وهيجل — كما عرفنا — يعتقد بان الانفصال شئ لا وجود له فى عالم الحقيقة . فالعالم ، كما بتصوره ، ليس مجموعة وحدات صلبة ، ذرات أو أرواحاً ، كل منها قائمة بذاتها تماماً . وأن ما يظهر من استقلال ذاتى للأشياء المحدودة هو وهم وخيال . وأنه ما من شئ حقيقى تماماً وبصورة نهائية إلا « الكل » .

هذه العقيدة أدت به إلى أن يستنتج أنه لما كانت الدولة تجسيداً للكل فهى الحقيقة الصادقة وفيها وحدها توجد الفكرة الإلهية . وأن الفرد إذا أراد أن يحقق وجوده لم يستطع ذلك إلا كعضو من أعضاء الدولة . ولكن فى هذه الفكرة شيئاً كثيراً من التناقض .

---

(١) المصدر السابق : ص ٦٩ .

(٢) إيسيا برلين : كارل ماركس ترجمة عبد الكريم أحمد ، ص ٤٦ — ٤٧ .

(٣) تفسير التاريخ ، مرجع سابق ، ص ٧٩ .

فلماذا تأخذ الدولة وحدها كتجسيد للكل ، ولا تأخذ العالم كله « ككل » والدولة بمثابة أقسامه ؟

إن ذلك أقرب إلى الحقيقة وأكثر اتفاقاً مع فلسفة هيجل ، لأن « روح العالم » تعرض نفسها فى كل أرجاء الأرض وما فيها من سكان . إنها لا تحصر نفسها فى حدود بلاد أو دولة ، والعالم كله مسرح لها ، فيه البشر جميعاً ممثلون يؤدون أدوارهم وفقاً لرغبتها .

إن هذا الإكبار للدولة ناتج عن رد فعل شعر به العالم بعد « حركة الإصلاح » . ولقد أدت فكرة الدولة هذه إلى نتائج خطيرة ، فقد ثبت فى أذهان الناس أن يؤيدوا الدولة بدون قيد ولا شرط سواء كانت هذه الدولة تمثل العدل أو الظلم .

وفضلا عن ذلك فان هذه الفكرة عن الدولة أنتجت أشد الاتجاهات الفاشية لدداً فى العالم .

إن الدولة تعتبر قانوناً بذاتها « إنها بالنسبة له العقل المطلق الواثق من نفسه الذى لا يعترف بأية سلطة سوى سلطته ، والذى لا يقر بأية قواعد مجردة للخير والشر والمخجل والوضيع والاحتيال والخديعة » وهكذا فان اللجوء إلى كل أنواع الوسائل مهما كانت منافية للأخلاق يعتبر أمراً مشروعاً إذا كان من أجل الدولة

إن الأبطال المسؤولين عن مدّ رواق الدولة معصومون ، وكل ما يقومون به حق وعدل ، لذلك فلا يجوز لأحد أن يوجه إليهم النقد . إن هؤلاء الأبطال يجب أن يقوموا وحدهم بإملاء ارادتهم لأنهم يستطيعون أن يتصوروا عصرهم تصوراً صادقاً صحيحاً .

هذه النظرية قد حثت الناس على اتباع الحكام اتباعاً أعمى وزعزعت كيان الأخلاق من أساسه .

المراجــع

١ ـ الكتب : حسب ورودها في الكتاب

* ميشيل دوزيه : حياة جوليو كورى ، ترجمة فؤاد حداد .

A. Cresay Morrison : Man does not stand alone .

* ول ديورانت : مباهج الفلسفة ترجمة الدكتور أحمد فؤاد الأهوانى .
* ول ديورانت : قصة الحضارة .
* جميل جبر : طاغور .
* أ . كريسى موريسون : العلم يدعو للإيمان ترجمة محمود صالح الفلكى .
* عبد الحميد جوده السحار : محمد رسول الله والذين معه .
* أدولف إرمان وهرمان رانكه : مصر والحياة المصرية فى العصور القديمة ترجمة . د ، عبد المنعم أبو بكر ، ومحرم كمال .
* محمد عبد الغفار الهاشمى : محمد رسول الله فى بشارات الأنبياء .
* ابن حزم : الفصل فى الملل والأهواء والنحل .
* جوستاف جروفنباوم : حضارة الإسلام ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد .
* طه عبد الباقى سرور : إقبال شاعر الحرية والكفاح .
* زيجريد هونكه : شمس الله على الغرب ترجمة الدكتور فؤاد حسنين على .
* البرت شفيتزر : فلسفة الحضارة ترجمة الدكتور عبد الرحمن بدوى .
* أبو الحسن الندوى : ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ؟
* جون ستيوارت مل : بحث فى الحرية ترجمة دار اليقظة العربية — بيروت .
* محاضرات أرنولد توينبى فى مصر (١٩٦١) كتب ثقافية .
* الدكتور قسطنطين زريق : نحن والتاريخ .
* هرنشو : علم التاريخ ترجمة عبد الحميد العبادى .
* البان ج . ويد جرى : التاريخ وكيف يفسرونه ترجمة عبد العزيز جاويد .
* أ ج . أيفانز : هيرودوت ، ترجمة أمين سلامة .

Freud : Three contributions of the sexual theory .

- أوجين جننجر : فن الزعامة ترجمة سلوى حافظ وروجيه ناجي .
- إدورد كار : ما هو التاريخ ؟ ترجمة أحمد حمدى محمود .

كارلايل : الأبطال ترجمة محمد السباعى .

- فؤاد محمد شبل : منهاج توينبى التاريخى .

المشكلة اليهودية العالمية

دور مصر فى تكوين الحضارة

- الدكتور أحمد محمود صبحى : فى فلسفة التاريخ .
- الدكتور عبد الرحمن بدوى : شبلنجر .
- أبو بكر محمد بن زكريا الرازى : الطب الروحانى .
- ابن خلدون : المقدمة .
- محمد صدقى الجباخنجى : الفن والقومية العربية .
- محمد إقبال : تجديد التفكير الدينى فى الإسلام ترجمة عباس محمود .

ألكسيس كاريل : الإنسان ، ذلك المجهول ترجمة شفيق أسعد فريد .

- عمر فروخ : تاريخ الفكر العربى .

فلسفة ابن خلدون

- الدكتور على عبد الواحد وافى : عبد الرحمن بن خلدون .
- ساطع المصرى : دراسات عن مقدمة ابن خلدون .

Jsibree : Hegel's philosoply of history.

- و . هـ . وولش : مدخل لفلسفة التاريخ ترجمة أحمد حمدى محمود .
- ايسيابرلين : كارل ماركس ترجمة عبد الكريم أحمد .

Beneditto Croce : What is living and what is dead of the philosophy of hegel .

- ج . هـ . كول : تاريخ الفكر الاشتراكى (الرواد الأول) ترجمة عبد الكريم أحمد .
- عباس محمود العقاد : الشيوعية والإنسانية .

الفلسفة القرآنية

الله

أثر العرب فى الحضارة الأوربية

* زاهر عزب الزغبى : الإسلام ضرورة عالمية .
* هارولد لاسكى : الشيوعية .

Fundamentals and Marxism - Leninism .

* عبد الحميد صديق : تفسير التاريخ ترجمة كاظم الجوادى .
* كرين برنتن : أفكار ورجال ترجمة محمود محمود .
* حبيب سعيد : أعلام الفكر الأوربى .

أديان العالم

* محمود الشرقاوى : مواقف حاسمة فى تاريخ محمد بن عبد الله .

الدين والدولة العصرية

الأنبياء فى القرآن الكريم

العدالة الاجتماعية عند العرب

Alexander Gray : The development of economice doctrine .

* جوستاف لوبون : سر تطور الأمم ترجمة أحمد فتحى زغلول .
* فوستيل دى كولنج : المدينة العتيقة ترجمة عباس محمود بيومى وعبد الحميد الدواخلى .
* الدكتور أحمد عبد القادر الجمال : مقدمة فى أصول النظم الاجتماعية .
* جوستاف لوبون : الحضارة المصرية ترجمة م . صادق رستم .
* جيمس هنرى برستيد : فجر الضمير ترجمة الدكتور سليم حسن .
* روجيه باستيد : مبادىء علم الاجتماع الدينى ترجمة الدكتور محمود قاسم .
* الدكتور عبد المنعم أبو بكر : اخناتون .
* ج . برستيد : تاريخ مصر منذ أقدم العصور ، ترجمة الدكتور حسن كمال .
* سبينو موسكاتى : الحضارات السامية القديمة ترجمة الدكتور السيد يعقوب بكر .
* ل . ويلابوورث: بلاد ما بين النهرين ترجمة محرم كمال .
* على أدهم : هداة الإنسانية فى الشرق .
* أحمد الشنتناوى : الحكماء الثلاثة .
* الدكتور مصطفى الخشاب : تاريخ الفلسفة والنظريات السياسية .
* محمود شلتوت : الإسلام عقيدة وشريعة .

الفتاوى

* توماس أرنولد : الدعوة إلى الإسلام ترجمة الدكتور حسن إبراهيم .
* زكريا هاشم زكريا : المستشرقون والإسلام .
* الدكتور اسماعيل راجى الفاروقى : أصول الصهيونية فى الدين اليهودى
* الدكتور عبد الوهاب المسيرى : نهاية التاريخ ، مقدمة لدراسة بنية الفكر الصهيونى .

H. G Wells : A short history of the world, teaching of Jesus .

* رابطة الكتاب المسيحيين بالشرق الأدنى : المسيح ومشكلات العصر .
* محمد أبو زهرة : محاضرات فى النصرانية .
* هارولد لاسكى : العقل والإيمان والمدنية .
* ر . ج كولنجوود : فكرة التاريخ ترجمة محمد بكير خليل . .
* فرانز روزنثال : علم التاريخ عند المسلمين ترجمة الدكتور صالح أحمد العلى .
* الدكتور محمد البهى : الدين والحضارة والإنسانية .
* محمد خلف الله : الثقافة الإسلامية والحياة المعاصرة .
* محمد عزة دروزه : الدستور القرآنى .
* محمد عبده : تفسير جزء عم .

  رسالة التوحيد تحقيق طاهر الطناحى

* عبد المنعم محمد خلاف : المادية الإسلامية وابعادها .
* الدكتور راشد البراوى : التفسير القرآنى للتاريخ .
* محمد مصطفى المراغى : حديث رمضان .
* محمد المدنى : المجتمع الإسلامى كما تنظمه سورة النساء .
* الدكتور محمد شوقى الفنجرى : المدخل إلى الاقتصاد الإسلامى .
* الدكتور محمد فهمى طيطه : علم الاقتصاد .
* الدكتور محمد جمال الدين الفندى : الكون بين العلم والدين .
* مولاى محمد على : الإسلام والنظام العالمى ترجمة أحمد جودة السحار .
* أنور الجندى : الإسلام وحركة التاريخ .
* مالك بن نبى : ميلاد مجتمع ترجمة عبد الصبور شاهين .

٢ – دوائر معارف ودوريات :

* دائرة معارف الشعب .
* موسوعة الهلال الاشتراكية .
* وزارة التعليم العالى : تاريخ العالم .
* وزارة الثقافة والارشاد القومى : تاريخ الحضارة المصرية .
* مجلة المجمع العلمى العربي – دمشق .
* القرآن الكريم .
* الكتاب المقدس .
* كتب التفسير : تفسير ابن كثير .
  * تفسير المنار .
* كتب الحديث :
  * صحيح البخارى .
  * صحيح مسلم .

الفصل الخامس

التفسير المادى للتاريخ

يرى كارل ماركس (١) أن القوى الحقيقية التي تحكم التطور التاريخي في جميع حالاته تأتي من تحدد سلوك الإنسان وهو يتصرف ببعض الدوافع الاقتصادية .

فالحالة الاقتصادية هي التي تحدد بصفة حاسمة النظم الأخلاقية والدينية والاجتماعية والسياسية وأن التغييرات الاجتماعية التي قد تطرأ على المستويات الأخلاقية والثورات السياسية هي نتائج لتغيرات في العلاقات الاقتصادية .

---

(١) ولد كارل هنريش ماركس في ٥ مايو سنة ١٨١٨ في مدينة تريف بألمانيا ، وفي سنة ١٨٢٤ اعتنق والداه اليهوديان المسيحية .

بعد أن انتهى ماركس من دراسته الاعدادية في تريف ، أكمل دراسته العليا في جامعات بون وبرلين وبينا . درس التاريخ والفلسفة وتأثر بالفيلسوف الألماني هيجل .

انضم في برلين إلى رابطة الطلبة الثوريين الذين كانوا يطلقون على أنفسهم اسم « الهيجليين اليساريين » حصل على الدكتوراة سنة ١٨٤١ من جامعة بينا .

اتجه إلى الصحافة سنة ١٨٤٢ ، طرد ماركس من بلجيكا بعد قيام الثورة هناك ، فعاد إلى ألمانيا ، ولكنه طرد منها كذلك ، فذهب إلى لندن حيث استقر هناك إلى أن مات في ١٤ مارس سنة ١٨٨٣ .

وكانت حياة ماركس بالغة القسوة والفقر ، أنجب كثيراً من الأطفال ، ولكن مات أغلبهم . ولولا معاونة انجلز ، لما استطاع أن ينتج ولانشغل بالبحث عن لقمة العيش أو لمات جوعا .

وبرغم هذا فقد استطاع ماركس أن يترك أثراً عميقاً في الفكر الفلسفي عامة والفكر الاشتراكي خاصة .

في سنة ١٨٦٤ نجح ماركس في تأسيس الدولة الأولى (الرابطة الدولية للعمال) وكان عقلها المفكر وقلبها النابض بالحركة والنشاط .

من أهم مؤلفاته : مساهمة في نقد فلسفة القانون عند هيجل — حول المسألة اليهودية — البيان الشيوعي (مع أنجلز) — رأس المال (لم يتمه في حياته) — الاقتصاد السياسي والفلسفي — العائلة « المقدسة » — الأيدلوجية الألمانية — ١٨ برومير ولويس بونابرت — الصراعات الطبقية في فرنسا — مساهمة في نقد الاقتصاد السياسي — الأجور والأسعار والأرباح — خطاب افتتاح الدولية الأولى — الحرب الأهلية في فرنسا — تاريخ العقائد الاقتصادية .

إيسيا برلين ، كارل ماركس .
وموسوعة الهلال الاشتراكية مادة (ماركس) .

وقد بدأ البيان الشيوعى الذى أعلنه ماركس وأنجلز (١) سنة ١٨٤٨ بتقرير أن : « تاريخ المجتمعات التى وجدت حتى الآن هو تاريخ صراع الطبقات »

ويستطرد « البيان » ، من هذا التقرير العام عن التاريخ ككل ، ليذكر أن المجتمع فى العصور الحديثة يتحول بصورة متزايدة إلى معسكرين كبيرين متعاونين البورجوازية والبروليتاريا (٢) . ثم يرسم صورة عامة لنشوء البورجوازية ، ويقول : إن كل خطوة من خطوات النمو الاقتصادى للبورجوازية كانت مصحوبة بتقدم سياسى بحيث أصبحت اليوم « الهيئة التنفيذية فى الدولة الحديثة مجرد لجنة تدير الشئون المشتركة للبورجوازية كلها » .

وقد لعبت (٣) البورجوازية دوراً ثورياً طوال نشأتها ، ويستطيع المرء أن يتبين ما حققته اقتصادياً

---

(١) ولد فردريك أنجلز فى بارمن بالمانيا فى ٢٨ نوفمبر سنة ١٨٢٠ ، وهو ابن أحد أصحاب شركات النسيج ، أشركه أبوه فى أعماله ، وخاصة فى شركة الغزل التى أنشأها فى مانشستر بانجلترا ، إلا أن ذلك لم يحرم أنجلز فى من المشاركة فى أحداث عصره الفكرية والسياسية .

وعندما بلغ سن التاسعة والأربعين تخلص من كل التزاماته العملية والادارية ، وكرس حياته تماماً للنشاط السياسى والفكرى .

اشترك عام ١٨٤١ فى رابطة الهيجليين اليساريين وكان متأثراً فى البداية مثل ماركس بفلسفة هيجل ، وقد أسهم مع ماركس فى النضال من أجل إنشاء الرابطة الدولية للعمال (الدولية الأولى) عام ١٨٦٤ .

وبعد موت ماركس عمل على إصدار الجزء الثانى (١٨٨٥) والثالث (١٨٩٤) من رأس المال لماركس .

وقد توفى انجلز فى ٥ أغسطس ١٨٩٥ .

ومن أهم مؤلفاته : حالة الطبقة العاملة الانجليزية — معارضة دوهرنج — جدليات الطبيعة — فورباخ ونهاية الفلسفة — الألمانية التقليدية .

وبالاشتراك مع كارل ماركس : العائلة المقدسة — الايدلوجية الألمانية .

(موسوعة الهلال الاشتراكية — مادة : أنجلز) .

(٢) كلمة « البرولتياريا » مشتقة من تعبير رومانى يصف المواطن الذى ليست له أية صفة أخرى فى المجتمع سوى أن لديه أطفالا . وبهذا المعنى القديم ، فالبروليتارى هو كل شخص لا يسهم فى المجتمع بأى نصيب غير انجاب الأطفال ، وبالتالى فليست له أية حقوق قبل المجتمع ، وليست عنده ممتلكات أخرى .

وفى نحو سنة ١٨٣٨ استخدم سان سيمون تعبير « البروليتاريا » لكى يصف الذين لا يملكون أى نصيب فى الثروة العامة . ولا يتمتعون بأى ضمان من ضمانات المعيشة ، وليس لهم ماض ، وليس لهم مستقبل .

ثم استخدم كارل ماركس تعبير البروليتاريا بمعنى الشعب العامل الذى يستخدم الأساليب الاقتصادية الحديثة فى ظل النظام الرأسمالى ، والذى يعنى الاستغلال الواقع عليه من جانب الطبقة الرأسمالية . (موسوعة الهلال الاشتراكية : مادة بروليتاريا) .

---

(٣) ج . هـ . كول : تاريخ الفكر الاشتراكى (الرواد الأول) ترجمة عبد الكريم احمد ص ٣١٥ .

فى تثبيت دعائم فكرة « التقييم النقدى » بوصفها العلاقة الوحيدة المعترف بها بين الناس ، وفى حرية التجارة باعتبار أنها ما تتجسد فيه هذه العلاقة .

ويقول البيان : إن البورجوازية لاتستطيع البقاء دون ثورة مستمرة فى أدوات الانتاج ، وبالتالى فى العلاقات الأنتاجية بين الناس وبعضهم التى تنبثق من استخدام هذه الأدوات ، وتعمل الحاجة إلى إيجاد أسواق متوسعة على « ملاحقة البورجوازية فى جميع أنحاء الكرة الأرضية » ويضفى استغلال السوق العالمى على نظامها طابعاً عالمياً يتمثل فى الاعتماد المتزايد على مصادر أوسع فأوسع باستمرار فيما يتعلق بالمواد الأولية . وهى ترغم الشعوب المتخلفة على الأخذ بأساليبها فى حدود حاجتها إلى خدمات هذه الشعوب وتنشىء سيطرة المدينة على الريف وسيطرة الشعوب المتمدينة على الشعوب الهمجية .. وتعمل على تكديس الملكية ، وتركيز وسائل الانتاج فى وحدات كبيرة ، وتركيز الملكية فى أيد أقل باستمرار ، وبسبب هذه الاتجاهات تصر على المركزية السياسية . وقد نمت البورجوازية داخل إطار المجتمع الاقطاعى حتى صار نظام الاقطاع قيدا لها يحد نموها ، وعندئذ حطمت قيود نظام الاقطاع ، وحل محله نظام « المنافسة الحرة » . بيد أن المنافسة البورجوازية وصلت فعلا إلى المرحلة التى لم تعد تستطيع فيها السيطرة على وسائل الانتاج الضخمة التى خلقتها . وعلامة هذا العجز هى الأزمات التجارية التى تزداد حدتها ، وهى تبدو فى التجارب السخيفة لما يسمى « تضخم الأنتاج » .

إن ظروف البورجوازية لأضيق من أن تضم الثروة التى صنعتها » ولا يتغلب على الأزمات المتكررة إلا بواسطة تدمير شامل للثورة عن طريق الافلاس والخراب وبواسطة اكتشاف أسواق جديدة ، بيدأن هذه التطورات لا تفعل سوى أنها تمهد السبيل لأزمات أسوأ فأسوأ .

وبسبب هذه المتناقضات المتأصلة فى الرأسمالية أوجدت البورجوازية أسلحة دمارها ، كما خلقت الطبقة التى تستطيع أن تستعمل هذه الأسلحة — البروليتاريا — إذ تنمو البروليتاريا بنسبة نمو البورجوازية ، والنظام البورجوازى قد حول فعلا العامل اليدوى إلى مجرد سلعة .

ويقول : إن عدد البروليتاريا يزيد بانضمام قطاعات أخرى إليها مثل العمال الزراعيين .

وترد البروليتاريا على هذا الموقف بأن تنمو من مستوى الصراع الفردى وأعمال التخريب غير المنسقة التى تهدف إلى الاحتفاظ بوضعها القديم ، إلى صور من الكفاح أسمى تنظيما ، أولا على صعيد المصنع ، ثم على صعيد مدن بأكملها أو مناطق . وتتم هذه الخطوات نحو حركة بروليتارية سياسية تحت زعامة بورجوازية ، لأن البورجوازية تجد نفسها فى حاجة إلى استخدام البروليتاريا لهزيمة من بقى من أعدائها الاقطاعيين الارستقراطيين . بيد أن البروليتاريا تأخذ بصورة متزايدة فى إدراك قوتها الخاصة بها ، وتتوحد أكثر فأكثر حيث الآلة تمحو كل الفروق بين أنواع العمل وتعمل على تخفيض الأجور فى كل مكان تقريباً إلى نفس المستوى المنخفض . وفى نفس الوقت تجعل الأزمات المتزايدة كسب العيش أكثر تعرضاً للهزات وأقل أمنا . وتكون البروليتاريا نقابات ، ثم تنضم النقابات بعضها إلى بعض ، لتوحد قواها فى الصراع الطبقى ، وتنزع هذه التطورات من البورجوازية تنازلات تشريعية وغير تشريعية لصالح جماعات بذاتها من العمال .

ويصر « البيان » على أن البروليتاريا وحدها هى الطبقة الثورية ، وهذه الأوضاع تؤدى إلى قيام نوع من التوتر الاجتماعى ينتهى عادة بقيام ثورة يصحح فى ظلها الأوضاع القائمة .

ويلخص كارل ماركس نظريته فيقول :

« إن الناس ، فى الإنتاج الاجتماعى الذى يقومون به ، يدخلون فى علاقات محدودة لا غنى عنها ، وهى علاقات مستقلة عن إرادتهم ؛ وتقابل علاقات الانتاج هذه مرحلة محددة فى نمو قوى الانتاج لديهم .

وجماع هذه العلاقات الانتاجية ، هى ما يتكون منه البناء الاقتصادى للمجتمع — الأساس الحقيقى الذى يقوم عليه بناء فوقى قانونى وسياسى ؛ ويقابله صور محددة من الوعى الاجتماعى .

فأسلوب الانتاج فى الحياة المادية يحدد الطابع العام للعملية الاجتماعية والسياسية والروحية فى الحياة .

إن وعى الناس ليس هو ما يحدد وجودهم ، بل على النقيض من ذلك ، إن الوجود الاجتماعى هو الذى يحدد وعيهم .

وفى مرحلة من مراحل النمو ، تصطدم القوى المادية للانتاج فى المجتمع بعلاقات الانتاج القائمة ، أو — وهو مجرد التعبير القانونى عن نفس الشىء — بعلاقات الملكية التى كانت تعمل داخل إطارها من قبل .

وتتحول هذه العلاقات من صور لنمو قوى الانتاج إلى أغلال لها . وعندئذ تأتى فترة الثورة الاجتماعية ، إذ مع تغير الأساس الاقتصادى يتعدل البناء الفوقى الضخم كله بسرعة معقولة .

وينبغى ، عند النظر ، فى هذه التغيرات ، أن نفرق دائما بين التحول المادى للظروف الاقتصادية للانتاج — الذى يمكن تحديده بدقة العلوم الطبيعية — والصور القانونية أو السياسية أو الدينية أو الجمالية أو الفلسفية ، وفى كلمة الصور الأيديولوجية التى يدرك الناس فيها هذا الصراع ويخوضونه .

وكما أن الفرد لا يقوم على ما يعتقده فى نفسه ، فكذلك لا نستطيع أن نحكم على مثل فترة التحول هذه على ضوء وعيها ، على العكس ؛ إن وعيها ينبغى أن يفسر على ضوء متناقضات الحياة المادية — من الصراع الفعلى بين القوى الاجتماعية للانتاج وعلاقات الانتاج .

ولا يختفى أى نظام إجتماعى أبداً حتى تنمو كل القوى الانتاجية التى تستطيع أن تجد لها مكاناً داخله ، ولا تظهر أبداً علاقات إنتاج جديدة فى نوع أعلى حتى تكون الظروف المادية لوجودها قد نضجت فى رحم المجتمع .

ومن ثم فان الجنس البشرى دائما لا يتناول إلا ثلث المشاكل التى يكون فى مركز يسمح له بحلها ، لأننا عند ما نمعن النظر أكثر ، سنكتشف دائما أن المشكلة نفسها لا تنبثق إلا عند ما تتكون الظروف المادية التى يتطلبها حلها ، أو تكون على الأقل فى طريقها إلى التكوين .

ونستطيع بصفة عامة أن نميز أساليب الانتاج الأسيوية والقديمة والإقطاعية والبورجوازية الحديثة بوصفها مراحل زمنية فى تقدم التكون الاقتصادى للمجتمع .

وعلاقات الانتاج البورجوازية هى آخر الصور العدائية لعملية الانتاج الاجتماعية — عدائية لا بمعنى العداء الفردى ولكن بمعنى العداء الذى ينجم عن الظروف المحيطة بحياة الأفراد فى المجتمع .

وفى نفس الوقت تعمل القوى الانتاجية التى تنمو فى رحم المجتمع البورجوازى على خلق الظروف المادية لحل ذلك العداء . ومن ثم فان التكوين الاجتماعى يكون الفصل الختامى فى مرحلة ما قبل التاريخ بالنسبة للمجتمع البشرى .

يقول ماركس : « إن أى موجود كائناً من كان لا يمكن أن يكون مستقلا فى عينى نفسه إلا إذا كان مستكفياً بذاته ، وهو لا يمكن أن يكفى نفسه بنفسه إلا إذا كان لا يدين بوجوده لأحد سواه . أما الإنسان الذى يحيا بمدد من إنسان آخر يكون له الفضل عليه فانه لا بد من أن يشعر فى نفسه بأنه مخلوق مستعبد خاضع مفتقر . وأنا أشعر بأننى أحيا تماماً على حساب موجود آخر أو بفضل نعمة ذلك الموجود الآخر ، ليس فقط حينما أكون مديناً له ببقائى والمحافظة على حياتى ، وإنما أيضاً يكون هو الذى وهبنى الحياة باعتباره مصدر كل حياة ، ولا بد أن يكون مصدر حياتى خارجاً عنى ، حينما لا تكون حياتى من خلقى أنا . وهذا هو السبب فى أنه قد يكون من العسير بمكان طرد فكرة الخلق » من أذهان العامة . أما الرجل الاشتراكى فيرى تاريخ الكون بأسره عملية خلق الإنسان بفضل الانتاج البشرى أعنى عملية التحكم فى مصير الطبيعة بفضل تدخل الإنسان ، ومن ثم فان الإنسان الاشتراكى إنما يملك الدليل الواضح الذى لا سبيل إلى دحضه على خلقه نفسه بنفسه . أو على عملية إبداعه لمصيره الذاتى » .

ورجع ماركس إلى التاريخ وتطوره فوجد فيه ما يؤكد صحة نظريته ، وجد أن التاريخ يمثل صراعاً عنيفاً بين الطبقات ، ففى كل عصر نجد أن وسائل الحصول على مقومات المعيشة تقسم الناس إلى فئتين لكل منهما شعور خاص ، كما أن كل نظام انتاجى قد أتاح منذ فجر الإنسانية قيام طائفتين متنافرتين : المستَغَلين والمستَغلين ، أى طبقتا أصحاب رءوس الأموال والعمال ، ومصالح هاتين الطائفتين متعارضة ومتنافرة فتاريخ الإنسانية إذن ، هو تاريخ صراع الطبقات الاقتصادية وهذا الصراع هو الذى يحدد كل مظاهر التطور الاجتماعى وهو الذى تسبغ نتائجه على المجتمعات أشكالها ونظمها .

ويحدثنا التاريخ بأن هذا الصراع ينتهى دائماً على صورة واحدة هى انتصار الطبقة الأوفر عدداً والأسوأ حالا على الطبقة الغنية الأقل عدداً ، ومن مظاهر هذا الصراع ذلك الكفاح الذى قام قديماً بين الأحرار والأرقاء ، ثم بين الأشراف والعامة ، كذلك بين الرؤساء والعرفاء فى نظام الطوائف .

وقام حديثاً منذ فجر الثورة الفرنسية بين الطبقة البورجوازية وبين طبقة العمال ، فقد صارت الأولى سيدة المشروعات الاقتصادية واستطاعت منذ عهد الثورة الصناعية أن تستأثر بالثروة والنفوذ السياسى بينما لا تملك الطبقة الثانية إلا العمل العضلى مع أنها هى التى تقوم بأوفر قسط وأهم نصيب فى عملية الإنتاج ، هذا إلى أن مصالحها الحيوية رهينة برضاء الطبقة الأولى التى غالت فى استغلال طبقة العمال ، ولم تدفع لهم من الأجور إلا ما يحقق لهم بالكاد كفاف العيش ، والعامل مضطر إلى قبول ذلك لأنه لا يملك غير عمله ليبيعه فى نظير حصوله على الأجر .

ووفاء للأمانة العلمية ينبغى أن نؤكد أن هذه النظرية التاريخية ليست كشفا جديدا : فالمادية التاريخية قديمة قدم أرسطو ، ولقد جعل منها بعض المفكرين من أمثال هارنختون وماديسون حجر الزاوية فى الأنظمة التى وضعوها : ولم يكن كارل ماركس أيضاً هو الذى ابتدع نظرية الصراع الطبقى على أنه القوة المحركة للتغيير .

فقد كانت هذه النظرية على نقيض ما ذكره أنجلز من « أنها النظرية — الفريدة ، من نوعها التى أوجدها ماركس الطابع المميز لكل عقيدة متطرفة بعد عهد الثورة الفرنسية ، وقد أكدها بابوف »

فى كتابه « بيان المساواة » الذى أصدره سنة ١٧٩٦ ، والذى لم يشر إليه كارل ماركس فى حديثه عن الاشتراكيين المثاليين . وعاد إلى تأكيدها أيضاً « بلانكى » فى محاكمات سنة ١٨٣٢ ، عند ما أدانت حكومة لويس فيليب جمعية أصدقاء الشعب ، وكانت مألوفة كذلك لدى سان سيمون وتلامذته وفى طليعتهم « بازارد » الذى تحدث فى كتابه « عقيدة سان سيمون » عن « تقسيم الناس إلى طبقتين : طبقة المستغِلين والمستغَلين ، أى طبقة السادة والعبيد » . ويصدق هذا القول أيضاً على الاشتراكية الألمانية ، فقد كتب كارل برون سنة ١٨٤٤ عن التاريخ على أنه : « مجرد حرب مستمرة فى جوهرها بين المحظوظين والمالكين والفاتحين من ناحية وبين التعساء والمضطهدين والمسلوبين من ناحية أخرى ، ويمضى فيتساءل عما إذا كان التاريخ يستطيع أن يوجد مجتمعاً تنعدم فيه الطبقات . وحمل بعض المفكرين غير الاشتراكيين فى منتصف القرن الثامن عشر من أمثال « لانجيه » و « سيسموندى » ، أفكاراً مماثلة ، ويمكن القول أن أحد المفكرين الفرنسيين المغمورين واسمه قسطنطين بيكيه ، قد أبرز نظرية المادية التاريخية بوضوح لا يقل شأواً عن وضوح كارل ماركس . وقد يقال إن ماركس قد أدرك كل هذا ، ولكنه رغم هذا يقول فى بيانه عن الاشتراكيين المثاليين أن « واضعى هذه الأنظمة رأوا بوضوح عوامل الصراع الطبقى كما رأوا عمل العناصر التى تعمل على تفكيك أشكال المجتمع السائد » .

ولا يختلف هو ، أو أنصاره عن سابقيهم إلا فى النتائج التى توصلوا : إليها فى النظرية العامة ، إذ بينما كان المفكرون السابقون ، يبحثون كقاعدة عن أساس للاستقرار فى فكرة غير اقتصادية عن العدالة كما هى الحالة مع سيسموندى ، أو فى شكل خاص من أشكال المؤسسات التى اقترحها سان سيمون وفوريه وبرودون ، يقف كارل ماركس موقفه على أسس مغايرة تماماً ؛ فهو يصر ، كما أن أتباعه يزيدون فى اصرارهم ، على أن الانتقال من نظام معين للانتاج إلى نظام آخر ، يجب أن يصحبه ثورة عنيفة ، وهو يؤكد كذلك بان الصراع بين البورجوازية والطبقة العاملة ، هو المرحلة الأخيرة فى الصراع الطبقى . وهذه الفروق جوهرية فى متنها وأصولها ، إذ منها يشتق الجهاز الكلى الهائل للطريقة السياسية والاستراتيجية التى تميز أنصار ماركس عن غيرهم .

لم يوضح كارل ماركس كيف يأتى الصراع بين الطبقات ، وكيف يقع ، فليس من اليسير إيضاحه بصورة قاطعة ، ولقد توقع ماركس نفسه أن يقع هذا الصراع أولا فى أكثر البلاد تقدماً فى الميدان الصناعى ، وهى نبوءة ، كذبتها التجربة الواقعية التى حدثت فى روسيا .

يرى أنصار الماركسية أن انتصار حركتهم متوقف على قيام الثورة العالمية . ولقد كتب « بوخارين » يقول : « إن تحقيق ديكتاتورية الطبقة العاملة ، قد يتعرض للخطر فى بلاد ما ، إلا إذا لقى عوناً فعالا من العمال فى البلاد الأخرى » . ولم ينكر ماركس قط وجود الروح القومية ، لكنه كان يرى فيها ، كما يرى أتباعه ، وفى سيطرتها على العمال ، جزءاً من الحصون الدفاعية التى تقيمها الرأسمالية ، ويعترف بأن حب الإنسان لوطنه شيء واقع ومنتشر ، ولكنه يصر على وجوب التغلب على هذا الحب وقهره ، فبلاد العامل الحقيقية هى الطبقة التى ينتمى إليها .

يقول البيان : « إن العمال لا وطن لهم ، وأننا لا نستطيع أن نأخذ منهم ماليس لهم » . إن الوطنية (١) ليست بحيلة من حيل الإنتاج لأنها خليقة العنصرية وشبيهتها فى ظواهرها وبواطنها ؛ وليست هى — أى

---

(١) عباس محمود العقاد : الشيوعية والإنسانية ، ص ٢٥٩ وما بعدها .

العنصرية — من حيلة يقصدها أو لا يقصدها لأنها علاقة الدم والقرابة التى لا اختيار فيها لخادع أو مخدوع ، وليس أهزل من مفكر يعمد إلى شعور عام بين الناس على اختلاف أرزاقهم ومواردهم فيزعم أنه حيلة من مخدوعين يحتالون بها على مخدوعين آخرين — وما كان شعور الوطنية أو العنصرية أو أمة من الأمم وقفاً على طائفة أو طبقة أو صناعة أو هيئة اجتماعية دون هيئة أخرى فيقال انه من أخاديع فريق لعبث بفريق .

أقرب من هذا التفتيش الدائب على عمليات النصب والاحتيال وراء كل سر من أسرار التاريخ ، أن ننظر إلى حكمة الخلق فى كل بنية حية وكل كيان اجتماعى أو عضوى ، فترى هنالك أن حكمة الخلق تودع فى كل فرد إيماناً قوياً بخدمته لمصلحته حين يعمل فى خدمة الجماعة أو البيئة التى ينتمى إليها ، وأقوى ما يكون ذلك فى خدمة النوع أو خدمة البيئة الحية ، ولو كان خدامها من الأعضاء التى لا عقل لها ولا إرادة ... من الذى يخدع اليد فيرفعها إلى الرأس لتتلقى الضربة التى توشك أن تحطمه ؟

من الذى يخدع الخلايا فى باطن الجسد فيدفعها إلى التجمع لوقاية البنية كلها من فتك الجراثيم ؟

من الذى يخدع الفرد فيشيع فى بيته السرور بحفظ النوع ويشيع فى بنيته الصبر على مضانك الحمل والرضاعة والتربية ؟

هذه هى حكمة الخلق فى شعور الفرد بمصلحة الجماعة وشعور الجزء بمصلحة سائر الأجزاء ، هذه هى الحكمة التى تخلق لكل بنية اجتماعية ضرباً من « الأنانية » الكبرى تقترن بالأنانية الفردية لتعمل فى خدمة الجماعة كما تعمل فى خدمة الفرد على حدة ..

فكلما وجدت جماعة من الخلق وجدت معها « شخصية » أو أنانية كبيرة تصونها وتوكلها بالحفاظ على نفسها ، كما توجد « الأنانية » فى كل مخلوق لحماية نفسه ومقاومة العوامل التى تنازعه البقاء من حوله .

سنة الخلق فى خلايا البنية ، سنة الخلق فى أفراد النوع ، سنة الخلق فى آحاد القبيلة أو العنصر أو الوحدة الوطنية ، سنة قريبة جد قريبة لمن يشاء أن يبصرها حيث استدار بنظره إليها ، ولكنها بعيدة جد بعيدة عمن ينظر إلى وجهة فيأبى أن يرى شيئاً غير النصب والاحتيال فى قواميس الكون وقوانين الاجتماع وأسرار التاريخ ....

إن الجماعات البشرية لم تخل قط من شعور كشعور الوطنية منذ عهد القبيلة الأولى . . . ونحن نعرف شعور المصرى الذى كان يؤمن بمقام المصرى فى المرتبة الأولى بين مراتب الأجناس البشرية ، ونعرف شعور العربى الذى كان يفخر على الأعاجم ويصف بالأعجمية كل من لا يتكلم العربية ، ونعرف شعور اليونانى الذى كان يطلق وصف البربرية على كل أمة لا تنتسب إلى القبائل اليونانية ، ونعرف فخر الرومانى بالمدينة الخالدة وإعتباره النسبة إليها ذروة المرتقى فى الشرف والكرامة .

وهذا الشعور فى كل جماعة من هذه الجماعات هو الحافز الذى كان ينهض بكل فرد للدفاع عن « شخصيته الكبرى » التى ركبت فى طبعه إلى جانب الشخصية الفردية ، وما كان هذا الشعور بدعة فى طبائع الجماعات والكائنات العضوية ، فاننا نرى أصوله عميقة مكينة فى غريزة النوع وفى تركيب الخلايا الجسدية وتركيب الأعضاء التى تتحرك لدفع الخطر عن البنية كلها ولو أصيبت بأخطر ما يصاب به العضو على انفراده ..

* * *

اعتبر كارل ماركس المادة أصل الحياة والمحرك الأول لها .

وكان للمادية دعاتها فى القديم ، وممن آمن بها من الفلاسفة : هيرقليطس ، وليوسيس وديمقريطس . وممن آمن بها ودعا إليها فى الحديث : بيكون ، وهوبز .

يقول هوبز : إن الأشياء المادية وحدها هى المحسوسة بالنسبة لنا ، فأنا لا أستطيع أن أعلم شيئاً عن وجود الله ، ووجودى الخاص هو وحده الأمر المؤكد ، أما ما عداه فخيال لا أصدقه .

وقال أنجلز : « إن العالم المادى الذى ندركه بحواسنا ، والذى نحن جزء منه ، هو الحقيقة الوحيدة ، وليس الإدراك والتفكير إلا نتاجا لعضو من أعضاء جسمنا ، وهو المخ ، فليست المادة من انتاج العقل ، بل إن العقل نفسه ما هو إلا أسمى انتاج للمادة .

ولكن ::: ما هى المادة ؟

ليست هى[1] هذا اللون المنظور ، لأنك لا تنظره إلا بشبكة العين الإنسانية فاذا ضاقت أمواجه أو اتسعت فلا لون أمام عينيك ، وليس هذا اللون بعينه منظوراً لكل ذى عين من الأحياء .

وليست المادة هذه الدقة التى تسمعها إذا ضربت المائدة بيدك ، لأن يدك لا تدق شيئا إذا تضاعفت قوتها مئات الأضعاف أو ألوف الأضعاف ، بل تجرى دون المائدة كما تجرى فى هذا الفضاء ....

وليست المادة هذا الوزن الثقيل أو الخفيف ، لأنها تقوم بغير هذا الوزن وراء حدود الجاذبية الأرضية ، :: المادة ذرات ، والذرة لا يدرى أحد أهى موجة أو جوهر فرد صغير بالغ فى الصغر ولكنه يقبل الانقسام فيطير شعاعاً فى الأثير .

وما هو الأثير ؟

كل ما قيل عن الروح أيسر فهماً وأقرب إلى الإدراك من هذا الأثير :

شىء لا لون له ، ولا كثافة ، ولا حركة ، ولا تصدق عليه خاصة من خواص المادة فى علم العارفين بها والعاملين فى ذراتها . . .

وقيل أن نصل إلى هذا اللغز المركب نقف عند الذرة وما فيها من البروتون و النيوترون والالكترون ، وما يقال عن البروتون السالب فى الفضاء المستعصى على الفهم فى حيز هذا الجو وعلى مقربة من عناصر المادة وأجزائها إلى أدق دقائقها المدركة بالفرض والتخمين .

وكارل ماركس مع هذا — يظن فى علمانيته التى لا حد لها — أنه يفسر بهذه المادة كل شىء ، وأن هذه المادة غنية كل الغنى عن تفسير المفسرين وتقدير المقدرين ...

يقول فى البيان المشترك : « إن الشبهات التى تلقى على الشيوعية من جانب الدين ، أو جانب الفلسفة ، أو جانب الأفكار النظرية على العموم — غير جديرة بالجد فى تمحيصها واختيارها ، فهل يحتاج الأمر إلى بداهة عميقة لتعلم أن خواطر الإنسان وآراءه ومداركه — أو بكلمة واحدة وعيه — يتغير مع كل تغير يطرأ على كيانه المادى وعلاقاته الاجتماعية وحياته العامة » .

---

(1) عباس محمود العقاد : الشيوعية والإنسانية : ص ١١١ وما بعدها .

لا ... إن هذه الحقائق المادية عائمة على السطح لا تحتاج إلى بداهة ، ولا اختيار ، ولا امتحان ، ولا تردد ولا تقبل كلمة أخرى غير الكلمة التي يرسلها «كارل ماركس» من طرف اللسان فلا يضطرب فيها قولان .

وندع أسرار المادة جميعاً ، ونسلم مع «كارل ماركس» أنها مجردة من كل سر ننتظر به المستقبل لكشف خباياه ، وأنها مفسرة صالحة لتفسير جميع نواميس الكون ووقائع التاريخ ، فلماذا يلزم من ذلك أن وسائل الإنتاج هي التي تتحكم في تاريخ الإنسان ؟ ولماذا يكون الناس أحق بهذه القوة من الأدوات الصماء ؟

إن مطالب المعيشة ضرورة لا غنى عنها لجميع الأحياء ؛ ولكن ضرورتها هذه لم تمنع الأحياء أن يتعددوا أنواعاً وأفراداً لم تحصرها العلوم بعد ، ولم تحصرها الحواس والعقول ، واضطرارها جميعاً إلى مطالب المعيشة لم يمنع هذا التنوع الهائل في أجناسها وطبائعها وآحادها ..

فلماذا نسقط هذه القوى الحية من حسابنا ولا نلتفت في تفسير أطوار التاريخ إلا لوسائل الانتاج الصماء ؟

لماذا تكون هذه القوى الحية رهينة بالآلا ت الصماء ؟

ولماذا تكون كذلك بعد ظهور نوع الإنسان وهو الذي يصنع تلك الآلا ت الصماء ؟

يقول «ماركس» و «أنجلز» فيما جاء من مجموعة الرسائل المختارة :

« إننا نعتبر أن الأحوال الاقتصادية هي العامل الذي يقرر أخيراً أطوار التاريخ ، ولكن النوع الحيواني هو نفسه عامل من العوامل الإقتصادية » .

وكثيراً ما جاء في كلام «ماركس» و «أنجلز» أن الإنسان فاعل منفعل ، وأنه بين القوى المادية هو القوة الوحيدة التي لها عقل وارادة .. فلماذا تكون هذه القوى العاقلة المريدة رهينة بالآلات الصماء ولا تكون الآلات الصماء تابعة لها في جميع الأحوال ؟

وإذا هبطنا بالإنسان عن عليائه وسوينا بين تأثيره وتأثير المكنات ، فلا أقل من أن نسوى بين القوتين في التأثير ، تارة للجماعات العاقلة الرشيدة ، وتارة لأدوات الخشب والحديد . فهذه إذن حلقة مفرغة لا يتبين أحد منها على سبيل الحتم موضع الابتداء وموضع الإنتهاء . ولا يستطيع أحد أن يقول على سبيل الحتم أين ابتدأت إرادة الإنسان ، أو أين ابتدأ احساسه بالمطالب الجديدة في شئون المعيشة ، وأين ابتدأ عمل الآلات والمكنات . لا يستطيع أحد أن يقول إن الناس أحسوا هنا فأرادوا فغيروا واخترعوا ، وأن الآلات وجدت بعد ذلك فتسلمت بين يديها أطوار التغيير والتبديل ، وهما إذن على الأقل عاملان متساويان متعادلان مجهولان على حد سواء أو معلومان على حد سواء ، فلماذا اختار «كارل ماركس» على سبيل الحتم أن يكون الحكم الأخير للآلة وأصر على ذلك .. ولم يقع اختياره على العامل الآخر عامل الإرادة والعقل والحياة ؟ » .

يقول الدكتور دى نوى — أحد علماء معهد روكفلر ومعهد باستور في كتابه « مصير [1] البشرية » « .. نحن نعيش في كون لا نحيط به إدراكنا ، فكل رأى نراه لا يمكن أن نسلم بأنه حقيقة لأنه رأى نسبي ، وفي هذا الكون الجبار نجد العلم يعبث بأجزاء ضئيلة من المعرفة ولكن المهاوى التي تفصل بين ما نعرفه من الحقائق إنما هي مهاو شاسعة عميقة .. وقد استحال علينا حتى اليوم أن نعرف معرفة دقيقة كيف رفع الستار عن مسرح الكرة الأرضية لتبدأ تراجيديا الحياة وروعة تطورها .

(١) نقلا عن كتاب « الإسلام ضرورة عالمية » لزاهر عزب الزغبي .

ومن المستحيل أن نعزو إلى المصادفة المحضة ماتفترضه عن بدء الحياة وارتقائها إلى عجائب العقل البشرى ، فعلى الرغم مما يزعمه بعض الماديين من أن المصادفة وقوانين المادة تتحكم تحكماً مطلقاً فى كل ما هو عرضة للفناء فان الإنسان — وينطبق عليه هذا الوصف — حر فى تصرفاته ، له أن يفعل هذا الأمر أو ذاك ، فأين هو تحكم المصادفة أو قوانين المادة فى أفعاله ؟

ولما كان الإنسان حراً فى أن يطيع غرائزه الحيوانية التى تتيح له قدراً من المتعة الحسية ، أو أن ينشد غرضاً من ضرب آخر له أى قدر من سمو المقصد أو نبل الدافع ، فلكى يبلغ ذلك الغرض عليه أن يناضل غرائزه الحيوانية القوية ، وكثيراً ما يعذبه هذا النضال ، بل يبدو وكأنه يستعذب مافى هذا النضال من ألم . وقليل ماهم هؤلاء الذين يتجشمون فى سبيل الهدف . ولكن هذه القلة هى التى كان لها شأن عظيم فى التطور ؛

وعلى عكس الثلوج التى تذوب على قمم الجبال فتتدفق على السفح لتصبح فى السهل جداول وأنهارا ، تسير بتؤدة نحو مصبها فى البحر ، فهى فى كل خطواتها تستجيب لناموس لا يرد هو قانون الجاذبية ، فان تطور الحياة قد صعد — وفق نظام غامض — من أسفل إلى أعلى ، ولم يغفل العلم عن البينات التى يدل عليها هذا التناقض ، حتى نرى أشد الماديين عنادا مضطراً إلى التسليم بوجود قوة مجهولة ، ولم يكن لهؤلاء من بد سوى أن يطلقوا اسما على هذه القوة المجهولة لكى يتمكنوا من أن يدخلوها فى نطاق تفكيرهم ، ولما كانت جوانحهم منطوية على نفور من اسم الله سبحانه وتعالى وصفوها بقولهم « عدو المصادفة » وما داموا يعترفون بوجودها فليسموها بما شاءوا » .

إن هذه النظرية تغرق نفسها فى حصر التفسير العقلى للعمل الإنسانى ، بحيث تنسى أن هناك شيئاً من مجهود الإنسان لا يمت إلى العقل بطبيعته .

كتب برتراند راسل يقول : « إن الأحداث الضخمة فى حياة العالم السياسية تتقرر عن طريق التفاعل بين الأوضاع المادية والعواطف الإنسانية » .

ومن الواضح أن عقل الإنسان وذكاءه يستطيعان أن يلعبا دوراً فى تعديل العواطف ، ولكن من الجلى أيضاً ، أن مثل هذا التعديل ان وقع ، لا يعدو أن يكون جزئياً . وعندما نقوم تبعاً لذلك بتقييم طبيعة أى نظام اجتماعى ، علينا أن نقيم مقاييسنا لا على مجرد ما تتركه طريقة الحصول على الخبز فى هذا النظام من أثر على الناس فحسب ، بل على مافى النظام من فرص تؤثر تأثيراً كلياً شاملا على هؤلاء الناس ، وترضى لهم نزعاتهم الرئيسية .

وقد يختار الناس نظاماً اقتصادياً أقل فائدة ونفعاً ، حتى ولو كان هذا النظام قد استنفد أغراضه ، وذلك لأنهم يؤثرون نتائجه النفسية ، على مافى نقيضه من مزايا (١) .

إن الاعتراض على النظرية المادية بأنها تعد العوامل الاقتصادية المؤثر الوحيد فى تطور التاريخ الإنسانى ، قد عالجه « فردريك أنجلز » فقال :

« إن الذى نفهمه عن الأحوال الاقتصادية التى نعدها الأساس الذى يعين تاريخ المجتمع هى الوسائل التى ينتج بها أفراد المجتمع البشرى وسائل عيشهم ، ويتبادلون بواسطتها المنتجات فيما بينهم ، وهذا يشمل إذن فن الإنتاج والنقل .

---

(١) هارولد لاسكى : الشيوعية ، ص ٦٣ — ٦٤ .

إننا نعتبر الأحوال الاقتصادية العامل الذى يعين فى النهاية التطور التاريخى .

ولكن هناك نقطتان يجب عدم اغفال شأنهما :

أولاهما : أن التطور السياسى والقضائى ، والفلسفى والدينى والأدبى يرتكز على التطور الاقتصادى ، ولكن هذه جميعاً يؤثر الواحد منها فى الآخر وكذلك تؤثر فى الأساس الاقتصادى ، وإذن ليس المركز الاقتصادى هو السبب الوحيد الإيجابى الفعال بينما ما عداه ذو أثر سلبى ولكن هناك تفاعلا مشتركاً على أساس الضرورة الاقتصادية .

وثانيتهما : أن الناس يصوغون تاريخهم ، لابناء على إرادة إجماعية ، أو حسب خطة إجماعية أو حتى فى مجتمع محدود معلوم ، ولكن جهودهم تتصادم ، ولهذا السبب وحده نجد أن هذه المجتمعات جميعها تحكمها الضرورة التى تحكمها الصدفة أو تبدو بمظهر الصدفة ، ولكن هذه الضرورة هى فى النهاية ضرورية اقتصادية » .

وجاء فى كتاب « أسس الماركسية اللينينية » :

« إن الإدراك الحسى يتعلق دائماً بالفرد وبالوقائع العملية ، وبالأوجه الخارجية للظواهر وهو يعكس كل هذا بدرجة كبيرة موضوعية . ولكن الإدراك المجرد يعكس الأعمال الداخلية للحقيقة ، لأنه لا يتبع الوجه الخارجى المحسوس للظواهر ، ولكنه يحيز الصلات والعلاقات الجوهرية العميقة الموجودة عند جذورها . إن قوة الفكر تتمثل فى مقدرته على تجاوز اللحظة وإدراك تطور الماضى وتطور المستقبل ، بواسطة القوانين الموضوعية التى اكتشفها : وإن الفكر عملية نشطة وهى عملية خلق الأفكار والتفاعل معها ، غير أن الفكر ونتاجه « الإدراك » متصل بالعالم الموضوعى ، ليس اتصالا مباشرا ، ولكنه اتصال غير مباشر خلال نشاط الإدراك الحسى ، وفائدة الإدراك الفكرى أنه غير مقيد بالوقائع المحسوسة ، غير متوقف عليها نسبياً ، ولهذا فهو قادر على الدراسة النظرية وتحقيق الظواهر على تقريب غير محدود للحقيقة المجردة وانعكاس أكثر وأكثر دقة للعالم(١) .

وهكذا تراجع أنصار التفسير المادى للتاريخ عن رأيهم ، لمنح العقل حق التمييز عن المادة .

لقد منح كارل ماركس الانتاج خاصية التطور « الديالتيكى » الذاتى فهى قاموس الكون كله ومنحها حتمية معناها ضرورة سيادتها وأن معارضتها لن توقفها ولن تكون إلاتعبيراً عن الجهل والجمود . وسمى إطاعة هذه القوانين « وعى الضرورة » .

إن الجدل هو شريعة هذه الفلسفة والعمل به هو عبادة فرضت على المؤمن به . « رأيت(٢) أناساً يبطلون الأديان فى العصر الحديث باسم الفلسفة المادية ، فاذا بهم يستعيرون من الدين كل خاصة من خواصه ، وكل لازمة من لوازمه ، ولا يستغنون عما فيه من عناصر الإيمان والاعتقاد ، التى لاسند لها غير مجرد التصديق والشعور ، ثم يجردونه من قوته التى يبثها فى أعماق النفس ، لأنهم اصطنعوه اصطناعا ولم يرجعوا به إلى مصدره الأصيل ..

(١) **Fundamentals and Marxism — Leninism P. 102 — 193 '1'**

(٢) عباس محمود العقاد : الفلسفة القرآنية ص ١٢ .

فالمؤمنون بهذه الفلسفة المادية ، يطلبون من شيعتهم أن يكفروا بكل شيء غير المادة ، وأن يعتقدوا أن الأكوان تنشأ عن هذه المادة ، فى دورات مسلسلة ، تنحل كل دورة منها فى نهايتها لتعود إلى التركيب فى دورة جديدة ، وهكذا دواليك ، ثم دواليك إلى غير انتهاء.

ويطلبون منهم أن ينتظروا النعيم المقيم على هذه الأرض ، متى صحت نبوءتهم عن زوال الطبقات الاجتماعية . فان زالت الطبقات الاجتماعية فى هذه السنة أو بعدها ببضع سنوات فتلك بداية الفردوس الأبدى ، الذى يدوم مادامت الأرض والسموات ، وتنتهى إليه أطوار التاريخ ، كما تنتهى بيوم القيامة ، فى عقيدة المؤمنين بالأديان .

ولا يكلف دين من الأديان أتباعه تصديقاً أغرب من هذا التصديق ، ولا تسليما أتم من هذا التسليم .

ولا يخلو دين الفلسفة المادية من شيطانه ، وهو « الرأسمالية » الخبيثة العسراء .. فكل ما فى الدنيا من عمل سوء ، أو فكرة سوء ، فهو كيد من هذا الشيطان الماكر المريد .

وكل ما فيها من عمل سوء أو فكرة سوء يزول ويحول ، وتحل فى مكانه بركات الفلسفة المادية ورضوانها ، متى سار الأمر إلى ملائكة الرحمة ، وذهب ذلك الشيطان إلى قرارة الجحيم » .

ونناقش الآن فلسفة ماركس نفسها . ونسأل : ماهى قوى الانتاج ؟ كيف تأتى إلى هذا الوجود ؟ أهى حقاً العوامل الأولية فى تطور الإنسان ؟

إن قوى الانتاج هى القوى التى يستخدمها الإنسان فى الانتاج الاقتصادى ، من صفات الخصب فى التربة ، والخواص التى تتميز بها المعادن والقوى الآلية والكيماوية فى الطبيعة وحرارة الشمس وقوة البخار والكهرباء وكذلك قوى الحيوانات والإنسان نفسه . ولا يستطيع أحد أن ينكر أن هذه القوى وجدت منذ وقت غير معروف ، قبل أن يبزغ فجر المدنية بكثير ، ومع تقدم الزمن اتسع عقل الإنسان فاكتشف هذه القوى الكامنة فى أعماق الطبيعة وأزاح الحجاب عنها وسخرها لفائدته .

وتاريخ الإنسان حافل بالشواهد التى تؤكد أن ذكاء الإنسان كان العامل الأول فى اكتشاف هذه القوى .

ولنفرض أن المصادفات كشفت للإنسان عن كثير من قوى الطبيعة الخفية . فاذا كان هذا هو الأمر فاننا نقر بأن عدداً غير قليل من الاكتشافات يجب أن يكون من نصيب الحيوانات ، ويجب أن تكون الحيوانات لدينا قد أتت بالكثير من المخترعات المدهشة ، لأن المصادفات لا بد أن تكون قد صحبتهم هم أيضا . ولكن التاريخ لا يدعم هذا القول . فلم يكن للحيوان اختراع ما لأنه ينقصه موهبة التفكير البناء الذى هو أمر ضرورى للاستفادة منه فائدة — كاملة ، ثم إن هذه الاكتشافات لم يتوصل إليها كل مخلوق ذى عقل ، ولم يحظ باكتشاف الأشياء الجديدة ووضع القوانين الجديدة وازاحة الاستار عن المواد الجديدة المكنوزة فى باطن الأرض أو فى الفضاء إلا ذوو الذكاء الحاد من بنى الإنسان .

إن هذه الحقيقة تنكر إدعاء كارل ماركس ، فهو يرى أن تطور قوى الانتاج يقرر كيان المجتمع الاجتماعى والسياسى ، بينما يكشف التاريخ أن عقل الإنسان هو الذى يكتشف وينمى قوى الانتاج واحدة بعد الأخرى .

ويرى ماركس أن أسلوب الانتاج هو القالب الذى بموجبه تنمو أنظمة الأمة ، وأنه الأساس الذى عليه يرتفع صرح الحياة السياسية والاجتماعية لأية أمة . وأن وعى الأمة لا يقرر شكل وجودها ، وإنما شكل الحياة الاجتماعية هو الذى يعين وعيها . إنه يقول :

« إن مجموع علاقات الانتاج هذه يكون الهيكل الاقتصادى للمجتمع — وهو الأساس الحقيقى الذى يقام عليه الكيان القانونى والسياسى والذى ترجع إليه أشكال معينة من الوعى الاجتماعى .

إن أسلوب الانتاج للحياة المادية يقرر مجرى الحياة الاجتماعى والسياسى والعقلى بصورة عامة ، وأنه ليس وعى الإنسان هو الذى يقرر حالة وجوده إنما حالته الاجتماعية هى التى تقرر وعيه » .

والشىء المنطقى الذى يتبع هذا أن أسلوب الانتاج هو العامل الحاسم فى حياة الفرد أو المجتمع . لذا فان الأشخاص أو المجتمعات التى تواجه نفس النوع من المشاكل يجب أن تتصرف بنفس الأسلوب ولكن هذا غير حقيقى ، فالرجل الذى يواجه فقراً مدقعاً يستطيع أن يسلك احدى سبل عدة : فهو قد ينهى حياته بطلقة من مسدس ، وقد يندفع إلى السرقة ، أو يتخذ سبيل الاستجداء .

أما أى هذه السبل يسلك وأيها يرفض فأمر يعتمد على تكوينه الفكرى وميوله الشخصية وتربيته .

هنالك عوامل كثيرة تساعده على اتخاذ قراره ، إنه دون ريب واقع تحت تأثير الوضع الاقتصادى ، ولكن الوضع الاقتصادى لا يقرر حياته .

وشبيه بذلك الجماعات والأمم . فقدكانت ثروة الهند التى نزح الاستعمار البريطانى النصيب الأكبر منها هى بداية تكوين المدخرات البريطانية التى استخدمت فى تطوير الزراعة والصناعة فى بريطانيا .

وإذا كانت بريطانيا قد وصلت إلى مرحلة الانطلاق اعتماداً على صناعة النسيج فى « لا نكشير » ، فان تحويل مصر إلى حقل كبير لزراعة القطن كان شريانا متصلا ينقل الدم إلى قلب الاقتصاد البريطانى على حساب جوع وفقر الفلاح المصرى .

وهناك تجارب أخرى للتقدم حققت آهدافها على حساب زيادة شقاء العامل واستغلاله ، إما لصالح رأس المال أو تحت ضغط تطبيقات مذهبية مضت إلى حد التضحية بأجيال حية فى سبيل أجيال لم تطرق بعد أبواب الحياة .

يتضح من هذا المثال أن أمماً مختلفة تعيش فى نفس الظروف الاقتصادية ، وفى نفس آساليب الانتاج اتخذت طرقاً متباينة وفقاً لمشيئتها .

لذا فالقول بأن الوضع الاقتصادى أو أسلوب الانتاج يقرر كل أشكال نشاط الإنسان يجانبه الصواب .

إن الطريق الذى يختاره شعب ما يعتمد على عوامل عدة هى : النمو العقلى الذى نماه ، والمنهج الأخلاقى الذى ينتهجه ، والبيئة الجغرافية «١» .

وفى إطار الفهم الماركسى للطبقة بمعناها الاقتصادى فان أحداً لا ينكر العامل الاقتصادى فى فهم تاريخ كل مجتمع ، كما أن دراسة أى مجتمع لا تشمل دراسة طبقاته بمعناها الاقتصادى ووظائفها وتطورها والعلاقة بينها وإمكان الدخول إليها والخروج منها لابد أن تكون دراسة قاصرة . والنظر إلى تاريخ المجتمعات باعتباره تاريخ الصراع الطبقى يعد من قبيل تبسيط التاريخ .

فالصراع جوهر الديناميكية التى تنقل الجماعات البشرية من حالة إلى أخرى .

---

(١) عبد الحميد صديق : فلسفة التاريخ ، ترجمة كاظم الجوادى ، ص ٩٦ .

يقول الله عز وجل :

« ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العالمين «١» »

إن الصراع يحمل معانى تتعدى المسألة الطبيعية فهناك صراع العقائد أو الصراع الفردى ... الخ .

ونظرة عجلى على التاريخ نجد العديد من الأمثلة التى لا تفسير لها من خلال التفسير المادى للتاريخ .

كان آلاف «٢» اليهود المشتتين ، يتجمعون عادة فى أحياء يهودية خاصة بهم ، فى أنطاكية والاسكندرية وكورنثيا ، وكان اليهود بالفعل — ما عدا فى فلسطين — فى الأغلب مشتغلين بالبيع والتجارة ، وتسليف الأموال ، وشئون الثقافة ، منعزلين عن البلاد .

ويتضح حتى من هذه الصورة المجردة أن هناك ما يفرق بين اليهود والفلسطينين ، والمالكيين ، والمعابيين ، والعاموريين ، وكل الشعوب المجاورة التى نجد أسماءها مبعثرة فى العهد القديم .

وهذا الفارق ، فى أبسط صورة له ، هو الإصرار على البقاء ، وعلى أن يكونوا يهودا ، وأن يكونوا شعبا : والآن بعد ألفى عام من تاريخ تحطيم الرومان لدولة اليهود ظهرت مرة أخرى على الخريطة السياسية فى فلسطين المغتصبة .

وليس هناك اجماع فى الرأى عن السبب الذى جعل لليهود هذا التاريخ الفذ : ويستطيع اليهودى المتدين — بطبيعة الحال — أن يزعم أن الله خلق اليهود واحتفظ بهم ، وسوف يفى بوعده بالمسيح . ولكن المرء الذى يحاول تفسيراً طبيعياً أو منطقياً لا يجد هذا الحل المبسط بين يديه .

وهناك من يعتقد أن اليهود هم فعلا جنس بشرى ، ولهم فى الواقع صفات بدنية ، وعقلية موروثة هى التى وجهت تاريخهم وجهته .

ولا يقبل اليوم أى طالب جاد ممن يدرسون العلاقات البشرية أمثال هذه العقائد الساذجة فى الجنس والوراثة الجنسية . غير أنه من الواضح أن التفسير السائد المعاصر للعلاقات البشرية الذى يأخذ الظروف الاقتصادية والبيئات الجغرافية فى الاعتبار ، والتفسير المادى للتاريخ ، هو — بالرغم من ذلك — فى هذا الصدد غير شاف . لأن الظروف المادية التى نشأ فيها المعابيون ، والمالكيون ، والعاموريون ، وغيرهم ممن لم نذكر ، كانت على الأرجح مطابقة للظروف التى عملت على تشكيل اليهود على صورتهم .

وإنما يجب أن نبحث عن جانب من جوانب تفسير ما جعل لليهود صفتهم الخاصة فى تاريخ الفكر .

ولو سلمنا بأن الفارق بين اليهود وبين جيرانهم هو — بتعبير مجرد مألوف — إيمانهم فى النهاية بوحدانية خلقية رفيعة ، بقى أن نسأل : ولماذا تمسكوا وحدهم دون جيرانهم بهذه العقيدة ؟

وكيف نفسر هجوم الفرس على المدن اليونانية ، ثم الهجوم اليونانى المضاد ؟

أو نشوء ونمو حضارة ما بين النهرين وصراعها الرهيب مع ما يعرف بمنطقة الهلال الخصيب ؟ أو الحروب الإسلامية الأولى التى قضت على الإمبراطوريتين الفارسية والرومانية الشرقية ؟ أو الحروب الاستعمارية الغربية ضد الوطن العربى والتى تسترت تحت شعار الصليب ؟ .

---

(١) سورة البقرة : ٢٥١ .

(٢) كرين برنتن : أفكار ورجال ، ترجمة محمود محمود ص ١٣٠ .

كيف يمكن تفسير هذه النماذج وغيرها بالرجوع إلى فكرة الصراع الطبقى ؟

قد يرد المؤمنون بسلامة منطق التفسير المادى للتاريخ بأن الدراسة تبحث أحوال كل مجتمع على حدة وتهتم بما بداخله من صراع دون النظر إلى الصراع بين المجتمعات .

وهذه فكرة مرفوضة فعندما تقدم الجزئيات تحليلا كليا متناسقاً ومتكاملا فانها تفقد معناها وفائدتها الحقيقية ، فالصراع داخل كل مجتمع ، والصراع بين المجتمعات كل يؤثر ويتأثر بالآخر .

وعلى سبيل المثال فالصراع الطبقى فى الإمبراطورية الرومانية خلال القرن الثانى قبل الميلاد ، ثم كموته وعودته إلى الظهور بحدة خلال القرن التاسع عشر كان ظاهرة إجتماعية عامة شملت كل المجتمعات التى توافرت فيها الشروط المهيئة له . فضلا عن أن ظهور الصراع الطبقى خلال هاتين الفترتين بشكل واضح لم يحجب أشكال الصراع القومى والعقائدى والفردى .

وهكذا يتضح أن فكرة الصراع الطبقى كمفتاح لفهم تاريخ المجتمعات بصرف النظر عن عنصرى الزمان والمكان فكرة لا تستطيع التصدى لتفسير التطور التاريخى فضلا عن أنه لا يمكن قبولها تاريخياً .

وسجل التاريخ حافل بالأمثلة التى تناقض النظرية الماركسية ، فقد كان حب الوطن أو الأمة أو الانتساب إلى دين ما أقوى بكثير من الباعث الاقتصادى المجرد .

وفى المحاورة التى دارت بين ربعى بن عامر مبعوث سعد بن أبى وقاص أمير جيش المسلمين إلى الفرس ، وبين رستم قائد الفرس قبيل موقعة القادسية ما يجلى هذه الحقيقة ويوضحها .

لما نزل رستم بالقادسية تلاحق به الناس حتى اعتموا من كثرتهم . والمسلمون ممسكون عنهم . ولما أصبح ركب وأشرف على بعض أمراء السرايا من المسلمين وعرض إليه بالصلح على أن يجعل له جعلا .

فقال له الأمير :

— إنا لم نأتكم لطلب الدنيا ، والله لإسلامكم أحب إلينا من غنائمكم . ولقتالكم بعد أحب إلينا من صلحكم .

فأرسل رستم إلى سعد أن ابعث لنا رجلا نكلمه ويكلمنا ، فأرسل إليه « ربعى بن عامر » . فلما خرج إلى معسكر رستم وبلغ القنطرة احتبسه الذين عليها من جنود الفرس وأرسلوا إلى رستم :

— « إن رسولا من المسلمين قد أقبل » .

فجعل رستم يستعد لملاقاته وشاء أن يسلبه لبه بما عنده فأمر ببسط البسط والنمارق ، ووضع سرير الذهب وألبسه زينته من الأنماط والوسائد المنسوجة كلها بالذهب وتمدد عليه ، ثم أمر بدخول الرسول .

فأقبل ربعى على فرس له عجفاء قصيرة . وسيفه فى خرقة .. ورمحه مشدود بعصب . واستمر على فرسه حتى وقف على البساط فنزل عنها . وتلفت حوله يبحث عن شىء يربطها به فلم يجد إلا وسادتين مزركشتين فشقهما وأدخل فيهما الحبل ثم ربط الفرس . ونظر إليهم فلم يجد من يحاول منعه ، فأيقن أنهم إنما أرادوا إشعاره بالتهاون والهوان . فهب واقفاً وتقدم نحو رستم .

فقالوا له : ضع سلاحك .

فقال : إنى لم آتكم فأضع سلاحى بأمركم وأنتم . دعوتمونى فإن أبيتم أن آتيكم إلا كما أريد ؟ وإلا رجعت .

فقال رستم : دعوه . هل هو إلا رجل واحد ؟ .

فأقبل ربعى يتوكأ على رمحه وشاء استحراجهم .. فراح يعمل برمحه فى النمارق والبسط ويقارب خطوه فلم يدع نمرقة ولا بساطاً إلا هتكه وأفسده ، ولما دنا من رستم ركز الرمح أمامه وجلس هو على الأرض وأخذ ينظر إليهم كأنه نمر . فقال له رستم : ما جاء بكم ؟

فقال ربعى : الله جاء بنا . وهو بعثنا لنخرج من يشاء من عباده من ضيق الدنيا إلى سعتها ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام ، وأرسلنا بدينه إلى خلقه فمن قبل منا قبلنا منه وتركناه وأرضه ، ومن أبى قاتلناه حتى نفىء إلى إحدى الحسنيين — الجنة أو الظفر .

فسأله رستم أن أخروا هذا الأمر حتى ننظر فيه وتنظروا فيه .

قال : نعم . كم أحب إليكم ، أيوم أم يومان ؟

فقال رستم : لا . بل حتى نكاتب أهل الرأى من رؤسائنا وقومنا .

فقال ربعى : إن مماسن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعمل به أئمتنا ألا نمكن الأعداء من آذاننا ، ولا نؤجلهم عند اللقاء أكثر من ثلاثة أيام فنحن مترددون عنكم ثلاثاً فانظر فى أمرك وأمرهم واختر واحدة من ثلاثة من الأجل :

اختر الإسلام ، فندعك وأرضك . أو الجزية ، فنقبل منك ونكف عنك ، وإن كنت عن نصرنا غنياً تركناك منه ، وإن كنت إليه محتاجاً منعناك . أو المنابذة فى اليوم الرابع ، ولسنا نبدؤك فيما بيننا وبين اليوم الرابع إلا أن تبدأنا ، وأنا كفيل لك بذلك على أصحابى وعلى جميع من ترى .

فقال رستم : أسيدهم أنت ؟

فقال : لا . ولكن المسلمين كالجسد الواحد بعضهم من بعض يجير أدناهم على أعلاهم ، وهم يد على من سواهم .

فاختلى رستم برؤساء قومه ، فقالوا :

— معاذ الله أن نميل لدين هذا الرجل .

فقال رستم : ويحكم لا تنظروا إلى الثياب ، ولكن انظروا إلى الرأى ....

وعادوا إلى ربعى وجعل أحدهم يسخر من سيفه ومن غمده الخلق ، فأخرج ربعى سيفه من خرقته كأنه شعلة من نار ، ثم أغمده ، وقال لهم وهو ينصرف :

— أنظروا إلى الأجل .

وخرج وتركهم فاغرى الأفواه من الدهشة .

وبعد انتهاء الأجل درات معركة رهيبة بين الجيش الإسلامى وجيوش رستم ، انتصر فيها المسلمون انتصاراً باهرا ، لأن قلوبهم كانت عامرة بالإيمان ، وكانوا يحاربون عن عقيدة ، ودفاعاً عن دين ، ولإعلاء كلمة الله فى الأرض .

يقول هو نشو فى كتابه : « علم التاريخ » :

« ليس بين الدراسات الاجتماعية التى غدا التاريخ وثيق الصلة بها ما هو أشد لزوماً للمؤرخ من علم الاقتصاد «١» .. إن جميع المفكرين المسئولين قد عدلوا عن العقيدة المسرفة التى صاغها ماركس وأنجلز والتى تفسر التاريخ تفسيراً اقتصادياً محضا ، إلا أن المؤرخين معترفون بأن العوامل الاقتصادية لعبت دوراً بارزاً فى جميع عصور النشوء الاجتماعى للعالم وبخاصة فى العصور القديمة ؛ أيام كان الإنسان مضطرا إلى أن يكافح من أجل وجوده كفاحاً متصلا أعداء طبيعيين مساوين له فى القوة وشدة المراس . ثم إن جميع الساسة مدركون أن الشئون الاقتصادية قد عادت فأصبحت مرة أخرى فى مقدمة الصوالح الانسانية ، ولذلك كان التاريخ الاقتصادى فى الآونة الحاضرة دون غيره من فروع التاريخ محل اهتمام الجمهور وعنايته».

وقد تخيل « رينولدنيو بهر » «٢» عقد ندوة من ندوات البحث والنقاش اجتمع فيها مارتن لوثر وكارل ماركس لهذا الغرض ، وقام « نيو بهر » بدور المعلم السائل :

ويبدأ بهذا السؤال : ما هو الإنسان ؟

فيجيب لوثر أولا بقوله : إن الإنسان مخلوق ساقط ، خلق فى الأصل فى حالة البراءة والطهر ، وأودعت فيه قوى تفوق القوى البشرية كما نعرفها اليوم . ولكنه هوى من هذه المرتبة العالية وفقد صورة الله . لقد سقط بسبب الكبرياء لأنه أنصاع إلى وسوسة المجرب ، ورام أن يكون مثل الله . وهذه الكبرياء متسلطة حتى اليوم ، وخاصة فى المجتمع ، حيث ينقض الإنسان على أخيه الإنسان كالطيور الجارحة ، والإنسان التقى طائر نادر الوجود .. والمجتمع فى الواقع أفضل قليلا من قفص تجتمع فيه الوحوش الضارية ، حيث يلتهم القوى الضعيف . والإنسان فاسد فى احساسه وعقله وإرادته ، بيد أنه يرفض بعناد هذه الحقيقة . وهو يضيف إلى خطاياه الأخرى خطية الادعاء بأن له فضيلة لا يملكها . والخطية منسوجة خيوطها فى كل نشاط بشرى ، هى لعنة أن نقدر أن نحرر منها أنفسنا ، وحتى نعمة الله لا تقدر أن تحررنا فى هذا الجانب من القبر . وما نسميه ارتقاء أخلاقياً أدبياً إن هو إلا استبدال خطية بأخرى ، والإنسان أشبه بالفلاح المخمور ، الذى تركبه على دابته من جانب ، ليسقط حالا من الجانب الآخر .

ثم يجيء دور ماركس ليجيب «٣» على السؤال فيقول :

— إن الإنسان هو نتاج الأحوال الاقتصادية التى يعيش فيها . ففى البدء فى حالة الشيوعية البدائية المثالية ، كان هانئاً سعيدا ، وعاش فى انسجام وتوافق مع اخوانه .

ولكن بادخال الملكية الفردية حلت عليه اللعنة ، وحكم عليه بالشقاء والعناء والمنازعات . ذلك لأن الإنسان حيوان يعيش على القنص والصيد فى نظام الطبقات ، وليس ثمة شريعة بين طبقات المجتمع غير شريعة الغاب ، قاتلا أو مقتولا .

ولا يقدر أصحاب النفوذ والسلطان أى اعتبار آخر غير المصلحة الذاتية ، وان كانوا يحاولون دائماً إخفاء أطماعهم وجشعهم وراء إدعاءات محكمة قوامها الفضيلة والغيرية والخدمة العامة . فالمجتمع

---

(١) هرنشو : علم التاريخ ، ص ١١٩ .

(٢) ولد رينولد نيوبهر فى ٢١ يونيو سنة ١٨٩٢ وهو من أبناء الألزاس الألمانية . تلقى علومه فى كلية الهورست وجامعة بيل بأمريكا . اشتغل راعياً لكنيسة إيل الإنجيلية . وفى سنة ١٩٢٨ عين استاذا للأخلاق المسيحية وفلسفة الدين بكلية أصول الدين فى نيويورك .

(٣) حبيب سعيد : أعلام الفكر الأوربى ، ص ١٣٧ — ١٣٩ .

إذاً مباءة للاستغلال ومستودع للتذمر والأنين ، وعلى الرغم من التقدم العلمى ، فان جماهير الكادحين لم يصبهم حظ من هذا التقدم ، ولم تفلح أية ثورة حتى الآن إلا فى إستبدال طبقة استغلالية بأخرى مثلها ، وفى كل مرة يقع المظلومون فريسة للخداع والتضليل .

وهنا ينبرى المعلم السائل فيقول :

— شىء جميل : إنك يا ماركس تكاد تترجم بلغة السياسة كثيراً مما قاله لوثر بلغة الدين : ولكن لننتقل الآن إلى السوءال الثانى وهو :

إن كان هذا هو حال الإنسان البشرى كما تشخصانه ، فما العلاج الذى تقترحانه ؟

يجيب لوثر على هذا السوءال باقتراحات ثلاثة :

إن المشكلة البشرية لن تحل إلا بنعمة الله وبانجيل المسيح : إن الحياة فى هذا العالم فاسدة وشريرة والشهوات الرديئة تهتاج حتى فى قلب القديس ، ولكن هناك رحمة الله التى تحتملنا وتقبلنا . ولهذا وجب أن نعترف بأن كل برنا قذارة ووسخ ، ونعتمد على المسيح وحده ، لا على شىء صالح فينا .

وثانيا : بما أن لا أمل فى أن يقبل الانجيل ويتبرر بالإيمان إلا أقلية ، فان الله قد أعد من فرط رحمته فى حالتنا هذه وسيلة للخلاص الزمنى : لذلك يحق لنا أن نطلب إلى السلطات التى عهد إليها بالسيف أن توءدب العصاة المتمردين ، وتكبح جماح الشهوات الثائرة ، وتوطد أسباب النظام والقانون ، لكى نتقبل فى هدوء وسلام تعزيات الانجيل .

وأخيرا ، إن حالة العالم تنتقل من سىء إلى أسوأ ، لذلك وجب أن ننتظر فى رجاء عودة المسيح ونهاية هذه الحالة الأليمة الراهنة .

ويدلى ماركس بأدلته مفنداً كل اقتراح أبداه لوثر ، فالاقتراح الأول ينبذه بخشونة وجفاء ، ويقول إن الدين خداع وتضليل ، وقد أثبتت لنا الوقائع القاسية بأنه مخدر لجماهير الكادحين ، يقدمه لهم سادتهم ، ورجال الدين الذين يستأجرهم أولئك السادة . وإن سلمنا جدلا بأن جوهر الدولة هو القوة ، فان ماركس لا يرى مسوغاً لأن يفيد أصحاب النفوذ والسلطان الحاليين باخضاع ضحاياهم وترويضهم على الطاعة والخنوع : والأولى ان يمسك هوءلاء الأخيرون بصولجان القوة ، ويجب أن تستعر حرب الطبقات إلى نهايتها المريرة حتى يتم النصر للمظلومين المكدودين . ومن الثابت يقيناً فى كل الشواهد السابقة ، أن الطبقة التى تستحوذ على القوة ، تعمد بدورها إلى السلب والاستغلال . على أن هذا لن يحدث فيما بعد ، فانه متى استولت الطبقة الأخيرة على السلطان لا تجد شيئاً تستغله أو تسلبه ، وعند ذلك يزول نظام الطبقات ويسود العدل والانصاف ، وعمال العالم هم المنقذون المقدر لهم أن يخلصوا العالم .

ويعلق المعلم السائل على الندوة ، ويبين النتائج التى استخلصها فيقول :

— كما قلت من قبل ، إنى أجد مزيجاً غريباً من الاتفاق ومن الاختلاف فى موقف الاثنين . فمثلا إن كان الإنسان قد سقط كما يقول لوثر ، فإن وصف ماركس للمجتمع يزودنا بصورة دقيقة للنتائج التى ترتبت على هذا السقوط . أما عن حل المشكلة ، فانى أميل إلى الأخذ بوجهة نظر لوثر فى الاقتراحين الأول والثالث .. كما أنى أشارك ماركس فى اقتراحه الثانى . وإنى أحسب التبرير بالإيمان هو الإمكانية

الوحيدة للفرد إن هو رام بلوغ السلام العقلى ، وهو أيضاً أساس الحياة الأخلاقية الأدبية . وإنى مقتنع أيضاً بان الاعتقاد اليسير الهين فى التقدم والرق الذى احتصم به آباؤنا يجب العدول عنه . ذلك لأن التقدم العلمى لا يقضى على الشر ، بل قد يكون سلاحاً فتاكاً يعبث به الشر البشرى كما هو الحال فى تحطيم الذرة مثلا . على أن ماركس واهم مخدوع فى بعض آرائه ، فهو يتخيل أن الطبقات العاملة ستكون بمنجاة من الطمع البشرى ، ولأنها ستجيء آخرا الكل ، ستزهد فى القوة والسلطان ، على أنه على حق حين يرفض التهدئة التى يدعو إليها لوثر ، ويطالب باجراء سياسى لتوزيع القوى بين الجماعات والطبقات الإجتماعية .

أفلا نقدر أن نأخذ شيئاً من كل منهما ؟ .

أفلا نقدر أن نجعل ماركس مرشداً لنا فى العمل الإيجابى ، على أن نحتفظ فى الوقت عينه بآراء لوثر للتخفيف من شدة وطأة العمل الذى يدعو إليه ماركس ، وللاحتفاظ بدين شخصى ورجاء فى نهاية الحياة ؟ » .

قال ماركس وأنجلز : « لقد كان أمام المبادىء المسيحية الاجتماعية فرصة ثمانية عشر قرناً للتطور ، ولن تحتاج إلى تطور آخر على يد القسس والمبشرين . وقد أباحت هذه المبادىء الرق فى العالم القديم ، وغطت عبودية الإنسان فى الأرض فى العصور الوسطى . وهى على استعداد إذا لزم الأمر للدفاع عن ظلم الطبقات العاملة مهما أطرقت جباهها ، وتعاليم المسيحية الاجتماعية لا تعارض فى وجود طبقة حاكمة ذات سلطان ظالم ، وكل ما تقدمه للناس هو أمل المتقين فى أن يتحول الحاكمون إلى الخير .

والمبادىء الاجتماعية المسيحية تنقل مشكلة علاج أمراض المجتمع إلى العالم الآخر ، وتبرر بذلك دوام هذه الأمراض على الأرض : والمبادىء الاجتماعية المسيحية تعلن أن شرور الظالمين التى تقع على المظلومين إنما هى عقاب لهم عن ذنب أتوه أو متاعب اختارت حكمة الله التى لا نعرفها أن تقع على المختارين من عباده : والمبادىء الاجتماعية المسيحية تبشر بالجبن والانحطاط بالنفس وقبول الأمر الواقع والخضوع والذلة وبالاختصار كل الصفات الدنيا ، وطبقة العمال لا ترضى أن تعامل هذه المعاملة .

إننا نحتاج إلى الشجاعة والثقة والكبرياء والاستقلال أكثر مما نحتاج إلى الخبز ، والمبادىء الخلقية المسيحية ملتوية وغير صريحة ، ولكن طبقة العمال ثورية » :

إن ماركس يشن هجوماً شديداً على الأديان ، وهى فى حقيقتها ثورات استهدفت تحرير الإنسان من كل ما يعوق تقدمه ورقيه مادياً وروحيا : ولكن ماركس يرى أن الدين « نفثة المخلوق المضطهد ، وشعوره بالدنيا التى لا قلب لها . إنه أفيون الشعوب » :

ويتفق « ماركس » « وأنجلز » على أن الدين كما قال « أنجلز » فى الرد على « دهرنج » :

« ينشأ قبل أن تنهج الوسائل التى يكسب بها الإنسان معيشته ، وأن الإنسان يواجه الطبيعة مباشرة فى تلك الحالة فتقف أمامه الطبيعة قوة غلابة غامضة يعبد منها مالا يدركه . . وما الدين إلا انعكاس القوى الظاهرية التى تسيطر على معيشته اليومية » .

إن تعليل العقيدة الدينية بضعف الإنسان بين مظاهر الكون وأعدائه فيه من القوى الطبيعية والأحياء ، فلا غنى له عن سند يبتدعه ابتداعاً ليستشعر الطمأنينة بالتعويل عليه والتوجه إليه بالصلوات فى مصائبه وبلواه .

على أن القول بضعف الإنسان تحصيل حاصل إن أريد به بطلان العقيدة الدينية وإثبات التعطيل لأن الإنسان ضعيف على كلا الفرضين فليس من شأن ضعفه أن يرجح أحد الغرضين على الآخر .

فإذا ثبت أنه من خالق إله فعال قدير فهو ضعيف بالنسبة إلى خالقه ، وإذا لم يثبت ذلك فهو ضعيف بالنسبة إلى الكون ومظاهره وقواه . لكن الواقع أن الضعف لا يعالل العقيدة الدينية كل التعليل لأنها تصدر من غير الضعفاء من الناس وليس أوفر الناس نصيباً من الحاسة الدينية أوفرهم نصيباً من الضعف الإنسانى سواء أردنا به ضعف الرأى أو ضعف العزيمة . فقد كان الأنبياء والدعاة إلى الأديان أقوياء من ذوى البأس والخلق المتين والهمة العالية والرأى السديد . ومهما يكن من الصلة بين ضعف الإنسان واعتقاده فهو لا يزداد اعتقاداً كلما ازداد ضعفاً ولا يضعف على حسب نصيبه من الاعتقاد وما زال ضعفاء النفوس ضعفاء العقيدة ، وذوو القوة فى الخلق ذوو قوة فى العقيدة كذلك .

فليس معدن الإيمان من معدن الضعف فى الإنسان وليس الإنسان المعتقد هو الإنسان الواهى الهزيل ، ولا امام الناس فى الاعتقاد أمامهم فى الوهن والهزال .

وإذا رجح القول بأن العقيدة « ظاهرة اجتماعية » يتلقاها الفرد من الجماعة فليس الضعف إذن بالعامل الملح فى تكوين الاعتقاد لأن الجماعة تحارب الجماعة بالسلاح المصنوع وقوة الجنان مع القوة العددية . وتقيس النصر والهزيمة بهذا المقياس المعلوم فلا تلجأ إلى مقياس العقيدة المجهول إلا إذا آمنت به لباعث غير باعث التسلح والاستقراء .

ورأى « فرويد » قريب من رأى هؤلاء الذين يردون العقيدة الدينية إلى شعور الخوف فى وسط العناصر الطبيعية وربما اختلط به مزيج من الغريزة الجنسية فى بعض المتهوسين وذوى الأعصاب السقيمة فإن حب الله كما يفسره « فرويد » عند هؤلاء هو بمثابة الحب الجنسى فى حالة « التسامى » أو حالة « الحماسة » ، وتتشابه العوارض كلها مع هذا الفارق بين الحبين .

ومن الواضح أن حالة التسامى هى آخر ما ارتقت إليه الأديان فلا يمكن أن يقال إنها ينبوع العقيدة الهمجية الأولى .

ولا يمكن كذلك أن يقال إن العقيدة الدينية حالة مرضية فى الآحاد والجماعات لأننا لا نتخيل حالة نفسية هى أصح من حالة البحث عن مكان الإنسانية من هذا العالم الذى ينشأ فيه . ولا يتجاهل حقيقته إلا وهو فى حالة مرضية أو حالة من أحوال الجهالة تشبه الأمراض[1] » .

وتاريخ الإسلام يدحض هذه النظرية :

إن سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم وصحبه تؤكد أنهم تجردوا من الدنيا وضحوا بأثمن مافى الوجود فى سبيل نشر هذا الدين ، لقد ضحوا بأرواحهم ..

(١) عباس محمود العقاد : كتاب « الله » ص ١٨ — ٢١ .

كتب (١) « واشنطن ايرفينج » وهو أمريكى كان سفيراً لدولته فى أسبانيا أواخر القرن التاسع عشر كتاباً عن سيرة محمد صلى الله عليه وسلم قال فيه وهو يبحث البواعث التى حملته على دعوته :

« أكانت الثروة ؟ لقد أفاده زواجه من خديجة الغنى ، فظل سنوات قبل الوحى لا يبدى رغبة فى زيادة ثروته ، أم كان يطلب المنازل الملحوظة ؟ لقد كانت منزلته عالية فى قومه وكان معروفاً بينهم بالفضل والأمانة ، وكان من قريش ومن أكرم فرع فيها ، وكانت سدانة الكعبة وما تفيده من العز والسلطان فى أسرته منذ أجيال ... وكان من حقه أن يتطلع إليها فلما قام يحاول أن يهدم الدين الذى نشأ عليه قومه اقتلع جذور هذه المزايا جميعا ، فقد كانت ثروة أهله ومنزلتهم قائمين على هذا الدين ، فهاجمه وجر على نفسه عداوة أهله ، وغضب مواطنيه وسخطهم جميعا »

هل كان هناك فى بداية سيرته النبوية ما يبعث الأمل أو يعوض هذه التضحيات ؟ إن الأمر كان على النقيض ، فقد بدأ محاذراً متوخياً الكتمان وظل سنوات لا يوفق ، وعلى قدر توسعه فى بث دعوته وإذاعة رسالته ، كان يشتد ويعظم ما يلقى من العنت والسخرية والأذى والاضطهاد ، واضطر بعض أهله وأنصاره أن يهاجروا إلى بلاد أخرى ، واحتاج هو نفسه آخر الأمر أن يهاجر إلى بلد غير مكة ، فلماذا كان يصبر كل هذه السنوات الطويلة على « رجل » يسلبه كل متاع الدنيا فى سن لا تسمح بأن يبدأ المرء حياته مرة أخرى ؟ فما قام بالدعوة إلا بعد الأربعين ، وقضى فى مكة ثلاثة عشر عاما ، وكان تاجرا حسن الحال فهاجر منها فقيراً معدما لا يعرف ماكتب الله له فى غيبه من النصر ، ولا يبغى أكثر من أن يبنى مسجداً يعبد فيه ربه ، ولا يرجو إلا أن يعبد الله فى سلام ، ولما جاءه النصر لم يتكبر ولم يتجبر ولم يغتر ، محافظاً وهو فى أوج قوته ، على بساطته أيام ضعفه . وجاءه نصر الله بعد الهجرة ، ولكن الأيام لم تجر كلها على صعيد واحد ، وإذا كان قد انتصر كثيراً فقد انهزم أحيانا ، فلا النصر أبطره ، ولا الهزيمة أضعفت روحه أو فتت فى عضده »

وكان عليه أن يضع للجماعة الإسلامية فى المدينة القوانين والنظم فى السلم والحرب وهو فيما أعلم الوحيد الذى بلغ الرسالة كلها ، وأتم عمله أجمعه فى حياته ، فأكمل الدين وأسس الدولة ، ووضع القواعد كلها ، ووجه الأمة الجديدة الوجهة التى فيها الخير والصلاح والعز .. وليس لهذا مثيل فى التاريخ — قديمه وحديثه — وهنا ينبغى أن نذكر مسافة الزمن التى تم فيها كل هذا ، كانت قصيرة جدا ، وأن دينه كان جديداً ، يخالف كل ما وجد عليه العرب ، وفى هذه المدة الوجيزة لم يغير للعرب عباداتهم وحدها ، بل غير نفوسهم أيضا . ولا شك أن صرف امرئ عن عبادة حجر أو نحوه أهون جداً من صب النفس فى قالب جديد ..

وقد خلق من هؤلاء العرب المتنافرين المتعادين المتهالكين رجالا يعدون فى طليعة أبطال العالم ، وماذا كان هؤلاء جميعاً خليقين أن يكونوا لولا محمد ؟ ونعنى بهم أبطال التاريخ الإسلامى من مثل الخلفاء والولاة والقواد والفقهاء .. أكان أحد يمكن أن يسمع بهم ؟

وليس من شك أنهم كانوا خلقاء أن يكونوا شيئاً مذكوراً بين قومهم ، ولكن قومهم أجمعين لم يكونوا شيئا ، وما قيمة قوم انقسموا قبائل متعادية لا أثر لها فى الحياة ، ولا يعبأ بها حتى من يجاورها من الأمم ؟

---

(١) من كتاب مواقف حاسمة فى تاريخ محمد بن عبد الله ، للمؤلف طبعة دار الشعب .

وليس من شك أنهم كانوا خلفاء أن يكونوا شيئا مذكوراً بين قومهم ، ولكن قومهم أجمعين لم يكونوا شيئا ، وما قيمة قوم انقسموا قبائل متعادية لا أثر لها فى الحياة ، ولا يعبأ بها حتى من يجاورها من الأمم ؟

ومن هذه العناصر خلق محمد أمة عظيمة فتحت الدنيا ، ونشرت الدين ، وأهدت إلى العالم حضارة كبيرة غيرت مجرى التاريخ الإنسانى كله » .

وفى التشريع الاقتصادى الإسلامى ما يهدم التفسير المادى فكيف نفسر إلغاء الربا والاحتكار وتحريمهما ومنع أن يكون المال دولة بين الأغنياء ، وكيف يحدد الاسلام وظيفة الملكية .. إلى غير ذلك من أصول الإسلام الاقتصادية . وكانت المرحلة — حسب التفسير المادى — تفرض عليه أن يكون غير ذلك ويتجاوب مع قوى الانتاج . .

يقول « كيونو[١] Cunow » المفسر المعروف لنظرية ماركس : « إن القبائل الرحل والتى تعيش على الصيد تنظر إلى المرأة نظرة احتقار لأن المرأة لا فائدة منها فى الصيد وتربية الماشية وغير لا ثقة بدنياً للقتال الذى تكون هذه الشعوب المقاتلة مشتبكة فيه دائماً . ولكن لما أخذ الشعب بالزراعة وأصبحت هذه عملا مهماً فى المجتمع ارتفع مركز المرأة أيضاً فى ميزان التقدير . فأخذ الرجال ينظرون إليها من زاوية ناعمة لا خشونة فيها . فأخذوا ينظرون إليها باحترام وتقدير .

إن السبب الأساسى لهذا التغير الجذرى سبب اقتصادى محض . فبما أن المرأة أصبحت ذات فائدة للناس فى نواح عديدة فى غرس الأشجار وبذر البذور وجنى الثمار .. مثلا — ارتفعت مكانتها » .

ولكن هذا القول لا يثبت أمام التمحيص ، فلا يمكننا أن نجزم بأن المرأة كانت تحتقر عند كل قبائل العالم ، ففى مصر كانت المرأة دائماً موضع احترام كبير ، وكانت هناك شعوب عدة لا تحترم المرأة ، وعند الرومان ، كان مركزها القانونى ، مركز العبد .

ويستنتج مما قرره « كيونو » أن المرأة عندما أصبحت مفيدة فى الزراعة فقد حظيت بالتقدير والاحترام . أى أن الإحترام هو لعملها .

ونحن إذا صرفنا النظر عن الحقائق التى تثبت عكس هذا القول ، فإننا نجد أن العمل وحده لم يحقق السلطة والقوة ، وحتى فى عصرنا الراهن فإن الكرامة والشرف اللذين يعطيان له محدودان جداً ؛ فهما موجودان بصورة عامة فى الكلمات أكثر من الحقيقة . ففى كل الأوقات كان العمل يفرض على المرأة وعلى الضعفاء ؛ لقد كان العمل مفيدا للغاية ولكنه لم يكن شيئا مكرما . بل كان المكرمون هم الأقوياء الذين كانوا يسرقون البضائع التى ينتجها العمال . إن أنصار التفسير المادى للتاريخ يعرفون هذا حق المعرفة ، بل إنهم يؤكدونه تأكيداً شديدا ، فكيف يزعمون أن العمل الزراعى الذى قامت به المرأة جعلها تنال السلطة والقوة ؟

إنهم لا يستطيعون أن يقروا الأمرين . إن المرأة لم تتحسن أحوالها لمجرد أن المجتمع الإنسانى تحول من مرحلة الصيد إلى مرحلة الزراعة . إنما تحسن وضعها بالحركات الدينية التى قادها الأنبياء فى الفترات

(١) نقلا عن كتاب « تفسير التاريخ » . ص ١٠٧ .

المختلفة من تاريخ البشر . فقد جاء في التعاليم المسيحية (١) : « لا يهودى ولا أغريقى ، لا عبد ولا حر ، لا ذكر ولا أنثى — كلكم واحد فى يسوع » . فلما انتشر هذا المبدأ بين التابعين الأولين للمسيح : دخل النساء فى المسيحية أفواجا : وهنا وجدت النساء أخيراً ديناً توافقهن مبادئه الكبرى ، ويمجد تلك الفضائل التى طالما علموهن أن يتحلين بها ، ويرحب بهن شخصياً فى حظيرته . وقد قامت الديانة المسيحية فى أول عهدها على أكتاف النساء إلى حد كبير ، فكانت النساء مبشرات عاملات فيها ، يهبن لها المال والحماسة ، ويؤدين الخدمات بأنفسهن ، وقد اعترف بهن قسيسات ، وكانت لهن فى مبدأ الأمر سلطة كبيرة ، وكان حظهن من الحمية الدينية ، والاستشهاد فى عصر الاضطهاد موفورا ، وأصبحت القديسات منهن يبلغن العشرات .

ومن المرجح أن تبوأ النساء هذا المركز البارز فى الكنيسة الأولى كان عاملا من عوامل نجاحها ، وقد كانت هناك عوامل أخرى غير هذا العامل ، بيد أن النساء ساهمن بنصيب وافر فى نصر الكنيسة ، وكان مركزهن فيها من بين أسباب الظفر لا محالة .

وقد فقد النساء مركزهن الخطير بعد ذلك ، وأصبحت المرأة حتى فى بيت أبيها كالخادم .

وما أن أشرق نور الإسلام حتى رفع شأنها الاجتماعى من جديد . يقول الله تعالى :

« يأيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيراً ونساء واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيباً (٢) » .

هذه الآية وثيقة للمساواة والكرامة للمرأة : لقد كانت رسالة عظيمة لتحرير المرأة واطلاقها من أسارها (٣) ، ورفع مستوى كرامتها . لقد ضمن الإسلام حقوقاً لم تكن قد نالتها من قبل ، وساوى بين جنسها وجنس الرجل مساواة كاملة فى القيام بجميع الأعمال .

حققت مبادىء الدين ثورة شاملة فى وضع المرأة الاجتماعى : فهل يستطيع أحد بعد ، أمام هذه الحقائق الدامغة ، أن يزعم أن كل هذا إنما هو نتيجة العوامل الاقتصادية ؟

يجوز الادعاء بأن هذه الأوامر الإلهية نفسها نتيجة للبيئة المادية ، فان العوامل الاقتصادية وحدها هى التى ولدت هذه الأديان : أى أن ما جاءت به الأديان لم يوح به الله إلى الأنبياء وإنما هى متطلبات الزمن فى ما يتعلق بالضرورة الاقتصادية ، هذا ما يزعمه أنصار المذهب المادى : ولكن أفكار ماركس لا تدعمها حقائق التاريخ فاذا كانت أساليب الإنتاج تعتبر حقاً القواعد الحقيقية التى تقرر كل البنيان الذى يشاد عليها ، والدين جزء من هذا البنيان ، فسنضطر إلى أن نصل إلى أن أسلوب الإنتاج نفسه يجب أن ينتج النوع نفسه من الحركات الروحية ونفس النوع من الأنظمة . ولكن الأمور فى العالم تختلف تماما . فنحن نجد أديانا متعددة تعيش كلها متجاورة فى نفس الظروف الاقتصادية : فاذا كان الدين مجرد

---

(١) السيدة : راى ستراتشى ، المرأة ومركزها وأثرها فى التاريخ ، تاريخ العالم ، المجلد الأول ص ٣٩٣ — ترجمة محمود إبراهيم الدسوقى .

(٢) صورة النساء : ١

(٣) للتوسع راجع كتاب « الدين والدولة العصرية » للمؤلف — طبعة دار الشعب .

انعكاس للظروف الاقتصادية التي يعيش فيها الناس ، فلا مجال لأكثر من دين واحد في وقت واحد . ولكننا نجد أن الإسلام والمسيحية واليهودية والهندوكية والبوذية والزردشتية وعشرات الأديان الأخرى تسيطر على عقول إناس يعيشون فى نفس الظروف لاقتصادية .

فى الهند – مثلا – عاش المسلمون والهندوس فى نفس الظروف الاقتصادية ونفس النوع من أساليب الانتاج مئات السنين ولكن هذه القوى ، رغم كل قوتها ، أخفقت فى أن تصهر هذه الطوائف فى كتلة واحدة فهم اليوم يختلفون اختلافاً كبيراً فى الدين كما كانوا يختلفون قبل آلاف السنين .

وصفحات التاريخ ، تحتوى على كثير من البراهين التى تدحض نظرية ماركس ، فقد نمت أنظمة مختلفة فى أحضان نفس البيئة المادية . إن الرومان ، وكذلك المسلمون الأولون – وفقاً للتقسيم الماركسى للعهود التاريخية – ينتمون إلى مجتمع الرقيق ، بمعنى أن البنيان الاقتصادى للمجتمع الرومانى وكذلك البنيان الاقتصادى للمجتمع الإسلامى الأول كانا يرتكزان على قاعدة الاسترقاق ، وكلاهما كان يتبع نفس وسائل الإنتاج ، وكانت أساليب التوزيع نفسها تقريبا ، ووفقا للنظرية الماركسية – لا بد أن يكون نظام الرق واحداً فى كلا المجتمعين ، وكذلك يجب أن تكون نظرة السادة الرومان والسادة المسلمين نحو عبيدهم متشابهة ، ولكن التاريخ يدل على عكس ذلك تماما ، فالعبد فى نظر الرومان لم يكن شخصاً بل كان شيئا ، وكان لسيده أن يبقيه حياً أو يقتله .

أما معاملة العبيد عند المسلمين فكانت تختلف تماما ، فقد فتح الإسلام كافة الأبواب لتحرير العبيد ، وطلب معاملتهم أفضل معاملة ، وحرم على السادة أن يكلفوا عبيدهم فوق ما يطيقون ، فاذا كلفوهم أعانوهم ، كما طلب إلى السادة أن يطعموا عبيدهم مما يطعمون ويلبسوهم مما يلبسون [1] .

ما أعظم الفارق بين نظرة الرومان ونظرة المسلمين نحو عبيدهم ... هذا لغز لا يستطيع أنصار النظرية المادية تفسيره تفسيراً علميا .

إن ماركس – على حد تعبير « الكساندر جرى [2] » : واضع أساطير ، فيها الحقيقة أمر ثانوى ما دامت الأسطورة تصور ما يرغب فى أن يعتقده ، وما دام فى هذه العقيدة قوة تلهم العمل . هذه الفلسفات لا داعى لأن تكون صحيحة فى نفسها ولكنها يجب أن تتفق مع عواطف الجماهير المكافحة .

---

(١) للتوسع راجع كتاب (العدالة الاجتماعية عند العرب) للمؤلف – مكتبة الأنجلو المصرية .

(٢) Alexander Gray, The Development of Ecomonic Doctrine.

الفصل السادس

الدين .... والتاريخ

« إن الأديان العليا تهيىء للنفوس البشرية اكتساب رعوية ملكوت الله على الأرض ، وهنا يتاح للإنسان المساهمة بقسط من الضآلة فى سير التاريخ الدنيوى ، وهو قسط يكفل له تأدية دوره فى الأرض » .

آرنولد توينبى

لم يعرف التاريخ البشرى فترة لم يكن فيها الدين مؤثراً تأثيراً إيجابياً فى حياة الإنسان : يقول جوستاف لوبون [1] إن « أول المسائل الأساسية فى الأزمان الغابرة ، وفى الأزمان الحاضرة المسائل الدينية ، ولو أن الإنسانية رضيت بموت جميع آلهتها لكان هذا الحادث أعظم الحوادث التى تمت فوق وجه الأرض منذ ظهور المدنيات الأولى .

لا ينبغى لنا أن ننسى أن جميع الأنظمة السياسية والاجتماعية قامت منذ بداية التاريخ على معتقدات دينية ، وأن الآلهة هى التى لعبت أكبر دور فى الحياة الإنسانية ؛ وأن الدين أسرع مؤثر فى الأخلاق لا يدانيه مؤثر اللهم إلا الحب : والحب دين إلا أنه دين ذاتى غير دائم .

والسبب فى قوة الدين العظيمة كونه العامل الوحيد الذى تتوحد به وقتاً ما منافع الأمة ومشاعرها وأفكارها ، فيقوم المبدأ الدينى بذلك دفعة واحدة مقام غيره من العناصر التى يتكون منها روح الأمة .

نعم لا يتغير مزاج الأمة العقلى بمجرد استيلاء دين على قلبها ، غير أن جميع القوى تتجه نحو غاية واحدة هى الانتصار للمعتقد الجديد وفى ذلك سر قوتها العظمى : لذلك نجد أن قيام الأمم بأعظم الأعمال كان فى عصر هذا التطور الوقتى أعنى عصر تدينها ، وتأسيس أكبر الممالك التى أدهشت العالم كان فى عصر تدينها .

كذا اتحدت بعض قبائل العرب « بفكرة » محمد صلى الله عليه وسلم ، فاستطاعوا قهر أمم كانت لا تعرف منهم حتى الأسماء ، وشادوا تلك الدولة الكبرى .

والذى يجب الالتفات إليه قوة تمكن المعتقد فى النفوس لا حقيقة المعتقد . لذلك ساد أتباع محمد « صلى الله عليه وسلم » وامتد سلطانهم على قسم كبير من الدنيا زمناً طويلا .

وقد اعترف المؤرخ البريطانى هـ . ج . ويلز بدور الدين فى التاريخ « فالدين شىء نما مع قيام الترابط والاجتماع الإنسانى كما نما بفضله ، كما أن الله قد كشفه للإنسان ولا يزال يكشفه » : وهو يشير إلى أن « بدايات الحضارة وظهور المعابد شيئان متلازمان متآنيان على كر التاريخ . فالأمران يسيران جنباً إلى جنب ، وبداية المدن هى مرحلة المعبد فى التاريخ » .

— يرد أرنولد توينبى الحضارات إلى الأديان ، ذلك أن الامبر اطوريات ليست هى مقياس الحضارة ، على العكس إنها تمثل بداية مرحلة انهيار الحضارة ، إذ تعمد الأقلية المسيطرة إلى التوسع حين تفقد مقومات الإبداع ، وهى لا تحمل إلا سلاماً مؤقتاً ولا تقدم حلولا جذرية لمشكلات مجتمعاتها ، على عكس ذلك الأديان ، إذ وراء كل حضارة من الحضارات القائمة اليوم ديانة عالمية ، فالعقائد الدينية هى التى تسير مجرى التاريخ وإذا كان هناك مستقبل لحضارة ما فذلك فى حدود الدين وبسبب منه .

---

(١) جوستاف لوبون : سر تطور الأمم ، ترجمة أحمد فتحى زغلول ، ص ١٥٥ .

إن الأديان تظهر بين الجماهير وهى وإن احتاجت إلى حماية الدولة لها من أجل استكمال دورة حياتها فإن ذلك لا يعنى اطلاقاً إمكان أن تنبثق الأديان من بين السلطة الحاكمة أو أن يفرض الحاكم دينه على الرعية ، وكل محاولة لفرض دين أو مذهب عقائدى أو دينى فهى ليست فقط مكتوباً عليها الإخفاق — وإن نجحت مؤقتا — إلا أنها تعد عقبة فى سبيل انتشار الدين أو المذهب ، دين الرعية أى أن يدين الملك بدين رعيته ففى ذلك قوة للدين والدولة معاً أما أن يجعل الرعية على دينه هو فذلك ما لا يتم [1] .

وإذا كان ذلك هو دور الأديان العالمية بالنسبة لحضارات الماضى فما هو دورها فى الحضارات المعاصرة حيث لا مجال لظهور ديانات جديدة ؟

يرى توينبى أن الصراع كان قائماً فى الماضى بين الدين والفلسفة ، وإن حاول بعض الفلاسفة التوفيق بينهما ، أما الصراع الحالى فبين الدين والعلم [2] ، ولا يعنى ذلك محاولة التوفيق بينهما ، وإنما أن يسلم الدين للعلم جميع المجالات التى هى من اختصاص الأخير ، على أن ذلك لا يعنى إمكان الاستغناء عن الدين بالعلم ، فان انتصار العلم على الدين انتصاراً ساحقاً يشكل كارثة على العلم والدين معاً ، إن أخطر كارثة يواجهها العالم اليوم أن الجماهير — خصوصاً الغربية — قد استعاضت عن الفراغ الدينى بأيديولوجيات

---

(١) يذكر توينبى فى هذا الصدد نصيحة أحد مستشارى الإمبراطور سلف أكبر (ت ١٦٠٠ م) من أباطرة المغول : إن الدين والشريعة ليسا من مهام الملوك ولن تكون كذلك .

وحاول أحد رجال حكومة الإدارة إبان الثورة الفرنسية وضع دين جديد بدلا من المسيحية فاعترض وزير الخارجية يومئذ بقوله : إن يسوع المسيح لما وضع دينا « صلب » ثم بعث من بين الأموات ويجب أن تسعى أن تكون كذلك أى أن تترك صفوف الحكم لتعتنق العمل كنبى من « البروليتاريا » .

وقد أخفقت المذاهب والأديان التى حاول الحكام فرضها على رعاياهم : اخناتون مع سحر عقيدته فشل لأنه ملك ولو كان كاهنا لوفق إلى النجاح فى دعوته .

أخفق الخليفة العباسى المأمون فى حمل الناس على فكرة خلق القرآن .

هذا بالطبع غير حماية الدولة لدين قد فرض وجوده ثم اعتنقته الدولة مثل حماية الأكاسرة لدين زردشت أو اعتناق الإمبراطور قسطنطين للدين المسيحى .

« ٢ » يحث الإسلام المسلم على طلب العلم ، قال الله تعالى : « اقرأ باسم ربك الذى خلق . خلق الإنسان من علق . اقرأ وربك الأكرم ، الذى علم بالقلم ، علم الإنسان مالم يعلم » .

ويقول الرسول (ص) : « طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة » .

وآيات القرآن التى تدفع الإنسان — بطريق مباشر أو غير مباشر — إلى تحصيل العلم فى صوره المختلفة — سواء فى صورته النظرية العقلية ، أو صورته الواقعية ، أو صورته التجريبية — كثيرة ومتنوعة .

قال الله تعالى : « وفى أنفسكم أفلا تبصرون » . « وفى السماء رزقكم وما توعدون » « وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس » .

لا تفترق عن الأديان البدائية من حيث وثنيتها حيث عبادة الذات وإن تسترت تحت ستار القومية أو الإشتراكية ـ متمثلة فى تأليه الدولة أو الحاكم ، الذين يعتبرون الأديان سرطانات مخطئون فان السرطان الحقيقى هو أن تحل الحضارات أو الأيديولوجيات السياسية محل الأديان لأن تحل الأديان محل الأيديولوجيات ، إن سيطرة الإنسان على الطبيعة لأقل أهمية للإنسان من إثراء الجانب الروحى فيه ، وإن ما نقوله اليوم ليس إلا ترديداً لما أعلنه سقراط منذ أكثر من ألفى عام : حين أعرض عن دراسة الكون للبحث فى داخل الإنسان عن تلك الطاقة الروحية الكامنة فيه ؛ إنه لا أمل فى استقرار السلام أو طمأنينة الإنسان إلا بالاستناد إلى الدين ؛ إن التاريخ يصبح قصة عابثة يرويها أبله إذا لم يكتشف الإنسان فعل الله الواحد الحق [1] .

ونحن إذا قلبنا صفحات التاريخ ، وتأملنا فى نظم الأقدمين ، دون أن نمعن الفكر فى معتقداتهم ، فسنرى هذه النظم غامضة أشد الغموض ، ولا تفسير لها : لماذا وجد البطارقة [2] ، والسوقة ، والأولياء ، والموالى ، والنسباء ، والوضعاء ، ومن أين أتت تلك الفوارق التى تولد مع الناس ولا تمحى ؟ .

وكيف تفسر الغرائب فى القانون القديم ؟

وماذا كان يراد بالحرية التى يتكلمون عنها دائماً ؟

وكيف حدث أن أنظمة تبعد كل البعد عن كل ما نفهمه اليوم استطاعت أن تظل قائمة وأن تسيطر زمناً طويلا ؟

وما هو المبدأ الأعلى الذى جعلها تسيطر على نفوس الناس ؟

ولكن لنضع المعتقدات الدينية قبالة هذه النظم ، فسرعان ما تصبح الوقائع أكثر جلاء ويعرف تفسيرها من تلقاء نفسه .

أما إذا ارتقينا إلى العصور الأولى للجنس البشرى ، أى إلى الزمن الذى أسس فيه الإنسان أنظمته ، وأخذنا فى الاعتبار الفكرة التى كونها الإنسان وقتئذ عن الكائن البشرى ، عن الحياة ، وعن الموت ، وعن الحياة الأخرى ، وعن الجوهر الإلهى ؛ فاننا نلحظ صلة وثيقة بين هذه الآراء ، وبين قواعد القانون العتيقة ، وبين المشاعر المشتقة من هذه العقائد ، وبين النظم السياسية » .

كان الدين سبباً فى قيام الحضارات ، فقد شاد الناس القصور للآلهة قبل أن يقيموها للملوك ، وما احتياج الناس الراسخ القوى المتين إلى الدين ، إلا مظهراً من مظاهر الطبيعة الإنسانية .

كما كان الدين سبباً فى تكوين الوحدات السياسية والدينية الكبرى ، فقد كان المعتقد القائل بآلهة ذات قدرة محدودة نتيجة حتمية لتعدد الآلهة .

فلم يكن لأى من هذه الآلهة نفوذ مماثل لنفوذ بقيتها ، فكان هناك مثلا تحت الثالوث المؤلف من أقوى الآلهة جوبيتر وجونون ومنيرفا ، آلهة صغيرة ، ذات قدرة محدودة .

---

(١) فى فلسفة التاريخ ؛ ص ٢٧٨ .

(٢) فوستيل دى كولنج : المدنية العتيقة ، ترجمة عباس بيومى وعبد الحميد الدواخلى ، ص ٣ ، ٤ .

وقد اكتسبت بعض المدن مركزاً ممتازاً بفضل شهرة آلهتها ، إذ ذاع صيت بعض الآلهة المحليين كآمون فى طيبة ، وشماس وسيبر فى بابل ، ولما كان الرئيس الأعظم للمدينة أو الإله الأعظم لا يقبل منافسين له ، فقد نشأ عن ذلك تطورات لها أهميتها . إذا اعترف بعض الرؤساء والآلهة المحليين بسيادة الحاكم الأعظم أو الإله الأعظم ، فتركز الدين لهذا السبب .

بهذه الطريقة كان القطر يصبح كله وحدة سياسية ودينية كبرى ، مؤلفة من وحدات صغرى ، ويفسر هذا التطور كيف أصبح لبعض الرؤساء والآلهة فى بعض الأحيان ، وظائف خاصة بعد أن كانت وظائفهم جميعاً متشابهة بعض الشبه أو كله . وكانت الوحدات المحلية تسترد استقلالها السياسى والدينى كلما تفككت وحدة النظام الكبرى [1] .

كان للدين تأثير عميق فى حياة الإنسان مذ وجد على ظهر الأرض . يصف جوستاف لوبون أثر الدين فى مصر القديمة فيقول [2] : « وكانت الديانة عندهم أسوة بجميع الشرقيين وخاصة الهنود ، لها دخل فى جميع أعمال حياتهم العامة والخاصة فيجدها الإنسان حتى فى الكتابات التافهة وفى الأوامر الصحية وأوامر البوليس » .

والواقع [3] أنه لا توجد قوة أثرت فى حياة الانسان القديم مثل قوة الدين ، لأن تأثيرها يشاهد واضحاً فى كل نواحى نشاطه ، ولم يكن أثر هذه القوة فى أقدم مراحلها الأولى إلا محاولة بسيطة ساذجة يتعرف بها الإنسان ما حوله فى العالم ويخضعه بما فيه الآلهة لسيطرته ، فصار وازع الدين هو المسيطر الأول عليه فى كل حين ، فما يولده الدين من مخاوف هى شغله الشاغل ، وما يوحى به من آمال هى ناصحه الدائم ، وما أوجده من أعياد هى تقويمه السنوى وشعائره — برمتها — هى المربية له والدافعة له على تنميته الفنون والآداب والعلوم .

على أن الدين لم يمس حياته فى جميع نواحيها فحسب ، بل الواقع أن الحياة والفكر والدين امتزجت عنده بعضها ببعض امتزاجاً لا انفصام له يتكون منها كتلة واحدة تتداخل بعضها فى بعض مؤلفة من المؤثرات الخارجية والقوى الإنسانية الباطنة . ولذلك كان طبيعياً ألا يقف الدين جامداً من غير أن يتمشى مع هذه العوامل الدائمة التطور من مرحلة إلى مرحلة .

لما كان التفسير المادى للتاريخ [4] الذى قال به كارل ماركس وأنجلز يفسر دائماً الناحية المعنوية فى المجتمعات بأنها تقوم على أساس تركيبها المادى ، ولما كان يجعل الحاجة الحيوانية محوراً للتطور الإنسانى فقد كان هذا هو السبب نفسه فى تفسيره الدين بأنه مجرد ظاهرة عرضية لا أهمية لها من الوجهة الإجتماعية . وقد كتب أحد أتباع ماركس ، فقال : « ماكان للدين أو الفلسفة أن يوجدا دون الشروط الاقتصادية التى تجعل ظهورهما أمراً ممكناً » . فما كان للمسيحية أن توجد دون الانقلاب الذى صحب

---

(١) الدكتور أحمد عبد القادر الجمال : مقدمة فى أصول النظم الاجتماعية والسياسية ص ٦٧ .

(٢) جوستاف لوبون : الحضارة المصرية ، ترجمة م . صادق رستم ص ٤٩ .

(٣) جيمس هنرى برستيد : فجر الضمير ، ترجمة الدكتور سليم حسن ، ص ٣٦ .

(٤) روجيه باستيد : مبادئ علم الاجتماع الدينى ، ترجمة الدكتور محمود قاسم ص ٢٠٥ — ٢٠٨ .

الفتوح الرومانية ، وما كان للمذهب البروتستانتي أن يوجد دون نشأة الطبقة المتوسطة . ويرى هذا المذهب بصفة خاصة جداً أن نظام توزيع الأراضي يلعب دوراً هاما ، ويفسر بعض الظواهر التي يبدو عليها غلبة الطابع الصوفي لأول وهلة مثل النبوات لدى اليهود أو مجيء المنقذ لدى المسيحيين . وهكذا لا تعكس أصول العقيدة والمعتقدات سوى المصالح الحيوية للطبقات الاجتماعية ، وسوى المنازعات الدينية والصراع بين هذه المصالح أو بين هذه الطبقات .

إن الظاهرة المضادة هي التي تحدث في أكثر الأحيان وذلك منذ الأزمان سحيقة البعد ، فتطور الدين هو الذي يغير النظام الاقتصادي لدى الشعوب .

وسنبين ذلك ببعض الأمثلة :

لقد وضع « جيفونس » و « فريزر » و « ريناخ » فرضاً يفسرون به أصول استئناس الحيوان ، وهو الفرض الذي يربط بين استئناس الحيوان وبين الديانة التوتمية . ففي الواقع لما اكتشف الهولنديون أستراليا كان أهلها يجهلون « ظاهرة » استئناس الحيوان . وقبل الكشف الأوربي لم يكن أهل أمريكا يعرفون من الحيوانات المستأنسة سوى حيوان « اللاما » . ومع هذا فانا نعلم عن طريق الكشف عن المغارات والمدن المشيدة على شواطىء البحيرات أن الناس قد استأنسوا الكلاب والثيران منذ زمن بعيد . فكيف كان هذا الأمر ممكنا ؟

من البديهي أنه كان من الضروري أولاً أن توجد حيوانات وحشية يمكن استئناسها كالخيل والماعز والأغنام . وفي البلاد التي لم تكن هذه الحيوانات موجودة فيها كأمريكا لم يكن من الممكن أن توجد ظاهرة استئناس الحيوان .

أما في البلاد التي توجد فيها فقد كان من الضروري أن يمر الإنسان بتجارب طويلة حتى يستطيع التمييز بينها وبين الحيوانات التي تظل عصية على الاستئناس .

وفيما عدا هذا فما كان من الممكن أن ينجم الاستئناس عن الصيد مباشرة ، لأن الصائد الجائع يقتل جميع الحيوانات التي يمكن أن تقابله . وقد كان من الضروري أن توقفه خشية خرافية حتى يقلع عن هذه المجزرة . ومن ثم « فالتابو » وحده هو الذي يكف يده . وحينئذ فما الحيوانات المحرمة ؟ إنها الحيوانات التوتمية فبدلا من أن تقتل الشعوب الهمجية هذه الحيوانات نرى ، على عكس ذلك أنها تحاول الاحتفاظ بها على مقربة منها ، وتعمل على تربيتها ، لأن هناك رباطاً خفياً يربط بين حياة العشيرة ورخائها وبين حياة توتمها . وهكذا يمكن تفسير نشأة استئناس الحيوان . ويبدو هذا الفرض مقبولا .

ويرى « مينهوف » أن استئناس الحيوان كان يهدف في بادئ الأمر إلى ضمان بقاء الفصائل النافعة في القرابين التي تقدم للآلهة . ومن المحتمل أن يكون الناس قد حاولوا استئناس جميع الحيوانات في أول الأمر (كما تدل على ذلك الصور البارزة في الآثار الأسيوية التي تبدو فيها عربات تجرها أسود) . وفيما بعد فرقوا شيئاً فشيئاً بين الفصائل الحيوانية عن طريق استخدامها . فتربي قبائل الجالا (جنوب أثيوبيا) الديوك من أجل القرابين لا غير . فلا يأكلونها أبداً كما لا يأكلون الدجاج والبيض أبدا . ويعد حلب

البقر عيداً دينياً لدى قبائل ال « ليورو » ولا يقام هذا العيد إلا مرة واحدة كل سنة ، فهو طقس ديني يشترك فيه الجميع ويحتفظ باللبن أولا للكهنة وللملوك الإلهية كشراب صوفى : وفى كل حال ترجع ظاهرة استئناس الحيوان دائما إلى أصل دينى ، مهما تكن طبيعة الغرض الذى يرتضيه المرء .

ويبدو « لجرانت ألين » و « منهوف » أن الأمر كان كذلك بالنسبة إلى الزراعة أيضاً : فالبدائيون لا يقلبون باطن الأرض ظاهرها إلا عندما يدفنون الموتى ، ثم ينثرون على الأرض بعد قلبها مباشرة بعض البذور البرية كطعام معد لغذاء الجثة ، ثم يسكبون الماء أو الدم المراق أو اللبن : ويساعد تحلل الجثة والأسمدة المراقة فى إنبات البذور وفى إزدهار النبات : فكأن أرواح القدامى تشكر الأحياء على أعمالهم التقية .

وهذا هو السبب فى أن زراعة « البطاطا » فى بولينيز ياتبدو على هيئة القبور وبالتدريج يزدهر النبات البرى ويطغى على القبر .

وهكذا تنشأ زراعة الأرض عن عبادة الأسلاف بطريقة مباشرة .

وتؤدى الظاهرة الدينية المسماة « البوتلاتش » إلى تركيز الثروة فى أيدى الرؤساء ، وأن النظام الهندى الخاص بتحديد وظائف الطبقات يرجع إلى أسباب دينية ، وأن الهيئات النقابة الإغريقية مثل نقابات الحطابين وتجار الخشب ونقابات صناع المعادن كانت طوائف للسحرة فى أول الأمر. فبدلاً من أن نعد الدين مجرد ظل للحياة الاقتصادية يجدر بنا أن نقول بأن الدين هو الذى يسبق التغيرات الاقتصادية فى أكثر الأحيان .

ولقد مرت القرون منذ ذلك الحين وبقيت هذه الفكرة صائبة على الدوام : فقد بين كثير من الاقتصاديين مثل « دولاڤيلى » أن رخاء الشعوب يتوقف على عقائدها ، وعندما يرى المرء أن البروتستانتيين اللاتينيين يتفوقون على الشعوب الجرمانية الكاثوليكية ، وعندما يلاحظ أن تقدم البروتستانت أكثر سرعة واطراداً من الكاثوليك فى نفس البلد وفى نفس الجماعة ومن نفس اللغة والأصل : فمن العسير جداً ألا ينسب تفوق هؤلاء على أولئك إلى طبيعة العقيدة التى يؤمن بها كل منهم .

ومع ذلك فبعد أن قرر « ماكس فبير » — على خلاف التفسير المادى للتاريخ — أن الإصلاح البروتستانتى لم يكن ظلا لظهور الطبقة الوسطى ، أبرز على ضوء الإحصاءات وجود علاقة بين المذهب البروتستانتى والنظام الرأسمالى فى أسمى درجاته : وإذن فالحل الوحيد الذى يبقى أمامنا هو أن نقول بأن النظام الرأسمالى كان بالأحرى إحدى نتائج المذهب البروتستانتى : وليس معنى هذا أن البروتستانتى يفوق الكاثوليكى فى اتجاهه المادى فإن « للمتطهرين » (١) فكرة تقوم على التشاؤم من هذا العالم والزهد فيه . ولكن لما كان الزهد يحفز إلى الاقتصاد فقد ساعد على تركيز رؤوس الأموال : وهكذا استخدم على نحو غريب كدعامة للنظام الرأسمالى أضف إلى هذا أن البروتستانتى لما كان يتخذ عمله المهنى سبيلا إلى تحقيق سعادته الأخروية فإنه يؤدى عمله على أكمل وجه طبقاً لما يوحى به إليه ضميره ، وهكذا يصبح مديراً صناعيا ممتازا .

---

(١) المتشددون فى التمسك بحرفية الكتاب المقدس .

وفيا عدا هذا لم يقف « ماركس فيبر » عند حد دراسة العلاقات بين المذهب البروتستانتي والنظام الرأسمالي : لأن بعض البحوث الأخرى ، وبخاصة فيا يتعلق بالاقتصاد الهندي والصيني أكدت له وجهة نظره الخاصة ، وهي أن النظام الرأسمالي الذي يبدو للوهلة الأولى أنه لا يرجع إلا إلى أصول مادية يحتاج في نشأته ونموه إلى بيئات دينية ملائمة : ويبرهن في هذا المثال بوضوح على وجود علاقة وثيقة بين النظم الدينية والاقتصادية ، ويدل بصفة خاصة على تأثير النظم الأولى في النظم الثانية (١) :

كان الدين هو العامل على إنشاء الحضارات ، وإقامة المدنيات على مدى التاريخ .

يقول المؤرخ البريطاني أرنولد توينبي : عندما (٢) استطاع الإنسان السيطرة على أحواض الأنهار الكبرى وعلى الأحراش والمستنقعات ومياه الفيضانات وجعل نفسه سيداً للطبيعة غير البشرية ، ثم عندما استطاع تطويع أحواض الأنهار فالسيطرة على مياهها وتحويلها من براري غير منتجة إلى أكثر المناطق انتاجاً على سطح الأرض لصالح الإنسان ، وكان هذا النصر الاجتماعي نصراً عظيماً لقوة بشرية جماعية ومنظمة حتى لقد غير الإنسان معبوداته فبدلا من أن يتخذ آلهته الرئيسية من الطبيعة غير البشرية اتخذ له آلهة من قوته وقدرته هو :

ولا جدال في أن الإنسان حينما تعود على عبادة قوته الجماعية ، لم يكف عن عبادة الطبيعة غير البشرية ، ولكنه ألحقها بعبادته للقوى البشرية الجماعية التي تمثلت في كيان الدولة .

وكانت تلك هي المرحلة من تاريخ العقيدة الإنسانية التي أصبحت فيها الدولة معبودة مثل الآلهة :

ويمكن أن نرى ذلك بوضوح في تاريخ مصر القديمة وذلك لأن فرعون كان ينظر إليه علانية وبوعى كامل على أنه إله تتجسد فيه كل القوى الخيرة في الدولة أي القوى التي وحدت مصر وأخضعت لسيطرة الإنسان الواحد جميع أعمال الري في وادي النيل وفي الدلتا . وفي العراق — أي في سومريا القديمة وبابل ، فإن الإنسان كان يعبد الدولة فعلا منذ سخر بعض آلهة الطبيعة القديمة لتكون رمزاً للدويلات المحلية .

وقد فعل اليونانيون القدماء ذلك فيما بعد ، فمثلا كان للأغريق آلهة لشجرة الزيتون وهي « أثينا » واختار أهالي مدينة أثينا الآلهة أثينا لتصبح آلاهتهم المحلية التي يتمثل فيها قوة ومجد أثينا .

وكان أيضاً عند الأغريق آلهة البحر « بسيدون » وقد اختار أهالي مدينة كورنيت ، وكانت لها قوة بحرية عظيمة ، هذا الإله لكي يكون إله مدينتهم .

وكان هذا التحول من عبادة قوى الطبيعة غير البشرية ، إلى عبادة القوى الإنسانية الجماعية ، كان ثورة دينية .

لقد كان هناك اعتقاد بأن القوى غير البشرية المقدسة هما جزءان أو مظهران لنظام كوني موحد : واعتقد أنه كان من الممكن في نظر الإنسان ، كلما كان من المرغوب فيه المحافظة على قوى الطبيعة وقوى المجتمع البشري في حالة انسجام مع بعضهما البعض ، فلم يكن فرعون مصر أو امبراطور الصين مجرد ممثلين أو ما لكين للمجتمع البشري ، الذي كان يرأسانه ولكن كان كل منها أيضاً المحافظ على القوى الطبيعية التي تعتمد عليها حياة ووجود ذلك المجتمع البشري :

(١) المصدر نفسه : ص ٢١١ — ٢١٢ .

(٢) محاضرات أرنولد توينبي في مصر — ديسمبر ١٩٦١ — كتب ثقافية .

وإذا كنت على صواب فان أحد الاحتفالات السنوية الهامة التى كان يقيمها فرعون – والتى كان يقيمها بعد انتهاء التاريخ المصرى القديم حكام مصر اللاحقون حتى الحكام الأجانب منهم فترة طويلة بعد ذلك ، هو الاحتفال بالفيضان أو وفاء النيل ، وهو يدل على أن سيد المجتمع الإنسانى مسئول أيضاً عن التحكم فى قوى الطبيعة .

وفى مرحلة التحول الدينية هذه كانت هناك قوة دينية سياسية وحيدة تحافظ على الإنسجام بين عبادة الطبيعة وعبادة الإنسان .

وقد تزعزع تصور الإنسان لطبيعة الكون وما ينبغى أن تكون عليه أهداف الدين من جراء الفشل السياسى الذى بدأت به الحضارة مستقبلها فى أحواض الأنهار . فقد أصبحت الدول – نتيجة لذلك – موضوع العبادة الأول .

ولذلك لم يكن الفشل السياسى مجرد فشل سياسى ، لقد كان أكثر من ذلك كان فشلا دينياً ، وكان الإنسان يشعر بأنه فشل دينى .

وهكذا نجد أن فشل الدويلات السومرية ، وفشل الدولة المصرية العالمية أدى إلى خيبة أمل دينية ، كما أدى إلى خيبة أمل سياسية .

وقد كان من السهل نسبياً بعد فترة قصيرة نوعاً من الاستبداد إعادة بناء الكيان السياسى القديم ، ولكن لم يكن من السهل إعادة ثقة بنى البشر بكفاية هذه الأنظمة السياسية فى مجال الدين أو فى مجال السياسة ، فلم يعد بنو البشر يشعرون بالرضى الكامل لعبادة القوة البشرية الجماعية وكذلك لعبادة القوى ذات الطبيعة غير الإنسانية . وعندما بلغت متاعب الإنسان الخاصة وهى المتاعب التى يلقاها كل منا فى حياته القصيرة فوق هذه الأرض ، حد الأزمة : أقول عندما بلغت هذه المتاعب هذا الحد وزادت من جراء المتاعب العامة المؤقتة شعر الإنسان بحاجته إلى المعونة الإلهية أكثر من ذى قبل .

وعندما نشأت فى مصر فى أول تاريخها فكرة إيجاد حكومة مركزية يرأسها حاكم واحد هو الملك ، لقى ملوك الأسرتين الأولى والثانية الصعاب فى تحقيق هذه الوحدة تحقيقاً مادياً طوال تلك القرون التى عاشتها هاتان الأسرتان ، ولذلك عمد أصحاب الوحدة إلى القول بأن مصر لم يكن يحكمها رجل من الصعيد ، أو آخر من الدلتا ، ولكن الذى يحكمها هو « إله » تتمثل فيه « القوى » التى تهيمن على كل من القطرين هو « حوريس » الصقر ، إله السماء ، وهو الذى اتحدت فى شخصيته الإلهتان « نخبت » ربة مصر العليا ، و « واجيت » ربة مصر السفلى ، بل لقد ادعى الملك أنه الإبن الشرعي لإله الشمس « رع » وهم أعظم الآلهة جميعاً . وقد نجحت هذه الفكرة واستقرت فى نفوس الناس وأخذوا يعتقدون أن هذا الفرعون الذى يجلس على عرش مصر لم يكن إنسانا زائلا ، ولكنه كان هو إله قوى قادر .

كان الملك بصفته إلها هو الدولة ، وهو البؤرة التى تتجمع فيها كل الخيوط التى تهيمن على شئون الحكم فى البلاد . لقد كانت كلمته هى القانون ولكن هذا القانون كان خاضعاً للرضاء الإلهى ووظيفته كإله ، ثم لتلك الفكرة التى عبروا عنها بكلمة « ماعت » والتى تعنى الصفة الطيبة للحكم الصالح أو الادارة الصالحة ، هى « الحق » و « العدل » و « النظام » . هى ذلك الشىء الذى نبع من عالم الآلهة وأصبح بمثابة

المنظم للظواهر التي تم خلقها على سطح الأرض ، إن الملك الإله يتمسك بأهدابها ويقدمها كل يوم للإلهة التي تسكن السماء كبرهان على أنه ينوب عنهم في وظيفته الإلهية في حدود « الماعت ».

وكان لهذا التقديس أثره العميق في توطيد نظام الملكية في مصر وتثبيت دعائمها[1]. حرص المصريون على الثقافة للدين والدنيا معاً ، واعتبروها أفضل سبيل إلى كرامة المنصب وحسن السمعة ، وقد أرجع أنصار هذه العقيدة إلى أصل ديني ، وردوها إلى معبود كريم أسموه « تحوتي » ونسبوا إليه أنه هدى الناس إلى أسلوب الكلام ، وأسلوب الحظ ، ووهب النجاح لمن اتبع هديه من أهل العلم والعرفان .

ونسبوا الكتابة والحساب إلى ربة أخرى سموها « ستات » أي الكاتبة ، وادعوا أنها كانت أول من خط بالقلم ، وأول من حسب [2] .

وقد نشأ الفن المصري في أحضان الدين ، فكانت التماثيل في المعابد المصرية تمثل الإله نفسه ، في خلوده وجلاله وتساميه ، وعزلته عن الناس .

وحرص الفنان المصري على إضفاء طابع الرزانة والوقار على صور الملك والأرباب ، وأن تتجلى عظمة المباني في بساطتها وضخامتها معاً .

وإلى الدوافع الدينية ترجع إقامة التماثيل في المقابر ، وتماثل حقيقة أصحابها إلى حد بعيد . وكان احترام الموتى فرضاً أساسياً عند المصريين وهذا معنى جهد الفنان في إضفائه على عمله . وإذا كان الفنان مقيداً في نحت التماثيل وتشييد المعابد بنمط خاص ، فإنه وجد في زخرفة جدران المعابد والمقبرة ما يشبع رغبته في عرض موهبته وإظهار إحساسه بجمال النسب وروعة الألوان .

وكان أساس زخرفة التماثيل في المعابد مناظر الطقوس الدينية وصور الآلهة ، أما في المقابر فقد أطلق الفنان لمهارته العنان ، فأخذ يصور على جدرانها مشاهد دقيقة تفصيلية تتسم بالروعة لحياة أصحابها الدنيوية [3] .

كانت معتقدات الإنسان [4] في عالم الغيب سبب اختراع فنون التحنيط ونحت التماثيل والعمارة . ذلك أن حرص الأقدمين على حفظ جسم الميت ، ورغبتهم في عمل صورة شبيهة به في حياته ، وإقامة المباني لوقاية هذا الجسم ولتسهيل إقامة الطقوس اللازمة لإعادة الحياة إلى الميت وتغذيته بعد عودته إليه . إن هذا الحرص وهذه الرغبة هما اللذان أوحيا بهذه الفنون المختلفة ، بل إن الذي بعث في نفوس الأقدمين الرغبة في ركوب البحر وبناء السفن التي تجوب عباب البحر هو حاجتهم إلى الراتنج والبخور والأخشاب التي يحتاجونها في هذه الأغراض ، سعياً منهم وراء الأمل في الخلود الذي ظن المصريون الأقدمون منذ أكثر من خمسين قرناً أن في مقدورهم أن يحققوه بجعل الجثة غير قابلة للعطب ، وباتخاذ الوسائل السحرية لإعادة الحياة إليه .

---

(١) وزارة الثقافة والإرشاد القومي : تاريخ الحضارة المصرية ، العصر الفرعوني ص ١١١ .

(٢) المصدر نفسه : ص ١٠٨.

(٣) فؤاد محمد شبل : دور مصر في تكوين الحضارة ، ص ٨٢ .

(٤) الدكتور أليوت سمث : فكرة الإنسان عن خوارق الطبيعة وأثرها في تطوره ، تاريخ العالم ، المجلد الأول ، ص ٣٦٨ — ترجمة الأستاذ محمود إبراهيم الدسوقي .

ولقد كانت الطقوس الدينية التي يزعم الأقدمون أنها تؤدى إلى حدوث خوارق الطبيعة منشأ التمثيل والرقص ، والموسيقى ، ومعظم الألعاب التي يتألف منها القسم الأكبر من ضروب التسلية فى هذا العصر . وليس الرقص إلا بقية من الطقوس التي يتوصل بها إلى أغراض سحرية .

ولعبة شد الحبل — مثلا — نراها منقوشة على جدار قبر مصرى بنى منذ أكثر من ثلاثين قرنا ، على أنها عراك مقدس بين مندوبين عن الوجهين القبلى والبحرى بغية الحصول على جثة الملك المحنطة . وما زالت نفس الفكرة فى جوهرها باقية إلى يومنا هذا فى « بورما » حيث يشد الحبل أثناء جنازة الراهب ليعرف أى الطرفين ينال شرف وضع الجثة على كومة الحطب لحرقها .

وكان شد الحبل بين عوامل الخير والشر فى بلاد الهند هو الوسيلة التي يستخرج بها أكسير الحياة ، أى الغذاء المقدس الذى تطعم به الآلهة لتخلد ، ونجد هذه الصورة أيضاً فى اليابان وفى أمريكا الوسطى .

ومعظم ألعاب المهارة مثل كرة القدم ولعبة الكركت والتنس والبولو لها صلة وثيقة ما زالت قائمة مع الكنائس والحفلات الدينية فى أوربا ولكننا إذا رجعنا بتاريخ هذه الألعاب إلى أبعد من هذه العهود وجدناها هى نفسها فى صورة مباريات بين الملوك ، وتكون الممالك من نصيب الفائز فيها : وإذا رجعنا إلى أبعد من ذلك فى عهود التاريخ وجدنا جزاء الفائز فيها هو الخلود ، ذلك أنه يصير ملكاً ، ومن ثم يصبح إلها .

* * *

وفى نهاية الدولة القديمة قام الشعب المصرى بثورة ، كان من جرائها انقلاب الأوضاع التي سارت عليها البلاد منذ عهد مينا . فقد ساد البلاد الفوضى فلم يعد هناك نظام سائد أو قانون مطبق ، وانتشر القحط ، وعم الانحلال الخلقى ، كما ساد عدم المبالاة بالتقاليد الدينية والمعتقدات الموروثة : وقد انتهت هذه الثورة بأن قسمت البلاد إلى مملكتين إحداهما فى الجنوب وعاصمتها طيبة ، والأخرى فى الوسط وعاصمتها أهناسيا المدينة ، وقامت بينهما حروب طاحنة انتهت بانتصار طيبة .

وهذه الثورة لم تكن ثورة سياسية وحسب ، بل كانت دينية إلى حد بعيد ، إذ أن أول نتيجة للتطور الاجتماعى السياسى الذى حدث فى مصر كان فقدان سلطان الفرعون وهيبته فى عين الشعب ، واعتبر الجم الغفير من عظماء رجال الدولة أن المصير الملكى فى عالم الآخرة لم يكن وقفاً على الفرعون وحسب ، بل أصبح منذ الثورة مصيراً مشتركاً حتى لكل أولئك الذين لم يكن فى يدهم ظل من السلطة .

وقد تمثل لنا بصورة محسة نتائج هذا الانقلاب الدينى فى الكتابات التي وجدت على توابيت هذا العصر التي أصبحت ميزة خاصة به ، وتدل كتابات هذه التوابيت عن مقدار ما ناله الشعب من حقوق دينية لم يكن يتمتع بها إلا الفرعون وحاشيته ، على أنه قد أضيف إليها تعاويذ أخرى سحرية أراد المتوفى أن يحصل بها على حياة سعيدة .

كانت هذه الثورة ، هى ثورة الشعب على من ظلموه ، وحادوا عن تعاليم ماعت « الحق والعدل والصدق » وقد أعلت من شأن الفرد ، وأعلنت أن كل إنسان مسئول عما قدمت يداه من خير أو شر ، بل عن حسن نيته أو سوئها وأنه سيحاسب وسيجازى أمام الإله الأعظم على ذلك ، دون نظر إلى فقره أو غناه ، ودون اعتبار لقبر يشيده أو أوقاف يتركها ليستغلها الكهنة عندما يتلون الصلوات أو يقدمون لروحه قرابين صورية يستفيدون منها دون غيرهم .

وقد استمرت ثورة الشعب أكثر من قرن من الزمان إلى أن عاد قانون « ماعت » الذى وضعه الإله « رع » عندما خلق الدنيا — أى العدالة المطلقة على يد ملوك الدولة الوسطى .

وكان المصريون يعتبرون أن الإله آمون هو ناصر الفراعنة فى حروبهم وبعونه فحسب يستطيع الملوك أن يدمروا المدن ويفتكوا بالأعداء .

ولعل هذا المعنى يبدو واضحاً فى الكلمات التى سجلها تحوتمس الثالث ، القائد العسكرى المغوار الذى سجل أهم انتصارات أحرزها ملك من ملوك الفراعنه ، سجلها على جدران معبد الكرنك على أنه تلقاها من آمون رع العظيم :

« إن قلبى ينشرح بمجيئك إلى معبدى ، وتمنح يداى أعضاءك الحماية والحياة .
ما أرق الشفقة التى تظهرها نحوى .
ولهذا ، سأثبتك فى مأواى وأهبك معجزة .
إنى أمنحك القوة والنصر على كل البلاد ، وإنى أمهد لك المجد .
وأبث الخوف منك فى كل البلاد المنبسطة ، سأجعل الرعب منك يمتد إلى عمد السماء الأربعة .
إنى أجعل احترامك عظيما فى كل الأجسام ، وأجعل نداءك الحربى يتردد بين جميع الشعوب .
إن عظماء البلاد الأجنبية فى قبضتك ، وإنى أمد يدى بنفسى
وأصيدهم لك ، وأربط الأسرى من البدو بعشرات الألوف .
ومن أهل الشمال بمئات الألوف ، وإنى أجعل أعداءك يسقطون تحت نعليك .
إنى أمنحك الأرض طولا وعرضاً ، فأهالى المغرب وأهالى المشرق تحت سلطتك [1] » .

ذلك هو حديث « آمون » إلى ابنه فرعون مصر ، ومنه نعرف مدى قوة هذا الإله وعظم الفضل الذى دان به الملوك : فما كان لهم حياله إلا الوفاء له ، فشيدوا لإلههم الأكبر المعابد الضخمة فى كل ركن من أركان الإمبراطورية الممتدة من آسيا الغربية إلى السودان ، ومنحوا هذه المعابد النصيب الأوفى من الأسرى والمغانم التى كانوا يعودون بها من فتوحاتهم المتعددة بآسيا ، كما وقفوا عليها الضياع الواسعة .
وقد حاول اخناتون أن يقدم للإنسانية ديناً يعتنقه كل الناس فى جميع البلاد ، ويجعل هذا الدين يحل محل القومية المصرية التى التزمها الشعب منذ أول العصور .

يقول اخناتون فى نشيده :

« بزوغك جليل فى أفق السماء يا آتون »
يا حى ، يا مبدئ الحياة .
إذا ما صعدت فى السماء الشرقية أفضت على الأراضى جمالك .
ما ذلك إلا أنك جميل عظيم ، نير فى السموات العليا ، .
تسطع على الأرض وعلى جميع مخلوقاتك بأشعتك .
أنت رع . أنت الذى أسرتهم وقيدتهم بحبك .

---

(١) الدكتور عبد المنعم أبو بكر : اخناتون ، ص ٥٧ — ٥٨ .

أنت بعيد عن الأرض لكنك على اتصال معها بأشعتك .
أنت عال لكن أشعتك واضحة فى ضوء النهار .

* * *

إذا ما غربت فى أفق السماء الغربى أظلمت الأرض فأصبحت كالميتة .
فيقصد السكان نزم فى حجراتهم مغطى الرءوس هادئى الأنوف .
غير مبصرين فتسرق أمتعتهم من تحت رءوسهم دون أن يشعروا .
أما الأسود فتخرج من جحورها وكذا الثعابين اللداغة .
ويسود الظلام الكون وتسكن الأرض .
وما ذلك إلا لأن خالق هذه الأشياء كلها ذهب ليستريح فى أفقه .

* * *

إذا ما ظهرت فى الأفق وأشرقت فى النهار كآتون أضاءت الأرض .
إذا ما بزغت أشعتك خفى الظلام ، وشمل الفرح قطرى مصر .
كيف لا وقد أيقظتهم فيغتسلون ويكتسبون ويبتهلون بأذرعتهم إليك ، وقت شروقك ثم يشرع سكان العالم يؤدون أعمالهم .

* * *

البهائم كلها مستريحة فى مراعيها .
والأشجار والنبات جميعاً يانعة .
والعصافير تخفق فوق المياه ناشرة أجنحتها إبتهاجاً إليك .
والأغنام ترقص على أرجلها .
والطيور تحلق فى الجو تتنسم الحياة إذا ما أشرقت عليها .

* * *

تسير السفن مع التيار وعلى عكسه .
وكل طريق عمومى يصبح مسلوكاً لأنك ظهرت فى الأفق .
أما السمك فيقفز أمامك فى النهر ، هكذا تخترق أشعتك البحر الخضم .

* * *

أنت خالق الجنين فى أمه .
أنت خالق نطفة الإنسان
أنت واهب الحياة للجنين فى رحم أمه وملطفه حتى لا يتكدر فيبكى .
كيف لا وأنت المربى فى الرحم .
أنت معطى نفس الحياة كل مخلوقاتك .

أنت فاتح فم الجنين بالكلام ومعطيه حاجاته يوم تلده أمه .

* * *

أنت الذى تهب الحياة للفرخ فى البيضة فيصيح .
فإذا أتممت خلقه ثقب بيضته وخرج منها صائحاً جهده واثباً بقدميه

* * *

ما أكثر مخلوقاتك التى نجهلها .
أنت الإله الأحد ، لا شريك لك فى الملك .
خلقت الأرض بارادتك .
ولما كنت وحيداً فى هذا الكون خلقت الإنسان والحيوان الكبير والصغير .
والمخلوقات التى تدب على الأرض أو تطير بأجنحتها .
أنت الذى أحللت كل إنسان فى سوريا والنوبة ومصر فى موضعه .
وأنعمت عليه بحاجاته ، فصار كل منهم يأخذ نصيبه ويعيش أيامه المعدودة .
لقد اختلفت ألسنتهم وأجسامهم وجلودهم فسبحانك من مميز لخلقك .
أنت خالق النيل فى الدار الآخرة .
أنت أوجدته برغبتك فيه لتحافظ على حياة الأهالى .
أنت سيد الجميع لأنهم ضعاف .
أنت سيد كل أسرة لأنك تشرق لأجلها .
أنت شمس النهار المهيب فى الأراضى السحيقة كلها ، والواهب لها الحياة .
خلقت لهم نيلا فى السماء ليسقط عليهم ماؤه ، فيسيل على الجبال كالبحر الزاخر يروى غيطانهم بين مدنهم .
ما أبدع أعمالك أيها السيد الأزلى .
فنيل السماء (مخصص) للغرباء وللدواب من كل البلاد .
والنيل الذى يأتى مصر خاصة يأتيها من الدار الآخرة .
أشعتك تغذى الحيتان ، فاذا ما أشرقت أينعت وأنبتت بتأثيرك .

* * *

جعلت الفصول لتخلق فيها جميع مخلوقاتك .
فالشتاء يعطيهم البرودة ، والصيف يهب لهم الحرارة .
أنت الذى رفعت السماء عالياً لتنظر ما خلقت فى وحدتك .
شارقاً حياً كآتون ساطعاً متلألئاً ثم راجعاً إلى حيث ابتدأت .

* * *

أنت مبدع الجمال من نفسك ،
فالمدن والبلاد والقرى والطرق والأنهار كلها عيون تبصرك أمامها ،
كيف لا وأنت آتون النهار فوق الأرض ،

* * *

أنت فى قلبى ، لا يعرفك سوى ابنك اختاتون الذى جعلته عاملا بآرائك وقوتك ،
العالم كله فى قبضتك كما خلقته ،
إذا ما أشرقت (عليه) حى وإذا أفلت مات ،
أنت الوجود ومسبب الحياة للإنسان
أعين الخلق تبصر محاسنك كل يوم حتى تغرب ،
والعمل كله يبطل إذا ما أفلت فى الغرب ،
فاذا ما أشرقت جعلت كل ذلك ينمو (١)

كان اخناتون يقول عن نفسه إنه يعيش فى الحق الذى آمن به وأنفق حياته داعية إليه ، وانتظم توحيده الخلائق كلها التى خلقها إله واحد أحد كما انتظم التسوية بين الناس فى الدنيا تساويهم أمام هذا الإله الواحد . ومن هنا كانت دعوته بعيدة المدى لا تتصل بما فوق الوجود ، وبما بعد الوجود فحسب ، ولكنها تنطوى على فلسفة سياسية تناقض ما جرى عليه العرف فى العصرين القديم والوسيط ، وكانت إيجابية فى الإكبار من شأن الحياة والأحياء ، تحقق شخصية الفرد فى ذاته وفى إحساسه بنفسه ، وفى اتقانه لعمله ، وفى علاقته بغيره ، وتحقق ما يقارب الوحدة العالمية التى تقوم على التسامح لا على الغلب والاستئثار بالخير .

وكان من تأثير هذه العقيدة الدينية الجديدة أن انطلق الفنان المصرى من أسر القيود التى كبلته ، واستطاع أن يبدع فناً جديدا ،

ولكن العقلية المصرية (٢) لا يمكن أن ترتضى أن يفرض عليها قسراً منحى تفكيرى معين سواء أكان فى صورة عقيدة دينية أم متجه فكرى : اجتماعى أو سياسى أو اقتصادى .

وقد يسكت المصرى — ساخراً — على كل ظلم يتصل بحياته المادية ، وقد يخضع له على مضض ولكن يختلف الحال إن اتصل بأموره الروحية ، فإنه لن يسلم اطلاقاً باخضاع مقوماته الروحية لإنسان مهما كان شأنه . وههنا يستبين لنا العامل الرئيسى فى فشل اخناتون فى حمل المصريين على الإيمان بدعوته ، وذلك لأنها صدرت عن رئيس الدولة ، وكذلك فشل امبراطور بيزنطة فى تحويل المصريين إلى مذهبه الدينى ،

وكان العامل الدينى ، هو العامل الجوهرى الذى دفع الشعب المصرى إلى الثورة على حكامه البطالمة فلم يتحمل المصريون كل مالقوه من عنت وعسف فى سبيل آلهتهم أو ملوكهم الوطنيين ، الذين يعتنقون نفس المعتقدات الدينية ، أو يتكلمون نفس اللغة ، ويحيون نفس الحياة ، وإنما فى سبيل ملك أجنبى وجنس أجنبى بأسره أصطفاه ذلك الملك لمشاركته فى حكم البلاد ، وإرغام أبنائها على بذل أقصى الجهد

---

(١) ج . برستيد : تاريخ مصر منذ أقدم العصور ، ترجمة الدكتور حسن كمال : ص ٢٤٥ — ٢٤٦ .
(٢) الأستاذ فؤاد محمد شبل : دور مصر فى تكوين الحضارة ، ص ٥٣ .

فى استغلال مرافق البلاد الاقتصادية . نبضت قلوب الشعب بكراهية الأجانب ، وتضافرت فى أشعال لهيب الثورات المصرية ، ثلاثة عوامل لها أبعد الأثر فى حياة الناس فى كل مكان وزمان وهى : العامل الدينى ، والعامل القومى ، والعامل الاقتصادى .

فثار الشعب ضد بطليموس الثانى ، وبطليموس الثالث ، وبطليموس التاسع .

وقد انتهت هذه الثورات بالفشل فى التخلص من الحكام الأجانب ، ولكنها نجحت فى إرغام هؤلاء الحكام على النزول عن صلفهم وجبروتهم والنظر إلى الشعب بعين جديدة فى الشطر الثانى من حكمهم . وفضلا عن ذلك فإن هذه الثورات كانت من أهم الأسباب التى أضعفت دولة البطالمة وعجلت بالقضاء عليها (١) كان الدين هو العامل المؤثر فى كل ركن من أركان الحياة الإنسانية . وكانت نظرة أرض الرافدين (العراق) إلى الأدب والقانون والفن هى نظرة الشرق الأدنى كله قديما . فلم يكن ينظر إليها إلا فى نطاق الدوافع الدينية ، وكانت هذه الدوافع متغلغلة فى كل مظهر من مظاهر الحياة ، فكانت قوام الجوهر العميق لتلك الحياة ، ولعل هذا أبرز خصائص الحضارة فى الشرق الأدنى القديم . فكان الدين خلاصة القيم الإنسانية (٢) .

وقد أدت ملاحظة الأفلاك إلى تطور عظيم فى المعلومات الخاصة بالفلك فى أرض الرافدين ، ولا سيما خلال العصر الكلدانى ، فلدينا عدة جداول من المعلومات الفلكية ، تبرهن على معرفة بالظواهر السماوية .

وكان للبابليين منذ أقدم العصور مراصد حقيقية مقامة على رءوس أبراج المعابد ، وكانوا يقيسون مدارات النجوم بالساعة المائية ، ويسجلون تسجيلا صحيحاً حركات الشمس والقمر ، فصارت لهم فى القرن السابع قبل الميلاد القدرة على التنبؤ بما ينتابهما من خسوف أو كسوف . وأطلقوا على مجموعات الكواكب المختلفة أسماء أخذها عنهم اليونان فيما بعد ، فاليونان يدينون لبابل (٣) بجزء كبير من معلوماتهم الفلكية .

وكان علم الفلك الأساس الذى بنى عليه التقويم ، وهو من اثنى عشر شهراً قمرياً .

ويدل قياس الأبعاد الظاهرة بين النجوم وغير ذلك من الحسابات الفلكية ، وبعضها بالغ التعقيد ، على تقدم فى معرفة الرياضيات .

وكان أهل الرافدين يعرفون النظام الستينى والنظام العشرى ، وكانوا يستطيعون الجمع والطرح والضرب والقسمة ومضاعفة الأس ، واستخلاص الجذور ، وحل المعادلات المركبة ، وفى الهندسة كانوا يستطيعون قياس المساحات والأحجام .

هذه المجموعة من المعارف الفلكية والرياضية هى ولاريب من أعظم ما أسهم به أهل الرافدين ، ولا سيما البابليون ، فى تاريخ الحضارة ، وكان نهوضهم بهذه العلوم وثيق الصلة ، كما رأينا ، بدينهم (٤) .

---

(١) وزارة الثقافة والإرشاد القومى : تاريخ الحضارة المصرية ، مصر فى عصر البطالمة ، المجلد الثانى ص ٨١ .
(٢) سبتينو موسكاتى : الحضارات السامية القديمة ، ترجمة الدكتور السيد يعقوب بكر ، ص ٧٤ .
(٣) بابل معناها « مدينة الله » .
(٤) المصدر السابق ، ص ٥٠ .

وقد فسر السومبرو (١) أكاديون أصل الإنسان بأن المعبود صنعه من كتلة من الطين وأنه خلق من أجل خدمة الآلهة : ويبين علم تكوين المخلوقات الكلداني أن مردوخ قد خلق البشر كي يقدم للآلهة مسكناً يأوون إليه حتى يسعد قلبهم .

كان أول واجب فى الدين هو الخوف من المعبود : وكان حمورابي « يخشى الآلهة » وكان نبوخذ نصر الثانى ، بكل قلبه المؤمن يحب خشية معبوداته ، ويرتعد أمام سطوتهم .

وكان الواجب الثانى فى الدين هو الدعاء أو الصلاة والتضحية :

« قدم الخضوع كل يوم لإلهك :

التضحيات والصلوات والبخور الواجب

ليكن قلبك نقياً أمام ربك .

إن هذا هو ما يرضى المعبود .

إن أنت قدمت التوسل والدعاء والصلاة والسجود فى كل صباح .

فانه سيمنحك كل الكنوز .

وسوف تزدهر أيامك بفضل إلهك .

وبعقلك راع اللوحة :

الخوف يولد الرفق أو العاطفة .

والتضحية تطيل العمر .

والصلاة تخلص من الإثم » .

كان مصدر كل خير للإنسان رضى إلهه عنه وكان فقدان هذا الرضى أصل كل المتاعب . ولكى يشعر الإنسان بالاطمئنان والراحة النفسية لابد أن يتوب توبة نصوحا ، بعد أن يعترف بما ارتكب من إثم وخطيئة .

جاء فى مزامير التوبة :

« مولاى ! إن آثامى كثيرة وذنوبى فظيعة .

إلهى ! إن آثامى كثيرة وذنوبى فظيعة .

إلهى ! إن آثامى كثيرة وذنوبى فظيعة .

أيها الإله الذى أعرفه أو الذى لست أعرفه إن آثامى كثيرة وذنوبى فظيعة .

أيتها الآلهة التى أعرفها أو التى لست أعرفها إن آثامى كثيرة وذنوبى فظيعة .

ألا فليخف الغضب فى قلب مولاى .

---

(١) ل . ديلا بورت : بلاد ما بين النهرين ، ترجمة محرم كمال ، ص ١٩١ .

لیهدأ الإله الذى أعرفه أو لا أعرفه .

لتهدأ الآلهة التى أعرفها أو التى لست أعرفها » .

ويكشف الاعتراف السلبى جزئياً عن الذنوب التى قد يقترفها المؤمن وفيه — بعد الإشارة إلى الخطأ الذى يرتكب فى حق الآلهة — يأتى ذكر أولئك الذين يبذرون الفرقة والكذابين والمشاكسين والتجار الذين يغشون فى النوع أو الكمية أو يطففون وأولئك الذين ينقلون علامات الحدود من أماكنها ويسلبون بضائع الغير أو يضرون به والذين يزنون .

كان كل إثم يعاقب عليه فى هذا العالم وبالمثل كان للفضيلة هنا جزاؤها .

إن الوازع الدينى هو الذى حمى الضعفاء من النساء والأطفال والعبيد ضد شرور الأقوياء ، كما أن الدين استخدم فى الأمور الصحية ، لأنه أجبر الناس على عزل الجثث .

كذلك حدد الوظائف الطبيعية الكبرى وقرر نظاماً فى الأمور التى لا يمكن أن تؤدى الغرائز العنيفة فيها إلا إلى الاضطراب ، وبصفة خاصة فى وقت الحمل .

وقد كان الدين مفيداً للأخلاق ، لأنه كان شبيهاً بفن لتربية الإرادة . ولما علم الدين الإنسان كيف يتحرر من رغباته الذاتية ، وكيف يسيطر على مصالحه المادية ، وكيف يقهر عنف أهوائه أرشده إلى التضحية وانكار الذات (١) .

وكان الناس يعتقدون أنهم إذا خالفوا أوامر الإله ، وارتكبوا المعاصى ، وساد بينهم الظلم والفساد ، فان الإله يوقع عليهم عقوبات مروعة ، كالفيضانات التى تحيل البشرية ، طيناً ووحلا والقحط والمجاعة والأوبئة . وفى كل هذه المصائب كان الإله يظهر نفسه دائماً عطوفاً يسعى إلى انقاذ البشر (٢) .

* * *

ويستمد الأدب أصوله من الدين ، فالشعر الغنائى فى أرض الرافدين دينى كله . فهناك ترانيم ومزامير غفران وصلوات تعبر فى صور مختلفة عن عبادة الآلهة ، تلك العبادة التى كانت بمثابة الجوهر من حياة تلك الشعوب . وفيما يلى (٣) مثال مأخوذ عن ترنيمة لشمش إله الشمس :

إيه يا شمش ، يا ملك السماء والأرض ،

يا من توجه كل شىء فى عل وسافل .

---

(١) روجيه باستيد : مبادئ علم الإجتماع الدينى ، ص ١٠٠ .
(٢) بلاد ما بين النهرين : ص ١٩٢ .
(٣) الحضارات السامية القديمة ، ص ٩٠ .

يا شمش ، إن بيدك إعادة الميت إلى الحياة .

وتحرير الأسير من قيده .

إنك قاض لا سبيل إلى إفساد ذمته ،

ومرشد لبني الإنسان

وابن رائع ، للإله تمرصت (اسم للإله سين ، إله القمر ومعناه الطلوع المنير) .

ابن عظيم القوة والنبل ،

نور البلاد .

وخالق كل ما في السماء وما في الأرض ،

هذا هو أنت يا شمش .

وعلى أسس الروايات السومرية القديمة أقيم أدب عريض للتعليم والحكمة ، يتناوب فيه النثر والشعر . غني بالنصائح والأمثال المنطوية على حكمة رائعة .

وهذه بعض النصائح ، وهي تروع القارىء بدعوتها الخلقية الرفيعة :

لا تسيء إلى خصمك ،

أحسن إلى من يسيء إليك ،

عامل عدوك بالعدل ...

التقوى تولد السعادة ،

وتقديم القرابين يطيل الحياة ،

والصلاة تكفر عن الذنوب .

وجزء كبير من الأدب النثري الأكدي ديني أيضاً في محتواه ، وتوجد نصوص كثيرة من نصوص الطقوس ، نصف أعمال الكهنة والاحتفالات المقدسة ، ولا سيما الاحتفال بالعام الجديد في مدينة بابل ، وتشتمل هذه النصوص على فقرات شعرية في صورة ترانيم وصلوات ترتل خلال الطقوس .

وكان هناك أيضاً أدب استنبائي عريض يحتوي على النداءات والصلوات الخاصة التي كان يتجه بها الأمراء إلى الآلهة يستنبئونها عن المستقبل ، ولا سيما فيما يتعلق بالمشروعات الحربية ، والإجابات التي ترد بها الآلهة على الأمراء .

كان للدين أثر عميق فى المجتمع الهندى ، كان بوذا (1) يرى أن خلاص الإنسان متوقف على نفسه لا على الآلهة ، والإنسان هو صانع مصيره .

وتبدأ ديانة بوذا ببيان مايسميه الحقائق الأربع النبيلة ، فالحقيقة الأولى تعترف بوجود الشقاء ، والحقيقة الثانية تسلم بوجود سبب لهذا الشقاء . والحقيقة الثالثة تقرر أنه يمكن إزالة هذا السبب ، والحقيقة الرابعة تؤكد أن الطريق إلى ذلك ميسور للجميع .

وفى الكتب البوذية قصة تصلح مثلا على كرم أخلاقه : يروى أن فلاحاً برهمياً كان يحرث حقلا ، وإذا ببوذا يجيء إليه وفى يده وعاء يستعطى فيه .

فقال له الفلاح : أيها الناسك — على أن أحرث وأزرع ، لأكسب عيشى ، فعليك أنت أيضاً أن تكافح وتعمل ثم تأكل .

فأجابه بوذا : أيها البرهمى . أنا أحرث وأزرع ، وبغير هذا لا آكل .

فيقول له الفلاح : لا أرى نيراً ، ولا محراثا ، ولا منخسا ، ولا ثيرانا .

فيجيب بوذا بعبارات شعرية قائلا :

« أنا فلاح بحق ، أيها السيد ، والأراء الصائبة هى البذار المثمر الذى أبذره وتدريب النفس هو المطر الذى أستى به . أما الحكمة فهى نيرى ومحراثى ، والوداعة ميسمى ، والاهتمام بالغير محور عجلى ، واليقظة منخسى ...

وبتهذيب الفكر والقول والفعل أنقى الأرض من أعشابها الضارة ، وبطريق الخلاص أنادى .

أما ثورى فهو السعى المتواصل الذى يحملنى فى غير ملل إلى حيث لا يصيبنى حزن حتى أقرب إلى نرفانا ، وهو الهدف الذى إليه أسعى .

---

(1) ولد سقيامونى مؤسس البوذية فى أوائل القرن السادس قبل الميلاد . وكان أبوه أحد ملوك الهند الوسطى « راجا » وكلمة « بوذا » معناها المستنير أو العالم وهو اللقب الذى أطلق عليه . ورغم أن بوذا سليل عائلة عريقة ، وكان المستقبل الزاهر والحياة المترفة تنتظره . غير أن نفسه ظلت قلقة ، وظل يفكر فى مسائل لا يرى حلا لها ، فقد ظل عقله ينقب عن معنى الحياة ، ومشكلة الآلام الإنسانية وأسبابها . ولما لم يجد حلا ، ترك حياة القصور ولجأ إلى حياة الزهد والتقشف لعل الغشاوة تزول عن عينيه بعد أن يتحرر من العالم وهمومه .

وانصرف إلى التأمل العميق .

وبعد فترة أشرق عليه نور ينبئه أن شقاء الحياة ، وعناءها وضجرها ينبعث من رغبات النفس ، وأن الإنسان يمكنه أن يكون سيد رغباته ، وأن فى مقدوره الإفلات من هذه الرغبات بقوة الثقافة الروحية الداخلية ومحبة الآخرين .

ويرجع الفضل فى نشر البوذية إلى الامبراطور « أسوكا » الذى حكم الهند كلها سنة ٢٥٠ ق . م .

عندئذ يصب الفلاح الأرز الممزوج باللبن فى وعاء من الذهب ويقدمه إلى بوذا قائلا :
« فى الحق أنت فلاح بكل معنى الكلمة ، وحصاد الحق هو طعامك الشهى .
اشرب هذا يا سيد هنيئاً . وبعد اليوم أنا أطوع لك من بنانك (١) » .

والبوذية تحاول انقاذ الناس من حبائل الشر ، والشر فى رأيها أصيل فى الوجود ، وليس سببه خطيئة الإنسان ، وحينما يوجد الوجود يصحبه الشر .

يرى بعض الكتاب (٢) أن من سوء حظ الهند خروج البوذية منها لأن الديانة البوذية بنزعتها الانسانية تقاوم نزعة التفريق بين الطبقات التى عاقت نهضة الهند وصدعت وحدتها وجعلتها هدفاً للغزاة والمستعمرين .

كان للبوذية أثر عميق (٣) فى نفوس أهل المشرق ، فقد عمد بوذا إلى مهاجمة الخرافات والأوهام والضلالات التى كانت شائعة فى عهده بين أهل المشرق وأهمها عبادة الأرواح ، أى جعل روح لكل كائن من الكائنات إنسانا كان أو حيواناً أو نباتاً .

وقد ثار بوذا على الأغنياء الذين يضطهدون الفقراء ويسومونهم سوء العذاب ، وهو مع ذلك لا تأخذه هوادة فى تعنيف الفقراء والمستضعفين الذين لا يسيرون فى الطريق المستقيم ، فقد جعل الأخلاق القويمة والسيرة الطاهرة والذكر الحسن فوق الثروة والجاه ، بل فوق كل الطقوس والشعائر ، فالدين فى رأيه هو المعاملة وليس هذه الطقوس والرسوم التى يصطنعها رجال الدين .

وفى سنة ١٩٤٥ (٤) وضعت الجمعية البوذية بانجلترا مختصرا لقواعد البوذية وتعاليمها ، وعرضت الجمعية هذا المختصر على مراكز البوذية فى الدول البوذية : اليابان وسيام والصين وبورما وسيلان (سيريلانكا) والتبت فوافقت عليه .

وفيما يلى مختصر القواعد البوذية : —

١ — إن خلاص نفس أى فرد من الأفراد هى المهمة المباشرة بالنسبة لهذا الفرد .
فابدأ الآن بمواجهة الحياة كما هى وتعلم دائماً عن طريق التجربة الشخصية المباشرة .

٢ — إن الحقيقة الأولى فى الوجود هى قانون التغير وعدم الدوام . إن كل شىء فى الوجود من حيوان الخلد إلى الجبل ومن الفكرة من الفكر إلى الامبراطورية من الامبراطوريات يمر خلال دورة الوجود ذاتها ، أعنى : النمو والانحلال ثم الموت . والحياة وحدها هى الشىء المستمر وهى دائماً تسعى إلى الإفصاح عن نفسها فى صور جديدة . والحياة جسر ، ومن ثم فلا تبنى بيتاً فوق هذا الجسر ، والحياة عملية من عمليات التدفق والجريان فمن يتعلق بأية صورة من الصور مهما يكن جمال هذه الصورة فسوف يقاسى نتيجة لمقاومته لهذا التدفق والجريان .

٣ — إن قانون التغير ينطبق بالمثل على النفس . فالفرد خلو من أى مبدأ خالد أو لا يتغير . والتجرد المطلق هو وحده الحقيقة النهائية التى لا يصيبها التغير ، وكل صور الحياة بما فيها الانسان هى

(١) حبيب سعيد : أديان العالم ص ٩٦ .
(٢) على أدهم : : هداة الإنسانية فى الشرق — بوذا
(٣) أحمد الشنتناوى : الحكماء الثلاثة ص ٩٣ .
(٤) المصدر نفسه : ص ١٠٤ — ١٠٩ .

مظاهر لهذه الحقيقة . وليس هناك من إنسان يملك هذه الحياة التي تدب في أوصاله شأنه في ذلك شأن المصباح الكهربائي . فهو لا يملك ذلك التيار الكهربائي الذي يبعث فيه الضوء .

٤ — والعالم هو مظهر القانون . وكل معلول له علة . ونفس الإنسان وطباعه هي مجموع أفكاره وأفعاله السابقة . و « الكارمه » « Karma » — ومعناها الفعل ورد الفعل — هي التي تتحكم في الوجود بأسره . والإنسان هو المبدع الوحيد لظروفه وأحواله وانعكاساته عليها ، ولظروفه وأحواله المستقبلة ، ولمصيره الأخير .

وهو يستطيع بالفكر الصائب والعمل الصحيح أن يظهر بالتدريج طبيعته الباطنة ، وهذا العمل يستغرق عهوداً طويلة تشمل الحياة تلو الحياة على سطح الأرض ، ولكن سوف تصل في النهاية كل صورة من صور الحياة إلى التنوير والتثقيف .

٥ — الحياة واحدة غير منقسمة وإن كانت أشكالها المتغيرة على الدوام لا حصر لها وهي قابلة للفناء . وليس هناك في الحقيقة موت وإن كان الموت مصير كل صورة من صور الحياة . إن الرحمة وليدة إدراك الحياة وفهمها .

وقد وصفت الرحمة بأنها قانون القوانين وأنها التناسق الأبدي وأن الذي يشذ عن هذا التناسق سوف يصيبه الألم والمكابدة ، كما أنه يؤخر من تنويره وتثقيفه .

٦ — لما كانت الحياة واحدة وجب أن تكون مصلحة الجزء هي عين مصلحة الكل .

والإنسان لجهله يظن أنه يستطيع أن يكافح بنجاح في سبيل مصلحته الخاصة . وهذا النشاط الأناني الموجه توجيهاً خاطئاً يؤدي إلى المكابدة والألم . والإنسان يتعلم من مكابدته كيف يقلل من سبب هذه المكابدة ثم ينتهي به الأمر إلى التخلص من علة هذه المكابدة .

ولقد علمنا بوذا أربع حقائق نبيلة هي : — ١ — وجود الألم والمكابدة في كل مكان .

٢ — علة المكابدة وهي توجيه الرغبة توجيهاً خاطئاً . ٣ — علاج المكابدة وذلك بالتخلص من علتها . ٤ — الطريق ذو الثماني مراحل الموصل في النهاية إلى القضاء على الألم والمكابدة .

٧ — إن هذا الطريق السالف الذكر يتألف من المراحل التالية : —

الآراء الصحيحة ، والأهداف الصحيحة ، والقول الصحيح ، والأفعال الصحيحة ، والمعيشة الصحيحة ، والمجهود الصحيح ، والذاكرة الصحيحة ، والتأمل الصحيح .

وهذه المراحل تؤدي إلى التنوير الكامل .

٨ — إن الحقيقة شيء لا يمكن وصفه ، وإن كان القول باله له صفقات معينة ليس ذلك هو الحقيقة النهائية غير أن بوذا وهو الكائن الإنساني قد غدا الشخص الذي بلغ كمال التنوير . وإن بلوغ حال النرفانا — أي السعادة التي ليس من ورائها سعادة — أمر ممكن بلوغه في هذه الحياة الدنيا . إن الناس جميعاً وكل صور الحياة الأخرى تتضمن في ذاتها إمكانية التنوير ثم يصبح هذا التنوير بالفعل باتباع الخطوات السابقة .

٩ — إن الطريق الأوسط يقع بين التنوير بالقوة والتنوير بالفعل ، وهذا الطريق يبدأ من الرغبة وينتهي إلى حالة الطمأنينة والسلام . وهو طريق وسط بين المتناقضات ، يتحاشى السائر فيه الأطراف

النهائية . وقد سار بوذا فى هذا الطريق حتى نهايته ، والشيء الوحيد المطلوب الإيمان به فى البوذية هو أنه ما دام بوذا المرشد قد سار فى هذا الطريق فعلينا أن نسير فيه . ويجب أن يسير الناس جميعاً فى هذا الطريق فلا يقتصر الحال على خيارهم فقط . ولا بد من أن يتقدم القلب والعقل فى الوقت ذاته إلى الأمام .

١٠ـ إن البوذية تهتم أشد الاهتمام بالتأمل والتركيز الباطنى وهذا يؤدى مع مضى الزمن إلى تنمية الملكات الروحية . فالحياة الذاتية هامة مثل الحياة المادية المحيطة بنا . وإن فترات من الراحة والطمأنينة للنشاط الباطنى للمرء لأمر ضرورى لحياة متوازنة .

إن البوذى يجب عليه فى كل الأوقات أن يكون حاضر الذهن رابط الجأش عزوفاً عن التعلق العقلى أو العاطفى بالمظاهر العابرة . وهذا التيقظ والانتباه للظروف — التى يدرك أنها من إبداعه — يساعده على أن يجعل انعكاساته بصدد هذه الظروف تحت رقابته وسيطرته .

١١ـ لقد قال بوذا : « اعمل على خلاص نفسك بجد ونشاط » ولا تعرف البوذية دعامة للحق سوى وجدان الشخص وبديهته . وكل فرد يتحمل نتائج أفعاله الخاصة وهو يدرك ذلك إبان قيامه بمساعدة زملائه على خلاص أنفسهم .

١٢ـ إن البوذية ليست مذهباً يتصف بالتشاؤم أو الهروب من مواجهة الحقائق ، ولا هو بالمذهب الذى ينكر وجود الله أو الروح ، وإن كان يسبغ على هذه الألفاظ معانيه الخاصة . بل إن البوذية على العكس من ذلك طريقة للتفكير ، ودين من الأديان ، وعلم روحى وأسلوب مفعول فى الحياة يتصف بأنه عملى ومحيط بكل شيء .

وقامت الحضارة الصينية القديمة على أساس من العقيدة الدينية . ووصف ابن بطوطه رحلته فى الصين نذكر حقيقة تاريخية هامة ، وهى استخدام أهل الصين لورق النقد . وقال إن أهل الصين أعظم الأمم أحكاما للصناعات ، وأشدهم اتقانا فيها ، أما التصوير فلا يجاريهم أحد فى أحكامه ، لا من الروم ولا ممن سواهم .

هذه الحضارة الصينية السامقة ليست إلا ثمرة من ثمرات الإيمان الصينى والعقيدة الصينية » .

كان كونفوشيوس [1] يرى أن إصلاح الفوضى الخلقية لا يتم إلا عن طريق إصلاح النظام الأسرى

---

(١) ولد كونج . فود ره . سنة ٥٥١ق . م فى مدينة « تشوفو » أحد أعمال المقاطعة التى تسمى الآن ولاية « شان شونج » . توفر على دراسة الأدب الصينى وثقف نفسه بمختلف المعارف المعروفة فى عصره . فتح مدرسة صغيرة يعلم فيها التاريخ والشعر والآداب العامة . وكان محاضراً ومساجلا كسقراط ولذلك فقد وصلت إلينا آراؤه ونظرياته عن طريق أتباعه ومريديه . وكان فى حياته مثالا لسمو الأخلاق ورفعة النفس . يستنكر مؤامرات الساسة ورجال الدولة ، وتقلد وظائف هامة فى مملكة « لو » مثل كبير القضاة ووكيل وزارة الأشغال العامة وانتهى به الأمر أن عين وزيراً للعدل فقضى على الجريمة قضاء تاما . وأحبه الشعب واعتنق تعاليمه . توفى سنة ٤٧٩ ق . م (ويقال سنة ٤٧٨ ق . م) عن اثنين وسبعين عاما .

فى المجتمع — لأن أساس المجتمع هو الفرد المنظم فى الأسرة المنظمة ، فكأنه نادى بالنظرية القائلة بأن الرق الذاتى هو أساس الرق الاجتماعى (١).

فإذا أحسن الفرد حكم نفسه استقر النظام فى الأسرة وبذلك تصلح الدولة ويسهل حكمها ، فالسياسة إذن فى نظره جزء من الأخلاق .

وفى هذا الصدد يقول : « إن الملوك القدامى الذين يرجع إليهم الفضل فى نشر الفضائل عندما أرادوا تنظيم ولاياتهم بدءوا بتنظيم أسرهم — وعندما أرادوا تنظيم الحياة الأسرية لجئوا أولا إلى تهذيب نفوسهم وذلك عن طريق التطهير والمعرفة والإخلاص والتوسع فى البحث عن حقائق الأشياء . فلما تم لهم ذلك وكمل علمهم ، خلصت أفكارهم فتطهرت قلوبهم وتهذبت نفوسهم . ومن ثم انتظمت شئونهم الأسرية ؛ فصلح بذلك حكم ولاياتهم . ومتى صلح الحكم وساد النظام والاستقرار حققت الإمبراطورية سعادتها وكمالها (٢) » .

ونادى كونفوشيوس بنظرية « سيادة الشعب » فالشعب هو المصدر الفعلى الحقيقى للسلطة السياسية . ومع أنه اعترف بالحق الإلهى للملك ؛ فإنه لم يوافق على السلطة الملكية المطلقة التى سارت عليها البلاد منذ فجر نشأتها . وجعل هذه السلطة مرهونة برضاء الشعب .

وطالب كونفوشيوس بتحقيق العدالة الاجتماعية ، وذلك بتوزيع الثروة فى أوسع نطاق ، وأن يكون الفقير فى كنف الغنى ، حتى يسعد المواطنون جميعاً بحياة إجتماعية آمنة ، دعامتها الفضيلة والعدالة والمساواة .

وكان من رأى كونفوشيوس أن التعليم هو الوسيلة الوحيدة لتحقيق المساواة ، لأن انتشاره يؤدى إلى تفهم حقائق الأمور ، فيدرك كل فرد مركزه الاجتماعى ، وحقه فى الحياة . ويلح فى طلب حقوقه كاملة غير منقوصة . ومتى أثمر التعليم على هذا النحو ، انعدمت الفروق بين مختلف الطبقات الاجتماعية .

وقد ارتبط المجد السياسى لإيران « فارس » قبل الإسلام بمدى تمسكها بدين زردشت (٣) ، فكلما روعى تطبيق قواعد الدين كلما ارتقت ايران وناهضت ونهضت ، وحين يضعف الروح الدينى تخمل وتخور ويغلبها الرومان وتفسد فيها حياة الناس .

ومنذ ذلك الوقت وضع دستور إيران على أساس الفكرة المشهورة الدين والدولة توءمان .

---

(١) الدكتور مصطفى الخشاب : تاريخ الفلسفة والنظريات السياسية : ص ٤٧ .

(٢) المصدر نفسه : ص ٤٨ .

(٣) ولد زردشت فى الجزء الغربى من إيران الذى يعرف باسم آزربيجان سنة ٦٦٠ ق . م وتوفى سنة ٥٨٣ ق . م وتذكر الروايات أنه عندما خرج زردشت إلى نور الحياة لم يبك مثل سائر الأطفال وإنما ضحك بصوت مرتفع اهتزت له أركان البيت . ويقال إنه ظهرت عند ولادته عدة خوارق منها أن الأرواح الشريرة قد هربت إلى العالم السفلى عندما جاءها نبأ ولادته » كما يقال إن نور إلهياً غمر بيت أبيه « بورشاب » عندما ولد له ابنه زردشت .

وما إن بلغ زردشت السابعة من عمره حتى عهد به إلى أحد الحكماء ليقوم على تعليمة وتهذيبه .

وقامت الدولة الساسانية السابقة على ظهور الإسلام ، على أساس مبادىء دين زردشت .

كان زردشت يحث المؤمنين على تكوين الإسرة ، والوطن الناهض مجموعة من الأسرات الصالحة ولذلك حث زردشت على الزواج : وهو يأمر الزوج والزوجة على السواء بالاستقامة والعفة والتحلى بمكارم الأخلاق .

وحث زردشت على التعليم ، و « الأوستا (١) » نفسها ليست كتاب دين فحسب ، ولكنها كتاب علم كذلك : وعمد زردشت فى البرنامج الذى أعده للتعليم إلى أن يقوى الروح الوطنى لدى الشعب الإيرانى عامة . والذى يتعلم لا يخدم نفسه ووطنه فحسب بل يرضى ربه أيضا ، لأن التعليم جزء من الدين .

وحين يتحدث زردشت عن الصدقات التى تجب للفقير عند الغنى ، لا يقصر كلمة الصدقة على الحاجة المادية وحدها ، وإنما يتحدث كذلك عن الصدقة العلمية التى تجب للجهلاء على أهل المعرفة ، لتسد الحاجة العقلية والروحية .

وتؤكد الأساطير الفارسية أن زردشت قضى فترة طويلة قبل أن يبلغ الثلاثين من عمره فى التأمل والتفكير .

تم التمهيد للنبوة المنتظرة إذ بلغ زردشت إبان عزلته فى الصحراء شأوا كبيراً فى الحكمة والصلاح والتقوى وشعر فى قرارة نفسه أنه رسول من عند أهرمزدا — الله عند زردشت — وأنه على أتم استعداد لأن يحمل هذه الرسالة وأن يبلغها لبنى البشر .

كان زردشت حامل رسالة الأمل إلى بنى الإنسان الساعى إلى تخليصهم مما هم فيه من شرور ومفاسد وضلالات ، العامل على إنشاء نظام إجتماعى وخلقى جديد .

كان الدين الجديد الذى يدعو إليه زردشت يقوم على أساس القلب والوجدان : إن القلب الكسير والنفس التائبة النادمة هى أفضل قربان يقدمه المؤمن إلى خالقه ، وإن دموع الندم المنسكبة من قلب تائب نادم هى القربان المفضل عند الله .

أما موضوع هذا الدين الجديد وهدفه فهو السلوك المستقيم ، وعباداته قائمة على العدل والورع والاستقامة ، وهذه صفات باطنة يتصف بها القلب والضمير ، أما المظاهر الخارجية لهذا الدين فهى النية الطيبة والكلام الطيب والأعمال الطيبة .

اتهم الكهنة زردشت بأنه يدعو إلى عقائد وآراء تهدم دين آبائهم وأجدادهم كما أنه يسب آلهتهم ويكفر بها ويحض الناس على اتباعه ، لذلك لجئوا إلى الطبقة الحاكمة طالبين إبعاده عن البلاد لأنه خطر يهدد أمن الناس وسلامتهم . وقد استمع الحكام لرجال الدين فهددوا زردشت فترك مسقط رأسه وأخذ يتنقل من بلد إلى آخر يدعو لدينه الجديد : وقد لقى زردشت الاعراض من الناس ، والسخرية منهم ، فلم يهن ولم يضعف بل استمر يدعو إلى عقيدته الجديدة . وقد اعتنق الملك كشتاسب الديانة الزردشية ووقف نفسه وجنده وماله لنصرة هذا الدين . وبذلك تقوضت أركان الدين الإيرانى الوثنى القديم .

(١) كتاب الديانة الزردشتية .

وأوصى زردشت بأن يكون التعليم للناس كافة ، رجالا ونساء .

وكان للطب الزردشتى أثر كبير فى ازدهار علوم الطب فى إيران ، واشتهارها بهذا الفرع من العلم : وقد كانت مدرسة « جنديسابور » من أهم مدارس الطب قبل الإسلام وظلت كذلك فى القرون الإسلامية الأولى .

كانت الزراعة من أهم النواحى التى دعا زردشت أتباعه إلى العناية بها ، وهو يدعو الناس إلى العمل لفلاحة الأرض وزرعها . ويأمر من يقطع شجرة بأن يغرس شجرتين قبل أن يمد يده بالقطع . والزراعة عند زردشت أهم سلاح لمحاربة الجوع ، والزراعة تقضى على البطالة ، والبطالة قرينة الشهوة والعار ، إنها تدعو شياطين الجوع والعطش ، وتدعو المرض والألم ، وتدعوا لخضوع والذلة .

ودين زردشت يحرم على المؤمن اهمال الأرض ، ويفرض عليه إصلاحها ، ولما سن أردشير القانون اتبع ما قال به زردشت فكان ينزع ملكية الأرض البور التى لم يفلحها صاحبها ، ويعطيها لمن يقدر على استصلاحها وزرعها .

ووجه زردشت عناية فائقة إلى الحيوانات النافعة ، وكان للطب البيطرى شأن فى العلوم الطبية فى المدارس .

يقول زردشت : « ليكن أهرامزدا — إله زردشت — فى عوننا كى نسعد الملاك وهو منه الذى يحمى الحيوانات النافعة ، والذى ينشر السلام بين المخلوقات الطيبة . الحيوانات كلها فى رعايته ، إن من يريد إرضاءه عليه أن يحافظ على الحيوانات الأليفة ويرعاها ويهيء لها مكاناً أمينا . وعليه أن يدافع عنها إذا أوقع بها قساة القلوب من غلظتهم عذابا . ويجب ألا يعطى الحيوان لرجل ظالم جبار .

وعلى المؤمن أن يدبر للماشية علفها فى الصيف حتى لا يجبرها على الخروج لترعى فى برد الشتاء القارس . وحرام على المؤمن أن يبعد عنها صغارها وأن يحرمها من ألبانها . فإن الحيوانات الأليفة فى هذه الدنيا هى الصورة الثانية لو هو منه ، الذى يحمى الفكر الطيب ويحميها جميعا [1] » .

إن « أهرامزدا » هو[2] الإله الأعظم عند زردشت ، وهو قديم أزلى وهو وحده الذى لم يولد ولن يموت وهو علة العلل وليس له علة وهو المصدر الأول لجميع الموجودات . وهو روح الأرواح لا يرى ولا ينظر لأن الصفة الأساسية لما هو روحى أن لا يراه أحد ، فهو وإن كان موجوداً فى كل مكان إلا أنه لا يرى فى أى مكان .

وأهرامزدا يعلم الماضى والحاضر والمستقبل وهو فى علمه هذا ليس له ند .

وهو وحده الذى يتصف بأنه العالم بكل شىء . وهو يعلم الغيب ودخائل النفوس إذ لا يخفى عليه سر من الأسرار .

(١) الدكتور يحيى الخشاب : هداة الإنسانية فى الشرق — زردشت ص ٨٨ .
(٢) أحمد الشنتناوى : الحكماء الثلاثة ، ص ٤٤ .

وهو القدير على كل شيء على الرغم من « عصيان » الشيطان له .

الرجل الذى يعمل الخير ويتجنب الشر ليس بكامل الإيمان عند زردشت ، لأن المؤمن عنده هو من يعمل الخير ويقاوم الشر ، إنه لا يوافق على السلبية فى الدين .

وآثم من يرى الشر ويسكت عنه اكتفاء بأنه هو خير نفسه ، لا يقل عن إثم من ارتكب الشر ذاته ، لأن المعركة الأزلية قائمة بين الأصلين .

ورسالة زردشت قائمة على حث الناس على الوقوف فى صف الخير والعمل الجدى على قهر الشر .

وقد اعتبر مؤسس الدولة الساسانية دين زردشت ، ديناً رسمياً للدولة ، واتخذ من هذا الدين برنامجاً عملياً لحكمه وحكم أسرته من بعده .

وقد حافظ رجال دين زردشت على رسالتهم فى بادئ الأمر ، لأنهم أحسوا بأنهم مسئولون عن البلاد التى شرع من أجلها زردشت هذه الشريعة العملية ، ولكنهم مالبثوا أن انغمسوا فى الشهوات والملذات ، وانصرفوا إلى جمع المال ، فسادت الأنانية بين الناس ، وانصرف كل إلى شأنه لا يعبأ بغيره ، فثار الشعب ضد حكامه .: وتسامع الناس بالمثل العليا والمبادئ النبيلة التى ينادى بها محمد صلى الله عليه وسلم فى الجزيرة العربية ، فآمنوا بهذه المثل ، ووجدوا فيها المنقذ مما هم فيه . ولم تكد الدعوة الإسلامية تطرق عليهم الباب حتى فتحوا لها القلوب وأقبلوا عليها بالترحاب ودخلوا فى الإسلام .

يستهدف الإسلام تحرير وجدان الإنسان تحريراً كاملا ، من كل شبهة شرك فى ألوهية ، أو قداسة ، قد تضغط هذا الوجدان ، وتخضعه لمخلوق من عباد الله ، وإن يكن نبياً أو رسولا ، فانه عبد من عباده يقول الله جل شأنه :

— « وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا وسيجزى الله الشاكرين » « آل عمران : ١٤٤ » .

ويخاطب النبى فى صراحة قوية :

— « ليس لك من الأمر شىء أو يتوب عليهم أو يعذبهم » « آل عمران : ١٢٨ »

ويأمره أن يهجر بحقيقة موقفه جهراً :

— « قل : إنما أدعو ربى ولا أشرك به أحدا : قل إنى لا أملك لكم ضراً ولا رشدا : قل إنى لن يجيرنى من الله أحد ولن أجد من دونه ملتحدا » : « سورة الجن : ٢٠ — ٢٢ »

ويرجع انتصار الاسلام إلى إيمان الناس به كعقيدة ، وكفاحهم من أجل تثبيت دعائمه .

ففى غزوة بدر أعد الرسول القائد جيشه إعداداً قويا ، وشاور أصحابه .

فقال المقداد بن عمرو : يا رسول الله ؛ إمض لما أراك الله فنحن معك ، والله لا نقول لك كما قالت بنوإسرائيل لموسى : « اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون » ولكن إذهب أنت وربك فقاتلا

إنا معكما مقاتلون ، فوالذى بعثك بالحق لو سرت بنا إلى برك الغماد (أى أقصى معمور الأرض) لجالدنا (أى جاهدنا) معك من دونه حتى تبلغه .

وقال سعد بن معاذ : قد آمنا بك وصدقناك ، وشهدنا أن ماجئت به الحق ، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة ، فامض يا رسول الله لما أردت ، فنحن معك ، فوالذى بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر لخضناه معك ، ماتخلف منا رجل واحد ، ومانكره أن تلقى بنا عدونا غدا ، إنا لصبر فى الحرب ، وصدق فى اللقاء ، ولعل الله يريك منا ما تقر به عينك ، فسر بنا على بركة الله .

بعد أن استشار الرسول أصحابه ، واتخذ قرار خوض المعركة ضد الارستقراطية القرشية ، خرج الرسول يبادر قريشاً إلى الماء ، حتى إذا جاء أدنى ماء من بدر نزل به ، فقال الحباب بن المنذر :

— يا رسول الله ، أرأيت هذا المنزل ؟ أمنزلا أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدمه ولا نتأخر ، أم هو الرأى والحرب والمكيدة ؟

قال الرسول : بل هو الرأى والحرب والمكيدة .

قال الحباب : يا رسول الله ، فان هذا ليس بمنزل ، فانهض بالناس حتى نأتى أدنى ماء من القوم فننزله ، ثم نغور ما وراءه من القلب ، ثم نبنى عليه حوضاً فنملؤه ماء ، ثم نقاتل القوم فنشرب ولا يشربون .

ونفذ الرسول ما أشار به الحباب بن المنذر حين اتضح له صواب رأيه .

ودارت المعركة بين كتيبة الإيمان ، وقريش ، وانتصر المسلمون انتصاراً باهرا .

وفى غزوة أحد ، لم يصبر الرماة الذين كانوا يحمون الجيش الإسلامى من ورائهم ، واندفعوا وراء الغنيمة فأصابهم القرح فى تلك الغزوة .

وإذا كان الظفر يعتمد على الكفاح ، فان الاتباع يقوم على الاقتناع . ومن ثم توارت المعجزات الحسية فى الإسلام ، ولم يعد لها دورها القديم الذى أدته فى الإعلام . وكانت معجزة الإسلام الخالدة على مدى الأيام كتاب هو القرآن . والقرآن حين يطلب من الناس أن يؤمنوا بالله الواحد الأحد ، الفرد الصمد ، لا يحملهم عليه إكراها ، لأن طبيعة الإيمان تأبى الإكراه ، ولا يتحقق إيمان باكراه . يقول القرآن : « لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى » « سورة البقرة ٢٥٦ »

وكذلك لا يحملهم على الإيمان عن طريق الخوارق الحسية ، التى يبهر بها عقولهم ، ويلقى بهم فى حظيرة الاعتقاد دون نظر واختبار .

يقول الله تعالى :

— « إن نشأ ننزل عليهم من السماء آية فظلت أعناقهم لها خاضعين » « سورة الشعراء : ٤ » .

أى إنا لا نشاء ذلك ، لأنا نريد منهم إيماناً عن تقبل واختيار [1] .

لا يحملهم على الإيمان بالإكراه ، ولا يحملهم عليه بالخوارق ، وإنما يحملهم عليه بالبرهان الذى يملأ القلب . وعلى هذا المبدأ عرض القرآن عقائد الإسلام عن طريق الحجة والبرهان .

— « إن فى خلق السموات والأرض ، واختلاف الليل والنهار ، والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس ، وما أنزل الله من السماء من ماء ، فأحيا به الأرض بعد موتها ، وبث فيها من كل دابة ، وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون » « سورة البقرة ١٦٤ » .

— « والسماء بنيناها بأيد وإنا لموسعون ، والأرض فرشناها ، فنعم الماهدون ، ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون » « سورة الذاريات ٤٧ — ٤٩ » .

وإذا كان الإسلام قد أفاد فى ذيوعه وانتشاره من وسائل أخرى كقوة العرف الاجتماعى والسلطان السياسى ، فان كل هذه الوسائل بشرية لا تندرج تحت باب الخوارق الحسية ، ثم هى بعد ذلك تالية فى الزمن والمكانة للإقناع وحده . ولم يكن حد السيف أو أسنة الرماح سبباً لانتشاره فى يوم من الأيام .

يقول المستشرق الانجليزى « ر . هـ . نولت » فى كتابه « حقيقة الإسلام » :

« ومن حيث أن أى دين من الأديان لا بد أن يكون ذا تأثير قوى فى حياة معتنقية وتصرفاتهم فان للإسلام تأثيراً كبيراً مماثلا لتأثير أى دين آخر ، بل يزيد عليه ، وذلك بما تنطوى عليه طبيعته » .

ويؤكد المؤرخ الانجليزى « توماس أرنولد[2] : « إن سوء حال فارس الدينية والاجتماعية كان سبب ذلك الانتصار الذى حالف الفتح العربى ، وجعله يظهر فى صورة تخليص الأهلين مما أصبحوا فيه ، وما إن تم للمسلمين ما أرادوا على هذا النحو حتى تنفس الفرس الصعداء ، ورحبوا بالعرب .

وقال : إن الإسلام دين الفطرة الطبيعية السليمة ، ولهذا تتقبله القلوب والضمائر متى تفتحت له ، وإن المسلمين كانوا يقاتلون بكل قلوبهم رجاء الحسنيين وشتان بين من يقاتل لإعلاء كلمة الله . وبين من يقاتل دفاعاً عن عقيدة فاسدة ، ودولة عاتية ، ونظام اجتماعى ظالم ممقوت » .

وكتب « ميك » فى كتابه « قبائل نيجيريا الشمالية » يقول[3] : « إن الإسلام لم يترك أثراً عميقاً فى التركيب الجنسى لهذه الشعوب فحسب ، بل إنه جاء بحضارة جديدة أتاحت للشعوب الزنجية طابعاً اختياريا متميزاً لا يزال واضحاً حتى اليوم موثراً فى نظمهم السياسية والاجتماعية ذلك أن الإسلام حمل الحضارة إلى القبائل المتبربرة وجعل من المجموعات الوثنية المنعزلة المتفرقة شعوباً وجعل تجارتها مع العالم الخارجى ميسورة ، فقد وسع آفاقهم ورفع من مستوى الحياة بخلق مستوى إجتماعى أرقى وخلع على أتباعه الكرامة والعزة واحترام الذات واحترام الآخرين

---

(١) الأستاذ محمود شلتوت : الإسلام عقيدة وشريعة ، ص ١٤ .

(٢) كتاب الدعوة إلى الإسلام ، ترجمة الدكتور حسن إبراهيم .

(٣) زكريا هاشم : المستشرقون والإسلام ص ٧٨ .

لقد حث الإسلام على تعلم القراءة والكتابة وحرم الخمر وأكل لحوم البشر والأخذ بالثأر وغير ذلك من العادات الوحشية . وأتاح للزنجي السوداني الفرصة لأن يصبح مواطناً حراً في عالم حر » .

إن هذا الاعتراف الواضح الصريح الذى ذكره « ميك » فى كتابه يقف بجانب الإسلام فى دعوته أنه دين مبادئ تهوى إليها النفوس من كل جانب لا دين سيف مصلت على رقاب الضعفاء ليرغمهم على اعتناقه عنوة وقهراً .

يقول الكاتب الإسبانى « بلاسكو أبانيز » فى كتابه « ظلال الكنيسة » :

« لقد أحسنت (١) أسبانيا استقبال أولئك الرجال الذين قدموا إليها من القارة الإفريقية ، وأسلمتهم القرى أزمتها بغير مقاومة ولا عداء : فما هو إلا أن تقترب كوكبة من فرسان العرب من إحدى القرى حتى تفتح لها الأبواب وتتلقاها بالترحاب .

وكانت غزوة تمدين ولم تكن غزوة فتح وتدويخ : ولم يزل سيل المهاجرين يتدفق من جانب المضيق وتستقر معه تلك الثقافة الغنية الموطدة الأركان ، نابضة بالحياة ، بعيدة الشوط . ولدت منتصرة وبث فيها النبى حمية قدسية واجتمع إليها أفضل ما فى وحى بنى إسرائيل وعلم بيزنطية وتراث الهند وذخائر فارس والصين وهكذا تسرب الشرق إلى أوربا على نهج غير نهج داردا وزركسيس من قبل أثينا التى قاومته خوفاً على حريتها : وإنما اختار له فى هذه المرة نهجاً مقابلا لأثينا من الناحية الغربية وهو الجزيرة الأندلسية حيث سلطان الملوك « اللاهوتيين » والقساوسة المجاهدين فتلقته مفتوحة الذراعين .

وفى خلال سنتين اثنتين استولى الغزاة على ملك قضى مستردوه سبعة قرون كاملة فى استرداده ، ولم يكن فى الواقع فتحاً فرض على الناس برهبة السلاح بل حضارة جديدة بسطت شعابها على جميع مرافق الحياة ، ولم يتخل أبناء تلك الحضارة زمناً عن فضيلة حرية الضمير وهى الدعامة التى تقوم عليها كل عظمة حقة للشعوب : فقبلوا فى المدن التى ملكوها كنائس النصارى وبيع اليهود ، ولم يخش المسجد معابد الأديان التى سبقته فعرف لها حقها واستقر إلى جانبها غير حاسد لها ولا راغب فى السيادة عليها ، ونمت على هذا مابين القرن الثامن والقرن الخامس عشر أجمل الحضارات وأغناها فى القرون الوسطى ، وفى الزمن الذى كانت أمم الشمال فريسة للفتن الدينية والمعارك الهمجية يعيشون عيشة القبائل المستوحشة فى بلادهم المتخلفة كان سكان أسبانيا يزدادون فيزيدون على ثلاثين مليوناً تنسجم بينهم جميع العناصر البشرية والعقائد الدينية ، وخفق قلب الحياة الاجتماعية بأقوى نبضاته التى عرفها تاريخ الجماعات البشرية .

وعاشت بفضل هذا التفاعل الحى بين العناصر والعروق جميع الآراء والعادات والكشوف العلمية والمعارف والفنون والصناعات والمخترعات الحديثة والأنظمة القديمة ، وانبثقت من تجاوب هذه القوى مواهب الإبداع والتجديد ، ووصل من الشرق الحرير والقطن والقهوة والورق والليمون والبرتقال والرمان والسكر مع هؤلاء الوافدين ، كما وصلت السجاجيد والمنسوجات والبارود والمعادن المنقوشة ،

(١) نقلا من أثر العرب فى الحضارة الأوربية تأليف عباس محمود العقاد ، ص ١١٦ .

وأخذنا عنهم الحساب العشرى والجبر والكيمياء والطب وعلم الفلك والشعر المقفى ونجا الفلاسفة الإغريق من الضياع فى غمرة النسيان حيث تبعوا العربى فى فتوحه وغزواته : فتربع أرسطو فى جامعة قرطبة التى ذاعت شهرتها فى الآفاق ، وظهرت بين العرب الأندلسيين فكرة الفروسية التى تبناها فيما بعد رجال الشمال كأنها ميزة مقصورة على الأمم المسيحية .

وبينما كانت شعوب الفرنجة والسكسون والجرمان يعيشون فى الأكواخ ويعتلى ملوكهم وأشرافهم قمم الصخور فى القلاع المظلمة ، ومن حولهم رجال هم عالة عليهم يلبسون الزرد ويأكلون طعام الإنسان الأول قبل التاريخ : كان العرب الأندلسيون يشيدون قصورهم القوراء ويرودون الحمامات كما كان سراة رومة يرودونها من قبل للمساجلة فى مسائل العلم والأدب وتناشد الأشعار وتناقل الأخبار .

وقامت فى البلاد مدن تضارع فى تعداد سكانها الحواضر الحديثة ، واختصت بعض القرى بمعامل النسيج ، ووزعت الأرض فى شبه الجزيرة بأسرها » .

إن صلاحية الإسلام لكل زمان ومكان ، هى التى جعلته يصمد ، فى وجه الضربات الهائلة التى وجهت إليه من الاستعمار ، والصهيونية العالمية : فهذا الدين أضخم حقيقة ، وأصلب عودا ، وأعمق جذوراً ، من أن تفلح فى اقتلاعه تلك الجهود كلها ، ولا هذه الضربات الوحشية كذلك .

إن الإسلام هو الذى حمى الوطن الإسلامى فى الشرق من غزو التتار ، كما حماه من غزو الاستعمار الصليبى ، ولو انتصر الصليبيون ، ما بقى جنس عربى ، ولا وطن عربى .

والإسلام هو الذى كافح كفاحاً مراً فى الجزائر ، وهو الذى استبقى أرومة العروبة فيها ، حتى بعد أن تحطمت مقوماتها الممثلة فى اللغة والثقافة ، حينما اعتبرت فرنسا اللغة العربية — فى الجزائر — لغة أجنبية محظوراً تعليمها ! !

هنالك قام الإسلام — وحده — فى الضمير ، يدمدم الأرض تحت أقدام الغزاة حتى ارتفعت راية الحرية فوق أرض الجزائر .

والإسلام هو الذى هب فى السودان فى ثورة المهدى الكبير ضد الاحتلال البريطانى فى مصر والسودان .

والإسلام هو الذى ناضل فى ليبيا ضد الغزو الإيطالى ، حتى عادت ليبيا إلى صاحبها الشرعى الشعب العربى الليبى .

ويكشف اللورد « جلادستون » عن هذه الحقيقة فى كلمته المشهورة فى مجلس العموم البريطانى : « ما دام هذا القرآن موجودا ، فلن تستطيع أوربا السيطرة على الشرق ولا أن تكون هى نفسها فى أمان » .

ومما سبق يتضح لنا أن للعقائد الدينية دور خطير للغاية فى مجريات التاريخ ، ومصداقاً لهذا الرأى :

١ — تولدت الحضارتان المسيحيتان (الغربية والشرقية) عن الحضارة الهلينية ، عن طريق العقيدة المسيحية .

٢ — تولدت حضارة الشرق الأقصى عن الحضارة الصينية عن طريق بوذية المهايانا.

٣ — تولدت الحضارة الهندية عن الحضارة السندية عن طريق العقيدة الهندوكية.

٤ — تولدت الحضارتان الإيرانية والعربية عن الحضارة السريانية عن طريق الإسلام.

ويرى المؤرخ البريطاني أرنولد توينبي «١» أنه لن تتحقق للبشرية وحدتها المرتجاة من غير مشاركة الله. فلو أسقطت المرشد العلوى من إعتبارها، لاندفع الإنسان إلى الفتنة والتنافر، وهو ما يجافى طبيعته القائمة على الألفة والمعاشرة، ولعذبه ذلك الحس الكامن فى نفسه بحكم كونه كائناً اجتماعيا: ذلك العناء الذى يزداد حدة كلما ازداد الإنسان قدرة على أن يرتفع بحياته إلى تحقيق الاحتياجات المعنوية لطبيعته الاجتماعية، طالما سعى الإنسان أن يلعب دوره فى مجتمع نبذ الإله الواحد الفرد الصمد: وهذا العناء ناجم عن أن الجهد الاجتماعى الذى يبذله المرء ليستكمل ذاته، يتعدى بمراحل حدود حياته على الأرض، زمانا ومكانا. وعلى هذا، يصبح التاريخ عند كل امرىء يشارك فيه منفردا، مجرد حكاية أبله. لكن هذا الشىء الذى لا معنى له، يكتسب معنى روحانيا عندما يكشف المرء فعل الإله الواحد الحق.

وعلى هذا النحو، قد تكون الحضارة، أية حضارة، ميداناً للدراسة مفهوماً بعض الوقت، إلا أن ملكوت الله هو ميدان العمل الوحيد المسلم به أخلاقيا.

وعند الأستاذ توينبى أن الأديان العليا تهيىء للنفوس البشرية اكتساب رعوية ملكوت الله على الأرض. وهاهنا يتاح للإنسان المساهمة بقسط غاية فى الضآلة فى سير التاريخ الدنيوى، وهو قسط يكفل له تأدية دوره فى الأرض.

ولكن على اعتبار أنه مساعد ذو إرادة لإله يضفى سلطانه على جهود الإنسان لتأدية رسالته فى الدنيا: يضفى عليها قيمة ومعنى ربانيين.

---

(١) فؤاد محمد شبل: منهاج توينبى التاريخى، ص ٨٢.

مراجع هذا البحث

١ ــ الكتب : حسب ورودها فى البحث

ــ ميشيل روزيه : حياة جوليو كورى ، ترجمة فؤاد حداد .

A. Cresay Morrison : Man Does not stand alone.

ــ ول ديورانت : مباهج الفلسفة ترجمة الدكتور أحمد فؤاد الأهوانى .

ــ ول ديورانت : قصة الحضارة .

ــ جميل جبر : طاغور .

ــ أ . كريسى موريسون : العلم يدعو للايمان ترجمة محمود صالح الفلكى .

ــ عبد الحميد جوده السحار : محمد رسول الله والذين معه .

ــ أدولف أرمان وهرمان رانكه : مصر والحياة المصرية فى العصور القديمة ترجمة د . عبد المنعم أبو بكر ، ومحرم كمال .

ــ محمد عبد الغفار الهاشمى : محمد رسول الله فى بشارات الأنبياء .

ــ ابن حزم : الفصل فى الملل والأهواء والنحل .

ــ جوستاف جرونيباوم : حضارة الاسلام ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد .

ــ طه عبد الباقى سرور : أقبال شاعر الحرية والكفاح .

ــ زيجريد هونكه : شمس الله على الغرب ترجمة الدكتور فؤاد حسنين على .

ــ ألبرت شفيتزر : فلسفة الحضارة ترجمة الدكتور عبد الرحمن بدوى .

ــ أبو الحسن الندوى : ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ؟

ــ جون ستيوارت مل : بحث فى الحرية ترجمة دار اليقظة العربية ــ بيروت .

ــ محاضرات أرنولد توينبى فى مصر (١٩٦١) كتب ثقافية .

ــ الدكتور قسطنطين زريق : نحن والتاريخ .

ــ هرنشو : علم التاريخ ترجمة عبد الحميد العبادى .

ــ ألبان ج . ويدجرى : التاريخ وكيف يفسرونه ترجمة عبد العزيز جاويد .

ــ أ . ج . إيفانز : هيرودوت ، ترجمة أمين سلامة .

Freud; Three contributions of the sexual theory.

- أوجين جننجر : فن الزعامة ترجمة سلوى حافظ ووجيه ناجى .
- أدورد كار : ماهو التاريخ ؟ ترجمة أحمد حمدى محمود .
- كارلايل : الابطال ترجمة محمد السباعى .
- فؤاد محمد شبل : منهاج توينبى التاريخى .

المشكلة اليهودية العالمية

دور مصر فى تكوين الحضارة

- الدكتور أحمد محمود صبحى : فى فلسفة التاريخ .
- الدكتور عبد الرحمن بدوى : شيلنجر .
- أبو بكر محمد بن زكريا الرازى : الطب الروحانى .
- ابن خلدون : المقدمة .
- محمد صدقى الجباخنجى : الفن والقومية العربية .
- محمد اقبال : تجديد التفكير الدينى فى الاسلام ترجمة عباس محمود .
- الكسيس كاريل : الانسان ذلك المجهول ترجمة شفيق أسعد فريد .
- عمر فروخ : تاريخ الفكر العربى .

فلسفة ابن خلدون

- الدكتور على عبد الواحد وافى : عبد الرحمن بن خلدون .
- ساطع المصرى : دراسات عن مقدمة بن خلدون .

Isibree : Hegel's Philosophy of History.

- و . ه . وولش : مدخل لفلسفة التاريخ ترجمة أحمد حمدى محمود .
- ايسيابرلين : كارل ماركس ترجمة عبد الكريم أحمد .

Beneditto Croce : what is living and what in Dead of the Philosophy of Hegel.

- ج . ه . كول : تاريخ الفكر الاشتراكى (الرواد الأول) ترجمة عبد الكريم أحمد .
- عباس محمود العقاد : الشيوعية والانسانية .

الفلسفة القرآنية

الله

أثر العرب فى الحضارة الأوروبية

- زاهر عزب الزغبى : الاسلام ضرورة عالمية .
- هارولدلاسكى : الشيوعية.

Fundamentals and Marxism — Leninism

- عبد الحميد صديقي : تفسير التاريخ ترجمة كاظم الجوادى .
- كرين برنتن : أفكار ورجال ترجمة محمود محمود .
- حبيب سعيد : أعلام الفكر الأوربي .

أديان العالم

- محمود الشرقاوى : مواقف حاسمة فى تاريخ محمد بن عبد الله .

الدين والدولة العصرية .

الأنبياء فى القرآن الكريم .

العدالة الاجتماعية عند العرب .

Alexander Gray : The Development of Economic Doctrine

- جوستاف لوبون : سر تطور الأمم ترجمة أحمد فتحى زغلول .
- فوستيل دى كولنج : المدنية العتيقة ترجمة عباس بيومى وعبد الحميد الدواخلى .
- الدكتور أحمد عبد القادر الجمال : مقدمة فى أصول النظم الاجتماعية .
- جوستاف لوبون : الحضارة المصرية ترجمة م . صادق رستم .
- جيمس هنرى برستيد : فجر الضمير ترجمة الدكتور سليم حسن .
- روجيه باستيد : مبادئ علم الاجتماع الدينى ترجمة الدكتور محمود قاسم .
- الدكتور عبد المنعم أبو بكر : اخناتون .
- ج . برستيد : تاريخ مصر منذ أقدم العصور ، ترجمة الدكتور حسن كمال .
- سبينو موسكاتى : الحضارات السامية القديمة ترجمة الدكتور السيد يعقوب بكر .
- ل . ويلابورت : بلاد مابين النهرين ترجمة محرم كمال .
- على أدهم : هداة الانسانية فى الشرق .
- أحمد الشنتناوى : الحكماء الثلاثة .
- الدكتور مصطفى الخشاب : تاريخ الفلسفة والنظريات السياسية .
- محمود شلتوت : الاسلام عقيدة وشريعة .

منهج القرآن فى بناء المجتمع

الفتاوى

- توماس ارنولد : الدعوة إلى الاسلام ترجمة الدكتور حسن ابراهيم .
- زكريا هاشم زكريا : المستشرقون والاسلام .

— الدكتور اسماعيل راجى الفاروقى : أصول الصهيونية فى الدين اليهودى .
— الدكتور عبد الوهاب المسيرى : نهاية التاريخ ، مقدمة لدراسة بنية الفكر الصهيونى .
H. G. Wells : A short History of the world, teaching of Jesus.
— رابطة الكتاب المسيحيين بالشرق الأدنى : المسيح ومشكلات العصر .
— محمد أبو زهرة : محاضرات فى النصرانية .
— هارولد لاسكى : العقل والايمان والمدنية .
— ر . ج كولنجوود : فكرة التاريخ ترجمة محمد بكير خليل .
— فرانز روزنتال : علم التاريخ عند المسلمين ترجمة الدكتور صالح أحمد العلى .
— الدكتور محمد البهى : الدين والحضارة والانسانية .
— محمد خلف الله : الثقافة الاسلامية والحياة المعاصرة .
— محمد عزة دروزه : الدستور القرآنى .
— محمد عبده : تفسير جزء عم .

رسالة التوحيد تحقيق طاهر الطناحى :

— عبد المنعم محمد خلاف : المادية الاسلامية وأبعادها .
— الدكتور عيسى عبده ابراهيم : الاسلام والاشتراكية .
— الدكتور راشد البراوى : التفسير القرآنى للتاريخ .
— محمد مصطفى المراغى : حديث رمضان .
— محمد محمد المدنى : المجتمع الاسلامى كما تنظمه سورة النساء .
— الدكتور محمد شوقى الفنجرى : المدخل إلى الاقتصاد الاسلامى .
— الدكتور محمد فهمى لهيطه : علم الاقتصاد .
— الدكتور محمد جمال الدين الفندى : الكون بين العلم والدين .
— مولاى محمد على : الاسلام والنظام العالمى ترجمة أحمد جودة السحار .
— أنور الجندى : الاسلام وحركة التاريخ .
— مالك بن نبى : ميلاد مجتمع ترجمة عبد الصبور شاهين .

٢ — دوائر معارف ودوريات :

— دائرة معارف الشعب .
— موسوعة الهلال الاشتراكية .

— وزارة التعليم العالى : تاريخ العالم .

— وزارة الثقافة والارشاد القومى : تاريخ الحضارة المصرية .

— مجلة المجمع العلمى العربى — دمشق .

— القرآن الكريم .

— الكتاب المقدس .

— كتب التفسير : تفسير ابن كثير .

— تفسير المنار

— كتب الحديث :

— صحيح البخارى .

— صحيح مسلم .

الفصل السابع :

التفسير اليهودى للتاريخ

« ..... وأعطيتهم قلباً ليعرفوا أنى أنا الرب ،
فيكونون لى شعباً ، وأنا أكون لهم إلها »
التوراة

تقوم نظرة اليهود إلى التاريخ أساساً وفى أوسع شمول على المذهب التأليهى (١) ؛ فالطريق إلى فهم التاريخ هو فكرة السيطرة الإلهية . ومع أن الاصحاحات الأولى من سفرهم الأول وهو سفر التكوين ربما اعتبرها بعضهم أسطورية ميثولوجية ، فان تلك الكتب تنطوى على فكرة جوهرية هى أن بداية التاريخ البشرى إنما ترجع إلى الله . فهو الذى خلق الأرض بكل مالها من خصائص تجعل التاريخ ممكناً على ظهرها ؛ وهو الذى خلق الكائنات البشرية فى صورة أرواح لها أبدان ؛ وهو الذى أدخلهم فى رفرف من السعادة والحبور : « جنات عدن » . ولكن التاريخ يحتوى على الشر ، كما أن قصة « سقوط » آدم وحواء ، وهما أول الكائنات البشرية ، تقدم إلينا تبيانا لأصل ذلك الشر (٢) ؛

«١» التاريخ وكيف يفسرونه : ص ٨٥

«٢» غضب الله كما جاء فى سفر التكوين لأن الإنسان أكل من الشجرة التى نهى عنها ، وهى شجرة معرفة الخير والشر ، أو شجرة المعرفة الإلهية فقال الرب الإله : « هوذا الإنسان قد صار كواحد منا عارفاً الخير والشر والآن لعله يمد يده ويأخذ من شجرة الحياة أيضا ويأكل ويحيا إلى الأبد » .

ومن هنا حاقت اللعنة بالانسان لأنه أكل من الشجرة ، وبالمرأة لأنها استمعت إلى غواية الحية ، وبالحية لأنها سولت لها هذا العصيان . وكان قضاء مبرماً على نوع الإنسان كله بعد آدم . فقال الرب الاله للحية : « لأنك فعلت هذا ملعونة أنت من جميع البهائم ومن جميع وحوش البرية ، على بطنك تسعين وتراباً تأكلين كل أيام حياتك ، وأضع عداوة بينك وبين المرأة وبين نسلك ونسلها : هو يسحق رأسك وأنت تسحقين عقبة . وقال للمرأة : « تكثيرا أكثر أتعاب حبلك . بالوجع تلدين أولادا ، وإلى رجلك يكون اشتياقك وهو يسود عليك .

وقال لآدم : « لأنك سمعت لقول امرأتك وأكلت من الشجرة التى أوصيتك قائلا : لاتأكل منها ، ملعونة الأرض بسببك . بالتعب تأكل منها كل أيام حياتك . وشوكاً وحسكاً تنبت لك وتأكل عشب الحقل . بعرق وجهك تأكل حتى تعود إلى الأرض التى أخذت منها لأنك تراب وإلى تراب تعود » (تكوين : ٣) .

ولم يكن الانسان بالمتمرد الوحيد على إرادة الله . فان أبناء الله سكان السماء ، ويرادبهم الملائكة . نظروا إلى بنات الإنسان فرأوا أنهن حسنات فاتخذوا منهن نساء ، وغضب الرب فقال : « لا يدين روحى فى الإنسان إلى الأبد لزيغانه . هو بشر وتكون أيامه مائة وعشرون سنة » .

وبعد ذلك أيضاً « دخل بنو الله على بنات الناس وولدن لهم أولادا ، وهؤلاء هم الجبابرة المشهورون » .. « فرأى الرب أن شر الإنسان قد كثر فى الأرض ، وأن تصور أفكار قلبه إنما هو شرير كل يوم . فحزن الرب أنه عمل الانسان فى الأرض ، وتأسف قلبه . فقال الرب : أمحو عن وجه الأرض الإنسان الذى خلقته : الإنسان مع بهائم ودبايات وطيور السماء لأنى حزنت أنى عملته ، وأما نوح فوجد نعمة فى عين الرب » .

وقد جاء فى الأسفار المتعددة كلام صريح عن تقسيم الخطوط بين الآحاد وبين الشعوب من قبل الميلاد . فن ذلك تمييز بنى إسرائيل على غيرهم من الناس .

ودارس التوراة لايسعه إلا أن ينكر كل أقوال يهوه وأفعاله ، فلا يعقل أن شعبا يسخر إلهه لتحقيق مآربه وأن يحمده إذا حقق له أهدافه وأن يتهمه بكل النقائص من غش وخداع ونفاق إذا جاءت أفعاله على غير هوى شعبه المختار .

إن الذين كتبوا التوراة فى المنفى كانوا أول طبقة فى حكماء صهيون ، وهم الذين رسموا سياسة الوعد الإلهى بأرض الميعاد أرض فلسطين ليكون لهم حق فى أرض اغتصبوها من أصحابها بقرار من رب العالمين .

وتنطوى القصة ضمناً على فكرتين دامتا بقوة فى نظرة اليهود إلى التاريخ .

وأولى هاتين الفكرتين أن للإنسان مطلق الحرية فى طاعة الله وعصيانه . وابتعاد الإنسان عن الله عن طريق المعصية هو أصل الشر وأساسه ، كما أن جميع أنواع الشرور الأخرى تتوقف توقفا مطلقاً عليها ؛ ومع أن الله قد طرد آدم وحواء من جنة عدن ، فانه لم يباعد بين ذاته وبين البشر ، إذ ذهب اليهود إلى ان الله ظل دائماً على اتصال بالناس فى التاريخ . ومع أن سفر « التكوين » يرى أن من اللعنة أن يكتسب الإنسان خبزة بعرق جبينه ، فان الكتب المقدسة تعود بعد ذلك فتعالج الحاجة إلى العمل باعتبارها بركة ونعمة ؛ وقد منح الله الإنسان « حكمة القلب ليقوم بجميع أصناف الأعمال . على أن الكتب المقدسة لم تعطنا أية إشارة من امتناع القوم بوجود أى تقدم متواصل فى التاريخ . وإنما هناك ، على الأصح تعاقب للحركات ، أماما وخلفا ، وأوقات الرخاء وأوقات الشدائد . . .

وقد تدخل الله فى ظروف معينة فى التاريخ . والشر وإن وصف بأنه يهبط على الإنسان أصلا بسبب مغريات الشيطان (وهو روح شريرة) ، إلا أن ما ورد فى الكتب المقدسة العبرانية من إشارات إلى الشيطان قليل .

وتصور اليهود لله يعتبر ذا أهمية قصوى بالنسبة لرآيهم فى التاريخ . فالله روح ولا يمكن أن تمثله صورة مرئية ، ومع ذلك فان الله خلق الإنسان « على صورته ومثاله » وبذا يكون الإنسان روحا أيضا ، وبهذا التماثل فى الوجود ، تستخدم عن الله مصطلحات مماثلة لما يستخدم عن الإنسان . وأنه صاحب حكمة وإرادة ومشاعر كالمحبة والغضب فى سبيل البر والحق .

يعتبر اليهود أنفسهم شعب الله المختار ، أما شعوب العالم فهى فى مركز منحط يطلقون على أفرادها كلمة «الأمميين » هم بتعبير الشاعر البريطانى كبلينج : سلالات دنيا لا شريعة لها[1] وأن يهوه إله شعب شعب إسرائيل ، يغضب من العبريين لالتفاتهم إلى غيره ، وقال لهم كما جاء فى سفر أشعيا الثانى :

« بمن تشبهوننى وتسووننى وتمثلونى لتتشابه » .

وكان النبى أرميا يقول لهم بلسان الرب إلههم :

= وما من شىء فى إسرائيل أصيل ، وكل مابها من لغة وحكمة ومعتقدات دينية قد سلبت من الكنعانيين والمصريين والبابليين فوثائق المعاملات المكتوبة بالخط المسمارى متداولة قبل سنة ٢٠٠٠ ق . م فى آسيا الصغرى وكان استعمال تلك الكتابة المسمارية فى فلسطين أمرا مألوفاً ذائعاً عندحلول القرن الخامس عشر قبل الميلاد ، وقد سرت بجانب هذه المعاملات البابلية التقاليد والقوانين التجارية التى كان التجار البابليون يسيرون على مقتضاها .

وبعض هذه القوانين نفسها مما انحدر إلى البشرية عن طريق قانون حمورابى كانت متداوله الاستعمال كذلك فى فلسطين قبل عهد العبرانيين ، ثم وصلت عن طريق « العهد القديم » إلى الحضارة الغربية .

يقول برستد فى كتابه فجرالضمير : » ولدينا الآن الأدلة الوافرة على أن التطور الدينى الذى أحرزه العبرانيون بعد عودتهم من المنفى (فى بابل) كان متأثرا بتعاليم « زروستر » « زردشت » ، وأنه يجب لذلك أن نضيف إلى المؤثرات الدولية التى تعرضت لها الخلقيات العبرانية ، التعاليم التى جاء بها هذا النبى (الميدى الفارسى) العظيم زروسر «« زردشت » .

«١» فؤاد محمد شبل : المشكلة اليهودية العالمية : ص ٩ .

« إن آباءكم قد تركوني وذهبوا وراء آلهة أخرى وعبدوها وسجدوا لها وإياي وتركوا وشريعتي لم يحفظوا » .

ثم يقول الرب :

« وأعطيتهم قلبا ليعرفوا أني أنا الرب فيكونون لي شعباً وأنا أكون لهم إلها » . كان هو الحاكم على لسان الملك أو الكاهن . وكان الشعب إذا ترك « يهوه » سلمه إلى أيدى أعدائه جزاء وفاقا على تمردهم عليه وعصيانهم له ومخالفتهم لأوامره ونواهيه . فان أظهروا الندم وتابوا توبة صادقة بعث فيهم مخلصا منهم ينشلوهم من الوحدة التي انحدروا إليها لعصيانهم الرب .

ولا يقتصر وصف التوراة(١) لهذا الرب بالتعنت مع شعبه ، إذ تظهره أنه نكد ، متقلب مندفع ، يحب رائحة الشواء ، وأنه يتمشى في ظلال الحديقة ليتبرد بهوائها . ولا يرضى « يهوه » بالقرابين الحيوانية وحدها ، بل لابد من تقديم القرابين البشرية إليه .

---

(١) يشك المؤرخ .. ول ديورانت . في صحة التوراة ، ويرى أن أهواء اليهود قد لعبت بها ، فجعلت من أسفارها سجلا للأحداث التي مرت بهم فكان كل سفر منها يحمل طابع العهد الذي دون فيه ، مصطبغاً بما في نفوس أبناء هذا العهد من بؤس ونعيم ، أو هزيمة وانتصار . إذ لم تكتب التوراة في وقت نزولها على موسى ، وإنما كتبت بعده بمئات السنين .

جاء في سفر التثنية الاصحاح الرابع والثلاثون وصعد موسى من عربات موآب إلى جبل بنو إلى رأس النسجة الذى قبالة أريحا ، فأراه الرب جميع الأرض من جلعاد إلى دان ، وجميع نفتالى وأرض أفرايم ومنسى (ابنى يوسف) وجميع أرض يهوذا إلى البحر الغربي والجنوب والدائرة بقعة أريحا مدينة النخل إلى صوغر . وقال له الرب : هذه هى الأرض التى أقسمت لإبراهيم وإسحق ويعقوب قائلا : لنسلك أعطيها . قد أريتك إياها بعينيك ولكنك إلى هناك لا تعبر . فات موسى عبد الرب في أرض موآب حسب قول الرب . ودفنه في الأجواء في أرض موآب مقابل بيت فقور ، ولم يعرف إنسان قبره إلى اليوم »

إذا أنعمنا الفكر في دراسة هذا الإصحاح نجد رواية تاريخية كتبها كاتب التوراة ولايمكن أن تكون وحياً . فالكاتب يقول : فات هناك موسى عبد الرب في أرض موآب حسب قول الرب ، وهذا الخبر وكل مابعده حتى نهاية الإصحاح هو قرار من الكاتب ، فلا يعقل أن موسى عليه السلام قال بعد موته : « وكان موسى ابن مائة وعشرين سنة حيين مات ولم تكل عينه ولا ذهبت نضارته . فبكى بنو اسرائيل موسى في عربات موآب ثلاثين يوما ، فكملت أيام بكاء مناحة موسى » .

يحكى « ديورانت » قصة الظروف التى أدت إلى التفكير في كتابة التوراة ، والناظر في الظروف والملابسات التى باشرت هذا الحدث يتبين له أن شيئاً من التحريف والتبديل قد دخل على أصل التوراة ، ايناسب الحال التى صار إليها اليهود بعد أن لعبت بهم الأحداث ، وبعد أن أصابهم ما أصابهم على يد الغزاة من تقتيل وتشريد . يقول « ديورانت » : وكان سبب كتابتها – أى التوراة – أن الشعب شرع يرتد عن عبادة « يهوه » إلى عبادة الآلهة الأجنبية ، فأخذ الكهنة يتساءلون : ألم يأن لهم أن يقفوا وقفة قوية يمنعون بها تدهور العقيدة الدينية ؟ ورأوا الأنبياء يعزون إلى يهوه مايجيش في صدورهم من عواطف يؤمنون بها ويعتقدون ، فاعتزموا – أى الكهنة – أن يبلغوا الناس رسالة في الله نفسه في صورة سنن إلهية ، تبيث النشاط والقوة في حياة الأمة الخلقية ، ويضمنون بها معاونة الأنبياء . . وذلك بما تتضمنه من آرائهم القليلة التطرف .. وسرعان ماضموا إلى جانبهم الملك « يوشيا » فلما كانت السنة الثامنة أو نحوها من حكمه – يوشيا – أبلغ الكاهن « حلقيا » الملك أنه « وجد » في سجلات « الهيكل » ملفاً عجيبا ، قضى فيه موسى نفسه على جميع المشكلات التاريخية والخلقية ، التى كانت مثار جدل عنيف بين الكهنة والأنبياء

وكان لهذا الكشف أثر عظيم في نفوس القوم . فدعا « يوشيا » كبارهم إلى الهيكل ، وتلا عليهم فيه سفر « الشريعة » في حضرة آلاف من الشعب ، ثم أقسم ليطيعن من ذلك الوقت ماجاء في هذا السفر » .

ويعلق ديورانت على هذا الخبر فيقول :

وتعدد التوراة أحكامه الجائرة التى لا تعد ولا تحصى كما تبدى التوراة شدة بطشه بالناس كقوة غشوم لا تبقى ولا تذر :

وقد انعكست صفات هذا الرب على شعبه طوال الفترة التى كانوا فيها أقوياء ، فلما أصابتهم النكبة تلو النكبة وحاق بهم الذل والهوان ، واجهوا تحديات عصرهم باستجابات روحانية وعندما اتيحت لهم فرصة الاستبداد والطغيان ارتدوا إلى ماديتهم : وقد تمثلت أولى مكابدات اليهود فى الثورة الاجتماعية والاقتصادية التى أخذت بخناق شعب إسرائيل فى غضون القرن الثامن قبل الميلاد .

وتفسير ذلك أن الاقتصاد النقدى وسبل الحياة الحضرية قد تسربت إلى الريف ومرتفعات كنعان مثلما بسطت ظلها قبل ذلك على المدن الفينيقية والفلسطينية : فكان أن انجرفت ثروة الريف إلى المدن واستأثرت بالثروة قلة من السكان باتت تستمتع بالحياة المترفة ، وتزداد رفاهية وثراء بفضل عمال المضاربة والربا ويستفحل فقر الجماهير العريضة : :

وترتب عن ذلك انقسام الجماعة اليهودية انقساما معنويا : فاندفعت الجماهير الفقيرة تتساءل عن حكم الرب « يهوه » فى هذا الانقسام الاجتماعى ، لقد كانت رسالته تتمثل حتى ذلك العهد فى حماية عصبته من عدوان المجتمعات المعادية ، أما كيف يحمى أغلبية شعبه الساحقة من ظلم أقليته المسيطرة فهذا ما لم يخطر على بال عباده وأصفيائه .

= « ولسنا نعلم على اليقين ماذا كان «سفر الشريعة» هذا فقد يكون سفر الخروج من الإصحاح العشرين إلى الثالث والعشرين — . وقد يكون سفر « تثنية الاشتراع » . وليس ثمة مايضطرنا إلى أن نفترض أنه قد وضع فى تلك الساعة .. فكل مافيه أنه يقنن ، ويسجل أوامر ومطالب ونصائح نطق بها خلال عدة قرون أنبياء بنى اسرائيل وكهنة « المعبد(١) » .

وقد وقعت بعد هذا العهد الذى أقسم فيه اليهود على احترام ماجاء فى سفر الشريعة . وقعت أحداث زلزلت عقيدة اليهود فى « يهوه » وتغيرت تبعاً لذلك نظرتهم الى الحياة .

كانوا قد أصيبوا بضربة قاضية على يد « نبوخذ نصر » فقد دمر الهيكل . وضاع كل أمل اليهود فى إقامة دولة . تعتمد على يهوه . وكان من المحتم ، اجراء تعديل فى الشريعة القديمة التى عثر عليها « حلقيا » وادعى نسبتها إلى موسى عليه السلام . وذلك لكى ترضى الشريعة القديمة تلك النزعة التى ولدتها الأحداث فى نفس اليهود ، والتى تغيرت بها نظرتهم إلى يهوه(٢) .
وكما ظهر « حلقيا » فى الحركة الأولى ظهر « عزرا » فى تلك الحركة ... فى عام ٤٤٤ ق . م .

دعا عزرا — وهو كاهن عالم — اليهود إلى اجتماع عام ، وشرع يقرأ عليهم من مطلع النهار إلى منتصفه — سفر شريعة موسى — وظل هو وزملاؤه سبعة أيام كاملة يقرءون ماتحتويه ملفات هذا السفر . ولما فرغوا من قراءتها أقسم الكهنة والزعماء والشعب على أن يطيعوا هذه الشرائع ، ويتخذوها دستورا لهم يتبعونه ، ومبادىء يسيرون على هديها ، ويطيعونها إلى أبد الآبدين .

وكان هذا ابتداء العهد الجديد .

وقد ظلت تلك الشرائع — شرائع العهد الجديد — من تلك الأيام النكدة إلى يومنا هذا المحور الذى تدور عليه حياة اليهود ، ولايزال تقيدهم بها طوال تجوالهم ومحنهم من أهم الظواهر فى تاريخ العالم(٣) .

«١» قصة الحضارة : ج ٢ ص ٣٥٦ .
«٢» يفسر بعض العلماء اسم يهوه « بأن معناه هو الذى يكون ويفسره آخرون بأن معناه هو الذى يوجد بكسر الجيم أى الخالق .
«٣» قصة الحضارة : ج ٢ ، ص ٣٦٦ .

فى ذلك الحين ، فى القرن الثامن قبل الميلاد ، قال أنبياء اليهود بأن الرب نصير العدالة والحق ، واقتبسوا ذلك كله من صفات « رع » الإله المصرى خاصة ومن قواعد الديانة المصرية عامة ، وهى ديانة تجعل العدالة والحق (أى ما يطلق عليه باللغة المصرية القديمة معات) دعامة المجتمع الفاضل وعماد الحكم الصالح ومبرر طاعة الشعب لحكامه .

ونادى أنبياء إسرائيل وقتذاك بأن على طغاة اسرائيل إظهار الندم على ما ارتكبوه فى حق جماهير الشعب ، والتزام الحق ، والصدق وإلا فان « يهوه » يقابل اساءتهم للشعب بانزال عقابه الصارم على الشعب جميعا ، حكاما ومحكومين .

ولم تجد تحذيرات هؤلاء الأنبياء آذانا صاغية ، أو قلوبا واعية ، فكان أن حاقت النكبات والمصائب باليهود .

وقد ضيق اليهود أفق عبادة « يهوه » فكان شعبه المختار فى مبدأ الأمر شاملا قوم إبراهيم ثم أصبح بعد بضعة قرون مقصوراً على قوم يعقوب بن اسحق ، ثم أصبح محصورا مقصورا على قوم موسى ثم على أبناء داود وعلى من يدينون لعرشه بالولاء . ومن ذريته كان ينبغى أن يظهر المسيح المخلص لهم فى آخر الزمان ، بعد أن وضحت استحالة تحقيق الخلاص بجهود الشعب وحدها . ومناط الخلاص اخضاع العالم بأسره لسيطرة اليهود .

وهكذا عمد اليهود إلى إلقاء عبء تنفيذ مشروع مستحيل التنفيذ من على عاتقهم على عاتق « يهوه » الذى سيقوم هو شخصيا بتنفيذ المشروع واخراجه إلى حيز الوجود لصالح اليهود على حساب بقية شعوب العالم وأجناسه .

ولم يبلغ القدر عند بنى إسرائيل أن يكون نظاما كونياً يجرى عليه قضاء الله مجرى النواميس والشرائع الخلقية ، بل كان « يهوه » يجرى فيه على حكم ثم يندم عليه ويبدله تارة بعد أخرى على حسب الحالة التى تطرأ بغير حسبان ، قال النبى أرميا يتحدث باسم يهوه :

« قم أنزل إلى بيت الفخارى وهناك أسمع كلامى . فنزلت إلى بيت الفخارى إذا هو يصنع عملا على الدولاب . فقد الوعاء الذى كان يصنعه من الطين بيد الفخارى . فعاد وعمله وعاء آخر كما حسن فى عينى الفخارى أن يصنعه فعاد إلى كلام الرب قائلا : أما أستطيع أن أصنع لكم كهذا بيدى يا بيت إسرائيل ؟ يقول الرب : هوذا كالطين بين الفخار أنتم كهذا بيدى يا بيت إسرائيل . وتارة أتكلم على أمة وعلى مملكة بالقلع والهدم والإهلاك فترجع تلك الأمة التى تكلمت عليها عن شرها فأندم على الشر الذى قصدت أن أصنع بها . وتارة أتكلم على أمة وعلى مملكة بالبناء والغرس فتفعل الشر فى عينى فلا تسمع لصوتى فأندم على الخير الذى قلت إنى أحسن إليها به » .

وأكد التلمود تمييز اليهود عن باقى البشر :

« وتتميز أرواح اليهود عن باقى الأرواح بأنها جزء من الله كما أن الابن جزء من والده » ومن ثم

كانت أرواح اليهود عزيزة عند الله بالنسبة لباقى الأرواح ، لأن الأرواح الغير يهودية هى أرواح شيطانية وشبيهة بأرواح الحيوانات[١] ولا يدخل الجنة إلا اليهود ، أما الجحيم ، فهو مأوى الكفار .

وبما أن اليهود جزء من الله كما أن الإبن جزء من أبيه ، لذلك جاء فى التلمود :

« أنه إذا ضرب أممى اسرائيلياً ، فالأممى يستحق الموت »[٢]

وقد صور التلمود غير اليهود بأنهم حيوانات فى صورة إنسان ، هم حمير ، وكلاب ، وخنازير ، بل الكلب أفضل منهم ، لأنه مصرح لليهودى فى الأعياد أن يطعم الكلب وليس له أن يطعم « الأجانب » وغير مصرح له أيضا أن يعطيهم لحما ، بل يعطيه للكلب لأنه أفضل منهم .

« وخلق الله الأجنبى على هيئة الإنسان ليكون لائقاً لخدمة اليهود ، الذين خلقت الدنيا لأجلهم »

إن اليهود يعتبرون أنفسهم مساوين للعزة الإلهية ، فتكون الدنيا لهم ، ولهم حق التسلط عليها[٣] .

والربا محرم فى اليهودية ، قال النبى نحميا فى الاصحاح الخامس من كتابه :

« إنى بكت العظماء والولاة وقلت لهم إنكم تأخذون الربا كل واحد من أخيه »

والمقصود باشارة نحميا أن الربا المحرم هو الربا الذى يأخذه الاسرائيلى من أخيه ، لأن الربا المأخوذ من أبناء الأمم الأخرى مباح كيف كان .

والاصحاح الثالث والعشرون من سفر التثنية صريح فى إباحة أخذ الربا من الأجنبى .

حيث يقول مخاطبا شعب إسرائيل :

«للأجنبى تقرض بربا ولكن لأخيك لا تقرض بربا لكى يباركك الرب إلهك فى كل ما تمتد إليه يدك » .

فليس هذا تحريما إنسانيا منبعثا من شعور بالرحمة والعدل فى المعاملة ولكنه تحريم عصبية يبيح من القسوة على أبناء الأمم الإنسانية كافة ما يحرمه فى معاملة الإسرائيلى لأخيه .

والأسرى يعاملون كالطريدة من الحيوان . جاء فى كتاب التثنية الاصحاح العشرون : .

«حين تقرب من مدينة لكى تحاربها استدعها إلى الصلح ، فإن أجابتك إلى الصلح وفتحت لك فكل الشعب الموجود فيها يكون لك للتسخير وتستعبد لك . وإن لم تسالمك بل عملت معك حربا فحاصرها ؛ وإذا دفعها الرب إلهك إلى يدك فاضرب جميع ذكورها بحد السيف ، وأما النساء والأطفال والبهائم وكل ما فى المدينة وكل غنيمتها فتغنمها لنفسك وتأكل غنيمة أعدائك التى أعطاك الرب إلهك . هكذا تفعل بجميع المدن البعيدة منك جدا التى ليست من مدن هؤلاء الأمم هنا ، أما مدن هؤلاء الشعوب التى يعطيك الرب إلهك نصيباً فلا تستبقى منها نسمة ما بل تحرمها تحريماً .

وقد زعمت كتب اليهود ، أن اسرائيل سأل إلهه قائلا :

« ١ » الكنز المرصود فى قواعد التلمود : ص ٥٠

« ٢ » المصدر نفسه : ص ٥٠

« ٣ » المصدر نفسه : ص ٦٩ — ٧٠

— لماذا خلقت خلقا سوى شعبك المختار ؟

فأجابه قائلا :

— لتركبوا ظهورهم ، وتمتصوا دماءهم ، وتحرقوا أخضرهم ، وتلوثوا طاهرهم ، وتهدموا عامرهم .

إن(١) إدعاء اليهود أنهم شعب الله المختار خرافة مطبقة .

وتلك حالة لا نظير لها على الإطلاق فى تاريخ العقائد الدينية ، فى الحالات الأخرى يندمج الشعب ومعبوده إندماجا تاما منذ البداية ، فى حالات أخرى يتحول شعب إلى عبادة معبوده : أى يختار الناس معبودهم ، ولم يحدث قط — كما فى هذه الحالة — أن اختار الله عابديه . فالمنطق يفرض علينا أن نقرر أن موسى قد جعل من اليهود شعبه ، أى شعبه المختار بعد ما تبين له عزوف المصريين عن الوحدانية .

بنى اليهود نظرتهم فى التفضيل على الناس ، على أساس الوعد الذى قطعه الرب لإبراهيم .

« قال الرب لإبرام ، إذهب من أرضك ومن عشيرتك ومن بيت أبيك إلى الأرض التى أريك ، فأجعلك أمة عظيمة وأباركك وأعظم أسمك وتكون بركة وأبارك مباركيك ، والعن لاعنيك ، وتتبارك جميع قبائل الأرض »(٢) .

إن كل ما حدث فى التاريخ مبنى بناء مباشرا على هذا الأمر والعهد . فهو ليس بمعلول بل علة كل معلول هو العلة الأولى التى لا تفسير ولا داعى ولا سبب لها .

وهذا هو التفضيل الذى يمكن أن يتخذ أساسا للانفرادية عن سائر البشر . وأقام اليهود نظرية تفوقهم على البشر وانفراديتهم عن الناس ، وأفضليتهم على جميع المخلوقات فى نظر الخالق على أساس هذا العهد وعليه وقفوا تكوينهم أمة فريدة تقف من الأمم موقف المختار الذى يتمتع بحقوق ليست لغيره ، وهم يفتخرون ، بأنهم أبناء إبراهيم الذى اختير وفضل على العالمين ، فالاختيار فى نظرهم ، لا للرجل فحسب بل لأبنائه وسلالته ، وهم يعترفون أن هذا الاختيار لم يكن أخلاقيا وليس له علة(٣)

جاء فى سفر التكوين(٤) :

« اسمع يا اسرائيل أنت اليوم عابر الأردن لكى تدخل وتمتلك شعوبا أكبر وأعظم منك ومدنا عظيمة ومحصنة إلى السماء ، قوما عظاما وطولا . بنى عناق الذين عرفتهم وسمعت من يقف فى وجه بنى عناق فاعلم اليوم أن الرب إلهك هو العابر أمامك نارا آكلة . هو يبيدهم ويذلهم أمامك فتطردهم وتهلكهم سريعا كما كلمك الرب . لا تقل فى قلبك حين ينفيهم الرب إلهك من أمامك قائلا : لأجل برى أدخلنى الرب لأمتلك هذه الأرض . ليس لأجل برك وعدالة قلبك تدخل لتمتلك أرضهم بل لكى يفى بالكلام الذى

«١» المشكلة اليهودية العالمية : ص ٤٤ .

«٢» الاصحاح ١٢ : ١ — ٣ .

«٣» دكتور اسماعيل راجى الفاروق : أصول الصهيونية فى الدين اليهودى ، ص ٦٢ .

«٤» الاصحاح ٩ : ١ — ٦ .

أقسم الرب عليه لآبائك إبراهيم واسحق ويعقوب ، فاعلم أنه ليس لأجل برك يعطيك الرب إلهك هذه الأرض الجيدة لتمتلكها لأنك شعب صلب الرقبة[1] » .

فلا يجوز إذا لليهود تبرير اختيارهم على أى أساس خلقى .

يرى الكاتب اليهودى كلود مونتيفيورى فى كتابه « معالم اليهودية المتحررة » أن الله « يتصرف فى تاريخ الإنسان وله فيه هدف . فالتاريخ الدنيوى له قيمته فى حد ذاته ، كما أنه يعد أيضا تمهيدا لحياة مستقبله .

«١» إن الذين كتبوا التوراة بأيديهم فى المنفى كانوا مشردين وكانوا يتطلعون فى شوق ولهفة للعودة إلى أرض كنعان أرض فلسطين ، وما كان لهم حق فى تلك الأرض فارادوا أن يسندوا ذلك الحق بوعد الهى ، فكتبوا بايديهم أن الله سيكون إلها لإبراهيم ولنسله من بعده ، أما باقى البشر . إن كان اليهود يسمحون بأن يكون غيرهم بشرا .فقد تركوا بلا إله ، فاصبح رب الناس ، إله الناس رب العالمين إلها لنسل إبراهيم وحده . وإسماعيل مانصيبه فى هذا الوعد ؟

إنه من نسل إبراهيم فهو يشارك هو وبنوه فى هذا الوعد . ولما كان ذلك لايرضى اليهود فقد أخرجوا إسماعيل وبنيه من ذلك الوعد ، فجعلوا إبراهيم يقول : ليت إسماعيل يعيش أمامك ، فلا يعجب ذلك القول رب اسرائيل الذى لم يكن قد ولد بعد فيقول : « بل سارة امرأتك لتلد لك ابنا وتدعوا اسمه إسحق ، وأقيم عهدى معه عهدا أبديا لنسله من بعده . وأما إسماعيل فقد سمعت لك فيه . ها أنا أباركه وأثمره وأكثره كثيرا جدا . اثنى عشر رئيساً يلد وأجعله أمة كبيرة . ولكن عهدى أقيمه مع إسحق الذى تلده لك سارة فى هذا الوقت فى السنة الآتية » .

وهكذا وضع أول حكماء صهيون أول بذرة فى مشكلةفلسطين ، جعلوا الله بلا سبب معقول يختار إسحق الذى لم يكن قد ولد بعد ليقيم له عهدا أبدياً لنسله من بعده ويخرج إسماعيل من ذلك العهد .

ولم ترو التوراة كيف تحقق وعد الله بأن بارك إسماعيل وجعله أمة كبيرة ، وقد يكون لكتاب التوراة عذر فقد تحقق ذلك بعد عهدهم المهم أنهم وضعوا على لسان الله كلاماً يخدم قضيتهم ويجعل لهم حقاً إلهياً فى أرضفلسطين . وقد ذكر أنبياء بنى إسرائيل أن الختان هو علامة العهد بين الله وبين إبراهيم ونسله . وقد يكون ذلك الكلام صحيحاً او أن الختان لم يكن معروفاً قبل ذلك العصر ولكن قدماء المصريين كانوا يختتنون ، فهل كان الختان علامة عهد بينهم وبين الله ؟

كانت العداوة قائمة بين الكنعانيين أصحاب الأرض الحقيقيين وبينبنى إسرائيل واليهود الذين أرادوااغتصاب الأرض منهم ، ولم ينس الذين كتبوا التوراة فى المنفى تلك العداوة أبدا ، وأرادوا أن يؤكدوا وعد الله باعطاء أرض فلسطين إلى نسل إسحق فجعلوا إبراهيم وهو يجود بأنفاسه يقول لعبده كبير بيته المستولى على كل ماكان له : « ضع يدك تحت فخذى ، فأستحلفك بالرب إله السماء والأرض أنلاتأخذ زوجه لابنى من بنات الكنعانيين الذين أنا ساكن بينهم . بل إلى أرضى وإلى عشيرتى تذهب وتأخذ زوجة لبنى اسحق فقال له العبد: ربما لاتشاء المرأة أن تتبعنى إلى هذه الأرض هل ارجع بابنك إلى الأرض التى خرجت منها « أور بالعراق ؟ فقال له إبراهيم : احترز من أن ترجع يابنى إلى هناك . الرب إله السماء الذى أخذنى من بيت أبى ومن أرض ميلادى والذى كلمنى والذى أقسم لى قائلا : لنسلك أعطى هذه الأرض ، هو يرسل ملاكه أمامك فتأخذ زوجة لابنى من هناك وإن لم تشأ المرأة أن تتبعك تبرأت من حلفى هذا . أما ابنى فلا ترجع به إلى هناك . فوضع العبد يده تحت فخذ ابراهيم مولاه وحلف له على هذا الأمر ؟

ويثور هنا سؤال : إذا كان وعد الله باعطاء أرض فلسطين لإسحق ولنسله معروفاً فكيف خطر على قلب كبير بيت ابراهيم أن يعود بإسحق إلى أور إلى الأرض التى خرج منها إبراهيم ؟

لقد كان وعدا وكان ختانا وكانت ابتهاجات بختان إبراهيم وإسماعيل والعبيد ثم إسحق بعدكل ذلك فكيف غابت كل تلك الإبتهاجات عن كبير بيت إبراهيم ؟ لعل الذين كتبوا التوراة فى المنفى خشوا أن يكون قارىء التوراة قد نسى الوعد فأرادوا أن يؤكدوه كما يفعل معظم القصاصين الذين ينتابهم القلق على قرائهم فيعيدوا سرد بعض الأحداث للتذكرة والتأكيد .

« محمد رسول الله والذين معه ج١٦ ، ص ٣١٠ »

ونحن نعتقد أن الجنس البشرى قد تقدم ولا يزال يتقدم بصورة وإن كانت وئيدة فهى على كل حال أكيدة — من بر هزيل إلى بر دسم غنى ، ومن فكرات أدنى وأشد فجاجة وأكثر خطأ حول الله ، إلى فكرات عنه أعلى وأتقى وأصدق . ومن أجل نفاذ أهدافه فى التاريخ ، يهب الله شعوبا وأفراداً معينة قدرات مختلفة وينوط بهم أعمالا مختلفة .

وهكذا كان اليهود « شعبا مختارا » ، لم يجر اختياره ليحرز النجاح أو الغنى أو القوة أو وفرة العدد ، ولم يجر اختياره من أجل الغنى ولا العلم ولا الفلسفة ، ولكن جرى اختياره ليتعلم ويساعد على نشر المبادئ والخبرة الحقة عن الله والبر ، وعن علاقة الإنسان بالله وعلاقة الله بالإنسان .

وكان مونتيفورى ممن يعتقدون بأن « بقاء الجنس اليهودى » ليس وليد الصدفة : « فانه لم يتم دون إرادة الله ونيته » . وذلك لأن جوهريات الأخلاق والدين كما تعبر عنها الديانة اليهودية أصول عاملة شاملة . ولكن اليهود جنس مثلما أنهم أنصار دين ، وهو يبدى أسفه لأن بعضهم أشد انشغالا بالمسألة الأولى : وهى الجنس ، منهم بالمسألة الثانية : وهى الدين .

وبهذه الحلة يظهرون أنهم لم يقدروا بدرجة كافية ما لديهم من صفة الشمول .

وقد عبر عن رأيه بإن نشر جوهريات الدين اليهودى تمت على يد المسيحية والإسلام أكثر منها على يد اليهود .

ومع ذلك ، « فان المسيحية لا تبدو لليهود سوى مرحلة فى إعداد العالم لتقبل يهودية نقية مصفاة متطورة ومتجهة إلى الشمولية والتعميم »[1] .

إن أحداث التاريخ لا يراها اليهودى لا كأحداث تاريخ لها مسبباتها ومقوماتها ونتائجها التاريخية ، بل كاحداث غيبية ، إلهية تأتى وتروح لالمساسها بواقع الأمور ، بل كجزاء وعقاب لأنه يمعن فى عنصريته، ولم يحافظ عليها ولأنه لم يمتثل لأمر « يهوه » بالمحافظة على العنصر اليهودى صافيا كاملا . أما الأحداث الطيبة فهو يراها لا كنتيجة حتمية لأعماله البارة — مهما كان معنى البر عنده — بل كمكافأة« يهوه » له لأنه حبيبه وشعبه المختار كتنفيذ لعهده الذى قطعه لابراهيم وتحقيقا للقسم الذى أقسمه بأن يبقى على ذرية إبراهيم ونسل داود ومملكته .

ولكن كيف يمكن التوفيق بين الهلاك الذى سينزله « يهوه » بشعبه لإنحرافه وتخلفه عن أرادته بأن يحفظ عنصره ، وبين الخلاص وإعادة المجد الذى لابد « ليهوه » أن يحققه ؟ فاذا كان الهلاك ضروريا ، لا يمكن أن يكون الخلاص ضروريا ، وإذا كان الخلاص ضروريا ولابد منه فيجب أن لا يكون الهلاك ضروريا . لقد حل العقل اليهودى هذه العقدة حلا بارعا : هو نظرية البقاء .

تقول هذه النظرية بأنه مهما تحول الشعب اليهودى عن يهوديته ، ومهما عصى « ليهوه » أوامره ، ومهما خالف فى طقوسه وعاداته ، فان بقية منه لن تتحول ولن تنحرف ولن تتخلف ، بل تبقى على إخلاصها

---

(١) التاريخ وكيف يفسرونه : ص ٩١

وولائها وقداستها وطاعتها وخيرتها وبديهى أن الغاية من هذه النظرية ، هو التمكين من الإبقاء على الشعب اليهودى ، أى العنصرية ، فطالما أن هناك بقية صالحة فالهلاك الكلى ليس ضروريا . ولكن الخلاص ليس للجميع [1] لأن الحقيقة الواقعة هى أن ليس الجميع صالحين ، أى عنصريين . لهذا جاءت نظرية البقية تهدى الخلاص للذين تريد العنصرية اليهودية لهم الخلاص ، كما دفعت بالهلاك إلى الذين كانت تريد لهم الهلاك .

ولهذه النظرية مزية أخرى : فطالما أن الحكم بالهلاك ليس مطلقا ، يتمكن اليهودى فى أى وقت يشاء من الإفلات من قبضة الأخلاق ، وبأخلاقه هو يخلق العنصرية ، أى يجعلها خلقية بنسبة أعمالها إلى البقية الصالحة ، وليس أدل على هذا التلاعب بالأخلاق من أن نقارنه بالحكم القرآنى . ففى القرآن على المؤمنين واجب هو تحقيق أمانة السموات التى رفضتها الملائكة وتقبلها الإنسان ، فان حققها المؤمنون كانت لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار فى الدنيا والآخرة ، وإن لم يحققوها باءوا بغضب من الله كبير ، لا فى الآخرة فحسب ، بل وفى الدنيا أيضا ، بل أكثر من هذا وأشد صراحة ، إن لم يحققوها فسيهلكهم الله جميعا بدون استثناء ويستبدلهم بقوم آخرين يحققوها ويرثون المؤمنين ومالهم من أرض ومال وتاريخ » .

ومما يؤخذ على اليهود أنهم عنوا بتفسير التوراة تفسيرا ماديا محضاً كأنهم يعقدون صفقة تجارية فهم كما يقول المؤرخ البريطانى هـ . ج . ويلز : « يؤمنون بأن الله الرب الأحد للعالمين جميعاً ، رب بر وصلاح ، ولكنهم يقولون أيضا أنه رب تاجر ، فقد عقد فى أمرهم صفقة مع أبيهم إبراهيم ، وهى صفقة جد رابحة لهم ، يلتزم فيها لهم بأن يرقى بهم فى النهاية إلى السيادة على العالم كله [2]

وهذا هو جوهر الخلاف بين اليهودية والمسيحية ، ففى حين كان اليهود يمجدون من ذاتهم ويعلون من شأن أنفسهم بأنهم شعب الله المختار ، وأن الله وعدهم الملك والسيادة على العالم ، إذ بالمسيح يسفه من أحلامهم ويبشر بعقيدة تجب آمالهم فى ملكوت السموات والأرض فينادى بأن الله هو رب البشر جميعاً ، وأن الناس كلهم سواسية أمام الله ، وأن رعاية الله وعنايته تظلل كل أتباعه ، وهذا هو نفسه جوهر الخلاف بين اليهودية والإسلام فلم يميز الإسلام أبناء إسماعيل على غيرهم من الشعوب ولم يجعل لعربى فضلا على أعجمى إلا بالتقوى .

واليهود فى رؤيتهم للتاريخ والواقع المادى لا يرون شيئاً سوى فكرتهم الثابتة الخاصة بالعودة إلى أرض الميعاد لإقامة الدولة اليهودية فيها .

إن « يهوه » لا يتوانى لحظة عن ذكر تلك الأرض ، وإعادة الوعد كأنما قد فرغ من شئون السماء والأرض ولم يعد له شأن غير ذلك الوعد الذى قطعه على نفسه إكراما لهؤلاء العصاة الذين قال عنهم لموسى عليه السلام إنهم سينسون كل ما فعله لهم ويعبدون سواه .

---

(١) أصول الصهيونية : ص ٦٤

(٢) H.G. Wells : A short History of the World; Teaching of Jesus.

ويخاطب الرب يشوع ويعيد له الوعد كأنما يشوع لم يكن مع موسى عليه السلام يوم قال الذين كتبوا التوراة بأيديهم إن الرب نزل فى سحابة وأعاد الوعد إلى موسى وإلى قومه :

« وكان بعد موت موسى عبد الرب كلم يشوع بن نون خادم موسى قائلا : موسى عبدى قد مات ، فالآن قم اعبر هذا الأردن أنت وكل هذا الشعب إلى الأرض التى أنا معطيها لهم — أى لبنى إسرائيل — ، كل موضع تدوسه بطون أقدامكم لكم أعطيته كما كلمت موسى ، من البرية ولبنان هذا إلى النهر الكبير نهر الفرات جميع أرض الحيثيين وإلى البحر الكبير نحو مغرب الشمس يكون تخمكم » .

قاد يشوع جيوش بنى إسرائيل حتى عبروا نهر الأردن . فجعل الذين كتبوا التوراة بأيديهم ذلك الذى حدث فعلا قبل إعادة كتابة التوراة أمرا إلهياً : « وغضب الرب على بسببكم وأقسم إنى لا أعبر الأردن ولا أدخل الأرض الجيدة التى الرب إلهك يعطيك نصيبا . فأموت أنا فى هذه الأرض ، لا أعبر الأردن ، وأما أنتم فتعبرون وتمتلكون تلك الأرض الجيدة . احترزوا من أن تنسوا عهد الرب إلهكم الذى قطعه معكم وتصنعوا لأنفسكم تمثالا منحوتا صورة كل ما نهاك عنه الرب إلهك ، لأن الرب إلهك هو نار آكلة ، إله غيور » .

ويسرد الذين كتبوا التوراة ما حدث لبنى إسرائيل واليهود حتى حملوا إلى بابل أرض السبى على أنه وعد من الله ، ثم لا يتركون اليهود فى ظلام بل يحاولون رفع الروح المعنوية لشعبهم فيجعلون الله لا يتخلى عن شعبه . ولأول مرة نجد أن الرب قد وصف بالرحمة لأن الأمر يتعلق باليهود . « إذا ولدتم أولاداً وأولاد أولاد وأطلتم الزمان فى الأرض وفسدتم وصنعتم تمثالا منحوتاً صورة شىء ما وفعلتم الشر فى عينى الرب إلهكم لإغاظته ، أشهد عليكم اليوم السماء والأرض أنكم تبيدون سريعاً عن الأرض التى أنتم عابرون الأردن إليها لتتملكوها . لا تطيلون الأيام عليها بل تهلكون لا محالة ويبددكم الرب فى الشعوب فتبقون عددا قليلا بين الأمم التى يسوقكم الرب إليها . وتصنعون هناك آلهة صنعت أيدى الناس من خشب وحجر مما لا يبصر ولا يسمع ولا يأكل ولا يشم . ثم إن طلبت من هناك الرب إلهك تجده إذا التمسته بكل قلبك وبكل نفسك . عندما ضيق عليك وأصابتك كل هذه الأمور فى آخر الأيام ترجع إلى الرب إلهك وتسمع بقوله . لأن الرب إلهك إله رحيم لا يتركك ولا يهلكك ولا ينسى عهد آبائك الذى أقسم لهم عليه » .

أحداث وقعت قبل عصر التدوين ودعوة إلى العودة إلى الله لاستنهاض الهمم وتذكير بوعد الله للآباء إنهم فى كل اصحاح من اصحاحات الأسفار الخمسة لاينسون الوعد، ومامن مناسبة تمر دون أن يجعلوا الله يكرر ذلك الوعد وإن موسى عليه السلام يقول فى زعمهم : « ودعا موسى جميع إسرائيل وقال لهم : إسمعى يا اسرائيل الفرائض والأحكام التى أتكلم بها فى مسامعكم اليوم وتعلموها واحترزوا لتعملوها ، الرب إلهنا قطع معنا عهدا فى حوريب . ليس مع آبائنا قطع الرب هذا العهد ، بل معنا نحن الذين هنا اليوم جميعا أحياء . وجها لوجه تكلم الرب معنا فى الجبل من وسط النار أنا كنت واقفا بين الرب

وبينكم فى ذلك الوقت لكى أخبركم بكلام الرب : لأنكم خفتم من أجل النار ولم تصعدوا إلى الجبل : فقال : أنا هو الرب إلهك الذى أخرجك من أرض مصر من بيت العبودية » .

أمر الرب يشوع أن يصنع لنفسه سكاكين من صوان وأن يختن بنى إسرائيل لأن الذين ولدوا فى التيه لم يختنوا : وهذا أمر يدعو إلى التساؤل : فقد جعل الرب الختان عهدا بينه وبين بنى إسرائيل وأمرهم أن يختنوا أولادهم فى اليوم السابع من مولدهم، فهل تعذر على بنى إسرائيل أن يختنوا أولادهم ؟ وإذا كان رجال الحرب لم يختنوا أكانوا يعيشون بلا عهد بينهم وبين ربهم ؟

إن الرب الذى تصوره الذين كتبوا التوراة فى المنفى يهتم جيدا بالختان ، حتى إنه يقول بعد أن يتم ختان الرجال : « اليوم قد دحرجت عنهم عار مصر »

وعملوا الفصح وانقطع المن عنهم لما أكلوا من غلة الأرض ، ثم حملوا تابوت العهد وداروا به حول المدينة فى سبعة أيام : « :::: وكان فى اليوم السابع أنهم بكروا عند طلوع الفجر وداروا دائرة المدينة على هذا المنوال سبع مرات : وكان فى المرة السابعة عندما ضرب الكهنة بالأبواق أن يشوع قال للشعب : اهتفوا لأن الرب قد أعطاكم المدينة : فتكون المدينة وكل ما فيها محرماً للرب . راحاب الزانية فقط تحيا . هى وكل من معها فى البيت لأنها قد خبأت المرسلين اللذين أرسلناهما . وأما أنتم فاحترزوا من الحرام لئلا تحرموا وتأخذوا من الحرام وتجعلوا محله إسرائيل محرمة . وتكدروها ، وكل الفضة والذهب وآنية النحاس والحديد تكون قدساً للرب وتدخل فى خزانة الرب ، فهتف الشعب وضربوا بالأبواق . وكان حين سمع الشعب صوت البوق أن الشعب هتف هتافاً عظيما فسقط السور فى مكانه وصعد الشعب إلى المدينة كل رجل مع وجهه وأخذوا المدينة » .

هذه أمنية الذين كانوا فى الأسر : إنهم لا يريدون أن يخوضوا حربا للعودة إلى فلسطين بل يتمنون أن ينفخ الكهنة فى الأبواق السبعة ، وأن يهتف الشعب هتافاً عظيما فيجد نفسه فى أرض فلسطين . إنها أمنية ليست عزيزة على الرب ولكنها ليست من سنته ، فان الله ينصر من ينصره ، وينصر الذين يقاتلون فى سبيله ، صفا واحداً كأنهم بنيان مرصوص . فالمسلمون قد حاربوا الكفار أعداء الحياة الجديدة التى كان يدعو إليها محمد صلى الله عليه وسلم ، ووقفوا عقبة فى سبيل تقدم البشرية ورقيها ، وأبلى المسلمون بلاء حسنا فى معركة بدر الكبرى فأيدهم الله بالنصر . ودارت معركة رهيبة يوم أحد بين المسلمين وقريش وقد محص الله فيها الذين آمنوا واتخذ منهم شهداء .

إن المؤمنين حقا وصدقا يقاتلون ويجاهدون ويصبرون حتى يأتى النصر من عند الله ، أما أن تسقط أسوار المدن إذا ما نفخ فى الأبواق وصاحت الأصوات صيحات مدوية فانه وهم الحالمين .

وتقوم حروب بين بنى إسرائيل وبين ملوك المنطقة . ويرمى الرب أعداء بنى إسرائيل بحجارة عظيمة من السماء ، ويسلط عليهم البرد، ثم يكلم يشوع الرب « يوم أسلم الرب الأموريين أمام بنى إسرائيل وقال أمام عيون إسرائيل : ياشمس دومى على جبعون وياقمر على وادى أيلون ، فدامت الشمس ووقف القمر حتى انتقم الشعب من أعدائه » .

وينطلق يشوع بن نون يفتح المدن ويقتل الرجال ويشعل فى المدن النيران باسم الرب إله إسرائيل : « فلا تكون عليهم رأفة بل يبادوا كما أمر الرب موسى » .

إن كل شىء فى إسرائيل : بناء المذبح وصنع الفطير وتابوت العهد لا يتم إلا بأوامر من السماء ، فما أيسر أن يضع أحبار اليهود الكلام على لسان الرب أو يجعلوه يهتم بتوافه الأشياء ، فقد زعموا أن الرب علمهم كل شىء حتى كيفية وضع الفطير صفوفاً على المذبح . .

وقد ظهرت ترنيمة لشاعر مجهول ظلت تلهب عواطف اليهود المكبوتة — فى المنفى — وتروى حمى قسوتهم وأنانيتهم وكراهيتهم للناس جميعاً .

وكانت فى عذوبتها وعمقها رجع الصدى لنفوسهم الكليمة فظلت فكرة الدولة اليهودية وحلم العودة إلى أرض الميعاد حية فى ترنيمة هذا المزمور[1] :

« على أنهار بابل هناك جلسنا .
بكينا أيضا عندما تذكرنا صهيون .
على الصفصاف فى وسطها علقنا أعوادنا
لأنه هناك سألنا الذين سبونا كلام ترنيمة ،
ومعذبونا سألونا فرحاً قائلين :
رنموا لنا من ترنيات صهيون .
كيف نرنم ترنيمة الرب فى أرض غريبة ؟
إن نسيتك يا أورشليم فلتنس يمينى مهارتها وليلتصق لسانى بحنكى إن لم أذكرك ،
إن لم أفضل أورشليم على أعظم فرحى .
أذكر يارب لبنى آدوم يوم أورشليم القائلين :
هدوا . . هدوا . . حتى إلى أساسها .
يابنت بابل المخربة .
طوبى لمن يجازيك جزاءك الذى جازيتنا .
طوبى لمن يمسك أطفالك ويضرب بهم الصخرة[2] »
« لماذا رفضتنا ياالله إلى الأبد . . . .
أذكر جماعتك التى اقتنيتها منذ القدم وفديتها سبط ميراثك .

---

(١) يرى الدكتور إسماعيل الفاروقى فى كتابه « أصول الصهيونية فى الدين اليهودى » أن هذا المزمور ألف فى المنفى ، وربما كان مؤلفه أشعيا الثانى بالذات .

(٢) مزامير . ١٣٧ : ١ — ٩

جبل صهيون هذا الذى سكنت فيه .
ارفع خطواتك إلى الحرب الأبدية .
الكل قد حطم العدو فى المقدس .
قد زمجر مقاوموك فى وسط معهدك . .
أطلقوا النار فى مقدسك . دنسوا الأرض مسكن اسمك .
حتى متى يا الله يعير المقاوم ويهين العدو اسمك إلى الغاية .
لماذا ترد يدك ويمينك . أخرجها من وسط حضنك . . .
أفن . . . أذكر هذا أن العدو قد عير الرب وشعباً جاهلا قد أهان اسمك .
لا تسلم للوحوش نفس يمامتك .
قم يا الله . أقم دعواك . أذكر تعيير الجاهل أياك اليوم كله [١]
وتأتى البشرى بأن الخلاص قدم أخيرا ، يقول أشعيا :
« عزوا عزوا شعبى يقول إلهكم :
طيبوا قلب أورشليم ونادوها بأن جهادها قد كمل .
إن إثمها قد عفى عنه .
أنها قد قبلت من يد الرب ضعفين عن كل خطاياها .
على جبل عال إصعدى يامبشرة صهيون [٢] .
إرفعى صوتك بقوة يامبشرة أورشليم .
إرفعى لا تخافى .
قولى لمدن يهودا هوذا إلهك . هو ذا السيد الرب بقوة يأتى وذراعه تحكم له [٣]
هوذا أجرته معه وعجلته قدامه [٤] .
هوذا الأمم كنقطة من دلو وكغبار الميزان تحسب .
هوذا الجزائر يرفعها كدفة .

---

(١) كما قبله ٧٤ : ١ – ٢٢
(٢) المبشرة هى إحدى الفتيات اللاتى كن يتقدمن من طابور الحشد بالأبواق معلنات للناس عودة الجيش ظافرا منتصرا إلى بلده .
(٣) يتخيل هنا أشعيا عودة اليهود المنفيين إلى أورشليم ، كعودة الجيش المنتصر الذى يأتى بقوة ، بل هو يتمثله كأنه الإله يهوه بالذات .
(٤) وكما كان الجيش المنتصر يتقدمه الإسرى والغنائم التى اكتسبها فى الحرب فكذلك جيش يهوه ، أى المنفيون ، يتقدمهم أجرتهم وعملتهم .

ولبنان ليس كافيا للإبقاء وحيوانه ليس كافيا لمحرقة .

كل الأمم كلا شيء قدامه .

من العدم والباطل تحسب عنده[1]

ويتعلل اليهود فى العودة إلى أورشليم بحلم نبي من أنبيائهم يصور إسرائيل يعود مطهرا وقد خلص من دنسه فنى حزقيال :

« هكذا قال السيد الرب .

هآنذا آخذ بنى اسرائيل من بين الأمم التى ذهبوا إليها وأجمعهم من كل ناحية وآتى بهم إلى أرضهم وأصيرهم أمة واحدة على الأرض ، على جبال اسرائيل . وملك واحد يكون ملكا عليهم كلهم ولا يكونون بعد أمتين ولا ينقسمون بعد إلى مملكتين .

ولا يتنجسون بعد بأصنامهم ولا برجاساتهم ولا بشيء من معاصيهم بل أخلصهم من كل مساكنهم التى فيها أخطأوا وأطهرهم فيكونون لى شعباً وأنا أكون لهم إلهاً [2] »

وينسب أشعيا إلى الله هذه الكلمات التى تفيض عنصرية وتبجحاً بشعب إسرائيل .

يقول إن الرب قال :

« وقالت صهيون قد تركنى الرب ، وسيدى نسينى .

هل تنسى المرأة رضيعها ، فلا ترحم ابن بطنها ؟

حتى هؤلاء ينسين ، وأنا لا أنساك .

هوذا على كفى نقشتك . أسوارك أمامى دائما .

قد أسرع بنوك .

هادموك ومخربوك منك يخرجون .

ارفعى عينيك حواليك وانظرى .

كلهم قد اجتمعوا . . .

إنك تلبسين كلهم كحلى وتتنطقين بهم كعروس .

إن خربك وبراريك وأرض خرابك إنك تكونين الآن ضيقة على السكان ويتباعد مبتلعوك .

هكذا قال السيد الرب .

ها أنى أرفع إلى الأمم يدى وإلى الشعوب أقيم رايتى ،

---

(١) أشعيا ، ٤٠ : ١ — ١٧ .

(٢) حزقيال ٣٧ : ٢١ — ٢٣ .

فيأتون بأولادك فى الأحضان وبناتك على الأكتاف يحملن .
ويكون الملوك حاضنيك وسيداتهم مرضعاتك .
بالوجوه إلى الأرض يسجدون لك ، ويلحسون غبار رجليك .
وأنا أخاصم مخاصميك وأخلص أولادك .
وأطعم ظالميك لحم أنفسهم ويسكرون بدمهم ،
كما من سلاف .
فيعلم كل بشر أنى أنا الرب مخلصك وفاديك عزيز يعقوب[1] » .

وليس من شك أن الصهيونية تستوحى إيمانها بصهيون من هذه الكلمات ، وهى تعتقد كما اعتقد أشعيا أن الله ذاته هو الذى يعمل دائما على عودة المنفنيين من اليهود أنى كانوا ، محمولين فى الأحضان ، أو على الأكتاف » إلى أورشليم ، وهناك فى أورشليم سيسجد الملوك وشعوبهم أمام إسرائيل وربها ويعلنون خضوعهم لقانونها[2] .

وإذا كانت التوراة هى التى كونت الشعب اليهودى فان السبى البابلى عام ٥٨٦ ق . م هو الذى دفعهم إلى التجمع حول التوراة وهو الذى نقلهم من شعب بدوى قبلى جاهل لم يسهم بأى قسط فى الحضارات القديمة إلى شعب متحضر يلهبه الشعور العنصرى ، يستطيع أن يقرأ التوراة ويلتمس فيها مثله الدينية والعنصرية ولعل اليهود لم يدركوا من قبل هذه القوى الروحية التى تنطوى عليها ديانة إبراهيم وتعاليم موسى ولا ذلك الإيثار الإلهى الذى كان لهم عند الرب والذى رددته التوراة كثيراً حتى أوجد عندهم نوعاً من التمييز والاستعلاء العنصرى .

إلا أن الشعور العنصرى الذى شمل اليهود إبان السبى البابلى وكان ثمرة الغربة والتجمع حول التوراة ، كان من ناحية أخرى ثمرة التآلف الفكرى لليهود . فكان أن اعتنقوا فكرة أن يظلوا يهوداً فى جميع الظروف والأحوال وأن يقاوموا مغريات الحضارات التى يعيشون بين ظهرانيها خشية أن ينجرفوا فى تيار الإندماج فى مجتمعها فتضيع مقوماتهم الذاتية ، وأن يصمدوا للمحن التى تواجههم بسبب اصرارهم على الاحتفاظ بذاتيتهم المميزة . وذلك إلى أن تسنح لليهودى فرصة العودة إلى « مملكة يهودا » ويقيم هناك دولة لا تقتصر فحسب على المنطقة التى كانت تشغلها هذه المملكة فى سالف الأيام ، بل تضم كذلك جميع الأراضى ، وتخضع كل الشعوب .

ويأمل اليهود فى بعث المسيح المخلص الذى يفك إسارهم ويعود بهم إلى أرض الميعاد فيراه أشعيا رجل أحزان وأوجاع يحمل كل أوزار اسرائيل :

---

(١) أشعيا ٤٩ : ١٤ – ٢٦ .
(٢) أصول الصهيونية فى الدين اليهودى : ص ٧٧ .

« لكن أحزاننا حملها وأوجاعنا تحملها ونحن حسبناه مصابا ومضروباً من الله ومذلولا . وهو مجروح لأجل معاصينا مسحوق لأجل آثامنا تأديب سلامنا عليه وبحبره شفينا[1] » .

ويراه زكريا ملكا وديعاً منصوراً يجيء راكبا على حمار وعلى جحش ابن أتان فيقول :

ابتهجي جداً يابنة صهيون .

اهتفي يابنت أورشليم .

هوذا ملكك يأتى إليك هو عادل ومنصور وديع وراكب على حمار وعلى جحش ابن آتان .وأقطع المركبة من أفرايم والفرس من أورشليم وتقطع قوس الحرب .

ويتكلم بالسلام للأمم وسلطانه من البحر إلى البحر ومن النهر إلى أقاصى الأرض . وأنت أيضاً فأنى بدم عهدك قد أطلقت أسراك من الجب الذى ليس فيه ماء .

أرجعوا إلى الحصن ياأسرى الرجاء .

اليوم أيضاً أصرح أنى أرد عليك ضعفين[2] » .

ويراه حزقيال ملكاً من نسل داود :

« وداود عبدى يكون ملكاً عليهم ويكون لجميعهم راع فيسلكون فى أحكامى ويحفظون فرائضى ويعملون بها .

ويسكنون فى الأرض التى اعطيت عبدى يعقوب إياها التى سكنها آباؤكم ويسكنون فيها هم وبنوهم وبنو بنيهم إلى الأبد .

وعبدى داود رئيس عليهم إلى الابد .

وأقطع معهم عهد سلام فيكون معهم عهدا مؤبداً وآقرهم وأكثرهم وأجعل مقدسى فى وسطهم إلى الأبد .

ويكون مسكنى فوقهم واكون لهم إلها ويكونون لى شعبا .

فتعلم الأمم أنى أناالرب مقدس اسرائيل ،إذ يكون مقدسى فى وسطهم إلى الأبد»[3] .

إن التطور فى فكرة المسيح المخلص هو التطور فى العقيدةالدينية ، التطور من عالم المادة إلى عالم الروح ومن عالم الحس إلى عالم الضمير ومن المراسيم والطقوس الحسية إلى الحقائق المعنوية المجردة .

وجاء المسيح مبشرا بملكوت السماء فعلم الناس أن ملكوت الله قائم فيهم وأنه موجود فى كل زمان ومكان ، وجاء بشيرا ونذيرا للناس كافة لا لجماعة بعينها ولا لقوم دون الآخرين .

---

(١) أشعيا ٥٣ : ٤ — ٦ .
(٢) زكريا ٩ : ٩ — ١٢ .
(٣) حزقيال ٣٧ : ٢٤ — ٢٨ .

وعندما أعلن المسيح أن مملكته ليست فى هذا العالم ، ثار عليه اليهود ووصموه بكل نقيصة بل وأقاموا له الصليب ولكن الله رفعه إليه وجعل كلمته هى العليا .

يقول المؤرخ اليهودى « نحمان كروكمال Nahman Krochmal (١٧٨٥ — ١٨٤٠) فى كتابه « دليل للحائرين هذه الأيام :

« إن الأمة اليهودية ليست مثل بقية الأمم ، فكل الأمم تمر بدورة نمو ثم نضوج ثم اضمحلال ثم موت ؛ أما اليهود فلا يمرون بمثل هذه الدورة إذ أن الحياة تدب فيهم مرة أخرى . ويبدءون دورة أخرى .

ويفسر الكاتب مقدرة اليهود على التغلب على الموت والاضمحلال بأن اليهودية روح سرمدية تعرف سر تجدد الحياة ذاتيا ، فبينما سيطر على الأمم الأخرى وجودها الجسدى أو أرضها القومية ، سيطر على اليهود روح الجماعة « وحدها ، بل إن الكاتب يرى أن روح « هيجل » « المطلقة » ليست سوى إله إسرائيل الذى يرتبط به الشعب الإسرائيلى برباط وثيق ، وتحقيق إرادة هذا الإله أو الروح المطلق هو للشعب اليهودى بمثابة المثل الأعلى بل والمصير المحتوم . وبهذا تصبح الأمة اليهودية ليست ظاهرة حضارية منعزلة عن كل الحضارات القومية الأخرى ، بل على العكس تصبح وثيقة الصلة بها وتحتويها كلها فى وحدة عضوية منسجمة[1] » .

وكل الظواهر التاريخية حسب التصور اليهودى قد قررت حركتها حسب خطة ربانية مسبقة وضعت قبل بدء التاريخ ، بل إن تدخل الله المستمر والعلنى هو تأكيد بأن التاريخ يدفع من الخارج ، وأنه لا مجال للإرادة البشرية فيه .

إن التاريخ[2] اليهودى بدأ من مطلق لا يقبل النقاش أو التقييم (الميثاق مع إبراهيم) يقطعه المطلق من آونة لأخرى (الميثاق مع اسحق ثم يعقوب) وينتهى بمطلق : ظهور المسيح المنتظر .

وتدخل الله المستمر فى التاريخ هو ما يكسبه معنى ويضفى على فوضاه اللامتناهية شكلا : « إن يد الله لم تقد هذا الشعب خلال أربعة آلاف عام وعبر آلام الجحيم ، ولم تحضره مرة أخرى إلى أرضه للمرة الثالثة (فى العصر الحديث) دون أى معنى ومسار التاريخ بهذا المعنى يصبح له هدف واضح ، ويتجسد هذا الهدف فى فكرة المسيح المنتظر الذى هو نهاية التاريخ . إن تقاليد الإيمان بالخلاص تؤكد (وجود النور الروحانى الذى يمكن اليهودى من أن يفهم نفسه ويدرك معنى جميع أحداث تاريخه حتى الجيل الأخير الذى ينتظر الخلاص والذى بات فى متناول يده .

إن مسار التاريخ يصبح واضحا ، له بدايته ونهايته تماماً مثل أى مسرحية ، لأن الأخيار اخيار والاشرار فى منتهى الشر ، كما أنه يشبه أى ميلو دراما لها نهاية سعيدة . إن « موسى » « وإيليا » هما جزء من عملية الخلاص هذه ، أحدهما يمثل بدايتها والأخر قمتها ولذلك فكلاهما يحقق هدفها .

---

(١) للدكتور عبد الوهاب المسيرى : نهاية التاريخ — مقدمة لدراسة بنية الفكر الصهيونى ص ٦٨ .
(٢) المصدر نفسه : ص ٥٦ — ٥٧ .

وأسطورة المسيح المنتظر قد تنطوى على فكرة التقدم نحو هدف أعلى إلا أنها على الرغم من ذلك لا تاريخية لأنها تفترض أولا ثبات النقطة التى يتحرك نحوها التاريخ، ولأنها تفترض ثانيا عدم جدوى الإرادة الإنسانية ، إذ أن العصر « المسيحانى » سيأتى عن طريق تدخل الله .

إن فكرة التقدم والتغير والتبدل ، التى هى عماد التاريخ والوعى التاريخى ، تستند إلى فكرة النمو التدريجى للوعى الإنسانى المستقل الحر عن طريق التجريب والمحاولة الواعيين ، وعن طريق الخطأ والنجاح وكلما نما هذا الوعى كلما ازداد نجاح الإنسان ، وكلما ازداد تحرره من الطبيعة ومن قانون الضرورة وتحكم فيهما ، لذلك يكون الهدف المسيحانى الذى يتسم بالثبات (رغم كل نبله وسموه) والذى يلغى الوعى الإنسانى (رغم كل الفوائد الجمة التى قد تعود علينا من ذلك) هدفاً هو فى صميمه معاد لفكرة التقدم ، لأن الإنسان التاريخى إنسان حر واع متطور ويحور فى هدفه بمقدار زيادة نموه وبمقدار نجاحه وفشله وحسبما تمليه عليه ظروفه المحسوسة[1] .

والتاريخ اليهودى تاريخ مثاليات وكائنات ميكانيكية مقدسة متحركة ، إنه ليس تاريخ بشر محسوسين يعيشون فى فرح وحزن معرضين للنصر والهزيمة .

---

(١) المصدر نفسه : ص٥٧ — ٥٨

الفصل الثامن

التفسير المسيحى للتاريخ

« وإن ابن الإنسان قد جاء لكى يطلب ، ويخلص ما قد هلك ،
فبمحبته ورحمته قد صنع طريقاً للخلاص »
« انجيل لوقا »

تقدم المسيحية التاريخ في صورة ضرب من الدراما المسرحية . والفصل الأول في المسرحية هو « سقوط آدم » بما أعقبه من استمرار الخطيئة ، التي تباعد عن الله ، ذرية آدم .

والفصل الثاني هو دخول الله في التاريخ متجسداً في صورة بشرية في يسوع « المسيح » وتضمن هذا الفصل ما يلي :

(ا) تاسيسه الكنيسة المسيحية بجمعه التلاميذ بتأثيره الشخصي وآسلوب حياته وتعاليمه .

(ب) تخليصه البشرية بوفاته على الصليب .

(حـ) بعثه وصعوده إلى السماء معطيا البشر تأكيدا بخلودهم .

والفصل الثالث هو تبشير العالم بالانجيل تبشيرا مضى مع اتساع نطاق الكنيسة المسيحية . ولا يزال هذا الفصل مستمرا .

أما الفصل الرابع والأخير فهو عودة المسيح للمرة الثانية إلى العالم جالباً معه « يوم الحساب » . وافتتاح مملكة السماء الموسومة بالكمال والمقرونة بإتمام البركات .

أما فيما يتعلق بحياة المسيحيين وانتشار المسيحية في التاريخ ، فان الله حاضر في صورة « الروح القدس » وبهذا المفهوم تصورت المسيحية الله في صورة ثالوث في واحد : الأب والابن والروح القدس . وهم يرون أن الأب يعد بصورة سامية لا تلحق ، خالق الدنيا وبارىء البشر ، وأنه بذلك قد طوع ظهور التاريخ ، ويرون في « الابن » مخلصا قصد به أن يرد التاريخ إلى هدفه الذي أراده الله منه ، ويرون أن الروح القدس هو الذي يطهر الناس في أثناء عملية التاريخ[1] »

جاء في كتاب « المسيح ومشكلات العصر الحديث » : « أثبت[2] التاريخ عجز الإنسان عن خلق مدينة كاملة تتحقق فيها جميع القيم في وقت و حد وبصورة متناغمة . غير أنه لم يكف عن المحاولة للوصول إلى ذلك منذ فجر التاريخ إلى اليوم ، فعبر عن شوقه هذا في مختلف صور تدينه وعقائده وشرائعه ونظمة الروحية والأجتماعية وفنونه وعلومه .

والمسيحية تؤكد صحة هذه المحاولات وتفسر عدم نجاحها بأن سقوط الإنسان في الخطيئة أدخل الشر إلى العالم ، وصدم النفس المخلوقة على صورة الله صدمة عنيفة شوهت قواها دون أن تقضي عليها ، وأسدلت عليها ظلمات دون أن تطوى كل حيويتها ، فظلت تحن إلى قيم الخير والحق والجمال وإلى التعبير عنها بمختلف العناصر المدنية وأشكالها . ونلمس هذه الحقيقة عند الشعوب البدائية والمتحضرة على السواء ، في مختلف صور التدين : الطوطم والطابوية والفيتشية والأرواحية وتعدد الآلهة والتوحيد ، ووراء نظم التعايش الاجتماعي المختلفة والرسوم والطقوس الدينية والفنون المختلفة .

---

(١) التاريخ وكيف يفسرونه : ص ١٠٢ .

(٢) رابطة الكتاب المسيحيين بالشرق الأدنى . ص ١٩ .

إن هذه الإفصاحات والمبدعات الحضارية يشوبها النقص دائماً لأن ناموس الخطيئة الجاثم على أغوار النفس البشرية يحط بكلكله على الإنسان ، ويعمل على سيطرة الشر على التاريخ كله . وتتجلى آثاره فى المرض والألم والموت ، والعداوة والغيرة والخصام والحسدوالقتل والحرب . ويدور تاريخ البشرية كله على الصراع المرير بين هذين العاملين الخطيرين ، عامل الحنين إلى تحقيق قيم الخير والحق والجمال والعيشة بها ، وعامل ناموس الخطيئة الذى يعمل على دفع الإنسان إلى السلبية والعدم بطريق استعباده للغرائز المنحطة والمطالب المادية وتجاهل المطالب العليا الروحية للنفس . ولم تخل مدنية من أثر هذين العاملين .

وقد تجسد كلمة الله وصار بشراً سوياً ، مثلنا فى كل شيء ، ماعدا الخطيئة ، فحمل عنا نيرها إذ مات على الصليب ، ثم قام منتصراً على الشر ونتائجه ، ليعطى الحرية والحياة للمؤمنين به العائشين فيه . ومن بعد صعوده إلى السماء أرسل روحه القدوس ليبقى مع الكنيسة المجاهدة على الأرض ليظل باب الخلاص والتحرر الحقيقى مفتوحا أمام كل نفس إلى منتهى الدهور . وهكذا ظل تأثيره الخلاق فى التاريخ مستمراً بواسطة المؤمنين الواعين إرادته الذين يحيا هو فيهم ، وهم يعملون معه ، لأن المسيحية الحقة ليست تعاليم المسيح الأخلاقية والميتافيزيقية وحدها منفصلة عنه ، وإنما هى المسيح نفسه والحياة به وفيه

ولهذا فان المسيح هو النور الأعظم القائم فى مركز التاريخ ، الذى ينير كل إنسان آت إلى العالم ، وهو الذى يضفى على الحياة معنى ، ويعطى التاريخ هدفاً .

وليس الإنسان المخلص إلا إنسانا جديداً ، ليس هو باليونانى « الوثنى » ولا هو اليهودى المتزمت المغلق على نفسه ، وإنما هو خليقة جديدة . وقد دعا الناس جميعا — بلا تمييز بين ذكر وأنثى — أو عنصرية وأخرى ، أو بين عبد وحر ، وفقير وغنى ، إلى مدنية جديدة متكاملة يشترك الإنسان مع الله فى بنائها » إن الله من صفاته المحبة ، ومحبة الله ظهرت فى تدبيره طريق الخلاص للعالم ، ولأن العالم من عهد سقوط آدم فى الخطيئة ، وهبوطه هو وبنيه إلى الدنيا ، مبتعد عن الله بسبب تلك الخطيئة . ولكن الله من فرط محبته ، وفيض نعمته رأى أن يقربه بعد هذا الابتعاد ، فأرسل لهذه الغاية ابنه الوحيد إلى العالم ، ليخلص العالم .

وقد جاء فى انجيل لوقا :

« وإن ابن الإنسان قد جاء لكى يطلب ، ويخلص ما قد هلك ، فبمحبته ورحمته قد صنع طريقاً للخلاص » .

لهذا كان المسيح هو الذى يكفر عن خطايا العالم ، وهو الوسيط الذى وفق بين محبة الله تعالى ، وبين عدله ورحمته ، إذ أن مقتضى العدل أن الناس كانوا يستمرون فى الابتعاد عن الله بسبب ما أقترف أبوهم ، ولكن باقتران العدل بالرحمة ، وبتوسيط الابن الوحيد وقبوله للتكفير عن خطايا الخلق قرب الناس من الرب بعد الابتعاد ، وقد كان التكفير الذى قام به المسيح هو الصلب ، لهذا صلب ، ورضى الله عن

صلبه ، وهو ابنه ، ودفن بعد الصلب ، ولكنه قام بعد ثلاثة أيام من قبره ، ويقولون إنه كان قد أنبأ بذلك قبل صلبه[١] .

فالتاريخ فى هذا التفسير تحكمه جبرية تجعل الأمم المسيحية تتجه جميعا فى حركة صاعدة إلى مثلها الأعلى ، مهما اقترفت من ذنوب وارتكبت من آثام ، ما دام المسيح عليه السلام قد « خلصها » بصلبه ، فقد رفعت عنها المسئولية وسبقت إلى مصيرها دون مقاومة أو عناء .

والنذر التى يقدمها الله سبحانه وتعالى تبدو فى التفسير المسيحى مسلطة على أولئك الذين لا يؤمنون بفكرة الخطيئة والخلاص .

تولى بولس نشر المسيحية فى أوربا[٢] ، وقد كتب رسائله بعد القرن الأول الميلادى وهى شاهدة على امتزاج الأمثلة الدينية بصور الفلسفة — ولا سيما فلسفة الحلول وكان يقول : إن المسيح جالس على يمين الله ، ويدعو لمن يطلب لهم الخير « أن تسكن فيهم كلمته » ويسأل لهم الغفران منه ، ويبشرهم بأنهم سيبلغون المجد متى عاد إلى الأرض . ويبدو من جملة كلامه أنه كان ينتظر معاده فى زمن قريب ، وكثيراً ما أشار إليه — صلوات الله عليه — باسم « ربنا يسوع المسيح » وسمى نفسه باسم « رسول يسوع المسيح بحسب أمر الله مخلصنا وربنا يسوع المسيح » .

لم يكن بولس[٣] يعتقد أن المسيحيين سوف يعيشون أمداً طويلا فوق هذه الأرض — شأنه فى ذلك شأن أكثر أبناء جيله — وقد قال المسيح نفسه — كما جاء فى الأنجيل الأول :

« سوف يكون هنا نوع من البقاء ، الذى لا يعرف طعم الموت حتى يشهدوا « ابن الإنسان » قادماً إلى مملكته » .

واعتقد المسيحيون الأوائل أن المسيح سوف يعود فى يوم من الأيام ، ويقضى على هذه الدنيا ، دنيا التجربة الحسية ، وسوف يكون هناك حساب فى النهاية ، ونعيم أو جحيم أبدى فى عالم آخر .

ومن الطبيعى أن أولئك الذين كانوا يؤمنون بهذه العقيدة لم يأبهوا بالمشروعات بعيدة المدى ، أو بقياس الميول والاتجاهات ، أو بالعمل البطىء الذى يؤديه المرء بتفكيره العام . ولو أن بولس اعتقد أن الكائنات البشرية سوف تبقى فى ألفى العام المقبلة على الأقل ، لكانت آراؤه — فيما أتصور — أكثر اتفاقا مع الطبيعة البشرية[٤] . ذلك أن كثيرا من تعاليم بولس كانت متزمته ، فقد كانت آراؤه فيما يتصل بالعلاقات الجنسية — على سبيل المثال — صدمة للكثيرين ، والأصحاح السابع من رسالة بولس الرسول الأولى إلى أهل كورنثوس ، والعبارة الصريحة التى جاءت به وهى : « التزوج أصلح من التحرق » هو فى الواقع كلام

---

(١) الأستاذ محمد أبو زهرة : محاضرات فى النصرانية ، ص ١١١ .
(٢) الأستاذ عباس محمود العقاد : كتاب « الله » ص ١٦٩
(٣) كرين برنتن : أفكار ورجال ، ترجمة محمود محمود ص ١٨٤ .
(٤) المصدر نفسه : ص ١٨٤ .

غامض ليس من شك فى أن بولس كان يود لو امتنع الجنس البشرى بأسره عن الاتصال الجنسى . ولكن جانب التجربة والخبرة فى هذا الرجل العملى جعله يدرك استحالة ذلك ، حتى وإن كانت نهاية العالم قريبة منا ، ولذا نصح بالزواج المسيحى .

الحياة الطيبة إذن عند بولس حياة زهد فيما يتعلق بالمتع الحسية ، وهى كذلك حياة خالية من الخطايا البطولية . فقد أراد بولس للرجال والنساء أن يخلصوا أنفسهم من حياتهم الفردية الصغيرة الأنانية ، إلى ذلك التيار العظيم الذى لا يتلاطم فيه الموج ، وهو حياة الروح .

يقول بولس فى الاصحاح الثالث عشر من رسالته الأولى إلى أهل كورنثوس : « المحبة تتأنى وترفق . المحبة لا تحسد . المحبة لا تتفاخر ، ولا تتعالى ، ولا تقبح ، ولا تطلب مالنفسها ، ولا تحتد ، ولا تظن السوء ، ولا تفرح بالإثم ، بل تفرح بالحق ، وتحتمل كل شىء ، وتصدق كل شىء ، وترجو كل شىء ، وتصبر على كل شىء . المحبة لا تسقط أبدا . أما النبوات فستبطل ، والألسنة ستنتهى ، والعلم سيبطل ، لأننا نعلم بعض العلم ، ونتنبأ بعض التنبؤ . ولكن متى جاء الكامل فحينئذ يبطل ما هو بعض . لما كنت طفلا ، كطفل كنت أتكلم ، وكطفل كنت أفطن ، وكطفل كنت أفتكر . ولكن لما صرت رجلا أبطلت ما للطفل . فاننا ننظر الآن فى مرآة فى لغز ، لكن حينئذ وجهاً لوجه . الآن أعرف بعض المعرفة ، لكن حينئذ سأعرف كما عرفت ، أما الآن فيثبت الإيمان والرجاء والمحبة ، هذه الثلاثة ، ولكن أعظمهن المحبة » .

إن بولس لم يهتم بتوسيع فكرة المسيح الأصلية وتنميتها ، وهى فكرة « ملكوت السموات » ولكنه علم الناس أن عيسى لم يكن المسيح الموعود فحسب ، بل إنه ابن الله نزل إلى الأرض ليقدم نفسه قربانا ويصلب تكفيراً عن خطيئة البشر ، فموته كان تضحية مثل ممات الضحايا القديمة من الآلهة فى أيام الحضارات البدائية من أجل خلاص البشرية[1] وعمد بولس إلى إرضاء طبقة السادة والحاكمة فجعل طاعتهم دينا كما طاعة المسيح ، قال للعبيد :

« أيها العبيد ، أطيعوا سادتكم حسب الجسد بخوف ورعدة ببساطة قلوبكم كما للمسيح لا بخدمة العين كمن يرضى الناس بل كعبيد المسيح عاملين مشيئة الله من القلب ، خادمين بنية صالحة كما للرب ليس للناس[2] »

يقول هارولد لاسكى[3] إن الدين المسيحى لم يبطل الرق بل قرر أن الناس ما داموا سواء عند الله فان الرق شىء يتعلق بالظاهر ليس له شأن ما . فالمسيحية إذن قد وجدت مكانها داخل النظام الأجتماعى الرومانى لا خارجه ، ثم جعلها قسطنطين دين الدولة الرومانية فى سنة ٣٥٥ م ، فكانت مصالحها القائمة على التملك هى قوام النظام الاقطاعى .

---

(١) Wells : A Short History of the World, P.P. 178 — 179.

(٢) أفسس ٦ : ٥ — ٧ .

(٣) هارولد لاسكى : العلل الاقتصادية للتاريخ ، تاريخ العالم ، المجلد الأول ، ص ٤٠٧ ترجمة محمود ابراهيم الدسوقى .

وكانت الكنيسة تتحكم فى الوصايا لكيلا يموت أحد دون أن يخلف لها نصيبا مناسباً من أملاكه . وكان أهم سبب حمل البابا جرجرى السابع على إدخال سنة الرهبنة أن زواج رجال الكنيسة كان يغرى القسس بأن يعولوا أسرهم من أملاك الكنيسة . ولما دعا القديس فرنسيس إلى العودة إلى ما كان عليه رسل المسيح من فقر احتالوا على التخلص من هذه الدعوة باقامة نظام للتملك يقول بأن هذه الإملاك أمانة عند ملاكها للطائفة وكان من يخلص لمبادئه يسجن ويعذب .

بل إن الحروب الصليبية نفسها باتت مغامرة تجارية إلى حد كبير ، وكانت صكوك الغفران وما شاكلها موارد للكنيسة أكثر مما كانت عملا من أعمال الدين .

ومن العجيب أن نلاحظ كيف وصمت بالمروق فرق كانت فى العصور الوسطى تسعى إلى تخفيف وطأة النظام الاقتصادى كفرق المتنسكين المختلفة ، وقد كان من الطبيعى أن تصب الكنيسة جام غضبها على من يحاول نقض أساسها لأنها كانت أغنى الملاك جميعاً[1] .

وقد حرر الإصلاح الدينى طائفة من العقائد قوائم حاجات التجارة والصناعة الجديدة إلى حد عجيب ، فبفضله بدأت النزعة الرأسمالية تسيطر على العالم الغربى . كذلك يجب ألا تغيب عنا أن العوامل الاقتصادية كانت أكبر أسباب الإصلاح الدينى فى انجلترا ، فقد كانت الكنيسة الرومانية بغيضة إلى النفوس لما كانت تمتصه من مال البلاد ، وتعد القوانين الخاصة بحرمان البابا من تعيين القساوسة والتدخل فى شئون الدين فى انجلترا ، وهى القوانين التى يرجع عهدها إلى أيام ادورد الثالث احتجاجاً من الدولة على ابتزاز هذه الأموال ، وقد قام الإصلاح الدينى على إبطال هذا الابتزاز من جهة ، كما قام من جهة أخرى على ما فعله هنرى الثامن من منح طبقة جديدة من النبلاء ما يقرب من ربع أملاك الكنيسة المصادرة . فاشترى بذلك تأييدها لنظام فى الحكم كان لولا ذلك خليقاً أن يثير فى أذهانها ريباً خطيرا .

وكان للاعتبارات الاقتصادية دور فى نشأة التسامح فى الدين . فقد أفضى تعدد المذاهب الدينية التى يضطهد بعضها بعضا إلى حقبة من الحروب الدينية . وشاهد ذلك أن فرنسا أنهكتها الفتن تسع مرات بين عامى ١٥٥٩ و ١٥٩٤ ولم يتركوا رأياً فى تبرير التسامح إلا التمسوه فقالوا إن المسيحية تأبى الاضطهاد لأنها تقوم على الحب . وأكدوا أن التعصب لا يعقب صفاء فى القلوب وأنكروا أن الكتاب المقدس يبرر استخدام السيف ، بيد أن الذى أقنع الناس فى الحقيقة بسفه الاضطهاد هو عدم نفعه من الوجهة الاقتصادية .

ويقول لاسكى : فاذا كان التفسير الاقتصادى الذى قررناه فيما سبق هو خير تفسير للتاريخ ، فليس معنى هذا أنه ليست هناك تفسيرات أخرى .

مثال ذلك : أن العوامل الاقتصادية لا تزال عاجزة إلى حد كبير أمام النزعة القومية المتأججة نارها فى قلوب أهل البلقان ، وثمت مئات الألوف من العمال يقدمون نداء الكنيسة الرومانية الكاثوليكية على مطالب الطبقة العاملة التى ينتسبون إليها .

---

(١) يتحدث لا سكى هنا عن الكنيسة الغربية .

ولا ينبغى أن يغيب عنا أيضا أنه إذا كانت النظم الاقتصادية تنتج أفكارا وثقافة فان للفكر والثقافة أثرها فى النظام الاقتصادى . فقد كان للعوامل الاقتصادية أثرها فى نجاح « مارتن لوثر » لكن هناك عوامل أخرى كان لها أثرها فى هذا النجاح ولا تمت إلى الاقتصاد بصلة .

وقد قال ماركس نفسه ذات مرة أن الرغبة فى المساواة من العوامل ذات الأثر الفاصل فى العالم الحديث ، ولا شك فى أن بعض هذه الرغبة وليد الحاجة الاقتصادية ، ومن الجلى أيضا أن معظمها يتسامى عن هذه الحاجة .

على أننا إذ قلنا إن السبب فى كل ما يحدث من تغير هو السبب الاقتصادى فان مراعاة العدل فى شئون الاقتصاد واجبه إذا كان المقصود أن يتم التغيير فى سلام . وقد يكون الاهتداء إلى ما ينطوى عليه هذا العدل قضية عسيرة مضنية ، والحق أنها قضية خليقة بأن تبذل الجهود لفهمها ، وليس ثمت قضية أجدر منها ببذل تلك الجهود .

يقول «نقولا بردياف»[1] : إن الإنسان مدعو لكي يتعاون مع الله فى عملية الخلق والابداع . والهدف ليس خلاص النفس ، فان مثل هذا الهدف ضئيل الشأن ، محدود الأثر . وليس الهدف مجرد خلق نظام بشرى عادل ، تزول فيه الطبقات ، لأن مثل هذا الهدف يغفل الأجيال السابقة التى لم تسعد بمثل هذا المجتمع ، فضلا عن منافاته لنظام الطبيعة . إنما ينبغى أن يكون الهدف « تجلى » العالم بقوة الروح القدس ، ورفع الإنسان والطبيعة للمشاركة فى حياة الله ذاته . وهو يصر كل الاصرار على أن نبدأ لتحقيق هذا الهدف هنا على الأرض ، ومن الآن . وفى هذا يقول : « إن نهاية العالم يعدها الإنسان بنشاطه وإبداعه . وستكون هذه النهاية عملا مشتركا بين الله والإنسان » وبهذه الطريقة تقترن الجهود الحالية لإصلاح المجتمع بالآمال القديمة فى أحياء ملكوت الله الذى سيأتى فى آخر الأمر .

يرى القديس[2] أوغسطين (٣٥٤ — ٤٥٠ م) التاريخ يدور حول كل من المؤقت والأبدى . فالله أبدى وهو خالق الزمن . ولا يجوز فهم الأبدى ولا وصفه من وجهة نظر المؤقت . فالله موجود وحال فى الزمان كله ، مثلما هو أبدى . والزمن وإن لم يمكن فهمه بمفاهيم الذهن ، فمن المقطوع به أنه مما يمارسه الإنسان .

يقول : إذاً ما هو الزمن ؟ . ومن ذا الذى يستطيع فهمه ولو بفكره بحيث يستطيع أن ينطق بكلمة عنه ؟ وأى شىء نذكره فى حديثنا ذكر الدارى الآلف والمدرك العارف أكثر من الزمن ؟

وإذن فما هو الزمن ؟

إذا لم يسألنى أحد عن ذلك ، فانى أعرف ، وأن رغبت فى تفسيره لمن يسأل ، لا أعرف . « والعلاقة بين المؤقت والأبدى ، تلك العلاقة التى يعدها أوغسطين حقيقة وذات أهمية للدين ، غير مفهومة للإنسان .

---

(١) حبيب سعيد : أعلام الفكر الأوربى ص ٧٣ .
(٢) التاريخ وكيف يفسرونه : ص ١٠٥ .

و « الله » فى إطار التاريخ البشرى هو « العناية » فشئون التاريخ الأرضى يتولاها الله الواحد ويحكمها كما يشاء . وليس فى الإمكان مطلقا الاعتقاد بأنه ترك ممالك البشر . . خارج قوانين العناية . فان الممالك البشرية تقوم بفضل العناية ، فهى لم توجد اعتباطاً ولا بحكم إحدى الضرورات . ولابد من قيام « حساب أخير » ونحن وإن لم يتهيأ لنا على الدوام تمييز ذلك الحساب ، فان حكمه « تعالى » موجود فى نسيج الشئون الإنسانية . وحتى عندما يستعرض الإنسان النكبات الظاهرية التى تلم بالطيبين واليسار الذى ينعم به الخبيثون الشريرون ، لا يمكن أن يكون نعت الله بالظلم صحيحا .

وأوضح أوغسطين فى « الاعترافات » كيف أتعبته مشكلة الشر قبل اعتناقه المسيحية ، فتوصل إلى الاعتقاد على أساس من الفلسفة ، أن الشر كله يولد الحرمان ، الذى هو امتناع الخير . وليس هناك على الإطلاق طبيعة تتصف بالشر ، وليس هذا إلا الافتقار إلى الخير . والشر نوعان أحدهما : ما يفعله المرء وثانيهما ما يقاسيه . فما يفعله هو الخطيئة ، وما يقاسيه هو العقوبة . وعناية الله التى تتحكم وتتصرف فى كل شىء ، يسىء الإنسان فيها بالشر بارادته لكى يقاسى من الشر الذى لا يريده .

والخطيئة فى الإنسان تقوم فى قلة إخلاصه لله وعدم قدرته على الالتفات إلى ما فى الوجود الأرضى من خير ، وإلى الخلق الشخصى والحب الاجتماعى الذى يريده الله له . ويقول أوغسطين : إن الخطيئة وإن تكن « وصمة محزنة » فى الفرد ، فان العالم يتزين حتى بالآثمين ذوى الخطيئة .

وعندما وصف الجحيم بأنه أبدى ، فلابد أنه عنى بذلك حالة من الحرمان الذى لا نهاية له . .

والله يجعل غوايات الشيطان للناس لكى يفيد بها الإنسان . وحين « يعرضنا الله للمحن ، فذلك لإحدى غايتين ، إظهار ما بنا من كمالات ، أو تصحيح ما بنا من نقائض ، وفى مقابل صبرنا وتجلدنا على ما يرمينا به الدهر من آلام ، يحتفظ لنا بالثواب الأبدى . . .

وفى كتابه[1] «مدينة الله» لم يجعل المسيحية مجرد دراما ، وإنما ، تقدما عبر الزمن . وأثبت أن كثيراً من المدن والإمبراطوريات قد انحل وسقط قبل وحى المسيحية بزمن طويل ، فان من طبيعة المدن فى هذه الدنيا أن تزول ، وليست هناك مدينة أبدية إلا « مدينة الله » ولم تظهر هذه المدينة بعد على الأرض ، بالرغم من أنا قد وعدنا بها فى هذه الدنيا . ولكن الله قد كشف لنا عن وجودها وهيأ لنا جميعاً عن طريق ابنه يسوع فرصة المواطنة فيها غير أن مدينة الأرض الأخرى سوف تعيش ، والمدينتان فى حرب أهلية أبدية حتى تنفصلا أخيراً وإلى الأبد فى يوم الحساب . ولا ينقسم بعد ذلك المواطنون فيهما بامكان المتحول من مدينة إلى أخرى ، فمن يرضى عنهم الله يباركون إلى الأبد ، من يغضب عليهم يعذبون إلى الأبد .

ورفض أوغسطين قبول نظرية الدورات المتكررة فى التاريخ ، وذلك لأنه من ناحية ، اعتبر أن

«١» أفكار ورجال : ص ٢٣٦ .

« التجسد » تحدث مرة واحدة لا تتكرر ، وتشبهها بمايرويه الكتاب المقدس عن خلق الله للعالم فى ستة أيام واستوائه على العرش للراحة فى السابع[1]

قسم التاريخ إلى سبعة أقسام :

١ — من آدم إلى الطوفان .

٢ — من الطوفان إلى ابراهيم .

٣ — من إبراهيم إلى داود .

٤ — من داود إلى الأسر .

٥ — من الأسر إلى ميلاد المسيح .

٦ — العصر الحاضر .

٧ — الذى سيستريح فيه الله كما حدث فى اليوم السابع ، وسيمنحنا الراحة فى ذاته .

ووازن أوغسطين بين طريقتين للعيش فى التاريخ . وهما تعبران عن اتجاهات الأفراد ومختلف الجماعات الاجتماعية : « ليس هناك أكثر من نوعين من المجتمع البشرى نستطيع بالحق أن نسميهما مدينتين تبعاً للغة التى تستخدمها الأسفار المقدسة ، والنوع الأول يتكون ممن يرغبون فى العيش حسب الجسد واللحم ، والنوع الآخر هو الذى يرغبون فى العيش حسب الروح » :

ويحتوى كتابه « الاعترافات » على تعبيرات كثيرة عن تقديره لما فى الدنيا من خيرات . ولكنها مجرد خيرات مؤقتة ، لا يجوز أن تمنح المقام الأسمى فى الحياة . ولا أن تنشد دون اهتمام بالقيم الروحية ، التى هى شىء ابدى . فلئن كانت حياة المرء مسيطرة عليها الناحية الروحية ، فان فى إمكانه أيضاً أن يطلب ويستمتع بما منحه الله للناس مما خلق فى العالم الفيزيائى .

يقول أوغسطين فى « الاعترافات » : « وذلك أنه حيثما تحولت نفس الإنسان ما لم تتجه إليك » « أنت » ، فانها تكون مركزة على الأحزان . نعم ، وإن ثبتت على الجميل من الأشياء . ومع ذلك ، فان هذه الأشياء (إن كانت) خارج شخصك ، وخارج النفس ، لم تكن لتكون ، ما لم تصدر عنك ، فهى تشرق وتغرب وبشروقها تبدأ كما هو مقدر أن يكون ، وهى تنمو لكى تصل إلى الكمال ، حتى إذا بلغت الكمال شاخت وذبلت ، وكل شىء لا يشيخ ، ولكن كل شىء يذوى ويضمحل . وهكذا إذن ، عندما تقوم الأشياء وتنزع أن تكون ، فكلما زادت سرعة نموها حتى تمكن أن تكون ، زادت سرعة فى ألاّ تكون : وذلك هو قانونها . وذلك هو النصيب الذى قسمته لها ، لأنها أجزاء من اشياء لا توجد فجأة ، ولكنها بذهابها وتعاقبها تكمل مجتمعة ذلك الكون الذى هى أجزاء منه . .

(١) هذه وجهة نظر أهل الكتاب ، وهى تختلف تماماً عن وجهة النظر الاسلامية فالله جل شأنه لايمسه نصب أولغوب . وهو قادر على كل شىء . يقول الله تعالى : « ولقد خلقنا السموات والأرض وما بينهما فى ستة أيام وما مسنا من لغوب » . لغوب للفتور الذى يعقب التعب .

وعلى نحو هذه الطريقة نفسها تقريبا يتم حديثنا بوساطة علامات تصدر صوتا ، ولكن هذا أيضا لا يبلغ الكمال ما لم تمر كلمة واحدة وتذهب فى سبيلها بعد أن تقوم بدورها حتى تستطيع أخرى أن تعقبها . ونتيجة لهذه الأشياء جميعها دع نفسى تسبح بالثناء عليك ياالله ياخالق كل شىء . ولكن لا تدع نفسى أن تثبت على هذه الأشياء بغراء الحب عن طريق حواس البدن . وذلك أنها تذهب حيثما كتب لها أن تذهب ، لكى لا تكون ، وهى تمزقها بالتشوقات الوبيلة ، وذلك لأنها تتشوق أن تكون ، ومع ذلك تحب أن تستريح فيما تحب ، ولكن هذه الأشياء ليس فيها مكان للراحة ، فهى لا تستقر وإنما تفر ، ومن ذا يستطيع متابعتها بحواس الجسد ؟ نعم ، من ذا الذى يستطيع أمساكها وهى أقرب إليه من حبل الوريد ؟ وذلك أن حس جسد (اللحم) مبطىء ، لأنه حس الجسد (اللحم) ، وبذا يكون محدودا ، إذ هو يكفى لما صنع من أجله ، على أنه ليس يكفى لإ يقاف أشياء تجرى شوطها من نقطة ابتدائها المعينة حتى النهاية المعينة . وذلك أنها فى كلمتك ، التى بها خلقت تسمع الحكم بمصيرها ، منذ الآن وحتى الآن : « لقد صنعنا الله من أجل نفسه » كما أن قلبنا سيظل بعيدا عن الراحة حتى يرقد فيه . ومحبة الله ، القيمة العليا فى الحياة البشرية ، تمنح من الرضا ما لا يستطيع شىء آخر منحه .

ويبغى أن تكون تلك المحبة هى المعنى الجوهرى لتاريخ الإنسان على هذه الأرض وما بعدها :

ولم تكن دلالة كلمة « أبدى » عند أوغسطين بالدلالة الفلسفية بقدر ماهى دينية . فالله أبدى بصورة جوهرية من حيث « أنه » موجود أبدا لكى » يستريح فيه الناس » .

هذه أول محاولة تعبر عن نظرة كلية إلى التاريخ وتفسير لمسار وقائعه ومع ذلك يتعذر أن يعد أوغسطين من خلال محاولته هذه مؤسس فلسفة التاريخ لأنه قيد مفهوم العناية الآلهية تقييدا لم يتجاوز فيه أصول الإيمان المسيحى ومن ثم يتعذر أن يسلم بنظريته غير مسيحى ، بل لقد ذهب هرنشو إلى أنها ليست فلسفة ولا تاريخاً ولكن مجرد لاهوت وقصص ، ومجرد مسخ للحقيقة و تخليط لضروب شى من اللغو . وتفلسفه يرد البشر مجرد لعب كلعب الصبيان ، أو مجرد بيادق لا حيلة لها فى اللعبة الرهيبة الدائرة رحاها بين الإله والشيطان على رقعة اللانهائية وخلال آماد الأبدية[١] .

فبعيد عن الحقيقة تصور حضارات العالم القديم على أنها تمثل الشر ، وأبعد عن الحق حتى من الناحية الدينية تصور بنى إسرائيل على أنهم ممثلون للخير أو مدينة الله وإلا كيف يفسر قتلهم الأنبياء بغير حق ، ومن ثم لقد وجدت هذه النظرية ردود فعل عنيفة فى عصر التنوير ، فقد حمل فولتير حملة شديدة على الكنيسة ورجال الدين والمؤرخين الذين اعتمد رأيهم فى التاريخ على الإيمان بالعناية الإلهية . ووجه نقداً مراً إلى أوغسطين لأنه يتجاهل شعوب الشرق ذات الحضارات العريقة ويوجه عناية فائقة إلى العبرانيين ، كما لو كانت تلك الحضارات لا قيمة لها إلا من حيث علاقتهم باليهود .

أن أصل الشعب اليهودى طائفة من الساميين الرحل عاشوا مشتتين فى صحراء ممتدة بين مصر وسورية ، وتشير الوثائق التاريخية القديمة إلى أن أماسيس أو مرينتباح « منفتاح » ملك مصر قد طرد من بلاده قبيلة

(١) هرنشو : علم التاريخ ، ترجمة عبد الحميد العبادى . ص ٢٨ .

من الأشخاص المصابين بالجذام فارتدت نحو الصحراء ، كما يشير تيودور الصقلى إلى أنه حين خاض ملك مصر غمار الحرب فى أراضى الحبشة هاجمت مصر أثناء غيابه عنها جماعة من قطاع الطرق وأعملت فيها السلب والنهب فألقى الملك القبض عليهم عقب عودته وقطع أنوفهم وآذانهم ونفاهم إلى صحراء سيناء حيث صنعوا الشباك لصيد السمان ، هؤلاء هم أجداد اليهود .

ومن الخطأ القول أن اليهود كانوا مضطهدين فى الدولة الرومانية أو غيرها لاعتقادهم فى إله واحد فى عالم وثنى بل لأنهم يمقتون الأمم الأخرى ، أنهم برابرة يقتلون أعداءهم المغلوبين بلا رحمة ، إن هذا الشعب المخرف الجاهل العاطل عن الإبداع الفكرى كان يحتقر أكثر الأمم حضارة : إنهم أحقر شعوب الأرض ، منحطون فى الفقر ، وقحون فى الغنى ، إذا كتب لهم الظفر فتكوا بالمغلوبين وبطشوا بالنساء والأطفال فى نشوة جنونية وإذا كتبت عليهم الهزيمة تجدهم فى ذلة مشينة . فهل شمل الله بعنايته هذا الشعب كما تقول التوراة ليكون شعب الله المختار ، أو ليكونوا مخلص الجنس البشرى ؟

ليست هذه نزعة معادية للسامية ولكنه رد فعل لنظريات التاريخ ضيقة الأفق التى حصرت العناية الإلهية فى تاريخ بنى إسرائيل محتقرة حضارات زاهية متهمة إياها بالخرافة والوثنية ، ومن ناحية أخرى أفصح فولتير عن خطأ الاستناد إلى قصص العهد القديم واتخاذها أساساً للتاريخ ليس لمبالغة هذه القصص فى الاهتمام بالعبرانيين واحتقار شعوب الشرق الأخرى فحسب ، بل لأن هذه القصص موضع شك من الناحية التاريخية :

وقد انتقد فولتير مفهوم العناية الإلهية نقدا جدلياً لاستبعاده كأساس لتحديد مسار التاريخ : وقال : « إن الله خلق العالم وفقاً لقوانين ثابتة لا علاقة لها بأفعال الإنسان من خير أو شر ، وأن الله منح الإنسان العقل ليحسن استخدامه من أجل سعادته وسعادة الآخرين ومن ثم فان التاريخ لا يسير وفقاً لمفهوم العناية الإلهية لدى اللاهوتيين وإنما بمقتضى العقل البشرى نحو الأفضل ، لقد تحرر الإنسان من الجهالة والخرافة فى العصور التى تحكم فيها العقل ، إن التقدم انتصار لقوى النور على الظلام حيث يكون العقل هو المرشد ».(1)

يرى دانتى (١٢٦٥ — ١٣٢١ م) فى الكوميديا الإلهية أن التاريخ البشرى غير مقصور على الأرض وحدها ، بل إنه يتجاوز ذلك إلى ما يصيب الإنسان فى المستقبل من جحيم ومن مطهر وفردوس .

وقد تخيل دانتى — فى خريطة ما وراء الحياة — أن الجحيم يقع فى منتصف الأرض ، أو نقطة الوسط تماما ، وأن جبل « المطهر » يبرز خلال سطح الأرض فى موقع يقابل « بيت المقدس » تماماً ، وأن « جنة عدن » فوق ذروته العليا ، ومنها بدأ يرقى إلى السماء . ومع أن الناس قد يشتركون فى جماعات وجهتها الخير أو الشر ، فان الاتجاهات الروحية والأعمال الخلقية مسائل تخص الأفراد وحدهم ، وتعتمد أساساً على إرادتهم الخاصة : والواقع أن مبدأ العدالة يتدفق فى كل أجزاء الكوميديا الإلهية » ويرسم دانتى فى « الجحيم » صورة واضحة القسمات لخطايا البشر ، إذ يربط كل خطيئة بعقابها : فالجشع الشره مثلا ، يمثله وهو يلغ

(1) فى فلسفة التاريخ : ١٨٣ — ١٨٤ .

فى الأقذار كالخنزير ، والعاشقان الآثمان يرسمهما وعواصف الشهوات تتلاعب بهما فى عنف ، والبخيل يبينه وهو يحاول عبثا أن يزحزح صخورا هائلة .

وبعد أن ألم دانتى بهذه الآثام كلها ، ورجع عن ممارستها ، اقترب من « المطهر » وكأنه طفل ولد لتوه ، فهو طاهر من كل خطيئة من عمله ، وإن ظلت عالقة بروحه اللعنة التى أورثها إياها « آدم » « وحواء » بخطيئتهما ، ولكن هذه اللعنة وما تبقى من ميل إلى الحسد والغرور والكفر ، لا تلبث أن تمحى فى أثناء جهاده لتسلق جبل « المطهر » ، فاذا بلغ قمته ، دخل « جنة عدن » وهو طاهر تماما ، كما كان آدم وحواء ، قبل أن يطردا من الجنة . وإذ ذاك يصبح جديرا بأن يقاد خلال طبقات « الفردوس » مقتربا من الضوء الباهر الذى يعشى العيون . . نور الله .

إن تفسير دانتى للتاريخ البشرى لم يكن تفسيراً يدور حول العالم الآخر تماما . فقد كانت لديه فكرة عن فردوس أرضى يمكن بلوغه فى نهاية الأمر .

يرى جاك بنينى بوسيه (١٦٢٧ — ١٧٠٤) أن التاريخ يمضى فى تعاقب نسبى ، حيث تعتمد حوادث أحد القرون على حوادث القرن الذى سبقه .

قال : « ليس لنا بعد الآن أن نتحدث عن الصدفة ولا الحظ ، أو إن أردنا تحدثنا عنهما على أنهما وصف نخفى به جهلنا . فان ما نعتبره فى رأينا صدفة من الصدف ، يعد تصميما قاطعا » فى رأى أسمى من رأينا ، أى فى الرأى الأبدى الذى يضم جميع الأسباب وكل النتائج فى نظام واحد » .

ووفقاً لهذه الخطة الإلهية تقوم الدول وتنهار ، وتسيطر على الناس فى التاريخ قوة فوقهم ، كلما أنهم يتأثرها ، إذ يعملون أكثر أو أقل مما يقصدونه هم أنفسهم ، ينفذون أوامر العناية الإلهية ، والهدف الجوهرى الذى تهدف إليه البشرية كلها هو الدين . ومن نقطة ارتكاز الدين هذه راح بوسويه بوجه خاص يستعرض التاريخ ويمسحه . على أنه رفض جميع مدعيات الأديان ما عدا أديان العبرانيين والمسيحيين . « إن الله الذى عبده العبرانيون والمسيحيون دائماً ، لا يشترك فى شىء مع الآلهة الأخرى ، البالغة الشر والبعيدة عن الكمال ، والتى عبدها سائر العالم » .

ثم انتهى الأمر بأن ظهر الله للبشر متجسداً فى شخص يسوع المسيح ، مشيراً لهم إلى « طريق جديد » ومعطيا الاتجاه المسيحى للتاريخ . وقد أوضح المسيح صدق الحياة الآخرة ، كما كشف عن أن الصليب(١)

---

(١) يقول الأستاذ حبيب سعيد فى كتابه « أديان العالم » ص ٢٤٠ : « الصليب هو رمز الإيمان المسيحى ، وذلك لأن موت المسيح بأيدٍ آثمة أبغضوه وأساءوا فهم رسالته ، « حقيقة تاريخية » . ويسمى التعليم المسيحى عن الصليب « عقيدة الكفارة » فكأن موت المسيح على الصليب أقام « قنطرة » على الفجوة التى كانت قائمة بين الله والناس . وهذا لا يعنى أن الله قد أنفصل عن البشر وتغاضى عنهم ، ولكن العكس هو الصحيح ، فالناس هم الذين بعدوا عن الله بعصيانهم وذنوبهم ، ولكن محبة الله لهم ظلت قائمة ، وقد حاول الله أن يردنا إليه بمحبته التى تبدت فى المسيح ، لكى نصير خليقة جديدة فيه ، هذا هو لب الإيمان المسيحى والاختبار المسيحى .

وينبغى أن تفكر فى موت المسيح ، لا كموضوع قائم بذاته ، بل مرتبط بما سبقه وما لحق به .. بدعوة المسيح وحياته على الأرض ، حيث كان الله يتكلم فى إبنه (كلمته) ، داعياً الناس إلى الخلاص . وقد بانت محبة الله ورحمته وقوته على الخطية والموت فى

هو السبيل إلى الجنة » ، وقد حمل المسيح الصليب طوال حياته ومات عليه . ومنذ تلك اللحظة فصاعدا تصبح الكنيسة حسبما يرى « بوسويه » ، العامل المركزى فى التاريخ ، ولم يستطع شىء حتى الآن أن يدمرها لا المعارضة من الخارج ولا المنازعات من الداخل .

ويدعم بوسويه وجهة نظرة بقوله إن الكنيسة ظلت منتصرة على الدوام وأن اليهود الذين رفضوا يسوع المسيح ظلوا يقاسون الآلام على الدوام « إن للكنيسة جسماً دائم الوجود لا يستطيع أحد فصل نفسه عنه دون أن يضل الرشاد ، فكل من اتحدوا معها وعملوا أعمالا تليق بعقيدتهم ، فهم على يقين من حياة أبدية » .

وقد علق المؤرخ جون باجنل بيورى (١٨٦١ — ١٩٢٧) على ذلك بقوله ، إن نظرية بوسويه قائمة على : « المبدأ الظاهر الذى لا يكاد يخفى ، من أن البشرية إنما خلقت من أجل الكنيسة . على أن بوسويه ، بما نشأ فيه من نشأة وبيئة ، لم يكن ليتصور إمكان قيام دين حق بدون وجود الكنيسة . ولم تخلق البشرية من أجل خاطر الكنيسة ، ولكن من أجل الحياة الأبدية ، تلك الحياة التى كان بوسويه يعتقد أنه لبلوغها أنشئت الكنيسة[(١)] » .

وفى القرنين السادس عشر والسابع عشر جاء الإصلاح الدينى البروتستنتى ، بيد أنه لم يغير شيئاً من الاتجاه المسيحى للتاريخ ، فقد ظل دعاة الإصلاح يعتقدون أن الحياة على الأرض إنما هى مزرعة للحياة الآخرة . أما ما حدث بعد ذلك من أن معظم البروتستنت أصبحوا يعترفون بالمعانى الأصلية للثقافة ، فلم يكن سوى لون من ألوان التوفيق بين مذهبهم وبين تطورات المذهب الإنسانى وتقدم حرية الفكر . ومع أن البروتستنت رفعوا من قدر الاهتمام بالحياة الدنيا ، فانهم لم يلتمسوا معنى التاريخ فى المفيض الزمنى للأحداث ، فالله فى التاريخ موجود قبل كل شىء من أجل الرفاهية الروحية للأفراد ، وقد شجع حنا كلفن (١٥٠٩ — ١٥٦٤) اجتهاد الإنسان فى عمله ، ومع ذلك طالب بالقصد فى الحياة وترك الترف . أما النجاح فى هذه الحياة الدنيا فأمر يعتمد على الله وحده ولن يؤدى الاجتهاد إلى تقدم أى إنسان « ما لم يمد الله إليه يده ويبسط عليه كرمه »

ويرى كلفن أن الله قد نظم هذا العالم ؛ فكل إماراته ومقاطعاته صور من مملكة السيد المسيح » فيجب علينا ألا نجهل هذه الحقيقة ، كما لا نجهل أنه تعالى يلحظ هذا العالم بعنايته وعدالته ؛ لأن إنكار

= غلبة يسوع على الموت ، وفى القيامة التى زكت هذه الحياة الطاهرة ، وأيدت غلبة الخير على الشر ، والحق على الباطل » وجهة النظر هذه تخالف وجهة النظر الاسلامية يقول الله تعالى فى سورة النساء : « وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وماقتلوه وماصلبوه ولكن شبه لهم وإن الذين اختلفوا فيه لفى شك منه مالهم به من علم إلا اتباع الظن وماقتلوه يقينا . بل رفعه الله إليه وكان الله عزيزا حكيما » .

ويقول الأستاذ الشيخ محمود شلتوت فى كتاب الفتاوى « إنه ليس فى القرآن الكريم ولا فى السنة المطهرة مستند يصلح لتكوين عقيدة يطمئن إليها القلب بأن عيسى رفع بجسمه إلى السماء وأنه حى إلى الآن فيها وأنه سينزل منها آخر الزمان إلى الأرض .
وأن كل ماتفيده الآيات الواردة فى هذا الشأن هو وعد الله عيسى بأنه مستوفيه أجله ورافعه إليه وعاصمه من الذين كفروا ، وأن هذا الوعد قد تحقق فلم يقتله أعداؤه ولم يصلبوه ولكن وفاه الله أجله ورفعه إليه » للتوسع فى هذا الموضوع اقرأ كتاب « الأنبياء فى القرآن الكريم للمؤلف الناشر دار الشعب » .

(١) التاريخ وكيف يفسرونه : ص ١١٠ — ١١١ .

عدالته وعنايته ليس بأهون من إنكار ذاته » فكل ما نشاهده من مظاهر الملك والإمارة والعدالة وسائر التنظيمات السياسية هى أعمال الله التى نقرأ فيها بوضوح وجود الخالق ومجده .

ويضيف كلفن « أن هذه الاعتبارات والأفكار من شأنها أن تزيد فى حبنا لنظام هذه الدنيا لأن الله تعالى قد أقام لنا الدليل على حبه الأبوى وعطفه القدسى بأن وفر لنا الطمأنينة فى ظل عنايته وعدالته[1] » .

وقد اتفق كل من كلفن ومارتن لوثر[2] فى إنكار حرية الاختيار لدى الإنسان بشكل ما . وإن كان لوثر قد سلم بشىء من الاختيار فى الشئون العلمانية . كما أن كلفن لم يقصد أن ينكر الاختيار كله .

قال فى رسالة كتبها ضد أحد الملحدين : « إن هؤلاء الملحدين لا ينسبون إلى الإنسان أى اختيار ، فكأنما هو قطعة من حجر ، كما أنهم يمحون كل تمييز بين الخير والشر ، إلى حد أنه لا يمكن أن يخطىء أحد — فى رأيهم — فى عمل شىء ، ما دام الله هو مرد كل عمل » .

وأصر كلفن على مسئولية البشر فيما يصدر منهم من أعمال . وقصارى ما كان كلفن ولوثر يقصدانه ، أن يضعا فى منزلة الصدارة أن خلاص الإنسان الروحى يعتمد على الله بدرجة أكبر كثيرا من اعتماده على الإنسان نفسه . وأن كون الله فى التاريخ يصنع من أجل رفاهية البشر من الناحيتين البدنية والروحية أكثر من الإنسان ، يعد نقطة جوهرية فى المذهب التألهى المسيحى .

كان دعاة الإصلاح يهدفون إلى الحد من طغيان الكنيسة ، وأعطوا الحكام حق الهيمنة على الكنيسة كى يصلحوها ، ولكن الحكام تقاعسوا ، ومنهم من لم يحاول إصلاح الكنيسة ، بل حاول القضاء على طلاب إصلاحها ، وأنزل بهم اضطهادات وبلايا وشدائد ومذابح . كما حدث لبروتستنت فرنسا ، وكان ذلك إما تعصباً للكنيسة وإما مجاملة ، وإما كراهة للمصلحين ، لأن منهم من كانت لهم آراء فى إصلاح نظم الحكم بجوار آرائهم فى إصلاح الكنيسة ، وقد كان الحكم استبدادياً مطلقاً ، بلا نظام يقيد الحاكم ، ويلزم المحكوم .

فلما يئس طلاب الإصلاح من الحكام كما يئسوا من رجال الكنيسة اتجهوا إلى أن يجعلوا لآرائهم جماعة ، ووحدة دينية منفصلة عن الكنيسة وآرائها غير خاضعة لسلطان الكنيسة ، وأنشئوا لهم كنائس ليست معترفة لكنيسة روما بأى سلطان ، وسلطة رجال الدين فيها محدودة ، ولرجال الدين من الحقوق

---

(١) الدكتور مصطفى الخشاب : تاريخ الفلسفة والنظريات السياسية ، ص ٣٢٧ .

(٢) يعتبر مارتن لوثر زعيم الاصلاح الدينى . وهو راهب ألمانى من رجال القرن الخامس عشر (١٤٨٣ — ١٥٤٦) دافع عن البحث الحر وناقش الدين مناقشة حرة صريحة واعتبره عملا إنسانيا . ويقرر بساطته ووضوحه وسهولة استساغة مبادئه ، وقربه إلى منطق العقل . ويعزو إلى رجال الدين سوء النوايا فى تعقيد أحكامه وتأويل نصوصه ، وإحاطته بهالة من الغموض والإبهام ، والسمو به عن منال العقل الإنسانى .
نادى بضرورة الحد من نشاط البابوية والقضاء على الأساليب الخارجة عن نطاق الدين التى يلجئوا إليها للاثراء والارتماء فى أحضان الشئون الدنيوية التى لاتتفق مع كرامة المنصب البابوى . وأثار عواطف القوميات ومظاهر الحقد الدفين فى قلوب الامبراطورية والبابوية . وساعده فى بداية دعوته بعض أمراء ألمانيا الأقوياء . ووجد ملوك أوربا فى دعوته خير معين للقضاء على نفوذ البابوية والتخلص من مظاهر تحكمها .

ما قرروا من مبادىء ، وسميت هذه الكنائس كنائس انجيلية . أى أنها لا تخضع إلا لحكم الكتاب المقدس ويقيد بأحكامه رجل الدين أمام رجل الشعب ، وجميعهم مسئول أمام ذلك الكتاب .

وقد انتشر المذهب الجديد فى ألمانيا والدانمرك وأسوج والنرويج وهولندا وانجلترا ، وأمريكا الشمالية وسويسرا ، وإن لم تصر كلها على هذا المذهب[1]

أقر[2] فردريك فون شلوجل (١٧٧٢—١٨٢٩) فى كتابه « فلسفة التاريخ » بأن فلسفة التاريخ ينبغى أن تنشأ عن التأمل فى التاريخ الواقعى ، فانه يرى أن بالعقيدة المسيحية أساسيات تعتمد على أشياء بعيدة كل البعد عما يستطيع المؤرخ المحترف الحصول عليه من دراسته للتاريخ . وقد أثبت الاستقراء أن مجرى التاريخ قد تطابق ويتطابق دائما وما فى هذه الأساسيات من مضامين . ذلك أن فلسفة التاريخ نظرا لأنها روح التاريخ أو فكرته ، ينبغى أن تستنبط من الأحداث التاريخية الحقيقية ، التى هى مجموع التاريخ الواحد المتماسك الكلى .

وقد ميز فون شلوجل بين نظريتين رئسيتين متعارضتين حول التاريخ .

والإنسان حسبما ترى النظرية الأولى مجرد حيوان تزكى وشرف وتهذب بالتدريج ، حتى بلغ مرتبة العقل ثم رفع قدره وسما أخيرا إلى العبقرية . وترى تلك النظرة أن تاريخ الحضارة البشرية ليس إلا تاريخ تحسن تدريجى مطرد التقدم ولا نهاية له .

أما النظرية الثانية فترى أن طبيعة الإنسان الحقه ومصيره تقومان فى مشابهته لله وبمقتضاها « ينبغى أن يكون تاريخ الإنسان هو استرجاع المشابهة لله أو التقدم نحو ذلك الاسترجاع .

وتقوم النظرية الأولى مع الاقناع بقابلية الإنسان « للكمال » ، وهو اقتناع سلم فون شلوجل بأن فيه شيئاً بالغ الاتفاق مع العقل ، ومع ذلك ، فان قابلية الإنسان للفساد لا تقل ضخامة عن قابليته للكمال على أن التاريخ الواقعى يكشف عن مجرى للحوادث يتعارض وهذه النظرة .

وقد ذهب فون شلوجل إلى أن الحقيقة التاريخية الأولى ، هى أن الإنسان وقع وسقط تحت سيطرة الطبيعة ، فالقوة العمياء للطبيعة تعمل فى داخله ، وهكذا بذرت فيه بذور الشقاق ، ثم انتقلت إلى جميع العصور والأجيال . وهى تتكرر فى كل فرد . وهى شىء عام منتشر ويمكن اعتباره ظاهرة سيكولوجية . وتوجد عواقب هذا السقوط بين أكناف التاريخ ، إذ ليس هناك حد لما يمكن أن يصيب الإنسان من انحطاط

ويتوقف التقدم أو النكوص جزئيا على الإنسان ، بوصفه روحا ، يملك حرية الاختيار . فالصراع بين الخير أو المبدأ الإلهى فى جانب ، وبين الشر أو المبدأ المعاكس فى جانب آخر ، هو بالضبط السبب فى تكوين فحوى الحياة البشرية والتاريخ البشرى ، منذ بداية الزمان حتى آخره . ويقتضى العمل الكبير المنوط بالبشرية عامة وبكل فرد من الأفراد ، إعادة الانسجام بين الإرادة الطبيعية والإرادة الإلهية . ويؤلف التقدم والنكوصات التى تلم بذلك العمل ، جزءا جوهريا فى التاريخ . .

---

(١) الاستاذ محمد أبو زهرة : محاضرات فى النصرانية ص ١٩٦ .

(٢) التاريخ وكيف يفسرونه : ص ١١٤ .

ويذهب فون شلوجل إلى أن الله عندما خلق الإنسان لأول مرة ، أعلن إليه ذاته تعالى وأوضح له طريقة الحياة التى يقصدها للبشر . وعلى الرغم مما ألم بالبشر فى ناحية تقاليدهم المقدسة من انحطاط ، فان هناك أوضح الدلائل فضلا عن آثار متناثرة للتجلى الأولى ، وإن جاءت مختلطة بالاخطاء فى كثير من الأحيان .

وقد حاول فون شلوجل أن يدلل على ذلك فى استعراضه التفصيلى لتواريخ مختلف الشعوب ، ولحظ أن تلك التواريخ تقع فى عصور مختلفة : فالتاريخ الأول هو تاريخ الطفولة الساذجة ، والتاريخ الثانى هو تاريخ الشباب ، ثم يجىء فيما بعد عنفوان الرجولة ونشاطها ، وتجىء فى النهاية أعراض حلول الشيخوخة وهى حالة انحلال تام . على أن لكل شعب دوره الخاص فى التاريخ : مثال ذلك ، أن الوجود التاريخى للعبرانيين ومصيرهم بأكملهما محصوران بين دفتى واحدة من تلك الحقب الكبرى التى تتجلى فيها تصاريف العناية — وذلك الوجود لا يسجل إلا مرحلة واحدة فى الزحف العجيب الذى تقوم به الإنسانية نحو هدفها المقدس . ومع ذلك فان المجرى الجبار للعدالة الإلهية لا يبرح موجودا طوال جميع عصور العالم : وبهذه الفكرة اعتبر فون شلوجل تشتت اليهود وما أصابهم فيما بعد من شقاء ، جزاء وفاقا لرفضهم الإيمان بالمسيح .

وعلى مدى التاريخ ، وفى ظل العناية الإلهية ، كان الميثاق اليهودى ، والوحى الذى أنزل على العبرانيين ، واللغة اليونانية والفكر اليونانى ، والدولة الرومانية — هى الأركان التى قامت عليها المسيحية أما فيما يتعلق بالأصل الحقيقى للمسيحية فانه يقول : عندما ننظر العملية كلها بعين الإيمان — وعندما نتأمل كل ما نما وترعرع فى العالم منذ تلك اللحظة ثابتاً من بدايات واضحة الضآلة والصغر ، جنحنا إلى الاعتقاد بأن ما فى حياة وموت « مخلصنا » من أسرار ومعجزات ، كلا ، بل مجموع مبادئه كلها التى ترتبط ارتباطاً وثيقاً بتلك الأسرار والمعجزات ، ينبغى أن تترك بحذافيرها للدين « فهى تسمو فوق الفلك العادى للتاريخ ، وهى وإن كانت لها أهمية لدى فلسفة التاريخ ، فانها مما لا يجوز تفسيرها بها . فكل وصف ينعت يسوع المسيح بأنه مجرد إنسان ، فشىء » لا يمت إلى التاريخ « أو هو بالحرى » مضاد للتاريخ » . وبهذه العبارة اعترف فون شلوجل بتصوره للتاريخ مؤكدا أنه يتوافق والعقيدة المسيحية التقليدية . فلو أننا أزلنا هذا حجر العقد وهو العماد المقدس فى عقد التاريخ العام ، سقط كيان التاريخ العالمى بأكمله حطاما وانقاضا . وبغير الإيمان بالاعتقادات المسيحية يصبح العالم بأكمله عدماً لا يزيد عن لغز لا سبيل إلى حله — ويتحول إلى متاهة لا يستطاع اجتيازها — وكومة ضخمة من الكتل والقطع فى عمارة لم يتم بناؤها — وتظل المأساة العظمى للبشرية خالية من كل صدق لائق . وبالمثل ينبغى لسر النعمة الكبيرة المتجلية فى الفداء الإلهى للبشرية ، أن يفهم ضمناً ويفترض مقدما فى فلسفة التاريخ المسيحية . فهو شىء يسمو فوق ذلك التاريخ الدنيوى . على أن المراحل المتعاقبة فى التقدم البشرى تتميز بمعطيات تاريخية ثلاثة :

(ا) وجود وحى أولى (ب) تأسيس المسيحية (حـ) صدارة أوربا العصرية فى مضمار الحضارة . فالفحوى الحق الذى ينطوى عليه التاريخ العصرى هو بث التقدم والمزيد من التطور فيما تتضمنه المسيحية .

ووضع فون شلوجل موازنة بين المؤقت والأبدى ذلك أن روح الزمن « تتعارض والسلطان الإلهى » فضلا عن الديانة المسيحية . وهذه هى الروح التى تبدو واضحة عند من يعتبرون ويقدرون الزمن وكل الأشياء المؤقتة ، لا استناداً إلى قانون الأبدية واحساسها ولكن من أجل المصالح المؤقتة أو بدافع البواعث المؤقتة ويغيرون ما يدور حول الأبدية من أفكار وإيمان أو يقللون من قيمها ، بل وينسونها » .

ويرى هـ . بترفيلد فى كتابه «المسيحية والتاريخ » أن المناهج العلمية فى التاريخ لا يمكن أن تفهم فهماً صحيحاً على أنها محاولات لمعالجة الإنسان بالأساليب الطبيعية بوصف كونه مجرد جزء من الطبيعة الفيزيائية .

فالمؤرخ لا يعامل الإنسان باعتباره جوهريا جزءاً من « الطبيعة » ولا هو يتأمله ابتداء — على هذا الاعتبار . والتاريخ دراما بشرية تجرى حوادثها على مسرح الطبيعة ، إن صح هذا التعبير ، دراما مدارها الحياة البشرية بوصفها شأن الشخصيات الفردية التى تملك الوعى الذاتى والعقل المفكر والحرية .

والتاريخ التكنيكى لا يعرف الناس بمعنى الحياة . كما أن التاريخ الدنيوى لا يفسر نفسه بنفسه . ومع ذلك ، فان التاريخ الواقعى هو عملية صنع الشخصيات ، وأن كان ذلك باذاقتهم الوان الشقاء .

وقد أكد بترفيلد فكرة جوهرية ، فى إصراره على أن التاريخ التكنيكى يتعارض — من حيث المبدأ — مع الاقتصار على البحث عن المعنى فى مستقبل بعيد — على نحو قاطع أو حتى غالب . « ذلك أن تكنيك الدراسة التاريخية ذاته يتطلب أن ننظر إلى كل جيل من الأجيال ، باعتباره — على سبيل المجاز على الأقل — عالم قوم يعيشون بحكم مالهم من حق مقرر » .

« إذ لا يقوم الهدف من الحياة فى المستقبل البعيد . كما أنه ليس كما نتصور أحيانا كثيرة قاب قوسين أو أدنى منا ، ولكنه كله قائم « هنا والآن على أكمل وجه وأوفى صورة ممكنة على ظهر هذا الكوكب على أن الذى يرتبط دائماً بعلاقة مباشرة بالأبدية هو الآن — وليس المستقبل البعيد ، فان الخبرة المباشرة للحياة هى دائما التى تهمنا فى آخر المطاف .

ولما كان التاريخ من حيث الجوهر شأنا يخص افراداً ذوى وعى ذاتى ، وكان التاريخ التكنيكى لا يستطيع إصدار أحكام يوثق بها على معناه — فان كل فرد مضطر بوصفه واقفا بمفرده على هذا العالم ، أن يصدر قراره حول أهمية التاريخ ومعناه . ويمنحنا التاريخ التكنيكى شيئاً من العون . فهو يظهر أنه سواء آمن المرء بالله باعتباره « العناية » أم لم يؤمن . فان فى تكوين التاريخ ضربا من الترتيب الذى تلحظه عين العناية والذى يتجاوز ويختلف عما يعنيه الناس شعوريا ، ويجاهدون قصدا فى بلوغه . وآية ذلك أن ملايين من الناس فى أى قرن معين ، ممن لا يعون شيئاً سوى المضى فى مضطرب الحياة والعمل ، قد استطاعوا مجتمعين أن ينسجوا نسيجاً أجود فى كثير من الوجوه مما دار بخلد أى واحد فيهم . وربما حدث فى بعض الأحيان أن أجيالا تالية فقط هى التى تصبح على بينة من أسلوب ذلك النسيج ومن فكرته المتسامية فوق الرءوس . ويشهد التاريخ التكنيكى بما يشيع بين الناس من معرفة ناقصة معيبة « ذلك أن من التشويه الخطير للصورة أن يفترض وجود عالم يتكون من أناس حكماء بسليقتهم وأبرار بطبعهم » .

« والتاريخ يكشف عن خطيئة الإنسان العامة الانتشار ، وهذه حقيقة من حقائق التاريخ ، وليست فكرة مسيحية . والتاريخ التكنيكي يساند فكرة إصدار الأحكام فى التاريخ ، وإن لم يستطع التأكيد بأنها أحكام كاملة ومضبوطة ، وهو يبدو كأنما يجد أشياء كثيرة تتفق والإقتناع (المعبر عنه قديما فى العهد القديم) بأن الناس يقاسون فى التاريخ ، لا لمجرد ما يقترفونه من سيئات . إذ أن من الآلام ما عرف بأنه ينمى الشخصية ويطورها ، وكثيرا ما يكون الحب مصدر الإلهام فى تحمل الألم عن الآخرين ، ونظرا لأن التاريخ لا يمكن أن يخلو من عنصر المأساة ، فان الحب نفسه يدفع إلى الاشتغال فى محيط الخبرة البشرية بلهيب أشد تأججا .

ويتوقف كل تفسير « للكون وللتاريخ » على إيمان المرء بالله أو عدم إيمانه ، على أن ذلك الإيمان لا يعتمد على التاريخ التكنيكي ، ولا هو فى النهاية يعتمد حتى على الفلسفة نفسها . « وإنى لأعترف بعجزى عن أن أرى كيف يستطيع امرؤ أن يجد يد الله واضحة فى التاريخ الدنيوى ، مالم يكن وجد أولا أن لديه تأكيدا بوجودها صادرا من خبرته الشخصية » . ومع أن « الله » بوصفه العناية « لابد أن يكون قادرا على جلب الخير من الشر » ، فانه تعالى لا يضمن للناس التقدم ومن هنا » وجب علينا ألا نتصور أنفسنا فى صورة من بيدهم وحدهم سلطة صنع التاريخ ، ولكن باعتبارنا مولودين لكى نتعاون « والعناية » هى التى « بيدها مقاليد الكلمة الأخيرة فيما يتعلق بالنتائج » وبهذا الاعتقاد فى الله نتمثل أمامنا صورة لتاريخنا تحت الضوء المناسب إن نحن قلنا : إن كل جيل — بل والحق يقال كل فرد — إنما يوجد من أجل مجد الله ، على أن من أخطر الأمور فى الحياة ، إخضاع الشخصية البشرية للإنتاج ، أو للدولة ، أو حتى للحضارة نفسها ، أى لا شىء ما عدا مجد الله .

ويتحدث بترفيلد عن المسيحية ، فيقول إنها — أى المسيحية — واصلت تمشيها مع ديانة العبرانيين وهى من ثم تعترف بأن « الله هو رب التاريخ » ولكن هناك فوق ذلك نقطة أخرى ، هى أن المسيحية التقليدية ، « ديانة تاريخية بمعنى تكنيكى خاص » وذلك لأنها تذهب إلى أن التجسد والصلب والقيامة كانت أحداثاً فى الزمان . وهى تعد هذه الوقائع بمثابة عملية « اقتناص لشطر من الأبدية » . وإدخاله فى الزمان « مهما يكن معنى ذلك » .

وهو إذ ينظر إلى تاريخ الغرب نظرة مؤرخ محترف ، يبدى استعداده لأن يقول : إن السنوات التى قضاها المسيح على الأرض ينبغى أن تبدو « على كل حال أشد التواريخ مركزية رئيسية » . فعند هذه النقطة تسقط أضواء أقوى على الحساب والمأساة والألم بدل الغير والعناية « فكل إنسان يتأمل الناحية الخلقية للدراما البشرية ، يجد هنا أوج القصة وأزمتها — وهو المكان الذى نستطيع أن نميز فيه شيئاً جوهرياً يدور حول طبيعة التاريخ عينها » .

ولكن الفصل فيما إذا كان ينبغى للمرء أن يتقبل الاعتقادات التقليدية فى التجسد والصلب والقيامة على أنها أمور تاريخية (يخرج عن طريق المؤرخ) .

فلو أن أى إنسان قال : إن التاريخ قد أثبت أو نقض علمياً ألوهية المسيح ، لوقع لنفس السبب فى إثم تلك الصلافة الذهنية التى تعمل عملها فى العلوم جميعاً عندما يعمد كل منها إلى تجاوز حدوده ليحصل على سلطان مغتصب » .

وهو يختم كتابه بتقديم هذه النصيحة :

« تمسكوا بالمسيح ، وفيما عدا ذلك ، ابتعدوا كل البعد عن الالتزام بشىء[1] »

جاء انتصار المسيحية[2] التى تمكنت بمرور القرون من توسيع نطاق الفتوحات التى أحرزتها على الرغم من سقوط روما ، وهكذا بدأ الدين الجديد يكتسح الحضارة الغربية ببطء ولكن بخطوات ثابتة فبعث فى معتنقيه القدرة على التغلب على شعورهم باليأس ومكنهم من استعادة ثقتهم فى المستقبل .

وكانت نتيجة ذلك بمرور الزمن ، أن انبعث جو يسوده الأمل بدلا من اليأس والعمل المتواصل بدلا من الكسل والتراخى .

وكان انتصار المسيحية على الوثنية يعنى إحياء العقل البشرى ، وأتاحت للناس القدرة على مواجهة المستقبل بشكل إيجابى ، بعد أن كانوا يعمدون إلى الوسائل السلبية فى مواجهتهم للمستقبل . وجعلتهم يؤمنون بأنه لابد من أن يصلوا إلى سبيل الخلاص على الرغم من الأعباء التى كان يفرضها عليهم كفاحهم .

وبناء على هذا اليقين الذى بعثته المسيحية فى نفوس الناس وعلى سيطرة العقل على الحوافز التى بعثها الدين فى نفس الإنسان باعتباره عضوا فى المجتمع تمكنت المسيحية من أن تلعب دوراً هاماً فى سبيل إعادة بناء المدنية القديمة . وإننى أعتقد أنه ليس هناك من يستطيع أن يدرس بعناية حالتنا فى العصر الحاضر دون أن يفكر فى أننا نحتاج ثانية إلى بعض الإيمان لإحياء العقل البشرى إذ يبدو أن القيم التى نستشعرها قد انهارت كما حدث أيام تدهور الإمبراطورية الرومانية فالتقدم العلمى والمادى واتساع آفاق المعرفة ، كل هذه العوامل متجمعة لم تمكنا من الشعور بالثقة فى المستقبل ، بل على العكس من ذلك فاننا نرى أن الحرب العالمية الثانية أصبحت تمثل ذروة عصر ساده اليأس

لم يكن الصراع الذى ساده من أجل القيم الإنسانية أقل بشاعة ولا سخرية من أى صراع آخر نشب فى أية فترة مضت منذ عهد الإصلاح حتى الآن .

إن الإيمان بالتقدم قد انحدر فبعد أن كان مبدأ للعمل الاجتماعى أصبح إيماناً خاصا بالدولة الفاضلة يتبع المؤرخ فى تحليله له نفس الأسلوب الذى يتبعه عند دراسته لزوال أى إيمان بمذهب أو بأى عقد اجتماعى .

إن الفكرة القائلة إن هدف المجتمع هو إرضاء شعور الشخصية الإنسانية بالعزة — هذه الفكرة التى أخذت تعمل قرنا من الزمن على الأقل على تخطى عقبات المولد والجنس والغنى والعقيدة — هذه الفكرة بدأت تزول وتندثر قبيل ظهور الفكرة القائلة إن جموع الشعب لا تليق لتولى السلطة وأن الفئة الممتازة هى

---

(١) التاريخ وكيف يفسرونه : ص ١٢٣ — ١٢٥

(٢) هارولدلاسكى : العقل والإيمان والمدنية ص ٣١ .

التي لها القدرة على مزاولة السلطة . ولم يعد لمبادىء الإخاء والمساواة أية قيمة فى كل مكان بل إن فكرة الحرية نفسها كانت تعتبر سلطة وكان على كل حكومة رشيدة أن تحدد استهلاكها بين المواطنين ، وكانت فى كل أمة طبقة قليلة العدد تغرق فى الترف والنعيم إلى درجة خيالية بحيث يمكننا أن نقارن الفارق بين مستوى كل من طبقتى المجتمع فى الوقت الحاضر بذلك الفارق الذى كان قائماً بين الطبقة الارستقراطية وطبقة الدهماء فى أواخر أيام الإمبراطورية الرومانية . وإن كان الأثرياء فى روما مقابل الإمتيازات العظيمة التى كانوا ينعمون بها فقد أصبحت الخدمات الإجتماعية الفدية التى يدفعها الأغنياء فى عصرنا الحاضر لإقصاء جميع الشعب عن الاهتمام بالأمور التى تتصل بالنظام الاجتماعى الذى يعتبر تشجيع الشعب على بحثه ودراسته أمرا خطيرا . إن انهيار القيم أصبح واضحا فى كل مكان .

كانت الفضيلة العظمى التى صاحبت الكنيسة المسيحية فى أوائل عهدها تكمن فى تأكيدها تهذيب الرجل العادى . إذ أنها أتاحت لأدنى المؤمنين بها الحق فى الإيمان بالخلاص كما حطمت نطاق القومية الضيق الذى كانت تنحصر فيه العقيدة وعملت على الانطلاق إلى العالمية التى جعلت أوجه التشابه بين الأفراد أكثر أهمية من أوجه الخلاف بينهم ، لذلك كان العبد الأسود الذى يعيش بالاسكندرية بمجرد أن ينعم بهذا الإيمان يستحوذ على منبع فياض لغذاء روحى يزيد حياته الباطنية سعادة مهما يلق من العذاب على أيدى سادته الوثنيين الذين كانت لهم سلطة الحياة والموت . : والواقع أن إيمانه بأنه سيموت فى سبيل الله الذى يعبده أكد له فكرة الخلاص التى جعلته يلقى على جميع الأشياء نظرة جديدة وتقديرا مختلفا عما قبل .

كان من نتيجة هذه الأفكار المسيحية أن أثرت على فكرة التاريخ فى ثلاثة اتجاهات[1] :

(ا) ظهور نزعة جديدة نحو التاريخ ، تذهب إلى أن نشاط الأحداث التاريخية ليس من قبيل النشاط الإنسانى وأهدافه ، وإنما هو إقرار لمشيئة الله . وما دامت مشيئة الله قد قصد بها أن تكون مشيئة الإنسان . . مشيئة متضمنة فى الحياة الإنسانية وتتحقق عن طريق الإرادة الإنسانية ، فان نصيب الله نشاط هذه الاحداث ، مقصور على تقديره السابق للهدف وعلى تحديد الأهداف التى ترغب فيها الإنسانية بين آن وآخر . ومعنى ذلك أن كل فرد من بنى الإنسان يعرف ما يحتاج إليه ، ثم يلتمس السبيل لتحقيقه ، ولكنه لا يعرف لماذا يحتاج إلى هذا الهدف بالذات. بل إن السبب فى احتياجه إلى هذا الشىء بالذات ، هو أن الله قد كتب عليه أن يحتاج إليه لأنه بذلك يساهم فى تنفيذ مشيئة سبق تقديرها فى علم الله .

ونحن نجد هنا فى معنى من المعانى ، أن الإنسان هو القوة الفعالة فى أحداث التاريخ ، لأن كل حادثة من هذه الأحداث ترتبت على إرادته ، ثم نجد فى معنى آخر أن الله هو القوة الوحيدة ، إذ الواقع هو أن نشاط الإرادة الإلهية وحدها ، هو الذى يدفع الإرادة الإنسانية فى أية لحظة من لحظاتها صوب هذه النتيجة ، لا نتيجة أخرى تختلف عنها . كذلك نجد فى معنى من المعانى ، أن الإنسان هو الهدف الذى من أجله تنشط الأحداث التاريخية لأن مشيئة الله تقتضى الإبقاء على مصلحة الإنسان ، وكذلك نجد فى معنى آخر أن حياة الإنسان إن هى إلا إرادة قصد بها تنفيذ المشيئة الإلهية ، لأن الله لم يخلقه إلا تحقيقا لمشيئته التى

---

(١) ر . ج . كولنجوود : فكرة التاريخ ، ترجمة محمد بكير خليل ص ١٥٠ .

تتحقق عن طريق الحياة الإنسانية ونشاطها فى هذه الحياة الدنيا . وهذا التقدير للنشاط الإنسانى مكسب عظيم للتاريخ ، ذلك أن الاعتراف بأن الأحداث الإنسانية مستقلة عن إرادة أى إنسان ، أو غير مشروطة بها ، أمر لابد من افتراضه مقدماً إذا أريد فهم الأحداث التاريخية وماهيتها .

(ب) وهذه النظرية الجديدة للتاريخ لا تيسر لنا الوقوف على حقيقة نشاط القوى التاريخية فحسب ، وإنما تفسر لنا كذلك حياة وطبيعة القوى نفسها بوصفها الأساليب التى ابتدعتها الأهداف الإلهية ، ومن ثم كانت لها أهميتها التاريخية . وكما أن روح الفرد شيء قد خلق وتبلور فى وقته ليستوفى تلك الخصائص التى يتطلبها الوقت إذا كان لمشيئة الله أن تنفذ ، فكذا نجد أن شيئاً مثل روما ، ليس من قبيل القيم الأبدية وإنما هو شيء زائف موقوت ، برز إلى الوجود فى الوقت التاريخى المناسب ليؤدى وظيفة معينة محدودة ، ثم يمضى بعد ذلك حين تنتهى المهمة التى خلق لها .

لقد استحدث هذا الضرب من التدليل ثورة عميقة فى التفكير التاريخى ، كان معناه أن عملية التغيير التاريخى ، لم تعد ظاهرة عابرة تطفو على سطح الأحداث ، ومن ثم تتناول الأعراض لا الجوهر ، وإنما عملية تتناول جوهر هذه الأحداث ، وبذلك تنطوى على عملية بناء حقيقى وهدم حقيقى أيضا . وليست عملية الأحداث المتغيرة هذه إلا تطبيقاً لفكرة مسيحية فى نطاق التاريخ . . . فكرة تذهب إلى أن الله ليس مجرد صانع ، صاغ هذه الدنيا من مادة أزلية كانت موجودة قبل ذلك ولكنه خالق خلقها من العدم .

والواقع أن التسليم بأن العملية التاريخية تبتدع الأداة الكفيلة بسريان نشاطها ، أمر ينتفى معه أن تكون دول كروما أو انجلترا من قبيل الصروح الأزلية التى تسلم بوجودها منذ القدم ، لأنها ما جاءت إلا نتيجة للأحداث التاريخية ، ومثل هذا التسليم هو الخطوة الأولى لإدراك الخصائص الجوهرية للتاريخ .

(حـ) وهذان التعديلان اللذان استحدثا فى فكرة التاريخ ، قد اشتقا على نحو ما رأينا من النظرية المسيحية التى نصت على الخطيئة الأولى وفضل الله (والخليقة) وثمة تغيير ثالث استند إلى شيوع هذا الاتجاه المسيحى وانتشاره .

لقد اعتقد المسيحى أن الناس جميعا على قدم المساواة أمام الله ، ولا يوجد شعب اصطفاه الله دون سائر الشعوب ، ولا يوجد جنس يمتاز على غيره أو طبقة اجتماعية تمتاز على غيرها كذلك لا توجد هيئة اجتماعية اسمى مكاناً أومقاما من غيرها . كذلك يساهم كل فرد وكل شعب فى تنفيذ مشيئة الله ، ومن ثم تكون العملية التاريخية فى كل زمان ومكان على نسق واحد ، وكل مرحلة منها مرحلة من هذه العملية التاريخية بمعناها الكامل ، إن المسيحى لا يمكن أن يقنع بالتاريخ الرومانى أو التاريخ اليهودى ، أو أى تاريخ آخر يعرض لأحداث جزئية أو حالات خاصة ، وإنما يطلب تاريخا للعالم أجمع . وتاريخاً عاماً يكون موضوعه التطور العام للأهداف التى رسمها الله للحياة الإنسانية ،

مراجع هذا البحث

١ ــ الكتب : حسب ورودها فى البحث .

× ميشيل روزيه : حياة جولبو كورى ، ترجمة فؤاد حداد .

A. Cresay Morrison : Man Does not stand alone.

× ول ديورانت : مباهج الفلسفة ترجمة الدكتور أحمد فؤاد الاهوانى .

× ول ديورانت : قصة الحضارة .

× جميل جبر : طاغور .

× ا ت كريسى موريسون : العلم يدعو للإيمان ترجمة محمود صالح الفلكى .

× عبد الحميد جوده السحار : محمد رسول الله والذين معه .

× أدولف أرمان وهرمان رانكه : مصر والحياة المصرية فى العصور القديمة ترجمة د . عبد المنعم أبو بكر ، ومحرم كمال .

× محمد عبد الغفار الهاشمى : محمد رسول الله فى بشارات الانبياء .

× ابن حزم : الفصل فى الملل والاهواء والنحل .

× جوستاف جرونيباوم : حضارة الإسلام ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد .

× طه عبد الباقى سرور : إقبال شاعر الحرية والكفاح .

× زيجريد هونكه : شمس الله على الغرب ترجمة الدكتور فؤاد حسنين على

× البرت شفيتزر : فلسفة الحضارة ترجمة الدكتور عبد الرحمن بدوى .

× أبو الحسن الندوى : ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ؟

× جون ستيورت مل : بحث فى الحرية ترجمة دار اليقظة العربية ــ بيروت .

× محاضرات أرنولد توينبى فى مصر (١٩٦١) كتب ثقافية .

× الدكتور قسطنطين زريق : نحن والتاريخ .

× هرنشو : علم التاريخ ترجمة عبد الحميد العبادى .

× البان ج . ويدجرى : التاريخ وكيف يفسرونه ترجمة عبد العزيز جاويد .

× أ . ج . إيفانز : هيرودوت ، ترجمة أمين سلامة .

Froud; three contributions of the sexual theory.

× أوجين جنتجر : فن الزعامة ترجمة سلوى حافظ وروجيه ناجى .
• أدورد كار : ما هو التاريخ ؟ ترجمة أحمد حمدى محمود .
× كارلايل : الأبطال ترجمة محمد السباعى .
× فؤاد محمد شبل : منهاج توينبى التاريخ .

المشكلة اليهودية العالمية

دور مصر فى تكوين الحضارة

× الدكتور أحمد محمود صبحى : فى فلسفة التاريخ .
× الدكتور عبد الرحمن بدوى : شبلنجر .
× أبو بكر محمد بن زكريا الرازى : الطب الروحانى .
× ابن خلدون : المقدمة .
× محمد صدقى الجباخنجى : الفن والقومية العربية .
× محمد إقبال : تجديد التفكير الدينى فى الإسلام ترجمة عباس محمود .
× الكسيس كاريل : الإنسان ذلك المجهول ترجمة شفيق أسعد فريد .
× عمر فروخ : تاريخ الفكر العربى .

فلسفة ابن خلدون

× الدكتور على عبد الواحد وافى : عبد الرحمن بن خلدون .
× ساطع المصرى : دراسات عن مقدمة ابن خلدون .
J sibree : Hegel's Philosophy of History.
× و . ه وولش : مدخل لفلسفة التاريخ ترجمة أحمد حمدى محمود .
× إيسيا برلين : كارل ماركس ترجمة عبد الكريم أحمد .
Beneditto Croce : what is living and what in Dead of the Philosophy of Hegel.
× ج ه . كول : تاريخ الفكر الاشتراكى (الرواد الاول) ترجمة عبد الكريم احمد .
× عباس محمود العقاد : الشيوعية والإنسانية .

الفلسفة القرآنية

الله

أثر العرب فى الحضارة الأروبية

× زاهر عزب الزغبى : الإسلام ضرورة عالمية .
× هارولد لاسكى : الشيوعية .

Fundamentals and Marxism-Leninism.

× عبد الحميد صديقى : تفسير التاريخ ترجمة كاظم الجوادى .

× كرين برنتن : أفكار ورجال ترجمة محمود محمود .

× حبيب سعيد : أعلام الفكر الأوربى .

أديان العالم

× محمود الشرقاوى : مواقف حاسمة فى تاريخ محمد بن عبد الله .

الدين والدولة العصرية

الانبياء فى القرآن الكريم

العدالة الاجتماعية عند العرب

Alexander Gray : The Development of Eco nomic Doctrine

× جوستاف لوبون : سر تطور الأمم ترجمة أحمد فتحى زغلول .

× فوستيل دى كولنج : المدنية العتيقة ترجمة عباس بيومى وعبد الحميد الدواخلى .

× الدكتور أحمد عبد القادر الجمال : مقدمة فى أصول النظم الاجتماعية .

× جوستاف لوبون : الحضارة المصرية ترجمة م . صادق رستم .

× جيمس هنرى برستيد : فجر الضمير ترجمة الدكتور سليم حسن .

× روجيه باستيد : مبادىء علم الاجتماع الدينى ترجمة الدكتور محمود قاسم .

× الدكتور عبد المنعم أبو بكر : اخناتون .

× ج . برستيد : تاريخ مصر منذ أقدم العصور ، ترجمة الدكتور حسن كمال .

× سبينوموسكاتى : الحضارات السامية القديمة ترجمة الدكتور السيد يعقوب بكر .

× ل . ويلابورت : بلاد ما بين النهرين ترجمة محرم كمال .

× على أدهم : هداة الإنسانية فى الشرق .

× أحمد الشنتناوى : الحكماء الثلاثة .

× الدكتور مصطفى الخشاب : تاريخ الفلسفة والنظريات .

× محمود شلتوت : الإسلام عقيدة وشريعة .

منهج القرآن فى بناء المجتمع

الفتاوى

× توماس ارنولد : الدعوة إلى الإسلام ترجمة الدكتور حسن إبراهيم

× زكريا هاشم زكريا : المستشرقون والإسلام .

* الدكتور اسماعيل راجي الفاروقي : أصول الصهيونية فى الدين اليهودى .
* الدكتور عبد الوهاب المسيرى : نهاية التاريخ ، مقدمة الدراسة بنية الفكر الصهيونى .

H.G. wells : A short History of the world, Teaching of Jesus.

* رابطة الكتاب المسيحيين بالشرق الأدنى : المسيح ومشكلات العصر .
* محمد أبو زهرة : محاضرات فى النصرانية .
* هارولد لاسكى : العقل والإيمان والمدنية .
* و . ج كولنجوود : فكرة التاريخ ترجمة محمد بكير خليل .
* فرانز روزنثال : علم التاريخ عند المسلمين ترجمة الدكتور صالح أحمد العلى .
* الدكتور محمد البهى : الدين والحضارة والإنسانية .
* محمد خلف الله : الثقافة الإسلامية والحياة المعاصرة .
* محمد عزة دروزه : الدستور القرآنى .
* محمد عبده : تفسير جزء عم .

رسالة التوحيد تحقيق طاهر الطناحى

* عبد المنعم محمد خلاف : المادية الإسلامية وأبعادها .
* الدكتور عيسى عبده إبراهيم : الإسلام والاشتراكية .
* الدكتور راشد البراوى : التفسير القرآنى للتاريخ .
* محمد مصطفى المراغى : حديث رمضان .
* محمد محمد المدنى : المجتمع الإسلامى كما تنظمه سورة النساء .
* الدكتور محمد شوقى الفنجرى : المدخل إلى الاقتصاد الإسلامى .
* الدكتور محمد فهمى لهيطه : علم الاقتصاد .
* الدكتور محمد جمال الدين الفندى : الكون بين العلم والدين .
* مولاى محمد على : الإسلام والنظام العالمى ترجمة أحمد جودة السحار .
* أنور الجندى : الإسلام وحركة التاريخ .
* مالك بن نبى : ميلاد مجتمع ترجمة عبد الصبور شاهين .

٢ — دوائر معارف ودوريات .

* دائرة معارف الشعب .
* موسوعة الهلال الاشتراكية .
* وزارة التعليم العالى : تاريخ العالم .
* وزارة الثقافة والأرشاد القومى : **تاريخ الحضارة المصرية**
* مجلة المجمع العلمى العربى — **دمشق .**
* القرآن الكريم .
* الكتابة المقدس
* كتب التفسر :
* تفسير ابن كثير .
* تسفير المناو

كتب الحديث :

* صحيح البخارى .
* صحيح مسلم .

الجزء الخامس

الفصل التاسع :

التفسير الاسلامى للتاريخ

« وتلك الأيام نداولها بين الناس »
« قرآن كريم »

يقوم مبدأ التصور الإسلامي للتاريخ على مبدأ التأليه : فالله ذات ، هو ووح فردية « قل هو الله أحد ، الله الصمد ، لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفوا أحد » .

ومن صفات الرحمن : القوة ، والحكمة ، والرحمة ، وهو موجود لا موجد له ، أبدى أزلى موجود فى كل مكان ، كريم ذو جلال ومجيد حميد .

وعندما ظهر الرسول كانت اليهودية والمسيحية منتشرتين فى الجزيزة العربية ولهما آراء متشابهة فى التفسير التاريخى للحياة الإنسانية ، غير أن الدين الإسلامى الذى بشر به الرسول كان يتميز بالوضوح والقدرة على تفهم أسس هذا الوجود بصورة واضحة جداً وفى غير تعسف ، والواقع أن مفاهيم الإسلام أوضح وأقل جموداً من ناحية العقيدة ، من مفاهيم اليهود والنصارى الدينية[1] .

لقد أدرك الرسول الوجود التاريخى العظيم ، وأن العالم سينتهى يوم القيامة وهو يوم الفصل الذى تسأل فيه كل نفس عما فعلت فى الحياة الدنيا ، ويوم القيامة حادث ثابت معروف فى المستقبل ، وقد وصفه القرآن الكريم وصفاً دقيقاً بحيث أصبحت أحداثه واضحة للناس ، وكأنها قد حدثت فى الماضى القريب رغم أنها لما تحدث بعد . لقد كانت تاريخا للمستقبل بنفس المعنى لوجود تاريخ للماضى .

قال الله تعالى : « إن يوم الفصل كان ميقاتاً : يوم ينفخ فى الصور فتأتون أفواجا وفتحت السماء فكانت أبوابا ، وسيرت الجبال فكانت سرابا . إن جهنم كانت مرصادا ، للطاغين مآبا ، لابثين فيها أحقابا ، لا يذوقون فيها برداً ولا شرابا ، إلا حميا وغساقا ، جزاء وفاقا ، إنهم كانوا لا يرجون حسابا ، وكذبوا بآياتنا كذابا ، وكل شيء أحصيناه كتابا ، فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذابا . إن للمتقين مفازاً ، حدائق وأعنابا ، وكواعب أترابا ، وكأساً دهاقا ، لا يسمعون فيها لغوا ولا كذابا ، جزاء من ربك عطاء حسابا ، رب السموات والأرض وما بينهما الرحمن لا يملكون منه خطابا ، يوم يقوم الروح والملائكة صفاً لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا ، ذلك اليوم الحق فمن شاء اتخذ إلى ربه مآبا ، إنا أنذرناكم عذابا قريبا يوم ينظر المرء ما قدمت يداه ويقول الكافر ياليتنى كنت ترابا[2] »

«إن عذاب ربك لواقع ، ماله من دافع ، يوم تمور السماء مورا ، وتسير الجبال سيرا ، فويل يومئذ للمكذبين ، الذين هم فى خوض يلعبون ، يوم يدعون إلى نار جهنم دعا ، هذه النار التى كنتم بها تكذبون ، أفسحر هذا أم أنتم لا تبصرون . أصلوها فاصبروا أو لا تصبروا سواء عليكم إنما تجزون ما كنتم تعملون ، إن المتقين فى جنات ونعيم ، فاكهين بما آتاهم ربهم ووقاهم ربهم عذاب الجحيم ؛ كلوا

---

(١) فرانز روز نثال : علم التاريخ عند المسلمين ، ترجمة الدكتور صالح أحمد العلى ص ٣٩

(٢) سورة النبأ : ١٧ — ٤٠ .

وأشربوا هنيئاً بما كنتم تعملون، متكئين على سرر مصفوفة وزوجناهم بحور عين، والذين آمنوا وأتبعتهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذريتهم وماألتناهم من عملهم من شيء كل إمرىء بما كسب رهين، وأمددناهم بفاكهة ولحم مما يشتهون ، يتنازعون فيها كأساً لا لغو فيها ولا تأثيم ، ويطوف عليهم غلمان لهم كأنهم لؤلؤ مكنون ، وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون : قالوا إنا كنا قبل فى أهلنا مشفقين ، فمن الله علينا ووقانا عذاب السموم ، إنا كنا من قبل ندعوه إنه هو البر الرحيم [١] » .

وفكرة يوم القيامة يمكن أن تطبق مباشرة على تقدير أعمال الحاضر ، من حيث أن المرء يحاسب فى الآخرة على كل ما جنت يداه فى هذه الدنيا وأن كل ما يعمله اليوم مسجل عليه ولن ينسى ، وبذلك اكتسبت كافة أعمال البشر سمة الخلود ، وكان ذلك دافعا واضحا للتذكر وتسجيل الأعمال .

كان الرسول نفسه غاية عمليات التاريخ التى بدأت مذ خلق الله العالم : لقد ظهر الأنبياء فى أزمنة وأقاليم متعددة ، ولاقوا النجاح أو الفشل فى أداء رسالتهم إبان حياتهم بمعنى أن الذين صفت قلوبهم وتفتحت عقولهم لدعوة الحق الذى جاء به الأنبياء يعتبر نجاحا ، وإعراض الذين عميت بصائرهم عن الحق يعتبر فشلا .

ومحمد هو خاتم الأنبياء والرسل ، ورسالته آخر الرسالات ، لم يكن الرسول بدعاً فى الرسل ، بل كان متصلا تاريخياً بسلسلة من الأنبياء ، وهو بصورة خاصة خليفة إبراهيم ، وقد وجه الرسول دعوته — بادىء ذى بدء — إلى قومه العرب « وأنذر عشيرتك الأقربين » كما أرسل أنبياء آخرون إلى شعوب مختلفة ، لكن دعوة محمد كانت رسالة للناس كافة فى كل زمان وفى كل مكان .

وقد وردت فى القرآن معلومات تاريخية تختلف عما يدعى اليهود وجوده فى التوراة فقد حرفت التوراة ، وتمسك المسلمون بما جاء فى القرآن .

كان شعور الرسول التاريخى عميقاً ، غير أنه أنصرف إلى التبشير بالدين الإسلامى ، ليخرج الناس من الظلمات إلى النور . ولم يشر القرآن إلى الأحداث العالمية المعاصرة إلا مرة واحدة عندما تنبأ عن مصائر النزاع بين الروم والفرس حيث قال تعالى : — « ألم . غلبت الروم ، فى أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون ، فى بضع سنين لله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون ، بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم [٢] » .

أما الأحداث التى أحاطت بالرسول والمسلمين فقد أشار القرآن إلى كثير منها وكانت هذه الآيات تتفق مع موقف الرسول تجاه التاريخ ، وكان نزول هذه الآيات التى تذكر هذه الأحداث له أهمية فى

---

(١) سورة الطور : ٧ — ٢٨ .

(٢) سورة الروم : ١ —٥ .

التاريخ الإسلامى ، لأن الأحداث التى أشارت إليها صارت لها أهمية تاريخية كبرى للمسلمين ، واستثارت البحوث التاريخية .

إن الهدف الرئيسى من القرآن هو جمع الناس إلى التنبه إلى علاقاتهم بالله تعالى . فالإنسان لا يستطيع مطلقاً الفرار من الله فى التاريخ ، ولكنه جل شأنه لم يجىء فى التاريخ فى صورة كائن بشرى ، ويؤكد القرآن أن المسيح بشر : «ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة كانا يأكلان الطعام» .

وقد أرسل الله تعالى الرسل والأنبياء وأنزل الكتب لهداية الناس ، ومنذ مبعث محمد صلى الله عليه وسلم لا يجوز أن تحصل البشرية على هدايتها فى التاريخ إلا من القرآن . ويتم الإتصال الشخصى بالله فى الصلاة[1] ومن ثم فنقطة الدوران الرئيسية فى التاريخ هى نزول القرآن .

وقد خلق الله تعالى العالم بكل ما حوى من نواميس مطردة ومن خصائص أخرى تيسر حدوث التاريخ البشرى ، وتضفى عليه دلالته وأهميته .

فالعالم لم يخلق عبثاً ، ولكن لغاية جادة ، وعالم الطبيعة ليس ثابتاً بصفة نهائية فالله قادر أن يخلق باستمرار : « يزيد فى الخلق ما يشاء » .

والله حين خلق الليل والنهار وأوجد تعاقبهما قد جعل الحياة موقته للبشر وقد خلق الناس أرواحا وهبها الأجساد فى هذه الحياة .

ويشير القرآن إلى أن الله قد فضل الناس تفضيلا خاصاً . فاختار الله آدم : « إن الله اصطفى آدم » ثم اتجه إليه وهداه . وجعل الإنسان خليفة فى الأرض .

« وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة . قالوا : أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك ، قال : إنى أعلم ما لا تعلمون . وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال : أنبئونى بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين . قالوا : سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا انك أنت العليم الحكيم . قال : يا آدم أنبئهم بأسمائهم. فلما أنبأهم بأسمائهم قال : ألم أقل لكم إنى أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون . وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى

---

(١) الصلاة هى أن يتجه الإنسان فى خشوع نحو الله ونحو جلاله ، وأن يناجى هذا الجلال بقوله : الله أكبر — ليحصل فى الإنسان قيمة الوجود كله . وقيمته عندئذ : أن شيئاً واحدا فيه كله له العظمة والجلال ، وأن ماعداه تضمحل قيمته وتتضاءل ... فاذا ثبتت هذه القيمة فى نفس المصلى ، كانت نفسه نفساً مطمئنة ، لأنه يستبعد من المصلى ، بعد أن يدرك هذه القيمة ، أن تميل نفسه وتحرضه على تحصيل شىء فى الوجود دون الله ، وليست النفس الأمارة بالسوء ، إلا تلك النفس التى تخضع الإنسان إلى غير الله فى الوجود ، وهى لاتفترق عندئذ عن للشيطان، فى الهدف والغاية . وإذن الصلاة عبارة قصد بها أن تكون نفس المصلى نفساً مطمئنة ، قصد بها أن يكون صاحب اتجاه واحد ، وعندئذ تتحقق وحدة الإنسان ، ويرتفع فوق التردد بين النفسين (دكتور محمد البهى : الدين والحضارة الإنسانية ، ص ٩٣) .

واستكبر وكان من الكافرين . وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغدا حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين . فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم فى الأرض مستقر ومتاع إلى حين فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم ، قلنا اهبطوا منها جميعاً ، فاما يأتينكم منى هدى فمن تبع هداى فلا خوف عليهم ولاهم يحزنون ».

اتجاه الإسلام من التاريخ ، اتجاه يقوم على المذهب التحسنى فمتى تزايد إقبال الإفراد والشعوب على الطاعة لإرادة الله ، تحسنت الأمور وعاش الناس سعداء والإسلام هو الذى سيفوز بالظفر فى النهاية .

يقول الفيلسوف « جوستاف جرو نيباوم » فى كتابه : « حضارة الإسلام[1] »

« الإسلام مجتمع الله . فالله جلت قدرته هو الحقيقة الحية التى يدين لها الإسلام بوجوده . والله مركز خبرته الروحية وهدفها ، على أنه أيضا الرأس الدنيوى لمجتمعه ، ذلك المجتمع الذى لا يقف الله عند حد الولاية عليه بل يحكمه فعلا ، فهو السبب فى وجود الدولة ، وهو أصل وحدتها وفكرتها الأساسية الذى يجمع بين دعم الدولة وتبرير استمرارها . وهذا أمر من شأنه أن يجعل الجيش الإسلامى « جيش الله » والخزانة الإسلامية « بيت مال الله » هذا إلى أنه يضع حياة المجتمع فى مجموعها فضلا عن الحياة الخاصة لكل فرد من أعضائه تحت السلطان المباشر لقوة تشريعه وإشرافه » فالاسلام إذ يعترف إعترافاً صريحاً بذاتية الفرد ، وبوجوده جسداً ، وعقلا ، وروحا ، لا يمنحه هذا الاعتراف إلا وهو كائن اجتماعى ، أى يعيش فى مجتمع ، ويتفاعل معه ، فلا يكاد أن يلتقى الإسلام بالفرد إلا وهو داخل جسد إجتماعى ، يتنفس فيه ، ويتحرك داخل دائرته .

يقول الأستاذ هارولد ب . سمث : « الإنسان[2] مدين بوجوده لله . فهو مخلوق من مادة سواها الله ، وهو مخلوق حى ، لأنه مخلوق من الدم ، والدم ، كما هو الشأن فى كل التفكير السامى ، يمثل مبدأ الحياة ، وهو تلقائى ومسير لنفسه إلى درجة ما . وقد ميز الإنسان من سائر الأشكال الحية بأن الله ينفخ فيه من روحه . ولما كان الإنسان مخلوقا ، ومخلوقا من تراب أو من طين ، فلا يمكن أن يظن أنه مساو لله فى أى وجه من الوجوه ، كما لا يستطيع هو نفسه أن يجرؤ على مناهضة السلطان الإلهى . والإنسان — باعتبار ما — من الأرض ، فهو أرضى ومخلوق غير مستقل . إلا أن روح الله التى نفخت فيه تفصله عن سائر المخلوقات غير المستقلة ، وتفضله عليهم ، وتهب له علاقة فريدة بخالقه . إنه كائن قادر على السلوك العقلى ، والحكم على الأشياء ، والتقدير الإرادى ، والاختبار الأخلاقى . والقرآن يدعم هذه الحقيقة الروحية بتقريره أن الله قد خلق الإنسان ليكون خليفته فى الأرض. وقد أقيم الإنسان على الأرض ليسيطر على سائر المخلوقات التى جعلت خاضعة لإرادته » .

---

(١) ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد ص ١٨٣ .

(٢) الثقافة الإسلامية والحياة المعاصرة ، مقال ، مذهب الاسلام فى الانسان وأثر هذا المذهب فى السياسة الإجتماعية والنظرية السياسية للاستاذ هارولد ب سمث . جمع وتقديم محمد خلف الله ، ص ٥٧ .

وقد أدرك الإسلام أنه بدون الخبز لا يحيا الإنسان ، ولكنه أدرك أيضاً وبنفس المستوى أنه ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان .

ولذلك فان الإسلام لا يقتصر على مجرد العقيدة ، وإنما جاء أيضا شريعة وتنظيماً سياسياً وإجتماعياً واقتصاديا للمجتمع . فالحياة لا يمكن أن تستقيم بدون عقيدة توجهها وشريعة تنظمها ، بل لا يمكن أن تستقيم العقيدة وتسمو الأخلاق ، إذا لم يطمئن الإنسان على يومه وغده . فالعقيدة والشريعة فى الإسلام يكمل كل منهما الآخر ، ولا يقوم أحدهما بدون الآخر .

وفى القرآن المجيد ، آيات تضع القواعد لتنظيم علاقات الأفراد بعضهم ببعض ، وبالمجتمع على أسس كفيلة بتوطيد الحق والعدل والمساواة والحرية والإخاء ، وأن يستمتع بالطيبات من الرزق .

وقد فكر بعض صحابة الرسول صلى الله عليه وسلم فى نفض اليد من الدنيا والتنسك والتخلى عن اللذائذ والمتع الحلال والنساء وطيب المأكل والمشرب والتكسب والانقطاع للعبادة . وتعاهدوا على ذلك ووثقوا عهدهم بالإيمان ، فبلغ ذلك الرسول الكريم فكرهه . ونزل فصل قرآنى فى الحادث نهى فيه المسلمون عن تحريم طيبات الله على أنفسهم ، وأمر بالتمتع برزق الله الطيب الحلال ، ونبه عليهم بأن الله لا يؤاخذهم باللغوا فى أيمانهم فى سبيل أمر ، فيه خير وحق ، وعلمهم كيف يكفرون عن أيمانهم التى ليست من هذا القبيل ليعودوا إلى ما حرموه بها على أنفسهم ، وبالتالى تضمن الفصل معنى من معانى الاستنكار والكراهية(١) .

يقول الله تعالى :

« ياايها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين . وكلوا مما رزقكم الله حلالا طيباً واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون . لا يؤاخذكم الله باللغو فى أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الأيمان فكفارته إطعام عشرة مساكين من أوسط ما تطعمون أهليكم أو كسوتهم أو تحرير رقبة فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام ذلك كفارة أيمانكم إذا حلفتم وأحفظوا أيمانكم كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تشكرون »(٢) .

وقال جل شأنه :

« فليعبدوا رب هذا البيت الذى أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف » (٣) .

---

(١) محمد عزه دروزة : الدستور القرآنى ص ٢٢ .

(٢) سورة المائدة : ٨٧ — ٨٩ .

(٣) يقول الأستاذ الإمام محمد عبده فى تفسير هذه الآيات : «فعليهم أن يعبدوا رب هذا البيت الذى حماه ، ومكن منزلته فى النفوس وقد أطعمهم بذلك ، وأوسع لهم من الرزق ، ولولا ذلك لكانوا فى جوع وضنك عيش .

فأساس العبادة فى الإسلام والسبيل إليها هو تأمين الناس فى حياتهم المعيشة .

وروى القرآن سير الأنبياء والرسل ، رواد الحياة الروحية الذين ارتادوا للأمم الطريق إلى الله ، وكانوا فى الوقت نفسه روادا فى طريق العمل المادى .

فقد كان « نوح » رائدا فى صناعة السفن ، حينما صنع سفينته بوحى من الله ليحمل فيها من آمن معه من قومه ، ومن كل حيوان زوجين اثنين ، لينجوا من الطوفان .

وكان أدريس عالما فلكياً ، وهو أول من خط بالقلم ، وأول من لبس المخيط .

وكان « إبراهيم » وابنه « اسماعيل » يتقنان صناعة البناء ، وبذلك رفعا قواعد البيت الحرام فى مكة .

وكان « يوسف » رائدا من رواد الاقتصاد فى مصر ، فحماها وما حولها من الأقاليم من خطر المجاعة « قال اجعلنى على خزائن الأرض إنى حفيظ عليم » .

وكان «موسى» قويا أميناً مكنته قوته وأمانته من أن يدفع عن بنى قومه ، وأن يساعد ابنتى « شعيب» على سقى قطيعهما ، مما رشحه لزواج إحداهما والعمل عند أبيهما .

وكان « داود » وابنه « سليمان » رائدين فى الصناعة يصنع أولهما الدروع السابغات ويأكل من عمل يده ، ويشرف ثانيهما على كثير من الصناعات ويسخر فى سبيل ذلك قوى الطبيعة الظاهرة والخفية .

وكان العلم والخلق والعقل سبب اختيار الله لبعض البشر ، فقد اصطفى « طالوت » ملكاً على اليهود فى ظرف من ظروفهم العصيبة ، وقد رشحه لذلك ما أوتى من بسطة فى العلم والجسم : « قال إن الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة فى العلم والجسم » .

وكان «المسيح» يطب الأجسام ويشفى الناس من الأمراض باذن الله .

وكان « محمد » يرعى الغنم ، ويتاجر ، ويحارب دفاعاً عن الحق الذى جاء به من عند الله .

فالحياة المادية خليقة بأن نعيرها العناية التامة الجديرة بمكانة المادة فى ملكوت الله كما أعارها هو نفسه: إذ جعلها مجالى لظهور علمه وقدرته وحكمته وفنون إبداعه فى الخلق ما يشاء . وإذ جعل رواد الدعوة إلى معرفته والإيمان به ، والتعبد له رواداً فى الوقت ذاته للعمل فى المادة وتدبيرها وتصنيعها والانتفاع بها[1]

= « وآمنهم » من التعدى وتطاول الأيدى إلى أموالهم وأرواحهم . ولولا ذلك لأخذهم الخوف من كل مكان . فاذا كانوا يعرفون أن هذا كله إنما هو فضل رب هذا البيت فلم يتوسلون إليه بتعظيم غيره وتوسيط سواه عنده ، مع أنه لافضل لأحد ممن يوسطونه فى شىء من النعمة التى هم فيها : نعمة الأمن ، وهى أكبر نعمة ، ونعمة الرزق وكفاية الحاجة . من الحق أن يفردوه بالتعظيم ، ويخصوه بالإخلاص » (تفسير جزء عم طبعة دار الشعب »

(١) عبد المنعم محمد خلاف : المادية الإسلامية وأبعادها ص ١٦ .

إن المشكلة الإقتصادية فى نظر الإسلام ليس سببها قلة الموارد الطبيعية مما قد يتعذر التغلب عليه ، وليست نابعة من عدم بلوغ التطور غايته ، مما قد يستتبع إقرار الظلم الإجتماعى عبر المراحل التاريخية السابقة . وإنما تتجسد هذه المشكلة فى ظلم الإنسان بسوء توزيع الثروة إلى جانب كفرانه للنعمة باهماله استثمار الطبيعة وموقفه السلبى منها ، أو عدم استغلال جميع المصادر التى تفضل الله جل جلاله بها عليه استغلالا تاما .

عالج الإسلام كفران النعمة بما وضع للانتاج والتداول من أحكام ، كما كفل محو الظلم بما وضعه للتوزيع والاستهلاك من تعاليم ونظم .

يشدد الإسلام على وجوب العمل :

قال الرسول صلى الله عليه وسلم :

« لأن يحتطب أحدكم حزمة على ظهره خير من أن يسأل أحداً فيعطيه أو يمنعه»

وقال عليه الصلاة والسلام :

— « ماأكل أحد طعاماً خيرا من أن يأكل من عمل يده ، ، وأن نبى الله داود كان يأكل من عمل يده »

— وقال صلى الله عليه وسلم :

— « من أمسى كالا من عمل يده أمسى مغفورا له يوم القيامة » .

اعتبر الإسلام السعى على الرزق وخدمة المجتمع أفضل صروب العبادة ، فقد ذكر للرسول الأعظم رجل كثير العبادة فسأل من يقوم به ؟

قالوا : أخوه .

قال : أخوه أعبد منه » .

وأراد أحد الصحابة الخلوة والإعتكاف لذكر الله سبحانه وتعالى ، فقال له الرسول : .

— « لا تفعل فان مقام أحدكم فى سبيل الله — أى فى سبيل المجتمع — أفضل من صلاته فى بيته سبعين عاماً » .

ولخص عمر بن الخطاب رضى الله عنه نظرة الإسلام إلى العمل والإنتاج فقال :

— « والله لئن جاءت الأعاجم بالأعمال وجئنا بغير عمل ، فهم أولى بمحمد يوم القيامة »

إن الإسلام يعتبر العمل فرضا واجباً على القادرين ، وأن على الدولة أن توفره لكل مواطن ، وبذلك تنتفى البطالة التى هى تبديد للقوة البشرية وهى من أعظم الموارد التى خلقها الله جل شأنه .

قال الله تعالى :

— « فقلنا ياآدم إن هذا عدو لك ولزوجك فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى : إن لك ألا تجوع فيها ولا تعرى ، وأنك لا تظمأ فيها ولا تضحى[1] » .

فى هذه الآيات الكريمة قضايا هامة[2] ، منها :

١ — يخبرنا الله جل شأنه بأنه نبه آدم ، إلى أن الشيطان عدو له ولزوجه وحذره من الاستماع إليه حتى لا يترتب على الأخذ بتوصيات الشيطان أن يفقدا ما كانا فيه من رغد العيش بالجنة .

٢ — نبه الله عبده آدم بالقول الصريح الواضح ، إلى أنه إن أخرج من الجنة فانه يشقى ، وبعبارة أخرى ربط النص القرآنى بين ما عدا ، الجنة والشقاء ..

٣ — عرف آدم ، مما علمه ربه بهذا النص ، أنه ما بقى فى الجنة فانه لا يعرف الجوع والعرى والظمأ والضحى[3] ، ثم ربط الشقاء بما يترتب حتما على فقد هذه الضمانات : ومن ثم عرف آدم أنه — بمفهوم المخالفة — يكون أسيراً خارج الجنة لخصال أربع هى الجوع والعرى ، والظمأ والضحى ، كما أنبأ الله عبده آدم بأن شقاءه سيكون بسبب ضعفه أمام هذه الخصال وتحكمها فيه .

وهذه الخصال التى أنذر آدم بأنه سيشقى بسببها ، هى ما يسميها علم الاقتصاد : « الحاجات الأساسية للإنسان ، مما تشبعه الثروة الإقتصادية » .

ويتضح إعجاز القرآن حين نلاحظ غياب النص على طيبة أهم من أية طيبة أخرى تصلح لإشباع هذه الحاجات ، ونعنى بها الهواء الذى يتنفسه الإنسان ، وبدونه يفقد الحياة ، لم يرد لها ذكر صريح ولا ضمنى ، لأنه لا شقاء فى سبيل الحصول على الهواء : إذ رحمة الله قضت بأن يكون الهواء طيبة مجانية تحفظ على الإنسان والحيوان والنبات حياته وتمده بكثير من العناصر اللازمة للنمو ، بل اللازمة للبقاء .

ومعلوم أن الإنسان يختنق فى دقائق معدودات إذا حرم من الهواء ، ويحتمل الحرمان من الماء أياما كما يحتمل الحرمان من الغذاء بضعة أشهر قبل أن يموت جوعاً ، ويحتمل الضحى طويلا وقد يصبر عليه حياته كلها ولا يهلك ، ومع ذلك خلا النص القرآنى من ذكر الهواء أو ما يشير إليه ، لأن الخصال الأربع مرتبطة بالشقاء فى سبيل الحصول عليها .

وحين تقدم علم الإقتصاد انتهى إلى التمييز بين الطيبات المجانية وفصل بينها وبين الثروة الإقتصادية التى تكون محلا للمبادلات ومن ثم يكون لها ثمن ، هذا فى ناحية ، وفى ناحية أخرى ثروة إقتصادية لها

---

(١) سورة طه : ١١٧ — ١١٩ .
(٢) الدكتور عيسى عبده ابراهيم ، مقال الاسلام والاشتراكية ، فى كتاب « الاسلام دين الاشتراكية » .
(٣) الضحى أى حر الضحى اللافح .

ندرة نسبية ولا يحصل الإنسان على حاجته منها إلا بالبذل أو الشقاء : والشقاء إجهاد ، والعمل إجهاد سواء بسواء كذلك يتضح من دلائل إعجاز القرآن إذا لاحظنا أن خطاب آدم يرجع إلى تاريخ لم يصل العلم لتحديده . . وأنه قبل الإسلام وبعده كانت عهود يتوافر فيها الماء بحيث أنه كان طبية مجانية لا تكاد تختلف عن الهواء فى كثير من العهود ، ولا يزال كذلك فى بعض البقاع . ولكن هذه الخصال التى نبه إليها آدم تصف حاله وحال ذريته من بعده فى شمول يمتد إلى المجتمع البدائى والمجتمع المتحضر على السواء ، ولئن كان السعى إلى النبع أو مجرى الماء على سطح الأرض ، وحمل الماء إلى المأوى ، ينطوى على مشقة قليلة ، فان شراء الماء المصفى مرفوعا بالطلمبات أو مدفوعاً فى الأنابيب والقنوات ، يتطلب مزيدا من التضحية والبذل ، أو مزيدا من الشقاء .

ومن ثم جاءت هذه الخصال الأربع التى خوطب آدم فى شأنها واصفه لحاله وحال ذريته فى كل أدوار التاريخ من بدء الخليقة .

وقد مضت حقب أعجزت علماء الجيولوجيا عن حسابها ، والخصال الأربع على حالها ، لا زيادة أو نقص ، وهذا حصر دقيق وخالد لا تدانيه أقوال البشر ..

وجملة القول إذن أن السبيل — فى الحياة الأولى — لمواجهة هذه الخصال الأربع ، أو لإشباع هذه الحاجات الأساسية (بلغة عصرنا الحاضر) هى الشقاء : : أو العمل.

٤ — فى الآيات الكريمة لفتة لغوية تحمل من المعانى كثيراً من أصول الإجتماع والاقتصاد وذلك .

إفراد الخطاب إلى آدم بعد التثنية فى قوله تعالى : « : : : إن هذا عدو لك ولزوجك فلا يخرجنكما من الجنة » وإلى هنا الخطاب بالتثنية . أما اللفظة التالية مباشرة «فتشقى» بأفراد الخطاب لآدم وحده : فكأنما يعلمنا الله تعالى كما علم آدم أن الشقاء فى تدبير المعاش هو من شأن الرجل ، وبحسب المرأة أنها تحمل ذريته وهناً على وهن .

٥ — الشقاء الوارد فى الآية الكريمة ، هو شقاء البدن دون النفس وهذا يتفق تماما مع قول الاقتصاديين : « العمل هو الإجهاد العضلى أو الذهنى . . . » وشقاء البدن فى سبيل تدبير المعاش هو حكم عام لا نستثنى منه الفرد لسبب أو لآخر ، فلا عبرة بأن يكون الإنسان رسولا من عند الله ، أو خليفة أو حاكما على جماعة أو وجيهاً فى قومه ، أو فردا من عامة الناس . فالحكم عام . أما شقاء النفس فمفهوم آخر . . للإنسان منه منجاة . ودليل ذلك من سورة طه أيضاً فى قوله جل شأنه : « فاما يأتينكم منى هدى فمن أتبع هداى فلا يضل ولا يشقى ، ومن أعرض عن ذكرى فان له معيشة ضنكا » .

إذن شقاء الروح وعذاب النفس وضنك المعيشة أمور ترتبط بالإعراض عن ذكر الله ورفض الالتزام بحكمه .

ومن ثم يجتمع شقاء البدن واطمئنان النفس على أساس أن السعى فى سبيل المعاش وإن عاد على الآدمى بالإجهاد ، لا شأن له بالمعيشة الراضية ، التى تتمشى فى إقبال الفرد على عمله — وإن كان مجهودا بنفس مطمئنة ، لأن العمل من سنن الحياة .

كما أن القعود عن كسب الرزق استنادا إلى ثروة خاصة أو نعيم موروث لا يتنافى مع المعيشة الضنك التى تشقى بها النفس .

وقد لاحظ علماء الإجتماع أن حالات الانتحار تزيد فى المجتمعات الآخذة بالحضارة المادية وما توفره من نعيم مادى . وقد عجب هؤلاء العلماء لضعف الصلة « نسبياً » بين رضا النفس وبين النعيم المادى . وفى النص القرآنى فصل واضح بين شقاء البدن من أجل تدبير المعاش وبين شقاء النفس الذى يبرأ منه كل من أقبل على ذكر الله واتبع هداه .

وقد يذهب الظن إلى أن الحديث مثلا يقرر : « إن من الذنوب ذنوباً لا يكفرها إلا الهم بالمعايش » وأن فى هذا النص تسليما بأن السعى من أجل الرزق يشوبه الهم فى حالات .

ويرد على ذلك بأن الهم هنا من الإهتمام ، ولا يكون من البؤس والشقاء ، ولئن ضاقت السبل بالكادح المؤمن حتى يشعر بالهم يخالط نفسه . . . فهذه حال موقوته لا تورث اليأس أو الضيق مما تجرى به الأقدار . وكل ذلك بشرط واحد ، هو أن يبذل الفرد غاية جهده وهو غير مطالب بما وراء ذلك .

وأياما كان التأويل الذى تحمل عليه عبارات غير واردة فى كتاب الله . فان النص القرآنى سيبقى فاصلا بين شقاء وشقاء . فأما الأول فهو الإجهاد وتحمل المشقات إلى حد أبعد مدى تطيقه قدرة الإنسان فى سبيل الرزق ، وهذا هو شقاء البدن وهو بعينه العمل وما فيه من أخطار المهنة واستنفاد الطاقة البدنية . وأما الآخر فهو شقاء النفس ولا يكون إلا لمن أعرض عن ذكر الله ، وإن كان له أموال قارون » .

أوجب الإسلام اتقان العمل والإنتاج ، واعتبر ذلك أمانة ومسئولية . يقول الله تعالى : « ولتسئلن عما تعلمون » .

ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم :

— « إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملا أن يتقنه » .

وفى الوقت نفسه يجب أن يكون الأجر على قدر العمل ، يقول الله تعالى فى سورة التوبة :

— « إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها » .

والمقصود بالعاملين عليها أنهم السعاة فى قبضها من أهلها ووضعها فى مستحقيها ، ويعطون ذلك سواء أكانوا أغنياء أو فقراء .

يقول الطبرى : ويعطى العامل عليها على قدر عمالته وأجر مثله ، وكان العامل عليها إنما يعطى على عمله لا على الحاجة التى لا تزول بالعطية وإنما تزول بالعزل . وهذا المعنى الذى توحى به الآيات يستبعد النزول بأجر العامل إلى دون المستوى اللائق أعنى المستوى الذى يكفل له حياة كريمة، كذلك يستبعد اقتطاع جزء من الأجر ، بطريقة أو أخرى ، إلا إذا كان الاقتطاع عقوبة بسبب إهمال أو تراخ أو تقصير بما يسىء إلى العمل[1] .

وقد يعترض على تطبيق هذا النظام الإسلامى بأن من العمال من لا يؤمنون بالإسلام ، وإذن فقد يبخسهم هذا النظام حقهم . والرد على ذلك أن العقائد — فى ظل الإسلام — حرة ، والتسامح والرفق بغير المسلمين واجب موصى به .

— « لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم ، إن الله يحب المقسطين[2] .

واختلاف الأديان أو الألوان أو الألسنة لا يهدر — فى الإسلام — حق المساواة ، ولا يعطل تحقيق العدالة الإجتماعية .

يقول الرسول :

— « ألا من ظلم معاهداً أو كلفه فوق طاقته ، أو انتقصه ، أو أخذ منه شيئاً بغير طيب نفس فأنا حجيجة يوم القيامة » .

والمساواة بين الذميين والمسلمين مقررة ، فلهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم .

يقول الشهاب القرافى فى « الفروق » :

« إن عقد الذمة يوجب لهم حقوقاً علينا ، لأنهم فى جوارنا ، وفى خفارتنا ، وفى ذمة الله تعالى ، وذمة رسوله صلى الله عليه وسلم ، ودين الإسلام . فمن اعتدى عليهم ولو بكلمة سوء أو غيبة فى عرض أحدهم ، أو أى نوع من أنواع الأذية ، أو أعان على ذلك ، فقد ضيع ذمة الله تعالى ، وذمة رسوله صلى الله عليه وسلم ، وذمة دين الإسلام » .

وأوجب الإسلام تنوع الإنتاج بحيث يشمل كافة الحاجات البشرية ، وذلك أن القاعدة فى الإسلام أن كل مالا يستغنى عنه فى قوام أمور الدنيا ، فتعلمه ووجوده من فروض الكفاية ، ومن ذلك ، أصول الصناعات كالفلاحة والحياكة ، ومالا يقوم به الأفراد من النشاط الاقتصادى كالصناعات الثقيلة والمرافق

---

(١) الدكتور راشد البراوى : التفسير القرآنى للتاريخ ص ١٠٥ .
(٢) سورة الممتحنة : ٨ .

العامة يجب على الدولة أن تقوم به ، ومعنى أنه من فروض الكفاية ، أنه إذا لم يتحقق فى الأمة ، أثمت الأمة كلها ، وأن الإثم لا يرتفع عنها إلا إذا قامت كل طائفة بنوع من هذه الأنواع.

وليس من ريب فى أن أساس هذه الفرضية ، هو العمل على تحقيق المبدأ الإسلامى الذى يوجبه الإسلام على أهله ، وهو مبدأ استقلال الجماعة الإسلامية فى تحقيق ما تحتاج إليه من الضروريات والحاجات فيما بينها ، وبيد أبنائها دون أن تمد يدها إلى غيرها من الأمم[1] .

تكلم القرآن عن الزراعة وضرورتها :

— « فلينظر الإنسان إلى طعامه ، أنا صببنا الماء صبا ، ثم شققنا الأرض شقا فأنبتنا فيها حباً وعنبا وقضباً[2] وزيتونا ونخلا ، وحدائق غلبا ، وفاكهة وأبا ، متاعا لكم ولأنعامكم »

« سورة عبس ٢٤ — ٣٢ » .

قال الله تعالى :

— « وهو الذى أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شىء فأخرجنا منه خضرا تخرج منه حباً متراكباً ومن النخل من طلعها قنوان دانية وجنات من أعناب والزيتون والرمان مشتبهاً وغير متشابه انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه إن فى ذلكم لآيات لقوم يؤمنون » « سورة الأنعام : ٩٩ » .

وقال تعالى :

— « وهو الذى أنشأ جنات معروشات وغير معروشات ، والنخل والزرع مختلفا أكله ، والزيتون والرمان متشابهاً وغير متشابه كلوا من ثمره إذا أثمر وآتوا حقه يوم حصاده ، ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين » « سورة الأنعام ١٤١ » .

وقال تعالى :

— « والأرض وضعها للأنام[3] ، فيها فاكهة والنخل ذات الأكمام ، والحب ذو العصف والريحان » « سورة الرحمن : ١٠ — ١٢ » .

---

(١) الأستاذ الشيخ محمود شلتوت : منهج القرآن فى بناء المجتمع ص ٩٤ .

(٢) القضب : الرطب وهو ما أكل من النبات غضا ، وسمى قضباً لأنه يقضب أى يقطع مرة بعد أخرى .

غلبا : جمع غلباء أى ضخمة عظيمة . وعظم الحدائق بكثرة أشجارها والتفافها ، وقد يكون العظم فى نفس الأشجار بأن تكون كل شجرة غليظة عظيمة .

وذكر الحدائق بوصفها ذلك لبيان أن النعمة فيما تشتمل عليه الحدائق برمته . فالنعمة فى الأشجار بجملتها لا فى ثمرها خاصة . فمن أخشابها ما ينفع للاحراق فى تدبير الطعام ، ومن أوراقها ما تأكله الحيوانات ، ومن النعمة فى الحدائق أنواع النبات مما يأكله الناس وترعاه الماشية ، وإنما تدخل ثمار الأشجار فى الفاكهة تبعاً . ثم خصص الفاكهة بالذكر بعد ذلك لأنها مما يتمتع به الانسان خاصة . « الاستاذ الشيخ محمد عبده : تفسير جزء عم » .

(٣) الأنام : قال ابن عباس هو كل ما على وجه الأرض ، مما فيه روح .

وقال تعالى :

— « ونزلنا من السماء ماء مباركاً فأنبتنا به جنات وحب الحصيد[1] ، والنخل باسقات لها طلع نضيد» «سورة ق : ٩ — ١٠ »

وإذا كان الله جل شأنه ينسب إلى ذاته العلية ، إخراج الثمار ، وإنبات النبات ، للتدليل على عظمته سبحانه وتعالى إلا أنه مع ذلك قد ذكر عمل الإنسان باعتباره أحد عناصر الإنتاج في قوله تعالى :

— « وجعلنا فيها جنات من نخيل وأعناب وفجرنا فيها من العيون ليأكلوا من ثمره وما عملته أيديهم أفلا يشكرون . » سورة يس : ٣٤ — ٣٥ » .

وتحدث القرآن عن الصناعة ، والصناعة أقوى العمد التي تقوم عليها الحضارات : .

قال تعالى :

— « وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس « « سورة الحديد : ٢٥ » .

ذكر الله جل شأنه للحديد فائدتين :

الأولى : أن فيه البأس والشدة والنكاية ، فآلات الحروب جميعها منه أو تحتاج إليه ، وبخاصة إذا أريد بالحديد جنس المعادن ، كما عليه بعض المفسرين ، فمنه الرماح والسيوف والدروع قديما ، ومنه المدافع والقنابل والطائرات والدبابات والسيارات وسفن البحر على اختلاف أنواعها ، وعلى الإجمال فقد كشف العصر الحديث عن ذلك البأس مما لايدع مجالا للبحث .

والفائدة الثانية : أن فيه منافع للناس ، وذلك واضح ، فما من شيء من ضرورات الحياة أو كمالياتها إلا وللحديد دخل فيه ، فهذه سفن الملاحة ، وطرق السكة الحديدية وما يتبعها من قاطرات وعربات ، وأدوات الحرث والطحن والغزل والنسيج ، وآلات البناء ومواده ، وسيارات الركوب ، وآلات الطباعة والطباخة والأكل ، وأدوات الزينة ، كل ذلك من الحديد ، أو يرجع إليه ، أو يحتاج إليه[2]

وأشار القرآن إلى صناعة الملابس :

— « قد أنزلنا عليكم لباسا يوارى سوءاتكم وريشا » « سورة الأعراف : ٢٦ »

وإلى صناعة القصور والمباني :

— الأكمام : أي الأغطية التي تكون على الثمار قبل ظهورها .
العصف : هو التبن الذى تأكله الدواب ، والرياح تعصفه بسهوله .
الريحان : نبت له رائحة طيبة (المصحف المفسر ، للشيخ عبد الجليل عيسى)

(١) الحصيد : أي الزرع المحصود .
باسقات : أي طويلات .
طلع : المراد به هنا الشماريخ التي تحمل البلح . نضيد : أي مرتب بعضه فوق بعض .

(٢) الأستاذ الشيخ محمد مصطفى المراغي : حديث رمضان ، تفسير سورة الحديد .

— « قيل لها ادخلى الصرح ، فلما رأته حسبته لجة ، وكشفت عن ساقيها ، قال إنه صرح ممرد من قوارير » « سورة النمل : ٤٤ » .

وعن صناعة الأسلحة قال تعالى فى سورة سبأ : « ١٠ — ١١ » :

— « وألنا له الحديد أن أعمل سابغات وقدر فى السرد »[١] .

وقال تعالى فى سورة الأنبياء :

— « وعلمناه صنعة لبوس لكم لتحصنكم من بأسكم » نقصد صناعة الدروع .

وعن صناعة التعدين قال تعالى فى سوره الرعد :

— « ومما يوقدون عليه فى النار ابتغاء حلية أو متاع زبد مثله »[٢]

وعن صناعة السفن قال تعالى فى سورة هود :

— « واصنع الفلك بأعيننا ووحينا » .

وقال تعالى فى سورة المؤمنون :

— « فأوحينا إليه أن اصنع الفلك بأعيننا ووحينا » .

وعن صناعة الصيد قال تعالى فى سورة المائدة :

— « يأيها الذين آمنوا ليبلونكم الله بشىء من الصيد تناله أيديكم ورماحكم » .

كما قال جل شأنه فى نفس السورة :

— « أحل لكم صيد البحر وطعامه متاعا لكم وللسيارة » .

وقال تعالى فى سورة « النحل »

— « لتأكلوا منه لحما طريا وتستخرجوا منه حلية تلبسونها » .

---

(١) سابغات : السابغ هو التام الكامل والمراد دروعا واقيات .
قدر : فعل أمر من التقدير وهو جعل الشىء على قدر الحاجة .
السرد : أى النسج .

(٢) ومما يوقدون : أى وبعض المعادن التى يوقدون عليها .
ابتغاء حلية : أى طلب ما يتحلى به من الذهب والفضة .
أو متاع : هو ما يتمتع به الناس : أى ينتفعون به كالقدور ، ، والمحاريث وآلات المصانع ، من الحديد أو النحاس أو غيرها .
زبد مثله : أى أن للمعادن زبدا أيضا . لكن زبدها هو ما يخالطها فى الأشياء الغريبة المضعفة لقيمتها . فانها تعلو سطحها عند غليانها
« المصحف المفسر »

وقال تعالى فى سورة « فاطر » .

— « ومن كل تأكلون لحماً طريا وتستخرجون حلية تلبسونها »

وعن صناعة الجلود قال تعالى فى سورة « النحل » .

— « وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتاً تستخفونها يوم ظعنكم ويوم إقامتكم »

وعن التجارة ، قال الله عز وجل :

— « لا يلاف قريش إيلافهم ، رحلة الشتاء والصيف ، فليعبدوا رب هذا البيت الذى أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف » .

وقال تعالى فى سورة البقرة :

— « إلا أن تكون تجارة حاضرة تديرونها بينكم »

وقال جل شأنه فى سورة النساء :

— « إلا أن تكون تجارة عن تراض منكم »

وتفرض التجارة وجود الأسواق ، وقد ذكرها الله تعالى فى سورة الفرقان :

— « وقالوا ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق » .

وتفتقر التجارة إلى وجود الطرق للوصول إلى الأسواق ، وإلى نظام وسائل النقل ، وإلى نظام للموازين والمكاييل كما تفتقر إلى عملة يتم بها تثمين البضائع ودفع الثمن .

وعن طرق المواصلات قال تعالى فى سورة طه :

— « الذى جعل لكم الأرض مهداً وسلك لكم فيها سبلا » .

وقال جل شأنه فى سورة الزخرف :

— « الذى جعل لكم الأرض مهداً وجعل لكم فيها سبلا لعلكم تهتدون » .

هذا عن طرق المواصلات البرية ، أما عن المواصلات البحرية فقد قال تعالى فى سورة الجاثية :

— « الله الذى سخر لكم البحر لتجرى الفلك فيه بأمره » .

وقال تعالى فى سورة غافر :

— « الله الذى جعل لكم الأنعام لتركبوا منها ومنها تأكلون . ولكم فيها منافع ولتبلغوا عليها حاجة فى صدوركم وعليها وعلى الفلك تحملون » .

وعن نظام الموازين والمكاييل قال تعالى في سورة هود :

— « قال ياقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره ولا تنقصوا المكيال والميزان إني أراكم بخير ، وإني أخاف عليكم عذاب يوم محيط ، وياقوم أوفوا المكيال والميزان بالقسط ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا في الأرض مفسدين » .

وقال تعالى في سورة الرحمن :

— « وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان »

وعن نظام النقود قال تعالى في سورة النساء :

— « وإن أردتم استبدال زوج مكان زوج وآتيتم إحداهن قنطارا فلا تأخذوا منه شيئاً » (قيل إن القنطار هو ألف دينار) .

وقال جل شأنه في نفس السورة :

— « ومن أهل الكتاب من إن تأمنه بقنطار يؤده إليك ، ومنهم من إن تأمنه بدينار لا يؤده إليك إلا ما دمت عليه قائماً » .

وفي هذه الآية ذكر الله تعالى الدينار ، كما ذكر سبحانه الدرهم في سورة يوسف فقال : .

— « وشروه بثمن بخس دراهم معدودة وكانوا فيه من الزاهدين » .

وقد نهى الإسلام عن الإنتاج الضار كأنتاج الخمور ، وتربية الخنازير ، يقول الله تعالى :

— « إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون » سورة المائدة ٩٠ » .

ويقول الرسول الكريم :

— « لعن الله الخمر وشاربها وساقيها وبائعها ومبتاعها وعاصرها ومعتصرها ، وحاملها والمحمولة إليه»

وقال تعالى :

— « يايها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم واشكروا لله إن كنتم إياه تعبدون . إنما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل به لغير الله فمن اضطر غير باغ ولا عاد فلا إثم عليه إن الله غفور رحيم » سورة البقرة : ١٧٢ — ١٧٣ » .

كما نهى عن التعامل بالربا . يقول الله جل شأنه :

— « الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس » « سورة البقرة ٢٧٥»

وقال تعالى :

— « وما آتيتم من ربا ليربوا فى أموال الناس فلا يربوا عند الله ، وما آتيتم من زكاة تريدون وجه الله فأولئك هم المضعفون » « سورة الروم : ٣٩ » .

كما نهى عن الطمع والتحايل وأكل حقوق الناس . قال تعالى :

— «ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتدلوا[1] بها إلى الحكام لتأكلوا فريقاً من أموال الناس بالإثم وأنتم تعلمون » « سورة البقرة : ١٨٨ »

وقال جل شأنه :

— « إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون فى بطونهم ناراً ، وسيصلون سعيرا » « سورة النساء : ١٠ » .

كما نهى عن احتكار السلع . يقول الرسول صلى الله عليه وسلم :

— « من احتكر حكرة يريد أن يغلى بها على المسلمين فهو خاطىء »

ويقول عليه الصلاة والسلام :

— « الجالب فى سوقنا كالمجاهد فى سبيل الله ، والمحتكر فى سوقنا كالملحد فى كتاب الله » .

ويقول الرسول :

— « من دخل فى شىء من أسعار المسلمين ليغليه عليهم كان حقاً على الله أن يقعده بعظم من النار (أى بمكان عظيم منها) يوم القيامة » .

ومن حق الحاكم أن يقسر المحتكرين على بيع ما عندهم بقيمته ما دام الناس محتاجين إليه .

ونهى الإسلام عن اكتناز المال وحبسه عن التداول . يقول الله تعالى :

— « والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم يوم يحمى عليها فى نار جهنم فتكوى بها جباهم وجنوبهم وظهورهم ، هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون » « سورة التوبة : ٣٤ — ٣٥ » .

وأرشد إلى أن الضن بالأموال عن أداء الواجبات ، وإقامة المصالح ، إلقاء بالنفس فى التهلكة .

يقول الله تعالى :

— « وأنفقوا فى سبيل الله ، ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة » .

---

(١) تدلوا بها : المراد تدفعونها رشوة .

وقال عز من قائل :

— « الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل ويكتمون ما آتاهم الله من فضله »

ويقول الرسول فى التحذير من الشح :

— « إياكم والشح فانما هلك من كان قبلكم بالشح ، أمرهم بالقطيعة فقطعوا وأمرهم بالبخل فبخلوا وأمرهم بالفجور ففجروا » .

ويقول :

— « اتقوا الشح ، فان الشح أهلك من كان قبلكم حملهم على أن يسكفوا دماءهم ويستحلوا محارمهم»

إن البخل خلق يمنع صاحبه من العطاء ، ويجعله قابضاً على ما معه ، ممسكا به ، حريصاً عليه ، ومن شأنه أن يفسد خلق صاحبه ، وأن يجعله قاصرا عن التطاول والسمو إلى أية منزلة فاضلة ، فهو أنانى أثر منكمش ليست له فى العادة ميول الإجتماعى ، وإنما هو نفور من الناس ، وحريص على أن يظل منطوياً على نفسه ، مشغولا بجمع ماله ، يخشى أن يردد عليه الناس أو يتردد عليهم ، فيفجعوه فى شىء من ماله الذى هو شقيق روحه وقصارى همته .

هذا صنف من الناس تبتلى به المجتمعات فيكون عليها وبالا ، ويكون على نفسه وبالا ، وخلقه هذا هو مظهر من مظاهر المجتمعات المفككة التى غلبت عليها المادية والمصالح الشخصية ، فنرى كل فرد من أفرادها لاهم له إلا أن يجمع ما استطاع من المال والمنافع ، وأن يحجز ما استطاع لديه فلا يبذله ولا يجود به ، وكلما كثر أمثال هؤلاء فى المجتمع ، عجل عليه الفساد ، والانحلال ، ثم أدركه الفناء والزوال ، وليس الزوال والفناء دائما حسيين بمعنى الانقراض وضياع الإشخاص ولكن قد يكون الزوال والفناء معنويين ، فكم من أمم تعيش ، وكم من مجتمعات تتحرك وتنشط ، ولكنها فى الواقع ميتة ، قد أدركها من الموت الأدبى ما هو أشد من الموت الحسى ، ثم هذا الصنف عادة ، وهو البخلاء المانعون ، يأمرون الناس بالبخل ، فهم يريدون البخل مبدأ فى المجتمع [1] .

وفى القرآن الكريم ذم للذين لا يحضون على طعام المسكين ، قد أخرج على صورة تدل على أنه لون من ألوان التكذيب بيوم الدين . وذلك حيث يقول الله عز وجل :

— « أرأيت الذى يكذب بالدين . فذلك الذى يدع اليتيم . ولا يحض على طعام المسكين»

وقد حرص الإسلام حرصاً شديدا على الإنتاج وتعمير الدنيا ، يقول الرسول :

— « إذا قامت الساعة ، وفى يد أحدكم فسيلة — أى شتلة — فاستطاع ألا تقوم حتى يغرسها فله بذلك أجر » .

---

(١) الأستاذ الشيخ محمد محمد المدنى : المجتمع الاسلامى كما تنظمه سورة النساء ص ٦٤ .

وقد اعتبر الإسلام من عوامل الإنتاج ما يلي : -

— العمل ويشمل عمل العامل (وهو المجهود العضلي كعمل العامل والفلاح ، أو الذهني كعمل المحامي والطبيب) الذي يبذله الإنسان لخلق منفعة اقتصادية كما يشمل عمل المنظم — وهو الذي يوجه العملية الإنتاجية ويوائم بين عناصر الإنتاج المختلفة مما يحقق زيادة الإنتاج .

٢ — رأس المال ويشمل الطبيعة (أي الثروات التي ليس للإنسان دخل في وجودها كالأرض والماء والحيوان والمناجم . . . (كما يشمل رأس المال بمعناه المعروف) أي الثروات الناتجة عن العمل والطبيعة ، والتي لا تصلح لأشباع حاجات الناس مباشرة وإنما تستخدم لإنتاج مواد أخرى صالحة للإشباع المباشر ، ومثال ذلك رؤوس الأموال السائلة كالنقود ، ورءوس الأموال العينية كالمباني والآلات » .

ويرى بعض الكتاب[١] أن رأس المال الذي لا يشارك عنصر العمل في الإنتاج متحملا غرمه ، لا يعتبر في هذه الحالة من عوامل الإنتاج ، وهذا الرأي مبني على إنكار الفائدة باعتبارها من الربا المحرم .

ويرى فريق ثان[٢] أن الاسلام يعتبر رأس المال وفقاً للتعريف الاقتصادي الحديث أحد عوامل أو عناصر الانتاج الرئيسة وهذا لا علاقة له بموضوع العائد الذي يشكل مقولة اقتصادية معينه وأن تحريم الفائدة سواء كان مطلقاً أو نسبياً ، هو مسألة خلافية تتفاوت بشأنها الآراء والاجتهادات في التفسير والتحليل .

ويرى فريق ثالث[٣] أن القرآن حرم الربا واستمال الناس للزكاة ، لأن المقترض كثيراً ما كان فقيراً معدماً أو من النبلاء الذين يقرضون إما للحرب وإما للظهور بمظهر الجاه والقوة الظاهرة ، ولكنه لم يحرم الإجارة ولا المرابحة ولا الأرباح والاستثمار ، فقد برر المتاجرة كما بررتها الأديان من قبل ، وكانت الرهون والالتزامات بل والمشاركة بالتضامن والمساهمة من مبررات الاستثمار ، كذلك برر القرآن خصم الكمبيالات وضمن حق الدائن بالتعويض فيما أقرض ، اذا برهن أنه وقع عليه بعض الضرر بسبب القرض ، وقد نشأ عن نظرية التعويض هذا مايعبر عنه الاقتصاديون في الوقت الحاضر بالفائدة وهذه النظرية تتمشى مع القروض التي يقترضها المدين تنشيطاً لأحواله الانتاجية ، فالربا وحكمة تحريمه تختلف عن الفائدة وحكمة تبريرها[٤] قال تعالى : (ذلك بأنهم قالوا إنما البيع مثل الربا) . فالبيع معاوضة

---

(١) الدكتور محمد شوقي الفنجري : المدخل إلى الاقتصاد الإسلامي ، ج ١ ، ص ٣٣

(٢) الدكتور راشد البراوي : التفسير القرآني للتاريخ : ص ٦٢

(٣) الدكتور محمد فهمي هيطه : علم الاقتصاد : ص ٤٢٢ .

(٤) قال السيد محمد رشيد رضا في « تفسير القرآن الحكيم : « إن الربا لغة الزيادة فالشيء يربو إذا زاد على ما كان عليه ، وكان المدين يقول للدائن : أخر دينك وأزيدك على مالك » فيفعلان ذلك ، فذلك هو الربا أضعافاً مضاعفة . سبب تحريم الربا هو أن أولئك الذين فتنهم المال واستعبدهم حتى ضربت نفوسهم جمعه . جعلوه مقصوداً لذاته وتركوا لأجل الكسب به جميع موارد الكسب الطبيعي ، فيخرج نفوسهم عن الاعتدال ، ويظهر ذلك في حركاتهم وتقلبهم في أعمالهم .

بين شيئين ، وأما الربا الذى كانوا يأكلونه فى الجاهلية فهو زيادة عن دينهم يزيدونها عن تأخير الأجل لا يقابلها شيء ، ومايؤخذ بغير مقابل فهو من الباطل . لذلك حرم الله الربا دون البيع ، فقال جل شأنه : « وأحل الله البيع وحرم الربا » ولو كانا متساويين لما اختلف حكمهما .

يقول الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده[1] :

« إن كل مافيه معاوضة صحيحة خالية من أكل أموال الناس بالباطل الذى لا يقابله عوض فهو بيع حلال ، وإنما تحرم الزيادة التى يأخذها صاحب المال لأجل التأخير عن الأجل وهى لا معاوضة فيها ولا مقابل لها فهى ظلم » .

ويقول الأستاذ الشيخ محمود شلتوت ، بعد أن بين الربا المحرم فى القرآن الكريم : « يجوز[2] للمحتاج الاستقراض بالربح ، وإذا كان للأفراد ضرورة أو حاجة تبيح لهم هذه المعاملة ، وكان تقديرها مما يرجع إليهم وحدهم وهم مؤمنون بصيرون بدينهم فان للأمة أيضاً ضرورة أو حاجة كثيراً ماتدعو إلى الاقتراض بالربح ، فالمزارعون كما نعلم تشتد حاجتهم فى زراعاتهم وإنتاجهم إلى مايهيئون به الأرض والزراعة . والحكومة كما نعلم تشتد حاجتها إلى مصالح الأمة العامة ، وإلى ماتعد به لمكافحة الأعداء المغيرين ، والتجار تشتد حاجتهم إلى مايستوردون به البضائع التى تحتاجها الأمة وتعمر بها الأسواق .

ونرى مثل ذلك فى المصانع والمنشآت التى لا غنى لمجموع الأمة عنها والتى يتسع بها ميدان العمل فتخفف عن كاهل الأمة وطأة العمال العاطلين .

ولا ريب أن الإسلام الذى يبنى أحكامه على قاعدة اليسر ورفع الضرر ، والعمل على العزة والتقدم وعلاج التعطل يعطى للأمة فى شخص هيئاتها وأفرادها هذا الحق ، ويبيح لها ، مادامت مواردها فى قلة — أن تقترض بالربح تحقيقاً لتلك المصالح التى بها قيام الأمة وحفظ كيانها » .

يقرر الإسلام أن المال هو مال الله ، وأن الناس جميعاً عباد الله ، والحياة التى يعملون فيها ويعمرونها بمال الله ، هى لله ، فكان من الضرورى أن يكون المال — وإن ربط باسم شخص معين — لجميع عباد الله ، يحافظ عليه الجميع ، وينتفع به الجميع قد أرشد إلى ذلك قوله تعالى :

— « هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعاً » « سورة البقرة ٢٩ »

وقال جل شأنه :

— « وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين[3] فيه » « سورة الحديد ٧ »

ومن هنا أضاف القرآن الأموال إلى الجماعة ، وجعلها قواماً لمعاشهم :

---

(١) تفسير القرآن الكريم : جـ٣ ٢ ص ٩٦ .

(٢) كتاب « الفتاوى ص ٣٢٦ .

(٣) يقول الأستاذ الامام الشيخ محمد مصطفى المراغى فى تفسير هذه الآية الكريمة —

— « ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل » « سورة البقرة ١٨٨ »

— « ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التى جعل الله لكم قياماً « سورة النساء ٥ » ».

وقد جاءت تعاليم الإسلام فى مجال التوزيع صريحة بأن لكل حاجته أولا ، بقوله تعالى :

— « وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل » « سورة الاسراء : ٢٦ »

وقوله تعالى :

— « وفى أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم » « سورة الذاريات ١٩ »

وقال الرسول :

— « من ترك كلا ، فليأتنى فأنا مولاه » أى من ترك ذرية ضعيفة فليأتنى بصفتى رئيس الدولة فأنا مسئول عنه كفيل به .

وقال عليه السلام :

— « ليس المؤمن الذى يشبع وجاره جائع إلى جنبه وهو يعلم » .

وقال صلى الله عليه وسلم :

— « أيما أهل عرصة أصبح فيهم امرؤ جائعا فقد برئت منهم ذمة الله ورسوله »

وقال عليه الصلاة والسلام .

— « المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه » .

ويعلق على الحديث الأخير الإمام ابن حزم فى كتابه « المحلى » فيقول إن « من تركه يجوع ويعرى فقد أسلمه »

ويقول البلاذرى : كان عمر بن الخطاب يفرض للمولود مائتى درهم ، فاذا بلغ زاده ، وكان إذا أتى باللقيط فرض له فى بيت المال ، أى فرض له رزقاً ، ثم يأخذ وليه كل شهر بقدر مايصلحه ثم ينقله من سنة إلى سنة ، وكان يوصى بهم خيرا ، ويجعل رضاعهم ونفقتهم من بيت المال » .

ويقول الإمام ابن تيمية فى كتابه « السياسة الشرعية فى إصلاح الراعى والرعية » فى باب وجوه صرف الأموال :

« ومن المستحقين ذوو الحاجات ، فان الفقهاء قد اختلفوا ، هل يقدمون فى غير الصدقات من الفىء ونحوه ، على غيرهم ؟ على قولين فى مذهب أحمد وغيره ، منهم من قال : يقدمون ، ومنهم

= وطلب الله سبحانه إلى عباده الانفاق مما بأيديهم فى سبيل البر ، ونبههم إلى أن الأموال التى فى أيديهم ليست أموالهم على الحقيقة ، بل هى أموال الله سبحانه ، أنشأها وخلقها وخولهم الاستمتاع بها ، ومكنهم من التصرف فيها ، فهم خلفاؤه ، ووكلاؤه ، وإلى أنهذه الأموال انتهت إليهم عن غيرهم ، وستنتقل عنهم إلى غيرهم ، فهم خلفاء عمن قبلهم ، وسيخلفهم من بعدهم ، واذا كان المال مال الله تداولته الأيدى فلا وجه للحرص الشديد عليه ، وخير أن يدخر الإنسان عند الله ليكون له أجره يوم الحساب »

« حديث رمضان — تفسير سورة الحديد »

من قال : المال استحق بالإسلام ، فيشتركون فيه ، كما يشترك الورثة فى الميراث . والصحيح أنهم يقدمون ، فان النبى صلى الله عليه وسلم كان يقدم ذوى الحاجات ، كما قدمهم فى مال بنى النضير[1] . وقال عمر بن الخطاب ، رضى الله عنه : « ليس أحد أحق بهذا المال من أحد ، إنما هو الرجل وسابقته ، والرجل وغناؤه والرجل وبلاؤه ، والرجل وحاجته ، فجعلهم عمر رضى الله عنه أربعة أقسام » .

الرجل وحاجته ، قاعدة أصيلة فى النظام المالى الإسلامى ، كل رجل لا يملك شيئاً ، ولا يجد عملا ، فالدولة كفيلة ، إما بايجاد عمل له ، أو بسد حاجته .

يقول الأمام ابن حزم فى كتابه « المحلى » :

« فرض على الأغنياء من أهل كل بلد أن يقوموا بفقرائهم ، ويجبرهم السلطان فى ذلك إن لم تقم الزكوات ولا فىء المسلمين بهم ، فيقام لهم بما يأكلون من القوت الذى لابد منه ومن اللباس للشتاء والصيف بمثل ذلك ، وبمسكن يقيهم من المطر والشمس وعيون المارة » .

إن الإسلام لا يسمح بالغنى إلا بعد توفر حد الكفاية لكل مواطن ، وبعبارة أخرى أنه لا يسمح بالغنى مع وجود الفقر ، وإنما يبدأ الغنى والتفاوت فيه بعد إزالة الفقر والقضاء عليه نهائيا .

يقول الله تعالى :

— « يسألونك ماذا ينفقون قل : العفو » .

والعفو هنا كل مازاد عن الحاجة .

قال الرسول الكريم :

— « إن الأشعريين إذا أرسلوا فى الغزو أو قل طعام عيالهم فى المدينة حملوا ماكان عندهم فى ثوب واحد ثم اقتسموه بينهم فى إناء واحد بالسوية ، فهم منى وأنا منهم » .

وجاء رجل إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقال .

— « أكسنى يارسول الله .

فقال له : أما لك جار له فضل ثوبين ؟

قال : بلى غير واحد .

قال : لا يجمع الله بينك وبينه فى الجنة » .

وعن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال :

---

(١) قسم الرسول أموالهم على المهاجرين ، ومن ذكر فقره فى الأنصار (سيرة ابن هشام)

« بينما نحن مع النبي صلى الله عليه وسلم فى سفر ، إذ جاء رجل على راحله له . قال : فجعل يصرف بصره يميناً وشمالا ، فقال الرسول :

— من كان معه فضل ظهر ، فليعد به على من لا ظهر له ، ومن كان له فضل من زاد ، فليعد به على من لا زاد له .

قال : فذكر من أصناف المال ماذكر ، حتى رأينا أنه لا حق لأحد منا فى فضل » .

والإسلام إذ يسمح بالغنى بعد ضمان حد الكفاية ، وذلك لكل تبعاً لعمله ، فانه لا يسمح بالتفاوت الكبير فى الثروة كما لا يسمح بالترف .

فالغنى والتفاوت فى الثروة والدخول ليس مطلقاً فى الإسلام ، بل هو مقيد بألا يكون التفاوت فى الغنى كبيرا ، لأن الغنى الفاحش يولد البغى .

قال الله تعالى :

— « ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا فى الأرض » « سورة الشورى : ٢٧ »

ويؤدى إلى الطغيان ، يقول جل شأنه :

— « إن الانسان ليطغى ، أن رآه استغنى » « سورة العلق ٦ — ٧ » .

ويثير الحسد فى نفوس الفقراء ولعل قصة قارون أروع فى تصوير هذه المعانى :

« إن قارون كان من قوم موسى فبغى[1] عليهم وآتيناه من الكنوز ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولى القوة ، إذ قال له قومه لا تفرح إن الله لا يحب الفرحين . وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك ولا تبغ الفساد فى الأرض إن الله لا يحب المفسدين . قال إنما أوتيته على علم عندى ، أو لم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوة وأكثر جمعا ولا يسأل عن ذنوبهم المجرمون . فخرج على قومه فى زينته ، قال الذين يريدون الحياة الدنيا ياليت لنا مثل ما أوتى قارون إنه لذو حظ عظيم . وقال الذين أوتوا العلم ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحا ولا يلقاها إلا الصابرون . فخسفنا به وبداره الأرض فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله وما كان من المنتصرين . وأصبح الذين تمنوا مكانه بالأمس يقولون ويكأن الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر لولا أن من الله علينا لخسف بنا ويكأنه لا يفلح الكافرون . تلك الدار[2] الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا فى الأرض ولا فساداً والعاقبة للمتقين »

والغنى العريض تستأثر به فئة قليلة تعمل على الاستزادة منه باطراد وبغض النظر عن الوسائل التى تتبع فى الحصول على الثروة ، إنما تترتب عليه نتيجة خطيرة ، هى انقسام المجتمع إلى طبقتين : الأولى وهى القلة ، تحتكر الثروة المادية ، أى تسيطر على وسائل الانتاج ، ومع هذه الثروة القوة الإقتصادية التى تقوم عليها القوة السياسية .

---

(١) بغى المراد : تكبر وطلب أن يكون هو صاحب الكلمة فى بنى اسرائيل لأنه أغنى رجل فيهم .

(٢) سورة القصص : ٧٦ — ٨٣ .

أما الطبقة الثانية وتشمل الأغلبية العظمى ، فلا تملك شيئاً ويفرض عليها الاستغلال والحرمان .

وهنا تقوم العلاقة بين الطبقتين على الشك والعداء ، وبعبارة أخرى يتولد الصراع الطبقي ويزداد حدة مما يعصف بأمن المجتمع واستقراره[1] .

والآية التالية ذات مغزى خطير :

— « إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله » ذلك أن المال يمكن أن يستخدم من أجل عرقلة التطور والتقدم ، وفي مقاومة الدعوات إلى الإصلاح والعدل والمساواة وفي عدم الإستغلال .

وقد علمنا التاريخ أن الشعوب حين تبدأ حياة الترف ، فان ذلك يكون إيذاناً بغروب شمسها وأفول نجمها . قال تعالى :

— « وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها ، فحق عليها القول فدمرناها تدميراً « سورة الإسراء : ١٦ » .

* * *

كانت الامبراطورية الرومانية قد بلغت أوج القوة والنفوذ ، ووصلت في الحضارة إلى أقصى الدرجات ولكنها هبطت إلى الدرك الأسفل في الأخلاق .

بطر الرومان معيشتهم وأخلدوا إلى الأرض ، وكان هدفهم الاستمتاع بالحياة المترفة ، التي لاتقيم وزناً لأى مبدأ خلقي . ولم يكن زهدهم وصومهم في بعض الأحيان إلا ليبعث على شهوة الأكل ، وكانت موائدهم تزهو بأواني الذهب والفضة . ويزيد من نعيمهم حمامات باذخة وميادين للهو واسعة ، ومصارع يتصارع فيها الأبطال مع الأبطال أو مع السباع ولا يزالون يصارعون حتى يخر الواحد منهم صريعا . وقد أدرك هؤلاء الفاتحون الذين دوخوا العالم أنه إن كان هناك شيء جدير بالعبادة فهو « القوة » ومن هنا دب فيها الانحلال ، وتهاوت كما يتهاوى بيت من الورق .

فالترف — كما يؤكد ابن خلدون في مقدمته — جرثومة القضاء على الحضارة . ولكن ماهو حد الترف والحرمان ؟ وما هو القصد بينهما والإعتدال ؟

ليس من شك أن حكم البيئة والعرف هو أعدل الأحكام . فنحن إذا رجعنا إلى أول نشأة الإسلام ، وجدنا بيئة محرومة يبدو فيها الشظف والفقر ، ونجد الرسول الكريم ينهى عن لبس الحرير : « من لبس الحرير في الدنيا لم يلبسه في الآخرة » . كان هذا منطق بيئة الرسول صلى الله عليه وسلم ، ولكن الإسلام لا يدعوا إلى الشظف حين لا تدعو إليه ظروف البيئة وأحوال المجتمع . ومستوى المعيشة العام للجماعة هو الذى يحدد الترف والحرمان . وحين فتح الله الأمصار على المسلمين وزادت الثروة العامة و ارتفع

---

(١) الدكتور راشد البراوى : التفسير القرآني للتاريخ : ص ١٢٢ .

مستوى المعيشة ، تغيرت أزياؤهم ، واستمتعوا بما لم يكونوا يستمتعون ، فلم ينكر ذلك عليهم أحد ، إلا أن يتجاوزوا المعقول ؛ يقول الرسول صلى الله عليه وسلم : « كل ماشئت ، والبس ماشئت ماخطئتك اثنتان : سرف أو مخيلة » .

سبق أن قلنا إن الاسلام لا يعتبر الإنسان مجرد كائن حي ، بل يضعه في منزلة رفيعة هي خلافة الله على الأرض .

— « وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة ، قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك ؟ قال : اني أعلم مالا تعلمون» سورة البقرة (٣٠) .

— « وإذ قال ربك للملائكة أني خالق بشراً من صلصال من حمأ مسنون ؛ فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين » « سورة الحجر : ٢٨ — ٢٩ » .

— « وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين ، قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ماعلمتنا إنك أنت العليم الحكيم ، قال ياآدم أنبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إني أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون) (سورة البقرة : ٣١ — ٣٣) .

والأسماء لا يمكن إلا أن تكون للموجودات ، وصفاتها أو خصائصها ، ولقد قدرت الملائكة هذه المنحة الإلهية (العقل والعلم) في الإنسان التي ميز الله تعالى بها آدم فسخر بواسطتها قوى الطبيعة وسيطر على مافي الأرض جميعا ، ثم راح يغزو الفضاء ويرتاد السماء وسائر طبقات غلاف الأرض الجوي .

« لتركبن طبقاً عن طبق » (الانشقاق : ١٩) .

ولكن الشيطان نظر إلى الناحية المادية البحتة في الإنسان وقال أنه من طين ؛ ومن قوى الشر التي تستخدمها الشياطين النزوات والشهوات ؛ ولكن الذي يسيره هواه ، ولا يقوى على كبح جماح نفسه ، أو ينقاد للشهوات المادية ، فهو ممن فقدوا سيطرة العقل وقوة الإيمان على ما انغمس فيه من الشهوات[1] .

لقد وضع الله تعالى الإنسان في مركز ممتاز بين مخلوقاته فأصبح له الحق في أن يستخدم كل شيء في هذا العالم استخداماً كاملا .

— « ألم تر أن الله سخر لكم مافي الأرض » « سورة الحج : ٦٥ »

— « والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون ؛ ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون ؛ وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس إن ربكم لرءوف رحيم . والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ويخلق مالا تعلمون ؛ وعلى الله قصد السبيل ومنها جائر ولو شاء

---

(١) الدكتور محمد جمال الدين الفندى : الكون بين العلم والدين : ص ٨

هداكم أجمعين . هو الذى أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون ، ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات إن فى ذلك لآية لقوم يتفكرون . وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ، إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون . وماذرأ لكم فى الأرض مختلفاً ألوانه إن فى ذلك لآية لقوم يذكرون . وهو الذى سخر البحر لتأكلوا منه لحماً طرياً وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون . وألقى فى الأرض رواسى أن تميد بكم وأنهارا وسبلا لعلكم تهتدون . وعلامات وبالنجم هم يهتدون . أفمن يخلق كمن لا يخلق أفلا تذكرون . وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الله لغفور رحيم » « سورة النحل : ٥ — ١٨ » .

— « ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا « سورة الاسراء : ٧٠ » .

تبين هذه الآيات جميعها أن كل ماهو موجود فى هذا الكون إنما هو لمنفعة الانسان ، وأن العالم كله قد خلق له . ومركزه هذا (خلافة الله على الأرض) وسيادته على كل شىء فيها يوجب عليه مسؤلية عظيمة .

والإنسان بما وهب الله له من قوى متوازنة على أفضل مايكون قد ألقى نفسه فى أسفل ميزان الوجود وقد أحاط به من كل جانب قوى تقيم فى وجهه العقبات .

— « لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم ، ثم رددناه أسفل سافلين » « سورة التين ٤ — ٥ »

فعلى أية حال نجد الانسان فى هذه البيئة ؟

إننا نجده كائناً قلقا ، شغلته مثله العليا إلى حد أنساه كل شىء آخر ، قادراً على إنزال الألم بنفسه فى سبيل بحثه الدائم عن آفاق جديدة يفصح فيها عن نفسه ، وهو على مافيه من نقائص أسمى من الطبيعة ، من أجل أنه يحمل أمانة عظمى .

— « إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الانسان إنه كان ظلوماً جهولا » « سورة الأحزاب : ٧٢ »

المراد بالأمانة هنا العقل بطبيعة الحال .

« وعلى الرغم من اعتقاد بعض الناس بقدرة بعض الحيوانات على التفكير بطريقة ما فإن البشر يفوقون فى الذكاء أكثر الحيوانات فطنة بملايين المرات .

كما أنه من الوجهة العلمية يعتبر الإنسان مخلوقاً حديث العهد بالأرض ، ولا علم لنا عن أسلافنا الأوائل ، نظراً لقلة ماتركوه من آثار فى العصور الأولى التى سبقت العصر الحجرى المعروف . و كذلك قلة ما تبقى من أجسادهم كحفريات .

وكل مايدرسه العلماء عن الإنسان الأول إنما يستقى عن طريق تحليل الجماجم المهشمة والفكوك البالية ، وعظام الأرجل المتآكلة ، وكلها عظام نخرة ، ولكن أحدث النظريات تفضل الإنسان عن باقى الحيوانات وتجعله كائنا Greature قائماً بذاته . ويقول القرآن الكريم إن الله تعالى عندما خلق الإنسان من ماء الأرض وترابها نفخ فيه من روحه وبذلك ميزه على سائر المخلوقات .

والحقيقة التى لا شك فيها أن الإنسان اختص بصفتين بهما ساد جميع الكائنات ، هما القدرة على على الكلام ، ثم استعمال الآلة Machine .

والكلام هو الحد الفاصل بين الكائن العاقل المفكر وسائر الدواب الأخرى — والإنسان هو الكائن الوحيد الذى استخدم الآلة . وبالكلام سهل تبادل المعرفة .

وكان من الطبيعى أن يعمل الانسان على تحسين آلاته وأسلحته تحت ضغط الظروف القاسية التى كانت تمر به مثل البرد والمطر والأعاصير وهجمات الحيوانات المفترسة والجفاف .... فاستخدم الملابس وبنى البيوت ، ورعى الماشية ، وزرع الأرض ، ثم تعلم العلم[1] ، ولا ريب فى أن سيرة الإنسان لها أول وبداية ، ولكن لعله يكون مقدوراً عليه أن يصبح عنصراً ثابتاً فى تركيب الوجود .

« أيحسب الإنسان أن يترك سدى . ألم يك نطفة من منى يمنى . ثم كان علقة . فخلق فسوى : فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى . أليس ذلك بقادر على أن يحيى الموتى » « سورة القيامة : ٣٦ — ٤٠ » .

والإنسان إذا استهوته القوى التى تحيط به ، فانه يقدر على تكييفها ، وتوجيهها حيث شاء ، أما إذا غلبته على أمره ، فانه قادر على أن ينشىء فى أعماق نفسه عالماً أكبر ، يجد فيه منابع من السعادة والإلهام لا حد لها ولا نهاية . ومع أن نصيب الإنسان فى الوجود شاق ، وحياته أوهن من بيت العنكبوت ، فليس للروح الإنسانية نظير بين جميع الحقائق فى قوتها ، وفى إلهامها وفى جمالها ، ولهذا فإن الإنسان فى صميم كيانه هو كما صوره القرآن قوة مبدعة وروحاً متصاعدة تسمو فى سيرها قدماً فى حالة وجودية إلى حالة أخرى :

— « فلا أقسم بالشفق ، والليل وما وسق ، والقمر إذا اتسق ، لتركبن طبقاً عن طبق » « سور الانشقاق : ١٦ — ١٩ »

لقد قدر على الإنسان أن يشارك فى أعمق رغبات العالم الذى يحيط به ، وأن يكيف مصير نفسه ومصير العالم كذلك ، تارة بتهيئة نفسه لقوى الكون ، وتارة أخرى ببذل مافى وسعه لتسخير هذه القوى لأغراضه ومراميه .

وفى هذا المنهج من التغير التقدمى يكون الله فى عون الإنسان على شريطة أن يبدأ هو بتغيير ما فى نفسه .

---

(١) الدكتور محمد جمال الدين الفندى : الكون بين العلم والدين : ص ١٢٠ .

— « إن الله لا يغير مابقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » « سورة الرعد : ١١ »

فإذا لم ينهض الإنسان إلى العمل ، ولم يبعث مافى أعماق كيانه من غنى ، وكف عن الشعور بباعث من نفسه إلى حياة أرقى ، أصبحت روحه جامدة جمود الحجر ، وهوى إلى حضيض المادة الميتة . على أن وجود الإنسان وتقدمه الروحى يتوقفان على إحكام العلاقات بينه وبين الحقيقة التى يواجهها ، وهذه العلاقات تنشئها المعرفة ، وهو الإدراك الحسى الذى يكمله الإدراك العقلى »[1] .

قال تعالى :

— « إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون » « سورة البقرة : ١٦٤ » .

— « وهو الذى جعل لكم النجوم لتهتدوا بها فى ظلمات البر والبحر قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون وهو الذى أنشأكم من نفس واحدة فمستقر ومستودع قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون . وهو الذى أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شىء فأخرجنا منه خضرا نخرج به حباً متراكبا ومن النخل من طلعها قنوان دانية وجنات من أعناب والزيتون والرمان مشتبهاً وغير متشابه انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه إن فى ذلكم لآيات لقوم يؤمنون » « سورة الأنعام : ٩٧ — ٩٩ »

— « أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت . وإلى السماء كيف رفعت . وإلى الجبال كيف نصبت . وإلى الأرض كيف سطحت » « سورة الغاشية : ١٧ — ٢٠ »

— « ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن فى ذلك لآيات للعالمين » سورة الروم : ٢٢ » .

إن القرآن يستهدف فى هذه الملاحظة التأملية للطبيعة آن تبعث فى نفس الإنسان الشعور بمن تعد هذه الطبيعة آية عليه . ولكن ماينبغى الالتفات إليه هو الاتجاه التجريبى العام للقرآن ، مما كون فى أتباعه شعوراً بتقدير الواقع وجعل منهم آخر الأمر واضعى أساس العلم الحديث .

وهنالك أمور ثلاثة واضحة كل الوضوح فى القرآن :

١ — أن الإنسان قد اصطفاه الله « ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى » « سورة طه ١٢٢ » .

٢ — أن الإنسان بالرغم من أخطائه جميعاً ، أريد أن يكون خليفة الله فى أرضه .

٣ — أن الإنسان أمين على شخصية حرة أخذ تبعتها على عاتقه . وهذه الشخصية الحرة يمكن أن تتحقق تماما إن هو اندفع بكل جوارحه فألقى بنفسه فى خضم متاعب الحياة الدنيا ومسراتها وأحزانها التى تحيط به .

---

(١) الدكتور محمد اقبال : تجديد التفكير الدينى فى الاسلام ، ترجمة عباس محمود ، ص ١٨ — ٢١ .

إن الله يعلم(١) أن الدنيا لا يمكن أن تنشر أمام الناس كل ما يمكن أن ينال منها وأنه لا يمكن للانسان أن ينمى كل قابلياته الكامنة نمواً كاملا إلا فى جو من الحرية يسمح باجراء تجارب على البيئات بدون أن يقيد هذه التجارب ، إذ بدون ذلك تصبح فكرة الفضيلة والرذيلة خداعاً محضاً وكلمتا « حق » « وسىء » لا معنى لهما مطلقا . إن السلوك الفاضل الذى هو واجب وأمر أساسى فى الإسلام يفترض قبله وجود حرية الاختيار والانتقاء والقبول أو الرفض . وحيثما لا توجد حرية فلا يمكن أن يوجد سلوك فاضل ، لأن السلوك الفاضل لا ينطبق إلا على الأعمال التى يتمتع الإنسان فيها بحرية الاختيار ، وكل عمل يفرض كرهاً من الخارج ليس فيه أى نوع من الفضيلة .

إننا نقدر عمل الخير حين يقوم به الإنسان لمجرد أننا نشعر بأنه لو أراد لاستطاع أن يختار السبيل المعاكسة ، ولكنه بمحض اختياره وإرادته الحرة اتبع الطريق المستقيم .

يقول الله جل شأنه :

ـــ إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعاً بصيرا . إنا هديناه السبيل إما شاكرا وإما كفورا » . « سورة الإنسان ٢ ـــ ٣ » .

وإن هبوط الإنسان من الجنة يدل على أن الإنسان قد ارتفع من الحالة البدائية للشهوة الغريزية إلى شعور من يعى أنه ذو نفس حرة تستطيع أن تشك وأن تعصى .

يقول الدكتور محمد إقبال فى كتابه « تجديد التفكير الدينى فى الإسلام » :

« إن قصة هبوط آدم كما جاءت فى القرآن لا صلة لها بظهور الإنسان الأول على هذا الكوكب ، وإنما أريد بها بالأحرى بيان ارتقاء الإنسان من بدائية الشهوة الغريزية إلى الشعور بأن له نفساً حرة قادرة على الشك والعصيان ، وليس يعنى الهبوط أى فساد أخلاقى ، بل هو انتقال الإنسان من الشعور البسيط إلى ظهور أول بارقة من بوارق الشعور بالنفس وهو نوع من اليقظة من حلم الطبيعة أحدثتها خفقة من الشعور بأن للأنسان صلة علية شخصية بوجوده . هذا إلى أن القرآن لا يعتبر الأرض ساحة للعذاب سجنت فيه إنسانية شريرة العنصر بسبب ارتكابها خطيئة أصلية . فالمعصية الأولى للإنسان كانت أول فعل له تتمثل فيه حرية الاختيار ، ولهذا تاب الله على آدم ، كما جاء فى القرآن وغفر له ، وعمل الخير لا يمكن أن يكون قسرا ، بل هو خضوع عن طواعية للمثل الإخلاقى الأعلى خضوعاً ينشأ عن تعاون الذات الحرة ورضى » .

والكائن الذى قدرت عليه حركاته كلها كما قدرت حركات الآلة لا يقدر على فعل الخير . وعلى هذا فان الحرية شرط فى عمل الخير . ولكن السماح بظهور ذات متناهية لها القدرة على أن تختار ما تفعل بعد تقرير القيم النسبية للأفعال الممكنة لها هو فى الحق مغامرة كبرى ، لأن حرية اختيار الخير تتضمن كذلك حرية اختيار عكسه . وكون المشيئة الإلهية اقتضت ذلك دليل على ما لله من ثقة فى الإنسان . ولقد بقى على الإنسان أن يبرهن على أنه أهل الثقة .

---

(١) تفسير التاريخ ، مرجع سابق ، ص ١٩٢ .

وربما كانت مغامرة كهذه هي وحدها التي تيسر الابتلاء والتنمية للقوى الممكنة لوجود خلق على « أحسن تقويم ، ثم رددناه أسفل سافلين » « سورة التين » .

وكما يقول القرآن « ونبلوكم بالشر والخير فتنة » « سورة الأنبياء » .

فالشر والخير إذن وإن كانا متضادين يجب أن يكون كلاهما جزءا من نفس الكل : وليست هناك حقيقة منعزلة عن غيرها ، لأن الحقائق أمور كلية يجب أن تفهم عناصرها بما بينها من نسب وإضافات والحكم المنطقي إنما يفرق بين عناصر الحقيقة الواحدة لكي يكشف عن توقف كل منها على الآخر وفضلا عن هذا فان طبيعة النفس هي أن تبقى على ذاتها من حيث هي نفس ، وبسبب هذا تنشد المعرفة والتكاثر ، والقوة ، أو كما جاء في القرآن تسعى وراء « ملك لا يبلى » : والحادثة الأولى في رواية القرآن للقصة تتعلق برغبة الإنسان في المعرفة والثانية تتعلق برغبته في التكاثر والقوة .

وفيما يتصل بالحادثة الأولى لابد من إيضاح أمرين :

الأول : هو أنها ذكرت مباشرة بعد الآيات التي وصفت تفوق آدم على الملائكة في معرفة أسماء الأشياء وإعادة ذكرها : والمقصود من هذه الآيات — كما بينت — بيان أن المقصود طبيعة المعرفة الإنسانية

وفيما يتعلق بالأمر الثاني تحدثنا مدام « بالڤاتسكي » التي كانت على حظ كبير من العلم بالرمزية القديمة فتقول في كتابها « المذهب السرى » أن الشجرة كانت عند القدماء رمزاً خفياً على علم الغيب وواضح أن آدم حرم عليه أن يذوق ثمر هذه الشجرة ، لأن تناهيه من حيث هو نفس ، ولأن عتاده الحسى وقواه العاقلة — كل ذلك كان ، بصفة عامة ، مهيئاً لنوع آخر من أنواع المعرفة ، هو النوع الذى يقتضى الكد في معاناة الملاحظة ، ولا يقوى إلا على التجمع البطىء : ولكن الشيطان أغوى آدم على أن يأكل من الثمرة المحرمة من شجرة المعرفة وانقاد له آدم ، لا لأن الشر كان متأصلا في نفسه ، ولكن لأنه كان عجولا بطبعه أراد أن يحصل المعرفة عن أقرب طريق : وكان السبيل الوحيد لتقويم هذا الميل فيه أن يوضع في بيئة ، مهما تكن مؤلمة له ، فانها كانت أكثر ملاءمة لإبراز قواه العاقلة . وعلى هذا فان إدخال آدم بيئة مادية مؤلمة له لم يكن القصد منه عقابه ، بل كان المراد به بالأحرى القضاء على صد الشيطان الذى احتال — بسبب عداوته للإنسان — بلبن القول على أن يبقيه جاهلا للنعيم الذى ينشأ عن النمو والامتداد الخالدين ولكن بقاء ذات متناهية في بيئة كؤود يتوقف على التزايد المستمر للمعرفة القائمة على التجربة الواقعة وتجارب هذه الذات المتناهية التي تنفسح أمامها إمكانات عدة . إنما تزداد وتتسع ، بطريقة المحاولة والخطأ . وعلى هذا فان الخطأ الذى قد يوصف بأنه نوع من الشر العقلى عامل لا محيص عنه في بناء التجربة .

ويروى القرآن الحادثة الثانية في قصة الهبوط من الجنة على النحو الآتى :

— « فوسوس إليه الشيطان قال يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى ، فأكلا منها فبدت لهما سوءاتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة ، وعصى آدم ربه فغوى ، ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى» « سورة طه : ١٢٠ — ١٢٢ »

فالفكرة الأساسية هنا تشير إلى رغبة الحياة رغبة لا تقاوم فى الحصول على ملك لا يبلى ، فى حصول الإنسان على ملك لا نهائى من حيث هو فرد ذو وجود متحقق . ولكن لما كان الإنسان كائناً فانيا يخشى انقضاء سيرته بموته ، لم يكن أمامه من سبيل إلا أن يحقق نوعا من الخلود الجماعى بالتكاثر والتوالد .

وأكل الثمرة المحرمة من شجرة الخلد كان الوسيلة التى لجأ إليها للتمييز بين الذكر والأنثى ، وهو التمييز الذى به يتكاثر لكى ينجو من الفناء الكلى » .

إن الحياة اختبار وامتحان للناس ليبين كل منهم قيمته . يقول الله تعالى :

— « ياداود إنا جعلناك خليفة فى الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله ، إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب » « سورة ص : ٢٦ » .

— « تبارك الذى بيده الملك وهو على كل شىء قدير ، الذى خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا وهو العزيز الغفور » « سورة الملك : ١ — ٢ » .

— « والشمس[1] وضحاها ، والقمر إذا تلاها ، والنهار إذا جلاها ، والليل إذا يغشاها ، والسماء وما بناها ، والأرض وما طحاها ، ونفس وما سواها ، فألهمها فجورها وتقواها ، قد أفلح من زكاها ، وقد خاب من دساها « سورة الشمس : ١ — ١٠ » .

ولو شاء الله لجعل الناس كلهم أتقياء ، ولكن حينئذ لن يمكن تحقيق الغرض من الخلق ، إذ لن يمكن قط تمييز المسىء من المحسن ، إن هذا الاختيار هو لمجرد فصل الحبوب عن القشور ، إنها حقاً محك الذهب الذى يميز بين الذهب الخالص والمعدن الرخيص .

— « لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن ليبلوكم فى ما آتاكم فاستبقوا الخيرات إلى الله مرجعكم جميعاً فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون » « سورة المائدة ٤٨ »

---

(١) يقول الأستاذ الامام محمد عبده فى تفسير هذه الآيات : بعد أن أقسم الله بالضياء والظلمة ، وأقسم بالسماء وما فيها من الكواكب ، وبالذى بناها وجعلها مصدرا للضياء لأن الشمس والقمر وسائر الكواكب من أجزاء ذلك البناء ، وبالأرض والذى جعلها لنا فراشا وجعلها مصدرا للظلمة ، فانها هى التى يحجب بعض أجزائها ضوء الشمس عن البعض الآخر فيظهر الظلام فى هذا الآخر . وقال .. اقتصر فى جانب الأرض بذكر الطحو ، وهو التمهيد وفيه منافع الناس من سكنى الأرض والانتفاع بما يوجد على ظهرها من نبات وحيوان . بعد هذا أقسم بالنفس الانسانية والذى « سواها » أى عدلها بأن ركب فيها قواها الباطنة والظاهرة ، وحدد لكل قوة وظيفة تؤديها ، وألف لها الجسم الذى تستخدمه من أعضاء قابلة لاستعمال تلك القوى ، لهذا فرع على التسوية قوله : فألهمها فجورها وتقواها » فان تمام التسوية أن وهبها العقل الذى يميز بين الخير والشر . والأعمال التى بها تشقى النفوس معروفة لذوى العقول كالأعمال التى تسعده فقد منح الله النفوس قوة التمييز كما وهبها قوة الاختبار فن رجح طريق الخير أفلح ومن رجح طريق الشر خاب ولهذا استطرد عقب ذكر الالهام بقوله « قد أفلح من زكاها » أى ربح وفاز من زكى نفسه ونماها وأعلاها حتى بلغ بها ماهى مستعدة له من كمال القوى العقلية والعملية ، وأثمرت بذلك ثمراتها الطيبة له ولمن حوله من الناس ، وقد خاب من دساها التدسية : النقص والإخفاء . ومن سلك سبيل الشر ، وطاوع داعى الشهوة البهيمية ، فقد فعل مايفعل سائر البهائم ، فلم يظهر عمل القوة العاملة التى خص بها الإنسان ، فاندرج صاحب تلك النفس فى عداد سائر الحيوان دون الانسان ، وبذلك يختفى من بين العقلاء ، ويذهب امتيازه الذى كرم الله به نوعه .

« تفسير جزء عم — طبعة دار الشعب » .

الإنسان (١) ذو حرية واختيار في حياته ، فهو يفعل الخير مختارا فيثاب ، ويفعل الشر مختارا فيعاقب وبذلك الإختبار كلفه الله وأرسل إليه الرسل لتهديه وترشده، ثم تركه وما يختار لنفسه من مسلك الخير أو الشر ، لا يدفعه بقوة خارجة عن نفسه إلى خير أو شر ، ولو شاء ذلك لخلقه بطبيعة الخير فلا يعرف شرا ، أو بطبيعة الشر فلا يعرف خيرا ، وعندئذ لا يكون هذا الإنسان الذى جعله خليفة فى الأرض ، وكلفه بدينه وشرائعه ، وأعد له الثواب والعقاب ، ولكن خلقه مختارا فى أفعاله ، وبذلك يكون جزاؤه فى يوم الدين تبعاً لما يختاره لنفسه فى الحياة ، يكون صورة من اللذة والألم ، مساوية لما حملت نفسه من بواعث الخير وبواعث الشر :

— « قل هل يجزون إلا ما كانوا يعملون » « سورة الأعراف : ١٤٧ » ؛

— « ونفس وما سواها ، فألهمها فجورها وتقواها ، قد أفلح من زكاها ، وقد خاب من دساها » « سورة الشمس : ٧ — ١٠ » .

والقرآن ملىء بمثل هذه النصوص الدالة على أن الإنسان مختار فى فعله ، ليس مقهوراً ولا مجبورا على خير أو شر .

وهناك قوانين معينة ترتقى بمقتضاها الأمم وتنهار ، فالأمم تقوى ويشتد ساعدها وتنعم بالرخاء الاقتصادى إذا نمت فى نفسها صفات خاصة ، وإذا حادت عن هذه الصفات فانها تضعف وينهار بنياها الاجتماعى .

إن الذى ينظر نظرة عجلى إلى هذا الانهيار يرى آنه نتج عن غزو خارجي أو عن خيانة حاكم ، والحقيقة أن التدهور هو نتيجة فساد ، وانحلال سرى فى كيان الأمة ، فمزق نسيجها الحضارى ، ونهاية هذه الأمم قد يتأخر بعض الوقت ولكن لا يمكن الإفلات منها :

— « سنة الله فى الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا » « سورة الأحزاب : ٦٢ »

— « ذلك بأن الله لم يك مغيرا نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم وأن الله سميع عليم » « سورة الأنفال : ٥٣ » .

إن أى مجتمع أو أمة انحطت بعد رفعة ، وافتقرت بعد غنى ، وذلت بعد عز ، وضعفت بعد قوة ، فانها تكون قد وصلت إلى ذلك بسبب تبدل جوهرى فى نفسها ، أو بتعبير آخر ، فى أخلاقها العامة والخاصة وأنها إذا رامت الرفعة والغنى والعز والقوة ، عليها أن تتوسل بالوسائل الكفيلة بأحداث تبديل جوهرى فى نفسها أو بتعبير آخر فى أخلاقها العامة والخاصة التى سببت لها الانحطاط والفقر والذل والضعف وأن أى أمة ارتقت بعد انحطاط ، واغتنت بعد فقر ، وعزت بعد ذل ، وقويت بعد ضعف ، فانما تكون وصلت إلى ذلك بسبب تبدل جوهرى فى نفسها أى فى أخلاقها العامة والخاصة .

وفى هذا التلقين تقرير لمسئولية الفرد والجماعة ، كل فى نطاقه ، عما يكون عليه من صلاح وفساد

(١) الأستاذ الشيخ محمود شلتوت : الإسلام عقيدة وشريعة ، ص ٤٥

وقوة وضعف ، وغنى وفقر ، وعزل وذل ، وفيه دعوة لكليهما إلى العمل والجد ، والتوسل بكل وسيلة — ضمن مبادىء الحق والعدل القرآنية ، وفطرة الله التى فطر الناس عليها — إلى التخلص من الفساد والضعف والفقر والذل والجهل والخمول ، أو إلى الاحتفاظ بأسباب الصلاح والقوة ، والغنى والعز والعلم والنشاط[1]

وقبل أن نبحث موضوع ارتقاء الأمم وانهيارها والأسباب المؤدية إلى ذلك ، نتحدث عن نظرة الإسلام إلى الإنسان :

إن الإسلام لا يعتقد بالخطيئة الأولى أو الخطيئة الأصلية ، وهو بذلك يخالف المسيحية وغيرها من الأديان والآراء الفلسفية .

يقول الدكتور محمد إقبال فى كتابه « تجديد التفكير الدينى فى الإسلام[2] » .

« إن التوراة تلعن الأرض بسبب معصية آدم ، بينما يبين القرآن أن الأرض دار سكن للإنسان ومصدر ربح له ، وعليه أن يشكر الله على هذه الدار التى أنعم عليه بها .

— « ولقد مكناكم فى الأرض وجعلنا لكم فيها معايش قليلا ما تشكرون » « سورة الأعراف : ١٠ »

كما أنه ليس هناك من سبب لافتراض أن كلمة « جنة » أى « حديقة » استعملت فى هذا السياق للدلالة على جنة وراء الحس . يفترض أن الإنسان هبط منها إلى الأرض وطبقا للقرآن ليس الإنسان غريبا عن هذه الأرض ، إذ يقول القرآن :

— « والله أنبتكم من الأرض نباتا » « سورة نوح : ١٧ » .

فالجنة التى ورد ذكرها فى القصة لا يمكن أن يقصد بها الجنة التى جعلها الله مقاماً خالدا للمتقين .

يقرر القرآن أن فى وسع الإنسان أن يتصرف كما يريد ويوجه قوى الطبيعة ويسخرها وبهذا يجتث فكرة الخطيئة التى تولد مع الإنسان .

إن النزعة إلى الإحسان هى التى تعترف بأن العالم ينمو ، وأن الذى يمدها بالحياة إنما هو الأمل فى أن يتغلب الإنسان آخر الأمر على الشر ، فاذا انحط الإنسان فليس بسبب خطيئة آدم ، وإنما بسبب الأعمال السيئة التى ارتكبها هو نفسه :

— « والتين والزيتون وطور سنين وهذا البلد الأمين ، لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم ، ثم رددناه أسفل سافلين إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم أجر غير ممنون » .

لذا فالفجور الوراثى والإثم الطبيعى أمران غريبان تماماً على الإسلام ، وكل طفل يولد لبنى الإنسان إنما يولد على الطهر والحق . وكل زيغ يزيغه بعد ذلك عن طريق الحق والاستقامة يرجع إلى خطأ فى تربيته وإلى أعماله السيئة .

---

(١) الأستاذ محمد عزه دروزه : الدستور القرآنى ص ٤٩٠

(٢) ص ٩٨ .

قال الرسول صلى الله عليه وسلم :

— « كل مولود يولد على الفطرة ثم أبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه »

إن سلوك الإنسان ليس ناتجا عن قدر ، وما من إنسان ولد ومعه أمر إلهى بأن يصير إلى الجنة أو النار فقد خلق الإنسان حرا فى فعله ، مختارا غير مقهور ولا مجبور . .

وقديما اعتذر المشركون عن شركهم بأنهم مجبورون بمشيئة الله لشركهم ، فأنكر الله عليهم ، وأعلمهم أن حجته عليهم قائمة ، بما منحهم من عقل وأرسل إليهم من رسل .

— « سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شيء ، كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا إن تتبعون إلا الظن وإن أنتم إلا تخرصون . قل فلله الحجة البالغة فلو شاء لهداكم أجمعين » « سورة الأنعام ١٤٨ — ١٤٩ ».

يريد أن الله جل شأنه تركهم ، وما يختارون لأنفسهم من ضلال أو هداية .

ولا توجد فى الإسلام فكرة النمو الخلقى المحتوم بين المسلمين ، فهو لا يزعم أن أخلاق حقبة تاريخية ما لابد أن تكون أرقى من أخلاق الحقبة السابقة لها : فالإسلام يمنح الإنسان الحرية فى أن يختار بين التمسك بالخلق الرضى الكريم ، أو أن ينفض يده منه .

والخلق ، هو انفعال النفس وتأثرها بما ينبغي أن يكون ، فيفعل ، وبما لا ينبغى أن يكون ، فيترك والخلق بهذا المعنى ، هو المعتصم الذى يتمسك به من أراد أن يكون مسلماً حقاً .

والعقيدة وما إليها دون خلق ، شجرة لا ظل لها ولا ثمر ، والخلق دون عقيدة ، ظل لشبح غير مستقر

قال الرسول صلى الله عليه وسلم :

— « إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » .

وقال عليه الصلاة والسلام :

— « أحبكم إلىّ وأقربكم منى مجلساً يوم القيامة أحاسنكم أخلاقا »

وقال صلى الله عليه وسلم :

— « صلة الأرحام وحسن الخلق وحسن الجوار تعمران الديار وتزيدان فى الأعمار (١) .

وقال عليه الصلاة والسلام :

— « أنا زعيم (أى كفيل وضامن) ببيت فى ربض الجنة لمن ترك المراء ، وإن كان محقاً ، وببيت فى وسط الجنة لمن ترك الكذب ، وإن كان مازحا ، وببيت فى أعلى الجنة لمن حسن خلقه »

(١) رواه أحمد عن عائشة مرفوعا بسند صحيح .

والأخلاق سواء كانت فردية أو جماعية يمكن فى أى وقت أن تفسد وتنحط فينتج عن ذلك خسارة جسيمة لكل ما أمكن بلوغه فى السنوات السابقة .

- « لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم ، ثم رددناه أسفل سافلين ، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم أجر غير ممنون» .

يقول الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده فى شرح هذه الآيات :

« يقسم جل شأنه أنه قوم الإنسان أفضل تقويم ، وركبه أحسن تركيب ، وأكد ذلك لأن الناس بغفلتهم عما كرمهم الله به من العقل ، كأنهم ظنوا أنفسهم كسائر أنواع العجماوات . يفعلون كما تفعل ، ولا يمنعهم حياء ، ولا تردهم حشمة ، خصوصاً وقد قال بعضهم : إن الإنسان خلق ميالا إلى الشر فبقول الله سبحانه - تبيينا لفساد هذه المزاعم - أنه فطر الإنسان أحسن فطرة نفساً وبدناً ، وكرمه بالعقل الذى ساد به على العوالم الأرضية ، واطلع به على ما شاء الله من العوالم السماوية .

وقد كان الإنسان فى سذاجته بعيدا عن الأثر ، حى القلب بالتراحم - كما تراه فى حال الأطفال فعاش سعيدا ، وعاش أفراده فى نعيم الطمأنينة ، كان ذلك زمنا ما - وهو العهد الأول - وما أشبهه بثمرة التين تؤكل كلها ، ولا يرمى منها شيء . والإنسان كان صلاحاً كله ، ولم يشذ عن الجماعة منه فرد ، تلك كانت أيام القناعة بما تيسر من العيش ، وشدة الإحساس بحاجة كل فرد إلى الآخر فى تحصيله وفى دفع العوادى عن النفس .

تنبهت الشهوات بعد ذلك ، و تخالفت الرغبات ، فنبت الحسد والحقد ، وتبعه التقاطع والتقاتل ، واستشرى بالأنفس حتى صارت الأمانة عند بعض الحيوان أفضل منها عند الإنسان ، فانحطت بذلك نفسه عن مقامها الذى كان لها بمقتضى الفطرة . وقد كان ذلك - ولا يزال - حال أكثر الناس .

فهذا قوله « ثم رددناه أسفل سافلين » أى صيرناه أسفل من كثير من الحيوانات التى كانت أسفل منه ، لأن الحيوان المفترس - مثلا - إنما يصدر فى عمله عن فطرته التى فطر عليها : لم ينزل عن مقامه ، ولم ينحط عن منزلته فى الوجود . أما الإنسان فانه باهماله عقله ، وجهله بما ينبغى أن يعمل لتوفير سعادته ، وسعادة إخوانه ، ينقلب أرذل من سائر أنواع الحى .

استثنى الله المؤمنين الذين يؤمنون بموجد الكائنات . وبأن الله قد وضع شريعة للخير والشر ، وميز بينها ، وأنه يجزى القائم على الشريعة بإتيان الخير وتجنب الشر بالسعادة ، فلذلك يدلون على إيمانهم بالأعمال الصالحة - وهى معروفة عند عامة البشر - وجماعها العدل والإحسان فهؤلاء قد حفظوا منزلتهم من الإنسانية واستبقوا لأنفسهم ذلك الاعتدال الفطرى فلهم أجر الكرامة فى الدنيا ، فاذا جاءهم الموت امتد بهم النعيم إلى الآخرة فأجرهم غير ممنون أى غير مقطوع » .

ويؤكد القرآن أن سنن الله فى الكون لا يمكن تغييرها . ولذلك فان جانبا كبيرا من آيات القرآن تنصب على إخطار الإنسان بالنذير الإلهى وتنبثق عن رؤية وتأمل التاريخ .

والقرآن لا يقدم « قصصه » وصوره » « ومشاهداته » لمجرد ترف ذهني ، أو إشباع حاجة المؤمنين إلى القصص والصور والمشاهدات ، إنما يأتي بها من أجل أن « يحرك » الإنسان صوب الأهداف التي حددها الإسلام ، ويبعده في الوقت نفسه ، فردا وجماعة ، عن المزالق التي أودت بمصائر عشرات ، بل مئات من الأمم والجماعات والشعوب : فالحركة لا مجرد السرد القصصي كانت أبدا هدف العروض التاريخية للقرآن ، كما أنها في الوقت ذاته ، هدف الصيحات المعاصرة التي سبرت غور التاريخ وأشارت إلى الهاوية التي تنتظر مسيرة القرن العشرين .

يقول الله تعالى :

— « قد خلت من قبلكم سنن فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين . هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين : ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين »

لم تفلت الدولة الإسلامية ذاتها من هذه السنن ، فغارات التتار ضد الدولة الإسلامية تمثل « سنة الكون وحركة التاريخ التي لا تختلف ، فاذا انحدرت الحضارة وغلب الترف ووقع التفكك وتراخت الأيدي عن المقاومة والحفاظ على الثغور ، وضعفت الجيوش ، وتخلفت الأمة عن مقومات فكرها وقيمها الأساسية ، كان لابد أن يسقط هذا الملك في يد قوة جديدة شابة .

ومما لاشك فيه أن مسئولية انتصار قوى التتار الغازية تقع على المسلمين الذى ضعفوا ، ووكنوا إلى الدعة والترف ، وتخلوا عن الإيمان والقوة .

غير أن التتار لم يكتب لهم النصر على طول الخط ، بل واجهوا بعد معركة بغداد (سنة ٦٥٦ هـ) مقاومة صلبة وعنيدة على حدود الشام ومصر في عين جالوت ردتهم عن هذه المنطقة طويلا ، ثم لم يلبث الإسلام أن صهرهم في بوتقته فأقاموا دولا كبرى تحت رايته كان أبرزها الدولتان الخوارزمية في منطقة ما وراء النهر والمغولية في الهند .

وإذا كانت سنة الله في أخذ الظالمين واحدة ، فنحن في عصرنا هذا نرى ونسمع عن الرياح الحاصبة تقتلع الأشجار ، وتنزل بشاهقات العمائر ، وعن الصيحات تخلع القلوب ، وتستلب الأرواح من الأشباح ، وعن البراكين تنفجر وتلتهم نارها القرى والمدن ، وعن الأرض تتفكك أوصالها وتغور طبقاتها وتصبح مقبرة لمن عليها ، وعن الفيضانات وقد فار تنورها ، وأتت على كل شيء من الحضارات ، كل ذلك نراه ، ويقف الجبارون أمامه حيارى ، ثم لا يلبثون أن يعودوا فيعملوا جهدهم في اختراع المدمرات من نفاثات وذريات بغياً من الإنسان على أخيه الإنسان : وكان جديرا بهم إذا كانوا أرباب دين وإيمان أن يبذلوا جهدهم في وقاية خلق الله من عذاب الله القاهر بالسلم العام ، وإقامة العدل والكف عن المظالم .

يقول الله تعالى :

— « أو لم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أشد منهم قوة وأثاروا الأرض وعمروها أكثر مما عمروها » . « سورة الروم : ٩ » .

إن التاريخ يخبرنا بغير لسان عما سيكون بما قد كان ، فان فى حركة جميع القوى التى تنسج تاريخ البشرية عنصرا واضحاً هو عنصر الإعادة والتكرار فالسراء والضراء تصيبان كل شعب ، وما فى العالم من أمة لم تصعد سلم الرقى والمجد ، فالذين لا تطغيهم الأفراح والذين لا تفقدهم السعادة اتزان عقولهم ، والذين لا يسمحون لأنفسهم بأن ينهاروا تحت ضربات الأزمات الطاحنة والخطوب الجسيمة هم الذين يتيح لهم قانون الحياة فرصة البقاء والارتقاء . أما الذين لا يستطيعون التماسك أمام الشهوات ، ويخرون صرعى أمام الأزمات فأولئك الذين يجرفون خارج نطاق الوجود المؤثر .

— « إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله وتلك الأيام نداولها بين الناس وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء والله لا يحب الظالمين » . « سورة آل عمران : ١٤٠ » .

لقد عرف العالم القديم حضارات عدة كالمصرية والبابلية والأشورية والفينيقية ، كما قامت إمبراطوريات عظمى على أيدى الفرس والإغريق والرومان ، ثم نشأت الامبراطورية العربية الإسلامية التى ما لبثت أن تفككت إلى دول ودويلات .

وظهرت نظم اجتماعية كبرى هى : النظام العبيدى ، والنظام الإقطاعى . والنظام البورجوازى . وكل من هذه النظم كان يمثل مرحلة تقدمية بالنسبة إلى النظام الذى سبقه ، ويمهد الطريق إلى النظام الذى أعقبه . وهذا التعاقب للحضارات والنظم والدول يعنى أن كل حضارة تقوم لكى تحقق أهداف مجتمع معين فى حقبة زمنية معينة وفى ظل ظروف وبيئة معينة ولكن بمرور الوقت وبنشوء حاجات جديدة تفقد هذه الحضارات مبررات بقائها إذ تعجز عن إشباع هذه الحاجات ، ويصبح لزاماً أن تقوم مكانها حضارة أخرى أعلى مرتبة . وعن طريق تعاقب النظم والحضارات من الأدنى إلى الأعلى ، يتحقق التقدم .

وليس من شك أنه ما من حضارة أو نظم من وضع الإنسان تعتبر خالدة أو صالحة لكل العصور ولجميع المجتمعات ، لأنها فى هذه الحالة تعكس ما عليه الإنسان من نقص وضعف[1] فطبيعة الإنسان أكثر تعقيداً من أن يستطيع عقله أن يحللها ، فالإنسان لا ينظر إلا إلى بضع من حاجات البشر ويجهل الباقى ، وبهذا يصيب جوانب الإنسان المهملة ظلم عظيم ، وهذا يحطم استقرار الحياة .

يقول الأستاذ الشيخ محمد عبده فى « رسالة التوحيد » :

---

(١) التفسير القرآنى للتاريخ ، ص ١٩٧ .

« الإنسان[1] ، ليس ممن يلهم ولا يتعلم ، ولا ممن يشعر ولا يتفكر ، بل كان كماله النوعي في إطلاق مداركه عن القيد ، ومطالبه عن النهايات ، وتسليمه على صغره إلى العالم الأكبر على جلالته وعظمه ، يصارعه بعوامله وهي غير محصورة حتى يعتصر منه منافعه وهي غير محدودة ، وإيداعه من قوى الإدراك والعمل ما يعينه على المغالبة ، وتمكنه من المطالبة بسعه ورأيه ، ويتبع ذلك أن يكون له في كل كائن مما يصل إليه لذة ، وبجوار كل لذة ألم ومخافة ، فلا تنتهي رغائبه إلى غاية ، ولا تقف مخاوفه عند نهاية قوله تعالى :

— « إن الإنسان خلق هلوعا ، إذا مسه الشر جزوعا ، وإذا مسه الخير منوعا » .

تفاوتت أفراده في مواهب الفهم وفي قوى العمل ، وفي الهمة والعزم ، فمنهم المقصر ضعفاً أو كسلا المتطاول في الرغبة شهوة وطمعاً . يرى في أخيه أنه العون له على ما يريد من شئون وجوده ، لكنه يذهب من ذلك إلى تخيل اللذة في الاستئثار بجميع ما في يده ، ولا يقنع بمعاوضته في ثمرة من ثمار عمله ، وقد يجد اللذة في أن يتمتع ولا يعمل ، ويرى الخير في أن يقيم مقام العمل ، أعمال الفكر في استنباط ضروب الحيل ، ليتمتع وإن لم ينفع ، ويغلب عليه ذلك حتى يخيل له أن لا صبر عليه لو انفرد بالوجود عمن يطلب مغالبته ، ولا يبالي بارساله إلى عالم العدم بعد سلبه ، فكلما حثه الذكر والخيال إلى دفع مخافة أو الوصول إلى لذيذ فتح له الفكر بابا من الحيلة ، أو هيأ له وسيلة لاستعمال القوة فقام التناهب مكان التواهب ، وحل الشقاق محل الوفاق ، وصار الضابط لسير الإنسان إما الحيلة وإما القهر .

هل وقف الهوى بالإنسان عند التنافس في اللذائذ الجسدية وتجالد أفراده طمعاً في وصول كل إلى ما يظنه غاية مطلبه وإن لم تكن له غاية ؟ . . . كلا . . . ! ولكن قدر له أن تكون له لذائذ روحانية ، وكان من أعظم همه أن يشعر بالكرامة له في نفس غيره ممن تجمعه معهم جامعة ما حسبما يمتد إليه نظره ، وقد بلغت هذه الشهوة حداً من الأنفس كادت تتغلب على جميع الشهوات ، وأخذت لذة الوصول إليها من الأرواح مكانا لا تكاد تصعد إليه سائر اللذات . وهي من أفضل العوامل في احراز الفضائل ، وتمكين الصلات بين الأفراد والأمم ، لو صرفت فيما سيقت لأجله .

ولكن انحرف بها السبيل كما انحرف بغيرها للأسباب التي أشرنا إليها من التفاوت في مراتب الإدراك والهمة والعزيمة ، حتى خيل لكثير من العقلاء أن يسعى إلى إعلاء منزلته في القلوب باخافة الآمن وإزعاج الساكن ، وإشعار القلوب رهبة المخافة لا تهيب الحرمة .

هل يمكن مع هذا أن يستقيم أمر جماعة بني نظامهم وعلق بقاؤهم في الحياة على تعاونهم ورفد بعضهم بعضاً في الأعمال ؟ أولا تكون هذه الأفاعيل السابق ذكرها سبباً في تفانيهم ؟ لا ريب أن البقاء على تلك الأحوال من ضروب المحال ، فلابد للنوع الإنساني في حفظ بقائه من المحبة أو ما ينوب منابها .

---

(1) رسالة التوحيد ، تحقيق طاهر الطناحي ، ص ١٣٧ .

لجأ بعض أهل البصيرة فى أزمنة مختلفة إلى العدل ، ولكن من الذى يضع قواعد العدل ويحمل الكافة على رعايتها ؟

قيل ذلك هو العقل ، فكما كان الفكر والذكر والخيال ينابيع الشقاء ، كذلك تكون وسائل السعادة وفيها مستقر السكينة . وقد رأينا أن اعتدال الفكر وسعة العلم وقوة العقل وأصالة الحكم تذهب بكثير من الناس إلى ما وراء حجب الشهوات ، وتعلو بهم فوق ما تخيله المخاوف . فيعرفون لكل حق حرمته ، ويميزون بين لذة ما يفنى ومنفعة ما يبقى ، وقد جاء منهم أفراد فى كل أمة وضعوا أصول الفضيلة وكشفوا وجوه الرذيلة ، وقسموا أعمال الإنسان إلى ما تحضر لذته وتسوء عاقبته وهو ما يجب اجتنابه ، وإلى ما قد يشق احتماله ، ولكن تسر مغبته وهو ما يجب الأخذ به ، ومنهم من أنفق فى الدعوة إلى رأيه نفسه وماله ، وقضى شهيد إخلاصه فى دعوة قومه إلى ما يحفظ نظامهم ، فهؤلاء العقلاء هم الذين يضعون قواعد العدل ، وعلى أهل السلطان أن يحملوا الكافة على رعايتها ، وبذلك يستقيم أمر الناس .

هذا قول لا يجافى الحق ظاهره ، ولكن هل سمع فى سيرة الإنسان وهل ينطبق على سنته أن يخضع كافة أفراده أو الغالب منهم لرأى العاقل لمجرد أنه الصواب ؟

وهل كفى فى إقناع جماعة منه كشعب أو أمة قول عاقلهم : إنهم مخطئون وأن الصواب فيما يدعوهم إليه ؟ وإن أقام على ذلك من الادلة ما هو أوضح من الضياء ، وأجلى من ضرورة المحبة للبقاء ؟

كلا ... ! لم يعرف ذلك فى تاريخ الإنسان ولا مما ينطبق على سنته ، فقد تقدم لنا أن مهب الشقاء هو تفاوت الناس فى الإدراك ، وهم مع ذلك يدعون المساواة فى العقل والتقارب فى الأصول ، ولا يعرف جمهورهم من حال الفاضل إلا كما يعرف من أمر الجاهل ومن لم يكن فى مرتبتك من العقل لم يذق مذاقك من الفضل .

فمجرد البيان العقلى لا يدفع نزاعا ولا يرد طمأنينة ، وقد يكون القائم على ما وضع من شريعة العقل ممن يزعم أنه أرفع من واضعها ، فيذهب بالناس مذهب شهواته فتذهب حرمتها ويتهدم بناؤها ، ويفقد ما قصد بوضعها .

أضف إلى ماسبق من نزعات الفكر ونزعات الأهواء شعورا هو ألصق بالغريزة البشرية وأشد لزوماً لها ...

كل إنسان مهما علا فكره وقوى عقله ، أو ضعفت فطنته وانحطت فطرته ، يجد من نفسه أنه مغلوب لقوة أرفع من قوته ، وقوة ما أنس منه الغلبة عليه مما حوله ، وأنه محكوم بإرادة تصرفه وتصرف ما هو فيه من العوالم فى وجوه ربما لا تعرفها معرفة العارفين ولا تتطرق إليها إرادة المختارين .

. . . . . من ذلك الضعف قيد إلى هداه ، ومن تلك الصفة أخذ بيده إلى شرف سعادته ، أكمل الواهب الجواد ما اقتضت حكمته فى تخصيص نوعه ، مما يميزه عن غيره أو ينقص من أفراده[1] وكما جاد على كل شخص بالعقل المصرف للحواس ، لينظر فى طلب اللقمة وستر العورة والتوقى من الحر والبرد، جاد على الجملة بما هو أمس بالحاجة فى البقاء ، وآثر فى الوقاية من غوائل الشقاء ، وأحفظ لنظام الاجتماع الذى هو عماد كونه بالإجماع .

من على البشر بأن بعث إليهم الأنبياء ، يعلمون الناس ما يصلح به معاشهم ومعادهم . فالرسل هم هداة البشر إلى الحق والعدل والسلام . وهذه هى الصفات الضرورية لارتقاء الأمم .

وقد كانت العقيدة الراسخة فى المثل الأعلى العظيم للإنسان دائماً صفة قوية محركة ومفجرة للطاقات ، ولم يقتصر نجاحها فى الماضى على أن غيرت حياة الإنسان الشخصية فحسب ، بل نجحت أيضاً فى تغيير مصير أمم .

إن ما حققه العرب بزعامة الرسول صلى الله عليه وسلم وقيادته الحكيمة أحد الأمثلة الرائعة على ذلك .

قال قتادة بن ثعلبة السدوسى يصف حال العرب قبل المبعث وبعده :

«كان هذا الحى من العرب أذل الناس ذلا ، وأشقاه عيشاً ، وأجوعه بطنا،وأعراه جلودا ، وأبينه ضلالا ، من عاش منهم شقيا ، ومن مات منهم ردى فى النار ، يؤكلون ولا يأكلون ، والله ما نعلم قبيلا من أهل الأرض كانوا أشر منهم منزلة ، حتى جاء الله بالإسلام فمكن به فى البلاد ووسع به الرزق وجعلهم ملوكا على رقاب الناس ، وبالإسلام أعطى الله ما رأيتم ، فاشكروا الله على نعمه ، فان ربكم منعم يحب الشكر وأهل الشكر فى مزيد من الله» . وهذا ما حدا بالاستاذ شبرل الكاثوليكى المذهب وعميد كلية الحقوق بجامعة ڤينيا أن يقول فى مؤتمر الحقوقيين سنة ١٩٢٧ :

« إن البشرية لتفخر بانتساب رجل كمحمد (صلى الله عليه وسلم) إليها ، إذ انه رغم اميته استطاع قبل بضعة عشر قرنا أن يأتى بتشريع سنكون — نحن الأوربيين — أسعد ما نكون لو وصلنا إلى قمته بعد ألف عام . . . » .

ومن أهم الصفات الطيبة التى يذكرها القرآن : الصدق .

إن الإنسان كائن اجتماعى ، ولا بدله من أن يقيم علاقات مع أبناء جنسه ، وفضيلة الصدق ، ورذيلة الكذب من أهم الأخلاق الشخصية أثرا فى صلات الناس بعضهم ببعض .

ويستهدف القرآن فيما احتواه من التنويه بفضيلة الصدق والصادقين ، والتنديد برذيلة الكذب والكاذبين إلى تقوية روح الصدق ومقت الكذب فى المسلمين .

---

(١) أى أكمل للمجموع مالايصل إليه كسب الأفراد مما يفضل به النوع غيره وهو الوحى الذى هو له كالعقل للأفراد — رشيد رضا .

قال تعالى :

— « الذين يقولون ربنا إننا آمنا فاغفر لنا ذنوبنا وقنا عذاب النار ، الصابرين والصادقين والقانتين والمنفقين والمستغفرين بالأسحار » « سورة آل عمران ١٦ — ١٧ » .

وقال جل شأنه :

— « يأيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين » « سورة التوبة : ١١٩ »

ويقول سبحانه وتعالى :

— « ليجزى الله الصادقين بصدقهم ويعذب المنافقين إن شاء أو يتوب عليهم ، إن الله كان غفورا رحيما » « سورة الأحزاب : ٢٤ » .

ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم :

— « آية المنافق ثلاث : إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا أؤتمن خان » .

ويقول عليه الصلاة والسلام :

— « كفى بك إثماً أن تحدث أخاك حديثاً ، هو لك به مصدق ، وأنت له به كاذب » .

وكما أن الصدق فضيلة ، فإن الإخلاص والكرم والشجاعة والتواصي بالصبر من الصفات النبيلة التى يجب أن يتحلى بها الإنسان .

يقول صلى الله عليه وسلم :

— طوبى للمخلصين ، أولئك مصابيح الهدى ، تنجلى عنهم كل فتنة ظلماء

ويقول عليه الصلاة والسلام :

— « المؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفى كل خير » .

ويقول صلى الله عليه وسلم :

— « يابن آدم ، إنك إن تبذل الفضل خير لك ، وإنك إن تمسكه شر لك ، ولا تلام على كفاف ، وابدأ بمن تعول » .

وقال صلى الله عليه وسلم :

— « لا تكونوا إمعة . تقولون إن أحسن الناس أحسنا ، وإن ظلموا ظلمنا ، ولكن وطنوا أنفسكم إن أحسن الناس أن تحسنوا ، وإن أساءوا ألا تظلموا » .

قال بعض العلماء[١] إن العصر الذى أقسم به الله هو الدهر لاشتماله على الأعاجيب ، ففيه السراء

(١) الأستاذ الشيخ محمد مصطفى المراغى : حديث رمضان ، ص ٢٠٨ .

والنعماء والبأساء ، والصحة والسقم ، والفرح والحزن ، والغنى والفقر ، والعز والذل ، والهناء والشقاء ، والحرب والسلم ، والصداقة والعداوة .

ولما كان الناس يضيفون المصائب والنوائب إلى الدهر ويشكون منه ويتألمون ، أراد الله سبحانه أن يبين بهذه القضية وهذا القسم أن الخسران من عمل الإنسان فى الدهر لا من الدهر نفسه وأن الدهر نفسه خلق ليكون موضعاً للطاعة وظرفاً للخير ، وإذا كان يوجد الشر فيه فذلك من عمل الإنسان لا من عمل الدهر.

وقد شرط الله للنجاة بعد الإيمان والعمل الصالح ، التواصى بالحق ، والتواصى بالصبر ، وبين أن كمال الإنسان فى نفسه لا يكفى حتى يسعى إلى كمال غيره ، فيوصى بالحق والصبر . وفى هذا دلالة على أن الفرد ليس وحدة كاملة فى الجماعة ، بل هو جزء من وحدة ؛ وأن الوحدة هى الجماعة كلها ؛ وهى الجسد إذا اشتكى عضو فيه تداعت له سائر الأعضاء بالسهر والحمى ، وكما يشين الفرد أن يكون ناقصا ، كذلك يشينه أن يكون فرد غيره فى الجماعة ناقصا .

فالتواصى بالحق ، والتواصى بالصبر ، نوع من العلاج للنفس الحيرة ، وطريق من طرق استجلاب السعادة والهناء .

ويتوقف على توطيد دعائم العدل أمن المجتمع البشرى ، ولذلك لابد أن يكون سائدا بين الناس . يقول القرآن المجيد :

— « إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها ، وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل ، إن الله نعما يعظكم به ، إن الله كان سميعاً بصيرا » « سورة النساء : ٥٨ » .

— « ياأيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ، ولا يجرمنكم شنآن[1] قوم على أن لا لاتعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى ، واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون » . « سورة المائدة : ٨ ».

— « قل أمر ربى بالقسط » « سورة الأعراف : ٢٩ » .

— « إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى ، يعظكم لعلكم تذكرون » « سورة النحل : ٩٠ » .

قال الرسول صلى الله عليه وسلم :

— « من حالت شفاعته دون حد من حدود الله ، فقد ضاد الله (أى خالفه) فى أمره . ومن خاصم فى باطل ، وهو يعلم ، لم يزل فى سخط الله حتى ينزع . ومن قال فى مسلم ما ليس فيه ، حبس فى ردغة الخبال ، حتى يخرج مما قال . قيل يارسول الله ، وما ردغة الخبال ؟ قال : عصارة أهل النار » .

---

(١) شنآن : شدة البغض .

— وفى الصحيحين عن عائشة رضى الله عنها :

« أن قريشا أهمهم شأن المخزومية التى سرقت ، فقالوا : من يكلم فيها رسول الله ؟ فقالوا : ومن يجترىء عليه إلا أسامة بن زيد . قال : يا أسامة ، أتشفع فى حد من حدود الله ؟ إنما هلك بنو اسرائيل أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه ، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد ، والذى نفس محمد بيده لو أن فاطمة بنت محمد سرقت ، لقطعت يدها » .

إن ما ينقص عالم اليوم هو مناصرة الحق والعدل . وهذا هو الداء الذى يفت فى عضد عناصر الحياة .

يذكر من مفاخر المأمون العباسى أنه جلس يوماً للمظالم ، فكان آخر من تقدم إليه امرأة عليها هيئة السفر ، وعليها ثياب رثة ، فوقفت بين يديه وأفضت إليه بأن لها شكوى من خصم ظلمها ، فسألها :

— أين الخصم ؟

فقالت : الواقف على رأسك يا أمير المؤمنين ، وأومأت إلى العباس ابنه .

فقال : يا أحمد بن أبى خالد ، خذ بيده فأجلسه معها مجلس الخصوم .

فجعل كلامها يعلو كلام العباس ، فقال لها أحمد بن أبى خالد :

— يا أمة الله ، إنك بين يدى أمير المؤمنين ، وأنك تكلمين الأمير ، فأخفضى من صوتك .

فقال المأمون : دعها يا أحمد فان الحق أنطقها وأخرسه .

ثم قضى لها برد مظلمتها وإحسان معاملتها ، وأمر لها بنفقة .

هذا هو العدل الذى ما زالت الأمم تنشده وترنو إليه ، وتتمنى الوصول إلى مداه ، وأن تسوى بين الرؤساء والمرء وسين فيها .

إننا فى عصر الجبابرة الضخام ، الذين لا يؤمنون إلا بالمادة وحدها ، فشقى الإنسان وواجهت المدنية خطر التمزق والتدمير ، وأصبح العالم المتمدن على شفا جرف هار من الفوضى ، لان العقائد التى كانت تعين على إقامة الحضارة انهارت . وقامت شعوب تناوئ أخرى ، وتعمل جهدها للقضاء عليها ، والحاجة ماسة إلى قوة ما لتجمع الشعوب المختلفة فى إنسانية واحدة ، وهذه القوة التى عليها أن تغير العقلية تماماً حتى تنمحى العداوة والبغضاء ، ويسود الحق والعدل ، لن تكون إلا قوة أدبية ، والقوة الأدبية لا يمنحها إلا الدين[1] .

يقول الإمام ابن القيم فى كتابه « الطرق الحكمية فى السياسة الشرعية » :

(إن الله سبحانه أرسل رسله وأنزل كتبه ليقوم الناس بالقسط ، وهو العدل الذى قامت به السموات والأرض . فإذا ظهرت أمارات العدل ، وأسفر وجهه بأى طريق كان ، فثم شرع الله ودينه ، بل قد بين الله سبحانه بما شرعه من الطرق أن مقصوده إقامة العدل بين عباده وقيام الناس بالقسط ، فأى طريق

---

(١) مولاى محمد على : الاسلام والنظام العالمى ، ترجمة أحمد جودة السحار ، ص ١٥ .

استخرج بها العدل والقسط فهي من الدين ، ليست مخالفة له . فلا يقال : إن السياسة العادلة مخالفة لما نطق به الشرع ، بل موافقة لما جاء به ، بل هي جزء من أجزائه ، ونحن نسميها سياسة تبعاً لمصطلحكم ، وإنما هي عدل الله ورسوله) .

والصفة الأخيرة هي التحمل والجلد . .

لقد برهن التاريخ على أن الشعوب التي تنتصر فى معركة البقاء هى الشعوب التي تتصف بالشجاعة والجد والصبر والذكاء وقوة الاحتمال . أما الشعوب التي تتصف بالخمول والهلع والجزع فما لها الا الاندحار والفناء فلا شيء يجعل الشعوب عظيمة إلا تجربة كبرى وألم عظيم .

إن مواجهة مصاعب الحياة بشجاعة فائقة ، وإرادة صلبة وعزيمة قوية إنما هى خير مدرسة تربى فيها فضائل الثبات الذى هو صفة جوهرية من صفات الأمم الحية .

أما الأمة التي تركن إلى الدعة والترف ، فانها عرضة للغزو الداخلى بتحلل المجتمع وانغماسه فى الشهوات والملذات الحسية ، والغزو الخارجى مع ما يجره هذا الغزو من فساد ووهن .

وفى سورة النمل آيات وردت على لسان ملكة سبأ وهى :

— = ... إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة ، وكذلك يفعلون : وإنى مرسلة إليهم بهدية فناظرة بم يرجع المرسلون »[1] .

وقد احتوت الآيات حكمة رائعة . وهى أن الأجانب إذا ما تسلطوا على بلاد فإنهم لا يفتئون يديرون فيها أصابع الفساد حتى يوهنوا قوتها ، ويفرقوا صفوفها ، ويذلوا أعزتها ، ويقضوا على كرامتها ، ويفسدوا أخلاقها ، ويجعلوها فرقا وشيعاً يضرب بعضها بعضا ، ويقدموا الفئات الفاسدة ليقيموا عليها سلطانهم ويحلوا روابطها الأخلاقية والاجتماعية فيضمنوا السيادة والطمأنينة ، واستغلال ما فى البلاد من خيرات ومنافع ، ويحولوا دون أى محاولة للنهوض ، ويسحقوا أى حركة تذمر ، ويكفلوا لسيطرتهم البقاء والاستمرار .

والخير كل الخير فى الحيلولة دون وقوع النكبة ونجاح الغزوة ، بكل وسيلة ممكنة[2] ، إن الأمة التي تبذل من ذات نفسها من أجل خير الإنسانية ، هى وحدها الجديرة بأن ترقى سلم التقدم .

يقول الله تعالى :

— « أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها فاحتمل السيل زبدا رابيا ، ومما يوقدون عليه فى النار ابتغاء حلية أو متاع زبد مثله ، كذلك يضرب الله الحق والباطل ، فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض كذلك يضرب الله الأمثال » « سورة الرعد : ١٧ » .

---

(١) سورة النمل : ٣٤ – ٣٥ .

(٢) الأستاذ محمد عزه دروزه : الدستور القرآنى ، ص ٤٩٣ .

بين القرآن بأسلوب الكناية أن الأمم التى فى بقائها منفعة للبشر هى وحدها التى تبلغ قمة التقدم والرقى لذا فالواضح أن الذين يبقون ويصمدون لأشد ضربات الزمن هم الذين وهبوا المشاعر الرقيقة تجاه بنى الإنسان ، الذين لم يستسلموا لحياة الترف ويستطيعون أن يتحملوا المشاق والصعاب من أجل إخوانهم البشر .

إن هذا المبدأ عام ، وينطبق على كل ضروب الحياة الإنسانية .

ويزيد القرآن الكريم ذلك إيضاحا بقوله :

— « زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب » . « سورة آل عمران ١٤ »

تعدد هذه الآية بعض ما يستحوذ على فكر الإنسان مما فى هذا العالم ويصرفه عن الصراط السوى ، أو بتعبير آخر ، تسطر على أغلب البشر غرائز « التملك » فتغدوا الغرائز الخلاقة واهنة ضعيفة ، إن لم تتلاشى تماماً ، فحين تسيطر غريزة التملك عند إنسان ما يتجه نشاطه كله وجهة واحدة هى الحصول على وسائل الراحة المادية ، فلا يستطيع عقله أن يفكر فى شىء مما وراء ذلك ، ويصبح عنده الخلق والعدل والصدق مجرد كلمات جوفاء لا معنى لها .

لقد سجل القرآن حياة أمم كثيرة غيرها متاع الحياة الدنيا ولم تفكر فى ما وراء ذلك وجعلها هذا السعى المندفع وراء المادة لا تبالى قط بكل القيم النبيلة لحياة الإنسان ، كقوم عاد وثمود .

والتهالك على جمع المال ينخر فى كيان المجتمع ، فيهوى فى أعماق الفساد الخلقى ، وهذا ما فعله قوم لوط .

يقول الله تعالى :

— « كذبت قوم لوط المرسلين . إذ قال لهم أخوهم لوط ألا تتقون . إنى لكم رسول أمين . فاتقوا الله وأطيعون . وما أسألكم عليه من أجر إن أجرى إلا على رب العالمين . أتأتون الذكران من العالمين . وتذرون ما خلق لكم من أزواجكم بل أنتم قوم عادون . قالوا لئن لم تنته يالوط لتكونن من المخرجين . قال إنى لعملكم من القالين . رب نجنى وأهلى مما يعملون . فنجيناه وأهله أجمعين ، إلا عجوزا فى الغابرين ، ثم دمرنا الآخرين . وأمطرنا عليهم مطرا فساء مطر المنذرين . إن فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين . وإن ربك لهو العزيز الرحيم » « سورة الشعراء : ١٦٠ — ١٧٥ » .

هذا الانحطاط الخلقى للأمة لايبدو فى ناحية واحدة من نواحى الحياة بل هو أمر شامل لا ينجو منه جانب من جوانب الحياة الإنسانية من تأثيره المفسد .

وقد أشار القرآن إلى ذلك أثناء مخاطبته أهل مدين :

— « أوفوا الكيل ولا تكونوا من المخسرين ، وزنوا بالقسطاس المستقيم ، ولا تبخسوا الناس أشياءهم

ولا تعثوا فى الأرض مفسدين » « سورة الشعراء : ١٨١ — ١٨٣ » .

إن الانحطاط الخلقى بين أبناء الشعوب هو الذى يسبب سقوطها ولا نقذها قوتها العسكرية : وحين يكون انحلال خلقى يصبح النسيج الإجتماعى كله وقودا يغذى لهب الخراب الذى يبتلع كل شيء .

إن هذا القانون يتطبق على العالم كله .

* * *

إن الإنسان المسلم يحس إحساساً جادا بالتاريخ على نحو يختلف عن فهم البوذى والمسيحى والماركسى .

يقول « ولفرد كانتون سميت » فى كتابه « الإسلام فى التاريخ الحديث » :

« فالرجل الهندى[1] لا يأبه بالتاريخ ولا يحس بوجوده ، لأن التاريخ هو ما يسجله البشر من أعمال فى عالم المادة وعالم الحس ، والهندى مشغول أبداً بعالم الروح ، عالم اللانهائية ، ومن ثم فكل شيء من عالم الفناء المحدود لا قيمة له عنده ولا وزن ، والتاريخ بالنسبة إليه شيء ساقط من الحساب .

أما المسيحى فيعيش بشخصية مزدوجة ، أو فى عالمين منفصلين لا يربط بينهما رباط :

١ — المثل الأعلى غير قابل للتطبيق .

٢ — والواقع البشرى المطبق فى واقع الأرض منقطع عن المثل الأعلى المنشود .

هذان الخطان يسيران فى نفسه متجاورين أو متباعدين ولكن على غير اتصال .

التاريخ فى نظره هو نقطة ضعف البشر وهبوطه وانحرافه .

أما الماركسى فهو مؤمن بحتمية التاريخ بمعنى أن كل خطوة تؤدى إلى الخطوة التالية بطريقة حتمية ، ولكن لا يؤمن إلا بهذا العالم المحسوس ، بل لا يؤمن فى هذا العالم إلا بالمذهب الماركسى وحده ، وكل شيء عداه باطل ، والماركسى يتبع عجلة التاريخ ولكن لا يوجهها ، ولا يقيسها بأية مقاييس خارجة عنها .

أما المسلم فانه يحس احساساً جادا بالتاريخ ، إنه يؤمن بتحقيق ملكوت الله فى الأرض ، يؤمن بأن الله قد وضع نظاماً عمليا واقعيا يسير البشر فى الأرض على مقتضاه ويحاولون دائماً أن يصوغوا واقع الأرض فى إطاره ، ومن ثم فهو دائماً يعيش كل عمل فردى أو جماعى ، وكل شعور فردى أو جماعى ، بمقدار قربه أو بعده من ذلك النظام الذى وضعه الله والذى ينبغى تحقيقه فى واقع الأرض لأنه قابل للتحقيق. والتاريخ فى نظر المسلم سجل المحاولة البشرية الدائمة لتحقيق ملكوت الله فى الأرض ، ومن ثم فكل عمل وكل شعور ، فردياً كان أو جماعيا ذو أهمية بالغة ، لأن الحاضر هو نتيجة للماضى ، والمستقبل متوقف على الحاضر

---

(١) الأستاذ أنور الجندى : الاسلام وحركة التاريخ ، ص ٤٩١ .

وما من دين استطاع أن يوحى إلى المتدين به شعورا بالعزة كالشعور الذى يخامر المسلم من غير تكلف ولا اصطناع وإن اعتزاز المسلم بدينه يعم المسلمين على اختلاف القومية واللغة ، وكون الإنسان مسلما باعث من بواعث الحمد تسمعه من جميع المسلمين ، وأن الغربي لا بفهم الإسلام حق الفهم إلا إذا أدرك أنه أسلوب حياة تصطبغ به معيشة المسلم ظاهرا وباطناً وليس مجرد عقائد يناقشها بفكره » .

إن التاريخ[1] الإنسانى متحرك « دينمى » . وهو — من أحد وجوهه — مجموع اختبارات البشر : إنه نتيجة استعمال الإنسان ارادته المستقلة بالإضافة إلى حكم الله على هذه الأحكام الإرادية . أن الكون يحكمه قانون أخلاقى . وهذا القانون لا ينفذ آليا ، ولكنه نافذ حتما . إنه الحكم لإرادة الله على أعمال البشر فاذا عصى الناس أوامر الله ونواهيه ، ونبذوا وحى الله البين ، وإذا خرجوا على المبادىء الأخلاقية الكلية ، ذاقوا العواقب التى لا مفر منها

فالتاريخ — على هذا — نسيج مشترك فى حرية الإنسان وحكم الله . وكثيراً ما يشير القرآن إلى الماضى باعتباره شاهداً على إرادة الله النافذة فى شئون الناس ، وهو يتخذ هذا ذريعة إلى التأثير فى أصحاب النفوس الخيرة والنوايا الطيبة ، كما يتخذه أساساً للتأثير فى المذنبين حتى يرعوا وحى الله ، ويبدلوا فى طرقهم وفق مشيئة الله البينة .

ولما كانت إرادة الله هى الموجدة للبشر أجمعين ، فقد ترتب على هذا أنه لا يفضل إنسان إنساناً بشرف مولده ، أو بنوع عمله ، أو بجاهه فى قومه .

إن الإقرار بالمساواة الكاملة بين البشر باعتبارهم من خلق الله أمر من الأمور الأساسية فى الإسلام ، فليس فيه طبقات خاصة ، ولا جماعات مختارة ، ولا أمم مختارة ، إذ أن البشر جميعاً فى أصلهم أمة واحدة[2] . والطريقة الوحيدة التى يستطيع بها الناس أن يصنفوا أنفسهم هى نوع استجابتهم لله هى القبول الخالص لهدى الله أو رفض وحيه .

هذا المبدأ تتضمنه الأصول النظرية لشعائر الإسلام التى رمت إلى أن يكون الناس جميعاً سواسية أمام الله . ففى الصلاة[3] يقف الأمير والسائل متجاورين يعبدان الله . ومن أغراض الصوم أن يكون

---

(١) هارولد ب سمث : مذهب الاسلام فى الإنسان — الثقافية الاسلامية و الحياة المعاصرة ، ص ٦١ — ٦٢

(٢) قال الله تعالى : فى سورة البقرة آية ٢١٣ .
« كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه ...»
وقال جل شأنه : « وماكان الناس إلا أمة واحدة فاختلفوا ولولا كلمة سبقت من ربك لقضى بينهم فيما هم فيه يختلفون » سورة يونس : آية ١٩ » .

(٣) يقول الدكتور محمد إقبال فى كتابه تجديد التفكير الدينى فى الاسلام « فالصلاة إذن سواء فى ذلك صلاة الفرد أم صلاة الجماعة ، هى تعبير عن مكنون شوق الانسان إلى من يستجيب لدعائه فى سكون العالم المخيف . وهى فعل فريد من أفعال الاستكشاف تؤكد به الذات الباحثة وجودها فى نفس اللحظة التى تنكر فيها ذاتها ، فتتبين قدر نفسها ومبررات وجودها بوصفها عاملا محركاً فى حياة الكون .

وصيلة إلى أن يستشعر الناس ، غنيهم وفقيرهم على السواء ، خضوعهم لله : وأن يدركوا قسوة الجوع عندما يصيب الناس جميعاً على هيئة واحدة(١).

وفى الحج يدخل المسلمون الحرم وقد ظهروا جميعاً فى ثوب من قطعة واحدة : وهو ثوب الإحرام : وهم بهذا يدركون أنهم فى نظر الله متساوون متحدون : ويقضى على التمييز الطبقى والمالى اللذين يظهرهما الملبس.

أما الزكاة فهى تجمع شيئين : عنصر عدم التعويل على المتاع المادى ، والإحساس بالمسئولية نحو خلق الله الذين تركتهم صروف الدنيا بلا ضمان.

والزكاة فى جوهرها نظام يقصد به التسوية بين الأفراد ، وكذلك قوانين الميراث تعبر عن نفس المبدأ ، مبدأ التسوية الاقتصادية . فليس لأى رجل أن يرث ثروة أبيه كلها ، أرضاً كانت أو منقولا ، بل عليه أن يقتسمها وأخوته « وأهل قرابته طبقاً لنظام معين ».

« ... وفى العرف الإسلامى تصور آخر يتعلق بالفرد فى الجماعة ، ويمنح الناس وسيلة للترابط ، وإحساساً بالاتحاد لايوجد أحياناً فى التصورات الغربية الحديثة للإنسان هذه الشخصية المتحدة يعمل على تكوينها التصور الخاص بدار الإسلام » أى تآخى المؤمنين . وليس هذا التصور مجرد تفكير نظرى : إنه واقع غير محسوس يضفى على كل مسلم شعوراً بالترابط الوجدانى مع كل مسلم آخر ، كما يهبه احساساً بالأمن ،

فهو ينتمى إلى كل يعلو على فروق اللون ، والطبقة والجنسية « بالمعنى الغربى للكلمة » ، ونظم الدولة . إنه يستطيع أن يحس بأنه فى داره فى أرض شاسعة متناثرة فى الساحل الأطلنطى لأفريقية إلى قلب المحيط الهادى ، حيثما كان الاسلام هو الدين السائد والثقافة الغالبة . كل هذا يخلق ، أو هو قادر على أن يخلق روحاً جماعيا ، ووحدة بين شعوب لها أهمية بالغة.

وينبغى أن نذكر أن هذه الأخوة تظهر أقوى ما تظهر عندما يهدد العالم الإسلامى ، أو أى قسم من أقسامه ، مصدر غير اسلامى.

إن هذه الرابطة قوة حقيقية ، وفى الإمكان أن تصبح عامل تقوية فى العالم الإسلامى كله.

* * *

(١) يقول العقاد فى كتابه « الفلسفة القرآنية » والصيام فى مظهره الإجماعى يعطينا مظهر أسرة عظيمة — من مئات الملايين — تنتشر فى جوانب الأرض وتقترن شعائرها الدينية كل يوم بأمس مايحس الإنسان فى معيشته اليومية : وهو أمر الطعام والشراب ومتع الأجساد ... ملايين من الناس فى جوانب الأرض يطعمون على نظام واحد ويمسكون عن الطعام على نظام واحد ، ويستقبلون ربهم على نظام واحد . وقلما انتظمت أسرة بين جدران بيت على مثل هذا النظام.
أما الفرد فيستفيد منه خير مايستفيده الإنسان فى حياته الروحية أو حياته الخلقية ، وهو ضبط النفس وشحذ عزيمتها وقدرتها على الفكاك من أسر العادات وتطويع الجسد لدواعى العقل والروح.
والصيام علاج لاضطرابات الأمعاء المزمنة وزيادة الوزن والبول السكرى والتهاب الكلى وأمراض القلب والتهاب المفاصل المزمن.

ما هو مصير الحضارة العربية ؟

هل تتدهور كما تدهورت حضارات قديمة وأفلت شموسها بعد أن أضاءت العالم فترات من الزمان ، استنفدت فيها قوتها ، فاضمحل نورها ثم خبا .. أم تظل رافعة مشعل النور ، تهدى ركب الإنسانية فى بيداء الحياة ، وتحقق للإنسان الرفاهية المادية والسمو الروحى معاً ؟

يجيب أرنولد توينبى على هذا التساؤل فيقول :

كانت استجابة الحضارة السوريانية على غزو الإسكندر بعد ثلاثة قرون متمثلا فى قيام المسيحية ، وكانت هذه الاستجابة سليمة ، لكن المجتمع السوريانى لم يستطع أن يتخلص من التحدى الهلينى ، لقد حاول الاستجابة عدة مرات ، وكانت محاولاته تتخذ دائماً مظهر حركة دينية تصارع الهيلينية بيد أنه كان ثمة اختلاف جوهرى بين استجاباته الأربعة الأولى وبين استجابته الأخيرة فقد أخفقت جميع الاستجابات : الزردشتية ، والبهودية ، والنسطورية ، واليعاقبة ، ولم تنجح غير الاستجابة الإسلامية وحدها .

لقد كان الفرس الزردشتيون سادة العالم السوريانى قبل الإسكندر ، وقد نجحوا فى زحزحة الهيلينية فى البلاد الواقعة شرق الفرات لكن استجابتهم لم تتجاوز هذا الحد ، ولم تنجح كذلك الاستجابة اليهودية فى عهد المكابيين فى محاولتها الجريئة لتحرير الحضارة السوريانية ، وانتقمت روما وحل باليهود هزيمة ساحقة فيما بين عامى ٦٦ ، ٧٠ م .

وقد حاولت كل من النسطورية واليعاقبة على خلاف بينهما تخليص المسيحية من آثار الهيلينية كى تصاغ من جديد ديانة سوريانية خالصة ولكن الأمر قد انتهى على يد الكنيسة الرومانية الشرقية بطرد النساطرة شرقاً إلى ما وراء الفرات

واستقر اليعاقبة فى سوريا ومصر وأرمينيا والحبشة بين الطبقات الشعبية التى لم تكن متأثرة بالثقافة الهيلينية ، لقد أخفقت الاستجابات الأربع إذن فى التخلص نهائياً من التحدى الهيلينى .

وجاء الإسلام فكان وحده الإستجابة الناجحة التى قام بها المجتمع السوريانى رداً على تحدى الهيلنية ، لقد أمكنه طرد الهيلنية من العالم السوريانى ، ثم زود هذا المجتمع بدين جديد من صلبه فاستطاع بعد خمود الحيوية فى الحضارة السريانية أن يطرد شبح الفناء الذى أقض مضجعها فاستعادت ثقتها بأنها لن تكون حضارة عقيمة ، بل أصبح الإسلام هو الشرنقة التى خرج منها فيما بعد المجتمعان الجديدان العربى والفارسى سليلا الحضارة السريانية ؛

لقد قام الإسلام بفضل خاصيتين فيه بسد حاجة المجتمع العربى فى شبه الجزيرة العربية ، هما : التوحيد فى الدين ، والنظام فى الدولة . ولقد مر بمرحلتين : مرحلة دينية خالصة تجسدت فيها قوة الإسلام ،

ثم مرحلة سياسية دينية بعد إنشاء دولة فى يثرب (المدينة المنورة) وانتشاره بعد ذلك خارج حدود شبه الجزيرة العربية .

لقد شكلت الحضارة الإسلامية بدورها تحدياً للحضارة المسيحية الأوربية فى امتدادها إلى إسبانيا من جهة ثم أجزاء من شرق أوربا على أيدى العثمانيين من جهة أخرى ، لذلك حدثت تحديات عنيفة خلال العصور الوسطى من الحضارة الأوربية لحضارة الإسلام وقد تمثلت هذه التحديات فى الحروب الصليبية .

ولكن مما لا شك فيه أن أعمقها وأخطرها وأبعدها أثراً على كل شعوب العالم ، هى الحضارة الأوربية الحديثة . فقد غيرت تغيراً جوهرياً حياة الناس وأفكارهم ومشاعرهم بل وحياتهم الاجتماعية .

لكن ماذا كان رد الفعل أو استجابة الإسلام للتحدى الغربى ؟

لقد تمثلت الاستجابة فى المظهرين التاليين :

١ – السلفية : ما كادت بعض الدول الإسلامية تواجه الحضارة الغربية بتفوقها التكنولوجى والاقتصادى والعسكرى ، حتى تقوقعت على نفسها متخذة من الدين درعاً لها من العدوان الخارجى . (مثل الأسرة الحميدية فى اليمن) .

٢ – مظهر « التشكل » : إذ يرى المتشكل أن أفضل وسيلة لحماية نفسه من الخطر أن يتعرف على سر تفوق عدوه فيطرح جانباً وسائل الحرب التقليدية وتراثه الماضى ويقتبس مظاهر الحضارة المتحدية له ويحاول التشكل بها (مثل محاولة محمد على فى مصر وكمال أتاتورك فى تركيا) .

إذا كان المتزمتون أشبه بالنعامة تخفى رأسها فى الرمال هرباً من صائدها وهى تتصرف وفقاً للغريزة فان المتشكلين وإن تصرفوا وفقاً للعقل فانهم يمارسون لعبة خطرة . فقد عانت حركة المتشكلين أياما عصيبة ، إن محاولة خلفاء محمد على أن يجعلوا مصر قطعة من أوربا قد أدت إلى الاحتلال البريطانى .

صفوة القول إن هاتين الإستجابتين فاشلتان للأسباب التالية : –

١ – الاستجابة الأولى : لم تقدم طاقات خلاقة صادرة عن روح أصيلة إنها لن تزيد عن راسب حضارى متحجر من حيث الطاقة الحيوية ، إنها حضارة متحجرة .

٢ – الاستجابة الثانية : قد تنجح ولكن نجاحها مظهرى لأنها لن تقدم إسهاماً إبداعياً فى تيار الحضارة القائمة فهى عملية تقليد لا إبداع ، ولن تعدوا عن مجرد رفع المستوى الإقتصادى بوسائل غريبة بدلا من أن تستثير فى النفوس طاقات خلاقة جديدة .

إن إخفاق المتزمتين كاخفاق المماليك حين واجهوا مدافع نابليون الحديثة بالسيوف فكان الهلاك مصيرهم . أما إخفاق المتشكلين فمن نوع إخفاق فارس مبتدىء عندما يمتطي جوادا جديداً إذ يهوى به ويجرفه التيار إلى موت محقق . هكذا جاءت حركة التشكل مخيبة للآمال .

ومن أهم أسباب إخفاق حركة المتشكلين تداعي الإستجابات الفاشلة إذ من الملاحظ أن المتشكلين يصطدمون عادة بالمتزمتين ، وإذ يصطدم الحاكم الذى جاء فى صورة مخلص متشكل بالمتزمتين فانه يعاملهم بقسوة ووحشية ، تمثل ذلك فى حرب محمد على الوهابيين ، وقضاء كمال أتاتورك على معارضيه من المتمسكين بالدين .

ولكن هل تقف الإستجابات عند هذا الحد ؟

ماذا عن حاضر الحضارة الإسلامية وماذا عن مستقبلها ؟

أما بالنسبة للحاضر فهناك عدة اتجاهات سائدة أهمها :

١ — إن تيار المتشكلين المسايرين للحضارة الغربية أصبح أكثر انتشارا من تيار المتزمتين ، بل إن التيار الأول قد انتشر فى دول إسلامية كانت موطن التشدد كأفغانستان .

٢ — أصبح العالم الإسلامى بعد اكتشاف البترول وبحكم موقعه بستان الكرم بين الاتحاد السوفيتى والغرب .

٣ — انتشرت فكرة القوميات كالتركية والإيرانية والعربية وقد أصبحت فكرة القومية أكثر جاذبية من فكرة الوحده الإسلامية .

وعلى الرغم من النكبات التى حلت بالحضارة الإسلامية لوقوع معظم دولها فريسة الاستعمار فى القرن التاسع عشر فانه ما أن حل النصف الثانى من القرن العشرين حتى كانت الحضارة الإسلامية سليمة الجوهر ، وإن سلبت أجزاء من أطرافها ، لقد استطاعت أن تنتزع نفسها من الاستعمار البريطانى والفرنسي والهولندى .

ونعود إلى التساؤل الذى سبق أن طرحناه .. ماهو مصير الحضارة الإسلامية ؟

هل ستنقرض كما انقرضت حضارات ؟

هل ستتحجر كبعض الحضارات المتحجرة القائمة فى عالمنا اليوم ، أم هل سيجرفها تيار الحضارة الغربية ويتمثلها ؟

يجيب توينبي : لا شيء من ذلك وإنما ستبقى كحضارة حية ، قد يعترض الفرد الأوربى على ذلك فى صلف : وهل تنتظر حضارة من فلاح مصر أو حمال إسطنبول ؟

ولكن هذه العبارة قد قالها الإغريقى بعد فتوح الإسكندر للسوريانى وتبين أنه قول خاطىء .

إن الحضارة الإسلامية قد تنافس الحضارة الهندوكية أو بوذية الماهايانا من أجل السيطرة فى المستقبل بوسائل تتعدى تصوراتنا ، ولكن ماذا يكمن فى الحضارة الإسلامية من طاقات غير قائمة فى الحضارة الأوربية حتى نتوقع لها أن تكون حضارة المستقبل ؟

يرد توينبى : إن الحضارة الأوربية تحمل فى طياتها التناقض بين الفكر والعمل ، بين أفكار المساواة والإخاء والحرية التى ورثتها من الثورة الفرنسية وبين التفرقة العنصرية التى تمارسها الآن بالفعل والتى تشكل خطراً عليها بزيادة وعى الشعوب الملونة ، فى حين أن طابع الحضارة الإسلامية هو الاتساق بين الفكر والعمل بصدد المساواة إذ ارتفعت فى أزهى عصورها أن يصل إلى مراكز السلطة فيها الرقيق والعبيد هذا هوالامر الأول .

الأمر الثانى : تحريم الخمر وقد لا يدرك الكثيرون قيمة هذا التحريم بالنسبة للحضارة ولكن من يشاهد عن قرب سكان المناطق الاستوائية يدرك أن توقف نشاطهم راجع إلى شرب الخمر إلى حد بعيد ، وقد فشل الإداريون الأوربيون فى علاج هذه المشكلة التى لا تحلها القوانين المفروضة لأن الإمتناع عن شرب الخمر لا يتم إلا بوازع دينى .

ويرى الدكتور سليمان حزين أن(١) مستقبل الحضارة الإسلامية مرتبط أشد الارتباط وأقواه بأمرين هما : طبيعة الإسلام الذى أعطى الحضارة طابعها المميز ، ثم طبيعة الحضارة ذاتها وقدرتها على البقاء والاستمرار والتجدد والنمو . وإذا كان الله تعالى قد قال وهو أحكم القائلين : « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون(٢) فان المفهوم الشامل لهذه الآية الكريمة أن الله يحفظ الذكر قولا ومداولا ورسالة . وما دام هذا المعين باقياً على الأرض .

فان مصبه الحضارى فى حياة الناس لا يمكن أن يجف أو يغيض . والواقع أن شريعة الإسلام قد أثبتت قدرتها على البقاء وملاءمة العصور والمراحل الحضارية رغم اختلاف الظروف . وهذه الحيوية ذاتها هى سر القوة فى الإسلام وتعاليمه ، وفى كل ما يتصل بالإسلام من بناء حضارى ، لا سيما فى حياة الناس ونظمهم الاجتماعية ، وهى أعز مافى المفهوم الحضارى من تراث . وبالإضافة إلى ذلك فان الإسلام دين يمكن أن تميزه بين الأديان بأنه دين « توق حضارى » ، يدفع من يمارسه ، لا إلى العمل وحده ، وإنما إلى ما هو أهم من ذلك وهو « الإتقان » : « إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملا أن يتقنه » . وهذا الإتقان هو مفتاح الإجادة والتجويد والبقاء ، والاستمرار الحضارى .

---

(١) مقومات الحضارة الإسلامية ، بحث مقدم لمؤتمر مجمع البحوث الإسلامية (١٣٩١ هـ - ١٩٧١ م) .
(٢) سورة الحجر : ٩ .

بل هو أساس التطلع إلى ما هو أحسن وأفضل والتوق إلى بلوغ غاية الإبداع فى العمل الحضارى . والتاريخ يعلمنا أن المسلمين كلما خلصوا لدينهم ، ومارسوه بمفهومه العميق الذى يجمع بين الإيمان والعمل ، نجحوا فى إقامة الحضارة ، وإحياء تراثها ، والانطلاق بها إلى آفاق المجد التاريخى ، ومن هنا كانت جماعات المسلمين دائماً تجد فى المقومات الدينية دافعها إلى العمل الحضارى المجيد ، وحافزها عليه .

فأما عن طبيعة الحضارة الإسلامية ذاتها ، فانها حضارة متكاملة يعيش أصحابها لدنياهم ولآخرتهم جميعا : والتاريخ يعلمنا أيضاً أن الحضارات التى تجمع بين المادة والروح ، والتى يعطى الدين فيها نمطاً متكاملا لحياة اليوم المادية وحياة الغد الروحية ... مثل هذه الحضارات هى أقرب الحضارات إلى البقاء والخلود .

ومن الخير أن نذكر هنا أنه حتى فى حضارة المصريين القدماء تلك التى لم تعرف الدين إلا فى صورته الساذجة المختلطة قبل التوحيد ، قد استطاعت أن تبقى على وجه الزمن فى حالتها المزدهرة خلال بضعة آلاف من السنين شبه متصلة ، وهى فترة أطول كثيراً مما بقيته حضارة اليونان أو حضارة الرومان ، وهى أضعاف أضعاف ماعاشته حضارة أوربا فى صورتها الحديثة : وقد يكون السبب الأكبر فى استمرار حضارة الفراعنة تلك القرون الطوال أن المصريين القدماء كانوا يعيشون لآخرتهم ، كما تصوروها ، بقدر ما يعيشون لدنياهم ، ولقد أقاموا معابدهم ومقابرهم من الحجر ، بناء أو نحتا ، فبقيت على الزمن ، كما تركوا آثار عملهم المادى اليدوى فى الأرض والرى والحياض التى لا تزال نزرعها بعدهم حتى اليوم : وتلك صورة من الخير أن نذكرها ، لأنها تلقى الضوء على ما يمكن أن يكون من مستقبل لحضارة الإسلام : تلك التى تجمع بين الدين فى صورة من التوحيد والعمق والضياء الروحى الذى أتم الله به نعمته على الناس ، وبين الدنيا فى صورة من العمل الذى يبنى الحضارة ويقيم دعائمها ويحقق كلمة الله بالعمران على الأرض .

ومجال المقابلة بين الحضارات الإسلامية والحضارات الأخرى ، قديمة وحديثة ، مجال يمكن أن ينفتح لكثير من القول الذى يقوى إيماننا بمستقبل هذه الحضارة .

ولكننا حتى إذا ما نظرنا إلى بعض نواحى الضعف فى حضارتنا الإسلامية ، فاننا لا نلبث أن نجدها من النوع الطارىء ، أو الذى يمكن أن ينقلب إلى مصدر قوة .

ولنأخذ ظاهرة « الجمود » على سبيل المثال . فقد كانت حياة المسلمين توصف فى القرن الماضى بأنها حياة جامدة غير متطورة ، ولكن من يتأمل تلك الحياة لا يلبث أن يرى فى جمودها إذ ذاك نوعاً من الانطواء على الذات فى مواجهة تحديات الفكر الأوربى الاستعمارى وفى مواجهة تيارات التغلغل الأجنبى ، التى كانت تعمل من أجل زعزعة إيمان المسلمين بقيمهم الحضارية ، ولا شك أن روح

الجمود إذ ذاك كانت نوعاً من الدفاع عن الذات ، وأنها حفظت على المسلمين وحضارتهم كيانها ، ولو فى حالة توقف حضارى ، صان الحضارة من الانحراف فى تيارات حضارات دخيلة . وحفظ عليها شخصيتها وسط الأنواء والعواصف الفكرية ، حتى تجمع للمسلمين من العزة الذاتية ، ومن عوامل اليقظة الفكرية والروحية ، ما أمكن لهم من أن يقفوا على أقدامهم . قبل أن ينطلقوا قدماً وفق إرادتهم، وفى هدى من قيمهم الروحية والاجتماعية والحضارية على طريق الغد المرموق .

لقد صاغ المسلمون حياتهم وحضارتهم فى ظل الدين الحنيف منذ نزول الإسلام وجددوا هذه الحياة مرة ومرة خلال تاريخهم المتصل ، وهم قادرون باذن الله على أن يعيدوا صياغة التاريخ فى غدهم القريب والبعيد .

ويرى المفكر الجزائرى مالك بن نبى أن المقياس العام لعملية الحضارة هو أن الحضارة هى التى تلد منتجاتها » ومن السخف أن نعكسها حين نريد أن نصنع حضارة من منتجات حضارة أخرى « فليس من الواجب لكى ننشىء حضارة أن نشترى كل منتجات الأخرى » لأننا إذا اشترينا الأشياء فلن نستطيع شراء الأفكار والأذواق التى تكمن وراء تلك الأشياء ولذلك فان هذه العملية ستنتهى بنا إلى مانسميه « بالحضارة الشيئية » القائمة على تكديس » المنتجات لا على خلق روح جديدة تعرف كيف تنتج ما تريد وكيف تستخدم ما أنتج :

وعناصر الحضارة هى :

الإنسان ، والمادة (التراب) — والوقت .

ولكن لم لا توجد الحضارة دائماً حيث تتوفر هذه العناصر ؟

الجواب : إن هذه العناصر لا تنتج حضارة إلا بتدخل « مركب » يمكن أن نطلق عليه « مركب الحضارة » وهو الفكرة الدينية التى رافقت دائماً تركيب الحضارة خلال التاريخ والدين دائماً قادر على أن يقوم بهذا الدور فى العصر الحديث ، فى البلاد الإسلامية . لأن قوة التركيب لعناصر الحضارة خالدة فى جوهر الدين وليست ميزة خاصة بوقت ظهوره فى التاريخ » .

ويحدد القرآن الشرط الذى لا يمكن للدين بغيره أن يصنع الحضارة فى الآية الكريمة :

— « إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » .

والتاريخ نفسه يؤيد القرآن فلم يرو لنا قصة واقع تغير قبل تغير نفوس الناس .

والنهضة[1] الحقة تقع فى نطاق ظاهرة اجتماعية عبر عنها النبي صلى الله عليه وسلم فى حديثه المشهور : « لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها » .

فالشرط الأول من شروط النهضة :

العودة لجوهر الدين ، هذا الدين الذى استطاع أن يخلق مجتمعاً لم يولد تحت ضغط ظروف جغرافية كالمجتمع الأمريكى مثلا بل ولد تلبية لنداء فكرة ، فهو يمثل النموذج الأيديولوجى من المجتمعات .

وحديث الرسول : « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً » يرسم صورة واضحة القسمات للمجتمع الاسلامى فى عهده الأول . المجتمع الدمقراطى القائم على العدل والمساواة .

وقد وضع القرآن « الضمير المسلم بين حدين هما : الوعد والوعيد ، وبين هذين الحدين تقف القوة الروحية متناسبة مع الجهد الفعال الذى يبذله مجتمع يعمل طبقاً لأوامر رسالة » .

فالحركة التاريخية ترجع إلى مجموع من العوامل النفسية الناتجة عن قوى روحية هذه القوى « التى تجعل من النفس المحرك الجوهرى للتاريخ الإنسانى » .

وهذا المحرك لا يعمل إلا بتضافر العناصر الثلاثة : الإنسان ، المادة (التراب) — الوقت .

فاذا تضافرت هذه العناصر فانها تنتج حضارة ، وإذا تنافرت فانها تنتج فراغا .

وعندما نجد أن الفكرة استطاعت أن تؤلف بين الإنسان والأشياء كان ذلك دليل قيام حضارة فى مجال معين .

وإن المجتمعات التاريخية — المقابلة للمجتمعات البدائية — والتى تكون ٨٠ فى المائة من مجموع سكان العالم إنما انطلقت حضارتها مع ظهور فكرة دينية[2] .

والدين هو الذى يفرض القيم الخلقية على المجتمع ويستدل على ذلك بما جاء فى القرآن عن منع وأد البنات :

— « ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم » . الأنعام : ١٥٠ » .

— « ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم » الاسراء : ٣٠ » .

فاذا تناولنا هذين النصين باعتبارهما وثيقتين من وثائق ذلك العصر — وجدنا أنهما لا تدعان أدنى ريب فيما يتعلق بمنشأ عادة الوأد ، فلقد كان للظروف الاقتصادية التى عاشها العصر الجاهلى أكبر الأثر فى نشأة تلك العادة الأليمة إن لم تكن هى العامل الوحيد .

ولكن النصين يعبران فى الوقت ذاته عن قيمة خلقية معينة فى الوقت الذى تدخل فيه فى حياة المجتمع — لا عن طريق الظروف الاقتصادية التى لم تكن تغيرت بعد ، ولكن مباشرة ، عن طريق النفس —

---

(١) مالك بن نبى : ميلاد مجتمع ص ٤ ومابعدها ترجمة ، عبد الصبور شاهين .

(٢) المصدر نفسه : ص ٦٥ .

لتحدث تغييره ، فنحن إذن أمام مثال مفيد يتيح لنا أن نبحث مشكلة القيمة الخلقية متمثلة فى حالة واقعية .

ولنأخذ الآيتين الكريمتين فى مجموعهما ، على أنهما تشريع لقانون معين ، تماماً كما تسن الشرائع الحديثة فى زماننا قوانينها .

إن تفسير قانون معين فى عصرنا إنما يكون على اعتبار أنه مجرد حدث اجتماعى ، أى أنه الذى يسنه إنما هو حقائق المجتمع وحدها .

فهل الأمر كذلك بالنسبة للحالة التى ندرسها ؟

ذلك يقتضينا أن ندرس الآيتين اللتين تشرعان « قانون الموءودة » على أنها نتيجة للظروف الاقتصادية التى كانت تسود المجتمع الجاهلى ، تمشياً مع منطق عصرنا فى تفسير الأشياء .

لكنا نلاحظ أن هذا التفسير يؤدى بنا تلقائياً إلى تناقض صريح ، إذ لا يمكن أن يحصل إثبات واقع اجتماعى معين ونفى هذا الواقع على أسباب واحدة .

فلو قيل إن « الوأد » نشأ فى البيئة الجاهلية بتأثير أسباب اقتصادية خاصة بذلك المجتمع ، كما تشهد بذلك وثائق العصر ، وفى مقدمتها القرآن ، فان من العسير أن ينسب نفى هذا الوأد إلى تأثير العوامل الإقتصادية ذاتها حيث إنها لم تتغير .

وإذا كانت الآيتان المذكورتان تعتبران من الناحية التاريخية أبطالا « للوأد » فاننا نجد أنفسنا أمام تناقض صريح إذا ما فسرنا قانون « الوأد تفسيراً اقتصاديا » .

ولقد يؤدينا هذا الموقف إلى أن نفسره تفسيراً نفسيا ، حين نعزوه لأسباب تتصل بالتغيير الأخلاقى الذى سبق أو صاحب نزول القرآن فى الوسط الجاهلى ، ومع ذلك فليس هذا التفسير مقبولاً أيضا .لأن الذين عاصروا قانون التحريم قد مارسوا بأنفسهم تلك العادة الأليمة ، ومنهم عمر بن الخطاب نفسه ، إذن فالقيمة الخلقية تفرض من خارج المجتمع ، من الفكرة الدينية .

وسلوك الفرد فى مجتمع يتمتع بشبكة علاقات متينة يكون سلوكاً شبيهاً بالسلوك الناتج عن الانعكاس الشرطى ، فعندما يتحقق لعناصر الشبكة شرط تكونها — وهو الدين — يجد الفرد أن سلوكه لا يصدر عن عامل واضح حاضر فى نطاق الشعور بل عن تلقائية أو انعكاس شرط . هذه السجايا دليل على أن العنصر الدينى قد تغلغل إلى أعماق الأفراد منظماً للطاقتين النفسية والحيوية .

إن المشكلة التى تواجه المسلم اليوم هى تقريباً نفس المشكلة التى عبر عنها الرسول صلى الله عليه وسلم فى قوله :

— « لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها » .

فنحن بحاجة إلى إعادة تنظيم طاقة المسلم الحيوية ، وتوجيهها ، وذلك عن طريق : —

(ا) تنظيم تعليم القرآن ، بحيث يوحى من جديد إلى الضمير المسلم الحقيقة القرآنية كما لو كانت جديدة ، نازلة من فورها من السماء على هذا الضمير .

(ب) تحديد رسالة المسلم الجديد في العالم ، فبهذا يستطيع المسلم منذ البداية أن يحتفظ باستقلاله الأخلاقي ، حتى ولو عاش في مجتمع لا يتفق مع مثله الأعلى ومبادئه ، كما أنه يستطيع أن يواجه — رغم فقره أو ثرائه — مسئولياته مهما يكن قدر الظروف الخارجية الأخلاقية أو المادية .

وهو بهذه الطريقة يستطيع أيضاً أن ينشىء وسطه الخاص شيئاً فشيئاً ، حين يؤثر على الظروف الخارجية بحياة نموذجية ينتقل أثرها إلى ما عداها ، كما كانت حياة حفنة من الرجال الذين عاشوا حول النبي بمكة ، أيام الإسلام الأولى .

ومع ذلك فان هذه التأملات لا تنشىء حلا ، ولكنها مجرد خطوة على طريق المشكلة ذات الأهمية الخطيرة بالنسبة لمستقبل العالم الإسلامى .

ولكى نعطى هذه التأملات قيمة عملية يجب أن نعرضها لإختبار الحياة ، فى صورة إجراءات تربوية فعلية ، فى المستوى الإسلامى ، ومن أجل هذا لا بد من الممارسة العملية ، ولكى تكون مثمرة يجب أن يتولاها مجمع من المتخصصين ، الخالين من العقد البيروقراطية التى تنتاب الموظف ، ومن نظارة رجل السياسة ، ومن أخلاق الفوضويين المغرمين بتملق الرأى العام[1] .

إن الإسلام — هو وحده — القادر على انقاذ الإنسانية مما يحدق بها من أخطار هائلة ، وهو وحده القادر على منحها المنهج الملائم لفطرتها ولاحتياجاتها الحقيقية . وهو وحده الذى ينسق بين خطاها فى الإبداع المادى وخطاها فى الاستشراف الروحى ، فتعيش حياتها آمنة على يومها ، مطمئنة على غدها فى ظل الحرية والمساواة والإخاء والعدل الإجتماعى وكل ما يكفل للإنسان التقدم والرقى .

---

(١) المصدر نفسه : ص ١٤٨ .

فهرس الكتاب